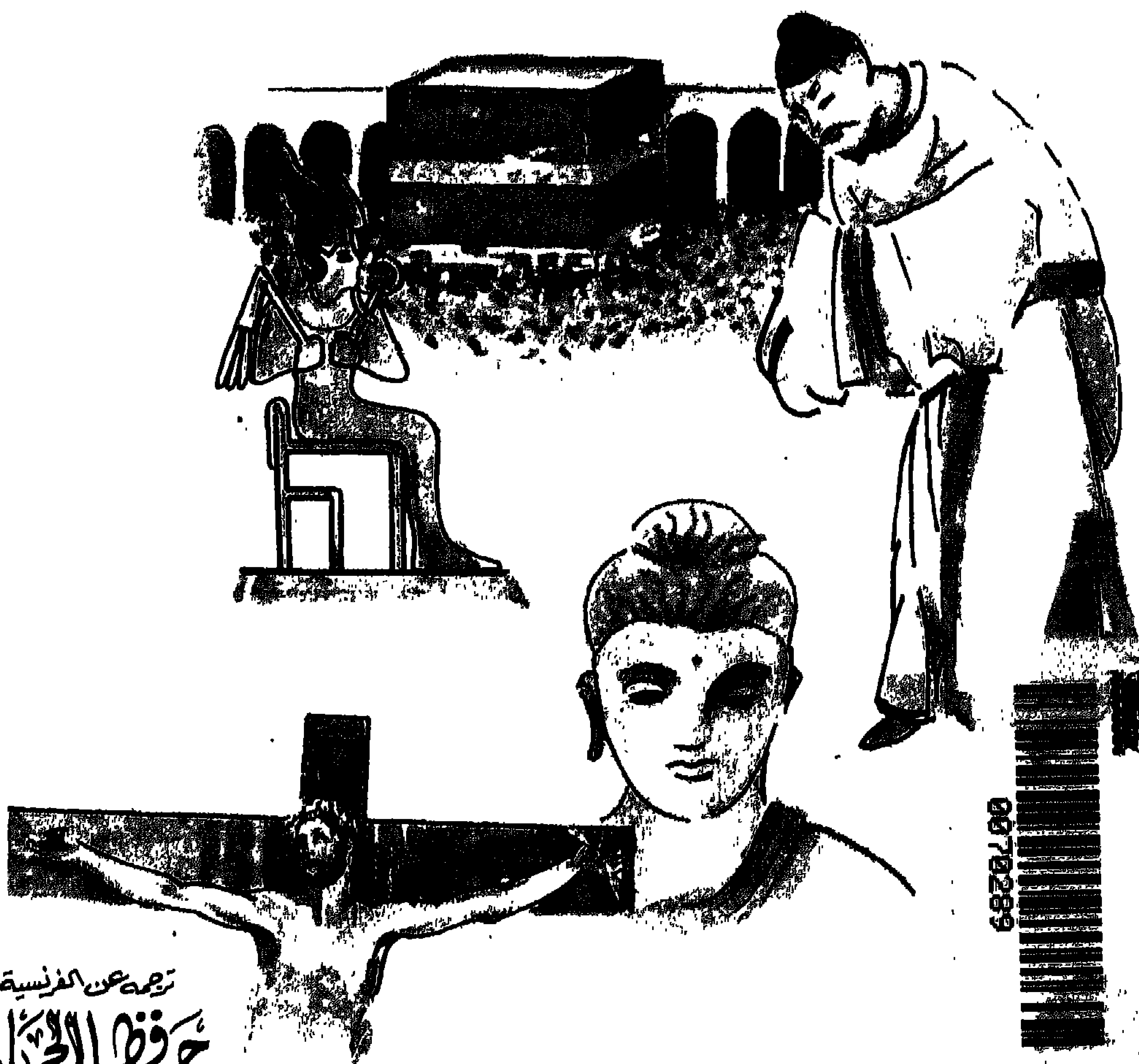
فيلســـيان شالي

موجز تاريخ الأديان



ترجمه عن الفرنسية

حافظ الجمالي

ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص. ب: ١٦٠٣٥ ــ برقياً طلاسدار
هاتف: ٢٢٤٤١٢٦ ــ ٢٢٤٣٩٥١ تلفاكس: ٢٢١٣٨٢١ تلكس: ٤١٢٠٥٠

موجز تاريخ الأديان

الطبعة الثانية ١٩٩٤

فيلسيان شالي

موجز تاريخ الأديان

ترجمه عن الفرنسية
حافظ الجمالي

عـنـوان الـكـتـاب بالـلـغـة الـفـرنـسـيـة

**PETITE HISTOIRE
DES
GRANDES RELIGIONS**

FELICIEN CHOLLAY

P.U.E.

مقدمة الطبعة الثانية

عندما بدأ العرب فتوحاتهم ما بين أطراف الهند، وأنحاء إسبانيا، بما فيها من شعوب بدائية، وثنية، أو غير وثنية، لم يعثروا قط على شعب لا يعرف معنى «القداسة» أو يجهل معنى الدين. وكما يقول علماء الاجتماع: إنه لا يمكن أن يوسع الغرب اكتشافاته في مختلف بلاد الشرق، وفي الأمريكيتين، ويلاحظوا وجود الدين باستمرار، ويظن بعد ذلك أن الدين ابتكارٌ أنشأه أناسٌ خبثاء للإستيلاء على عقول الناس. أو إن هذا الدين، على تنوّع صوره، لا يمكن أن يكون محضَ خداعٍ للتكسّب والارتزاق، كما كان يقول فلاسفة عصر الأنوار، الفرنسيون. بل إنه كان وما يزال، ضرورة حياتية، وقانوناً للعلاقات بين الناس، وناظماً للسلوك البشري، وحماية للأخلاق العامة، أي لضرورات الحياة المشتركة أو دعماً للميول الطيبة، وقمعاً للميول السيئة.

وما دام الأمر كذلك، فلا بُـدَّ أن كلّ دين، مهما يكن بدائياً، عرف شيئاً ما، أو حَسِبَ أن هناك عالماً للقداسة، مختلفاً جذرياً عن العالم العادي. وكانت القداسة هي التي ترق بالإنسان، إلى عالم الحلال والحرام. وكلما أمعنا النظر في طبيعة الحلال، وجدنا أولاً وأخيراً أن الحلال هو ما يفيد المجتمع، وأن الحرام هو ما يفسده ويؤذيه... إما ككل وإما كأجزاء. أو يمكن أن يعيش مجتمعٌ، حلالُه أن تقتل، أو أن تسرق، أو تعدو على الآخرين، أو نشتهي نساءهم، على ما تقول الوصايا العشر؟

وحسب الدين أنه كان أول قانون يفرض على الناس ما يرون أنه يعود عليهم بالخير (ولو بصورة وهمية أحياناً)، ويحرّم عليهم ما يؤذيهم. فكأنه القانون المدني الأول، الذي سَنّ للناس سُنَّة حسنة، لكي يتبعوا خطاه، لا لكي يجعلوا الحرام حلالاً، والحلال حراماً.

ولقد كنت أحسب أن معقولية الدين تتناسب (كالفرضيات العلمية تماماً) مع معقولية مسلّماته الأولى، وبصورة خاصة على عدد هذه المسلمات. فإذا قلنا بوجود ألف إله — كما كان يرى اليونانيون — فإن ذلك تعقيد كبير، أبسط منه بكثير أن نقول بوجود إله واحد. وكنت أحسب أيضاً أنه كلما ازداد عالم الدين بساطة، وازداد معقولية، قلده المجتمع، وازداد به بساطة ومعقولية. لكن الواقع برهن لي أن الدين قد يحمل أكبر معقولية، ويظل المجتمع في أدنى درجات المعقولية، كما هي حال المجتمع العربي الآن، بل وحال المجتمع الإسلامي كله. وهذا ما يبدو لي غريباً إلى أقصى درجات الغرابة. أو يوجد دين معقول كالدين الإسلامي مثلاً، ثم تكون المشكلة الكبرى لديه هي أن تقود أو لا تقود النساءُ السيارات، على سبيل المثال؟

ويجب ألا ننسى أن ركائز الدين موجودة في الطبيعة البشرية نفسها، أي في الفطرة. فما من حرام إلا ويستنكره الإنسان تلقائياً، قبل أن يأمر به الدين، وما من حلال إلا ذاك الذي يستريح إليه الوجدان، بصورة طبيعية. ومن هنا نجد أن لروسو بعض الحق في الإعتقاد، بأن الإنسان، في الأصل، جُبل على الخير، وأن المجتمع هو الذي يفسده.

ولا شك أن وحدة الدين في المجتمع تزيده تماسكاً، واختلافه يضعف هذه الوحدة، حتى ولو كان مذهبياً فقط. إلا أن التجربة علمتنا أو أطلعتنا على أن الناس عاشوا، وانتجوا، وتوالدوا، ودافعوا عن وجودهم، وظلوا أحياء، وأنشؤوا الحضارات، في إطار واسع من الأديان والطقوس والأعراف. أفلا ينبغي لنا إذن أن نفهم أن التسامح الديني هو الكسب الأول الذي نحصل عليه من هذه التجربة؟ ثم ألا يمكن أن نفهم أن الحقيقة المطلقة لدى إنسان ما (أي دينه أو مذهبه) لا تمنع أبداً، أن تكون لإنسان آخر مثل هذه الحقيقة المطلقة، بصورة أخرى. وبمعنى آخر، إن للدين حقيقة ذاتية، مطلقة إلى أبعد مدى بالنسبة للمؤمنين به، ولكنه ليس بالحقيقة الموضوعية التي تقوم على البرهان الذي يقبله الناس جميعاً، بلا عناء. وأظن أن أكبر البؤس يكمن في قلب الحقيقة الذاتية إلى حقيقة موضوعية. لهذا كله أحسب أن التسامح الديني هو ما يجب أن نتعلمه من دراسة مختلف الأديان، كما عرضت في هذا الكتاب الصغير نسبياً. ترى أيمكن أن أكون قد وُفقت إلى ما أردت. وعلى كل فإن هذا ما أردته، وابتغيته. ومن الله حسن التوفيق، على كل حال.

حافظ الجمالي

مقدّمة المترجم

لم يكن لي ولا في حسابي، أن أترجم كتاباً يؤرخ للأديان في هذا العالم، من أكثرها بدائية، إلى أعظمها تطوراً. ولكنني كنت أبحث عن مصدر يتكلم على «الإحيائية»، أي على هذه النزعة التي يميل بها الإنسان، بصورة عفوية، إلى إضفاء نفسه على العالم، والظن بأن وراء كل شيء روحاً كروحه، أو نفساً كنفسه، وإنشاء تصوُّر للكون على أساس هذه النزعة، مما هو معروف في علم الإجتماع، وغير خاف على أحد من المثقفين. ووجدتني أرى الكتاب الذي أقدّمه الآن، وفيه وجدت بحثاً أو فصْلاً منفرداً عن الإحيائية. وعندما قرأت الكتاب، بدا لي أن هذا الجزء من الثقافة الاجتماعية، قلّما كتب فيه شيء هام، باللغة العربية. ولهذا قررت أن أترجمه. ففعلت.

وفي كل مرة كنت أنهي فصلاً من فصوله، عن أديان الهند، أو الصين، أو اليابان، أو غربي آسيا، أو شمالي أوروبا، كنت أطرح على نفسي هذا السؤال: ترى لو كان أحد ممثلي هذه الأديان، أمام مثل هذا العرض للدين الذي يؤمن به، أكان يرتاح إليه، ويرضى عنه، ويطمئن إليه، أم أنه كان سيجد فيه نواقص، وثغرات، وإغفالات لنواح هامة، وأساسية من الدين الذي يتحدَّث عنه؟.

والحقيقة أني شعرت بمثل هذه المشاعر، عندما قرأت الفصْل المتعلق بالدين الإسلامي، خاصة، ثم عندما قرأت الفصول الأخرى، المتصلة بأديان أخرى،

كالبوذية، أو الديانة المصرية... ذلك أن المؤلف لا يكتب إلا صفحات قليلة عن الإسلام، بالمقارنة مع ما يكتبه عن اليهودية أو المسيحية. ولا أفهم لذلك سبباً إلا التحيّز الخفي أو اللاشعوري للدين الذي يدين به، مما يشير إلى أن «دين الإنسان» كالجلد الذي يغطي جسمه، واللاصق به أشد الإلتصاق، فلا مجال للاستغناء عنه. ومهما يظن الناس السوء في سلامة العقيدة لدى إنسان معيَّن، فإني واثق أنه، مهما يفعل، لن يتجرَّد عن دينه إلا في الظاهر، وبصورة سطحية جداً. أما في الأعماق فإنه يبقى ملتصقاً بدينه، مؤمناً به، حريصاً عليه، لا يفارقه أبداً.

ومع أن المؤلف ينهي كتابه بدعوة إلى «دين عالمي»* يَصِحُّ معه الاعتقاد بأنه انسلخ، أو هو مستعد للانسلاخ عن دينه، ليؤمن بشيء أوسع أفقاً، وأعظم إنسانية، وأرحب صدراً، فإني لا أجد أن هذه الدعوة جدية حقاً، من جهة أولى، كما أنها لم تنسه أن يبقى على التحيّز، اللاشعوري على الأقل، للدين الذي نُشِّئ عليه، على نحو ما ظهر في عرضه الموجز لبحث الدين الإسلامي. ولقد قرأت مصادر أخرى عن تاريخ الأديان، ووجدت أحياناً أنها أشد تعصباً منه بكثير، وأبعد عن الحق. ولا بُدَّ في رأيي أنا، من أن يَتصَدّى أحدُ الباحثين الإسلاميين الموثوقين لعرض صورة عن هذا الدين، يمكن أن تصبح مرجعاً لمن يكتب في هذا الشأن. وليس معنى ذلك أن مؤلفنا يتعمد الإساءة للإسلام، في شيء أو آخر، ولكنه يبدو أقل اهتماماً به، منه بالديانتين السماويتين المعروفتين، أي اليهودية والمسيحية، اللتين تعتبران من وجهة النظر الاجتماعية دينين متكاملين، يعبر مجموعهما عن دين واحد.

ويلاحظ من ناحية أخرى، أن المؤلف يَعُدُّ الكثير من الهرطقات المعروفة والمشهورة، «صوراً من التطوير» للدين الإسلامي، لا تختلف عن البروتستانتية، أو الكالفينية، أو الكنائس غير الكاثوليكية الأخرى. ويظهر ذلك بوضوح في كلامه على البهائية، التي لم يُضف إليها حديثاً مماثلاً عن البابية، على نحو ما فعل غولديزهير في كتابه عن العقيدة والشرع في الإسلام (وهو كتاب قديم نسبياً). وعلى حين أنه يعتقد

* إن هذه الدعوة إلى دين عالمي، دعوة قامت منذ مدة طويلة، ولم تلق أي نجاح يذكر حتى الآن. مما يشير إلى عبث هذه الدعوة، ولو أن الدافع إليها قد تختلف مقاصده. فربما كانت نبيلة وربما كانت غير نبيلة. ولا ريب أن من الصعب أن يغيِّر الإنسان عقيدته، وهو مؤمن بأنها إلهية المصدر. وهذه حال أكثرية المؤمنين من كل الأديان.

أن المذهب البهائي تطوير معقول وسليم للدين الإسلامي، فإن المسلمين، بعامة، يعتقدون أنه «خروج عن الدين الإسلامي»، وخروج سافر عليه. ذلك أن أصحاب هذا المذهب يريدون، بوضوح، أن ينشئوا ديناً عالمياً للناس كافة، من غير التزام بأي دين على حدة. ولا يعرف الإنسان تعريفاً آخر «للهرطقة» أكبر من هذا، مهما تكن المقاصد الخلفية لهذا الإنحراف «نبيلة الأهداف». ولكن من يستطيع التأكيد أن الأهداف نبيلة حقاً؟ ثم ألا يمكن أن تكون نبيلة في الظاهر، والباطن، وتؤدّي مع ذلك دوراً تهديمياً بالنسبة للدين الذي انحدر منه هذا النوع من التطوير؟ إن على الإنسان أن يفهم — بأكبر الوضوح — أن نبل الهدف، قد لا يعبّر في الواقع، وعند التطبيق، إلا عن ضربة عنيفة، توجه لهذا النبل.

وعلى كل حال، فإنه عندما لا يكون الإنسان مسلماً، يستطيع أن يعتقد أن الهرطقات التي نمت داخل الإسلام، هي نوع من التطوير له، تماماً كما كانت حال جماعات الإصلاح الديني «في أوروبا، من أمثال لوثر. غير أن هذا الأخير أخذ على الكنيسة الرسمية، انحراف سلوكها عن تعاليم الكتاب المقدَّس (أو الإنجيل)، ولم يأخذ على الدين نفسه، انحرافاً ما عن سلامة الأخلاق والفضيلة. وبتعبير آخر فإن تعاليم المسيحية، وأصولها، وكتابها المقدَّس، ظلت بمنأى عن الأذى ولم يهمل منها شيء. أما أصحاب البهائية فإنهم وإن لم يتخلوا عن القرآن الكريم تخلياً تاماً، فإنهم على كل حال يريدون تجاوزه.»

وحقاً فإن في الأديان جملة، وبغض النظر عن التفاصيل الثانوية، أو الشعائر الخارجية، حقيقة عميقة مشتركة بينها جميعاً، هي الدعوة إلى «أنبل القيم الأخلاقية، ووضعها في الحياة موضع التطبيق»، سواء أكانت سماوية الأصل، أم إنسانية الأصل. وبهذا المعنى لا تختلف الأديان فيما تدعو إليه من الفضائل، في الخطوط العريضة، على الأقل، ولو اختلفت في أشكال العقيدة، وألوانها... إلا أن هذا لا ينسينا معايير عقلية، لا بد في الحكم على دينٍ ما، من استخدامها. وهكذا فكلما نمت المعقولية في الدين، وكبر ما فيه من انسجام منطقي، وتضاءلت حصة «الأسرار»، واللامعقول، والتعقيدات، كان أقرب إلى السلامة، بغض النظر عن نوع الأوامر أو الزواجر، التي يقضي بها.

وإني لآخذ على المؤلف أنه لا يعرِّف الدين العالمي الذي يدعو إليه؟ ترى أيقتضي ذلك تخلياً عن الدين الذي نُشِّئ الإنسان عليه، أو نشأ هو في أحضانه، أم هو جلاء أكبر للفضائل الأخلاقية المشتركة بين الأديان السماوية المعترف بها، وحَضٌّ أكبر على إبرازها، والتقيدّ بها، والدعوة إليها؟.

ومع ذلك فلا أنسى أن مما يعاب على عرض هذا المؤلف أنه لم يتعرّض قط «للمأمور به، والمنهي عنه» في الأديان التي بحث فيها. ومن حق القارئ فعلاً، أن يعرف بماذا كانت تأمر الأديان المصرية، وعم كانت تنهى؟ وبم تشترك في الفضائل الأساسية التي تدعو إليها، الأديان السماوية الكبرى؟ ومن الغريب أنه لم يفطن إلى هذا مطلقاً. وربما كانت المصادر لا تسعفه بمعرفة هذه الأشياء. وعندئذ كان ينبغي أن يشار إلى هذا النقص.

ومن جهة أخرى، فإن الدين ليس عقيدة فقط، بل هو شعائر جماعية، معروفة، كالصلاة، والحج، مثلاً، وصورة القيام بها. فالصلاة المسيحية غير الصلاة الإسلامية، وكذلك شعائر الحج. وعندنا أنه كان ينبغي أن يُعرِّف القارئ بهذه الشعائر في كل دين على حدة، ولو بصورة مبسّطة. أما إغفال ذلك تماماً، فإننا نظن أنه ثغرة كبيرة. حتى لكأن الإنسان يظن أن المؤلف يملك آلة تصوير، لا تصوِّر إلا بعض أجزاء المنظر الذي أمامها، لا كلّها. وليس من حقنا عندئذ أن ندَّعي الكمال لمثل هذه الآلة.

....

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه طرأ بعض التحوير على نص المؤلف، ولا سيما في بحثي الديانتين الإسلامية والمسيحية، تجنباً لما يبدو أنه جرح لإيمان المؤمنين. أما أن يظن باستمرار أن كل ما يقوله الآخرون عن ديننا، سيودي به مباشرة، ويهدمه من الأساس، فإني أربأ بالمؤمنين أن يظنوا أن دينهم هو سريع العطب، واهي القواعد، بهذه الدرجة.

والخلاصة، إن ما قصدت إليه من هذه الترجمة، هو سَدُّ ثغرة في الثقافة العامة، والتعريف بما كانت عليه حال الأديان السابقة للأديان السماوية، مما هو حاجة ثقافية... ولا يهمنا بعد ذلك أن يكون للمؤلف نظرات مخالفة لرأينا في أمر أو آخر. إذ

لم يعد يُرضي العصرَ ، ولا الناسَ ، أن نكون دائماً أمام حقيقة واحدة ، من أخذ بها فهو مؤمن ، ومن تخلى عنها ، أو عَدَّل فيها ، فقد كفر . ذلك أن البحث الذي بين أيدينا « بحث علمي » وليس « ببحث ديني » . وهذا ما يجب ألا يُنسى أبداً .

والله هو الموفق للصواب ، على كل حال .

حافظ الجمالي

مقدمة

يقول إرنست رينان في مقدمة كتابه «دراسات حول التاريخ الديني»: إن الدين هو أعلى مظاهر الطبيعة الإنسانية، وأكثرها جاذبية.

ويمكن أن نقبل هذا الحكم من فكر حر.

والعاطفة الدينية ــ مهما يكن التعريف الذي نعرِّفها به ــ وسنحاول أن نستخلص مثل هذا التعريف، في آخر هذا الكتاب، بعد دراسة دقيقة للحوادث ــ نقول: هي الميل الأكثر تعقيداً، الذي يمكن أن نكتشفه في قرارة القلب الإنساني: وتأتلف حول هذا الميل الأساسي صور كثيرة من المطامح، والأشواق، والفضول، وأفكار مرهفة حول الحياة، والعالم، وما وراء الطبيعة، كما تجتمع حوله مجموعة من أنواع القلق المؤلم، والفرح المثير. إنه موضوع مُغْرٍ للتحليل، بالنسبة لكل عقلٍ ميالٍ للدراسة النفسية، ولكل من يغريه أن يبحث في أسرار النفس.

ثم إن الأديان أثرت تأثيراً سيئاً أو حسناً، سعيداً أو مزعجاً، ولكنه عميق على كل حال، في مختلف الحضارات. وهي موضوع يستأثر بالتأمل، لدى كل عقل يميل إلى التاريخ، وعلم الإجتماع، والفلسفة.

وعلى كل إنسان مثقف، أو قل إنه ينبغي لمثل هذا الإنسان، مهما تكن بيئته، أن يطلّع على عدد من المعلومات الدقيقة حول الدين، وحول مختلف الأديان.

ويطمح مؤلف هذا الكتاب إلى تكثيف هذه المعلومات الأساسية في أضيق عدد من الصفحات في هذا الموجز. وسنستعرض مختلف الأديان الكبرى، في نظام منطقي، عندما يكون بالإمكان أن نمضي من البسيط إلى المعقد ــ أو في نظام تاريخي، عندما يكون هنالك تتابع واضح، بدلاً من التواقت، إذا كانت علاقات التجاور على شيء من الأهمية.

وسنبدأ بالديانتين الأكثر بدائية، أي بالطوطمية والإحيائية، وسنمضي منهما إلى الأديان التي ارتقت، على امتلائها ببواق كثيرة من هاتين الديانتين، إلى أكثر صور الفكر والعاطفة، تعقيداً، أي إلى الديانة المصرية، وديانة الهند. ومع أن البوذية نشأت في الهند، فإنها ستمضي بنا إلى الصين واليابان. وعندما نعود إلى الهند، لكي نتجه منها، في اتجاه آخر، فإننا سنلتقي بأديان المنطقة الإيرانية، ثم بأديان آسيا الغربية، ثم بالدين اليهودي. أما في أوروبا، فإننا بعد أن نلقي نظرة على أديان الشمال والغرب، سندرس بشكل أوسع، أديان الجنوب، أي الديانة الإغريقية القديمة، والديانة الرومانية. وعندئذ، وفي ملتقى الصوفية الشرقية، «والإنقاذ على يد المسيح المنتظر»، والفكر الإغريقي، والعالمية الرومانية، ستظهر لنا المسيحية. أما على المستوى التاريخي، فإن الإسلام هو آخر الأديان الكبرى[1]. وسيؤدي بنا هذا التحليل التاريخي إلى نتيجة تركيبية، حول طبيعة العاطفة الدينية، وأصلها، وقيمتها.

وفي مثل هذه الدراسة الأولية، سنستغني، بقدر الإمكان، عن كل مصطلح معقد، قليل الجدوى، وعن كل نقاش مفرط في التخصص. أما من يريد الإرتقاء بالدراسة، في اتجاه أو آخر، فسننصح له بقراءة بعض الكتب المكتوبة بالفرنسية أو المترجمة إليها، من حيث إن هذه الدراسة كتبت أصلاً للجمهور الفرنسي، أو للذين يقرؤون الفرنسية؛ وسيجد القارئ فيها مراجع تتيح له، عند الحاجة، أن يقوم بدراسات أخرى، أطول نَفَساً.

(١) إننا سنترك، جانباً، جملة الفلسفات الدينية، كفلسفة سبينوزا، والأديان الفلسفية، كتلك التي أنشأها أوغوست كونت والأديان المدنية، كتلك التي ابتكرتها الثورة الفرنسية، أي تلك الأديان التي تطرح مشكلات مختلفة.

أما أن مثل هذا الكتاب، سيحتوي الكثير من الثغرات، فهذا هو البداهة عينها. ذلك أنه كان علينا أن نجمع، في عدد محدود من الصفحات، أكبر عدد ممكن من الأفكار والحوادث، اختير من جملة لا متناهية من نوعها. وكلما قلنا: اختار الرجل، علمنا أنه ضحىٌّ بمالم يختره.

فأيٌّ روح أوحت بهذا الاختيار؟

....

ولا يعنينا في هذا الكتاب أن نكيل المدح، أو أن ننقد بصورة عدائية: بل إن كل ما علينا هو أن نبذل الجهد لكي نحاول أن نفهم، بكل موضوعية.

ويشعر المؤلف هنا بأن عليه أن يقدم نفسه إلى القراء الذين لم يعرفوه.

فقد نما وترعرع في إطار الدين المسيحي. ولكنه ذات يوم، لم يعد يؤمن بأن هذا الدين يملك وحده الكشف عن حقيقة محصورة به، وقيّض له أن يزور مناطق واسعة من هذا العالم، وأن يتأمل في الوجوه العديدة للحياة الدينية؛ وكانت وجوهاً رائعة، أخاذة، وفي بعض الأحيان على جانب كبير من العظمة.

ولقد رأى الشارات والعلامات الطوطمية في بيوت الماؤورى **maoris** في زيلندا الجديدة. وتمتع بمشاهدة الرقصات الدينية في الغابون، وأتيح له أن يلاحظ في إحدى قرى الأوبانغي **oubangui** كيف يتصرف أو يعمل السحرة الوثنيون. وصعد في الجيزة، إلى أعلى الهرم. وعندما زار الحمامات المقدّسة في أزقة بيناريس **Bénarés**، صدم الأبقار المقدّسة، ومشى إلى جانب «الفقراء»، أما في انكور فات **Angkor Vat** فإن الجداريات المنقوشة على جدران الآبدة النبيلة، عرضت عليه مشاهد الرامايانا **Râmayana**. ولقد تحدّث، في معبد بوذي، في **Kandy**، مع راهب بوذي ذي لباس أصفر ـــ كناري، عن التقمص. أما في بكين فقد زار معبد السماء العظيم، معبد كونفوشيوس، المتقشف، ومعبد لاما **Lamas** الجنسي. وفي

طوكيو، تابع، كهاو متأثر، تمثيل الـ NOS (وهي درامات غنائية من القرن الخامس عشر)، وبفضلها شعر بأنه يتصل بأفضل ما في الروح اليابانية من سمو، يمزج باحترام الأجداد القدماء Shinto حلاوة البوذية ورقتها. وفي بومباي، عاشر جماعة البارسيس Parsis، وزار معهم، أبراج الصمت، حيث تقضي الطقوس بأن تطعم لحوم الموتى للصقور. ومن غير أن يترك غرفته، قضى أشهراً مثيرة بصحبة أنبل اليهود: باروخ دوسبينوزا، وفي أثينا، ودلف، وأوليمبي، تلذذ بذكرى الأعياد التي كانت تقام على شرف الآلهة الإغريقية. ثم إنه نعِمَ بعظمة روما الجليلة. وكذلك فقد حضر في بلاد أوروبية كثيرة، قداسات كاثوليكية وبروتستنتية، ولمس بيده في مدينة بيروت Bayreuth (مدينة في بافاريا)، أجراس Graal[٢]، وقضى ساعات ساحرة في فلورنسا في دير سان ماركو، حيث استطاع العزيز Fra Angelico، أن يُوضح السر الساحر في النفس المسيحية؛ ولقد رأى تحت السماء الزرقاء لإفريقية الشمالية، مساجد الإسلام البيضاء. وتأمل، على مقربة من آغرا agra، رائعة الفن الإسلامي، إحدى روائع الفن العالمي، وأعني بها القبر الذي شاده سلطان ما، لأحب زوجاته إليه، تاج محل.

....

ذكريات رائعة!.. ومن هذه التجارب العديدة استخلص المؤلف القناعة الجازمة بأن هنالك، في كل الأجناس البشرية، مزايا، وفضائل، وسحراً؛ وأنه ما من دين مجرَّدٍ من القيمة؛ وأن في كل منها نوعاً من العظمة، والنبل، أو شيئاً من الرقة.

---

(٢) graal، كلمة تعني في الأصل الصحن، والكراآل هذا فيما كان يعتقده أهل القرون الوسطى، إناءٌ (أو كأساً) يقال إنه كان بين يدي المسيح ليشرب منه، ليلة العشاء المقدَّس. وهناك أسطورة بهذا الاسم يعود تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وجاء كريتيان دوتراي فأنشأ حولها عام ١١٨٢ أو قريباً منه، قصيدة تتألف من ٩٠٠٠ بيت بعنوان برسفال Perceval أو الكونت دوغراآل: وهي تحكي قصة الشاب برسفال، ابن امرأة أرملة، يمضي ليتلقى تربيته في قصر الملك آرثور. وجاء من أكمل هذه القصيدة، وأغناها، وكانوا أربعة، فجعلوا منها قصيدة تتألف من ٩٣٠٠٠ بيت. والأسطورة ممتعة جداً. راجع من أجلها قاموس لاروس الموسوعي في مادة graal أما آسوكا الذي سيرد ذكره عما قريب فهو من أعظم ملوك الهند قبل المسيح وقد حكم بين ٢٧٤ ـ ٢٣٢ ق.م.

ولما كان قد أحب كل هذه الأديان ، فإنه سيعبر / بمودة / عنها جميعاً ، كاشفاً من أجل التعريف بها وفهمها ، عن أعظم الوقائع ذات المعنى فيها ، وعن الأفكار الأكثر سمواً ، وعن التعابير الأشد وقعاً ، والأعظم تأثيراً .

ومع ذلك فإنه لا يملك إلا أن يدين بقوة ، ما في بعضها ، من تعصب لا متسامح ، مليء بالاحتقار لكل العقائد الأخرى ، مما يهددها هي نفسها بالموت . إن الحب ليقضي أن نشعر بالكراهية الكبيرة لهذه الكراهية .

....

ولما كان صاحب هذا الكتاب ، يحاول أن يحبب الناس بالأديان ، بقدر ما يحاول أن يعرِّفها لهم ، وأن يُقربّها إلى الأفهام ، فإنه سيضع في كتابه هذا بعض أجمل النصُوص التي حملت العقول في الماضي على التفكير ، وأثارت القلوب والمشاعر .

ولعل التماس مع هذه الأفكار الكريمة والرصينة سيكون مسعداً لبعض النفوس ، في فترة من التاريخ تتميّز بشدّة عاميتها ، وقسوتها ، ودمويتها .

ولئن استطاع هذا الموجز في تاريخ الأديان أن يعيد إلى بعض قرائه شيئاً من الثقة والاطمئنان ، وبعض الهدوء المستسلم ، وبعض الراحة النفسية ، والفرح بما تضمنه الأديان للمؤمنين بها ، فإن أعمق أمنية للمؤلف تكون قد حظيت بما يسعدها .

الفصل الأول

الطوطمية

يعتبر بعض علماء الإجتماع والمؤرخين أن « الطوطمية » هي الديانة الأكثر بدائية بين الأديان الأخرى.

والطوطمية هي الدين الذي يربط جماعة من الناس، نسّميها القبيلة أو الـ Clan، إلى نوع مّا من الكائنات المقدّسة، أو الأشياء المقدّسة أحياناً، نسميها باسم الطواطم.

وكانت كلمة الطوطم تستخدم لدى بعض هنود أمريكا الشمالية، أي الألغونكين Algonkins. ونعثر على هذه الكلمة لأول مرة في كتاب نُشر في لندن عام ١٧٩١، على يد « مترجم هندي » اسمه J.Long. كان يقص فيه أخبار رحلاته.

ودرست المؤسسات الطوطمية ومعتقداتها، أول ما درست، لدى هنود أمريكا الشمالية.

فحوالي منتصف القرن التاسع عشر، رأى الباحثون، أن مؤسسات ومعتقدات مشابهة، توجد كذلك لدى بدائيي أستراليا.

وحوالي آخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، قام مراقبان إنكليزيان ممتازان، هما بالدوين سبنسر، وجيلّن Baldwin Spencer, Gillen ببحث هام لدى قبائل وسط أستراليا. ثم إن مبشراً ألمانياً، قضى سنين طويلة في هذه المناطق، وكان يتكلم لغاتها، وهو Carl Strehlow، جاء يقدّم لهذه الدراسة، مساهمته الخاصة، ذات القيمة الاستثنائية؛ وأصبحنا نشعر الآن أن أستراليا هي المنطقة التي احتفظت فيها الطوطمية، بأفضل وجود لها.

وبمقدار ما كانت تعرف المؤسسات والمعتقدات الطوطمية، كانت تتعزّز الفرضية القائلة بأن الطوطمية قد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الإنسانية كلها. وفي منتصف القرن التاسع عشر أوضح ماك لينان Mac Lennan مدى قرابة أديان أوروبا القديمة منها. وقام روبرتسون سميث Robertson Smith بمثل ذلك، بالنسبة إلى الأديان الساميّة. وفي نهاية القرن التاسع عشر، وأول القرن العشرين، جمع العلّامة الإنكليزي السر جيمس – جورج فرايزر (١٨٥٤ – ١٩٤١) وثائق كثيرة حول هذه المشكلة[١].

لكن أفضل وأروع تأليف بين كل هذه الوقائع المعروفة، حتى ذلك الحين، قام به عالم الاجتماع الكبير، الفرنسي اميل دركهايم، (١٨٥٨ – ١٩١٧)، في كتابه الكبير ذي الأهمية الأساسية، الذي يحمل العنوان التالي: الصور البدائية للحياة الدينية[٢].

وهذا الكتاب تحسُنُ مطالعته حتى اليوم، بغية الحصول على فكرة جامعة حول هذه المشكلة. وحتى إذا كنا نتحفظ بعض الشيء، حول جملة جوانب من نظريته، فإن من المهم والمفيد أن نعرف أطروحاته الأساسية.

....

وتشتمل الأفكار الأساسية عن الطوطمية، على فكرة الطوطم والمانا، والتابو (أو المحرَّم). وتقابل الطقوس الأساسية عبادات ثنائية الجوانب، فيها عبادة سلبية، وأخرى إيجابية.

أما كلمة الطوطم فتنطبق، أو تقابل، أو تطلق على نوع الكائنات، أو الأشياء التي يعتبرها كل أبناء القبيلة، ككائنات مقدَّسة. وهذه في أغلب الأحيان، حيوانات (كالكنغر، والأوبوسوم[٣] والجاموس، والنسر، والصقر، والببغاء، والسرفة – دودة الفراش –) وأحياناً نباتات (كشجيرة الشاي)، وأندر من ذلك، بعض الأشياء (كالمطر والبحر وبعض الكواكب أو النجوم).

مثال ذلك أن كل أعضاء القبيلة الكنغرية. يعتبرون كل ممثلي جنس الكنغر، حيوانات مقدَّسة.

---

(١) نشر فرايزر عام ١٩١٠ في لندن كتابه Totemism and Exogamy، بأربعة مجلدات. أما كتابه «الغصن الذهبي» The golden Bough، فقد ترجم إلى الفرنسية، ونشر في ثلاثة أجزاء عام ١٩٠٣.

(٢) نشر دار Alcan، باريس، عام ١٩١٢.

(٣) الأوبوسوم opposum، حيوان أمريكي يتظاهر بالموت عندما يحيق به الخطر.

ثم إن الطوطم هو الاسم الذي يحمله كل أعضاء القبيلة، وهو الذي يوحدهم جميعاً. وينتسب الإنسان إلى قبيلة ما، بحكم أنه يحمل اسمها. وفي أكثر المجتمعات، يكون للطفل، بحكم ولادته، الحق بنسبته إلى طوطم أمّه.

وكذلك فإن الطوطم شعار، أو قل شعار النسب، وهو رمز، كثيراً ما لوحظ تشابهه مع الأصل الحقيقي. ويحدث أن يرسم هذا الرمز على الأرض، ولكن بعد أن يُسقى بالدم، أحياناً، وأن يرسم على التروس، وعلى الزوارق، والخيام، ثم على البيوت وعلى الأوتاد التي تنصب في القرى. وكثيراً ما تطبع السمة الطوطمية على الجسم نفسه، بطريقة الوشم، أو الرسم المخطوط على الكائن الحي، قبل اجتماع القبيلة، وعلى الميت، قبل عملية الدفن.

يضاف إلى ذلك أن أعضاء القبيلة يحاولون أن يظهروا بمظهر طوطمهم الخارجي، ولا سيما في طريقة تصفيف شعورهم: ففي قبيلة الجاموس، يصفف الشعر على صورة القرون. وفي قبيلة السلحفاة، يجرَّد الرأس من الشعر، لكن ست خصل فيه تمثل الرأس، والأرجل، والذنب (من الحيوان الطوطم). وعندما يكون الطوطم عصفوراً أو طائراً، فقد يحدث أن يحمل الأفراد ريشاً من هذا الطائر.

ويرى دركهايم «أن الطوطم، قبل كل شيء، هو اسم وشعار»(٤).

وهو أكثر من ذلك أيضاً: «فالطوطم يحمل صفة دينية في الوقت نفسه الذي هو فيه اسم جمعي. وتصنّف الأشياء بالنسبة إليه، كأشياء مقدَّسة، أو عادية. وهو نموذج الأشياء المقدَّسة»(٥). وعدا ذلك، فإن «صور الكائن الطوطمي أقدس من الكائن الطوطمي نفسه»(٦).

وتنتقل قداسة الطوطم وصورته إلى الإنسان نفسه.

أما سبب هذه القداسة الشخصية، فهو أن الإنسان يعتقد، أنه حيوان أونبات من النوع الطوطمي، في ذات الوقت الذي يعتقد فيه أنه إنسان بالمعنى الشائع لهذه الكلمة. والواقع أنه يحمل

---

(٤) دركهايم، المصدر المذكور، ص: ١٥٤ و ١٥٨ــ١٥٩.
(٥) دركهايم، المصدر المذكور، ص: ١٦٧.
(٦) دركهايم، المصدر المذكور، ص: ١٨٩.

اسمه . بيد أن هوية الاسم تنتقل فتصبح هوية طبيعية ... فعُضو قبيلة الكنغر يسمي نفسه كنغراً ؛ فهو إذن ، وبمعنى ما ، حيوان من هذا النوع(٧) .

ثم إن بعض أقسام الجسم الإنساني تعتبر مقدَّسة بصورة أخص : كالدم (ومنه تشتق الصفة الدينية للمغرة الحمراء ، التي تذكّر به) والشَّعر (وقصة الشَّعر عملية طقسية) .

وليست المرتبة الدينية متساوية بين الجميع . ذاك أن الرجال يملكون منها حظاً أكبر من حظ المرأة ، والقدماء أكثر من الشباب ، حتى ولو كانوا قد كرِّسوا دينياً واجتماعياً .

وكثيراً ما يعتبر الطوطم بمثابة الأب أو الجد ، أو الجد الأعلى لأعضاء القبيلة .

ثم إن كل الكائنات ، وكل الأشياء ، في القبيلة المقسَّمة ، إلى عشائر طوطمية ، مصنفة بالنسبة إلى الطوطم . وكل الحيوانات ، وكل النباتات ، والمطر ، والرعد ، والنجوم ، والفصول ، موزعة بين مختلف الطواطم . وفي إحدى القبائل الأسترالية ، تعتبر الشمس قريبة من الببغاء البيضاء أما القمر فإنه قريب من الببغاء السوداء ، بل هي ببغاء سوداء .

وللطوطمية كوسمولوجيتُها . أما دائرة الأشياء الدينية ، فتمتد إلى ما وراء الحدود التي كان يظن أنها محدودة بها ... وليست مقصورة على فئة أو فئتين من الكائنات ، بل إن مجال الديانة الطوطمية تمتد حتى إلى آخر حدود العالم المعروف . وكما هي الحال في الديانة الإغريقية ، فإن الطوطمية تنشر الشيء الإلهي في كل مكان(٨) .

....

والفكرة الأساسية الثانية في الطوطمية ، هي فكرة المانا **Mana** .

وهذه الكلمة كلمة مالينيزية (من غينيا الجديدة) . وهي تدل على قوة لا شخصية ، مادية وروحية معاً ، منتشرة في كل مكان ، ومنتشرة بين الرموز المقدَّسة ، والكائنات والأشياء المقدَّسة ، وفي الأشياء كلها .

ويعرِّف المبشرِّ الإنكليزي كودرينكتون ، الذي كان أول من درس هذه الفكرة في مالينيزيا ،

---

(٧) دركهايم ، المصدر المذكور ، ص: ١٩٠ .

(٨) دركهايم ، المصدر نفسه ، ص: ٢١٩ــ ٢٢٢ .

بقوله : «إنها قوة ، أو تأثير من نظام غير مادي ، وبمعنى ما ، شيء من فوق الطبيعة ؛ ولكنها تنكشف عن طريق القوة الطبيعية ، أو عن طريق أي نوع من القوة أو التفوق ، يملكه الإنسان . وليست المادة بمثبّتة على موضوع بعينه ؛ بل يمكن أن تنقل إلى أنواع كثيرة من الأشياء . وتقوم الديانة المالينيزية على كمية ما من المانا ، إما للاستفادة منها ، أو لإفادة الآخرين بها .

ولكن هذه الفكرة موجودة كذلك ، لدى هنود أمريكا الشمالية ، حيث تسمى باسم Wakan لدى شعب السيو Sioux ، وباسم Arenda لدى الإيروكوا ، ومانيتـو ، لدى الألغونـكين Algonkins الخ .

ويرى دركهايم أن الطوطمية الأسترالية تقتضي كذلك ، ضرورة الاعتقاد بمبدأ مشترك بين الشعارات الطوطمية ، وأفراد النوع المقدّس ، وبين أعضاء القبيلة Clan . وتستخدم كلمة شورينجا Churinga أحياناً ، للدلالة على مثل هذا المبدأ .

وإلى هذا المبدأ المشترك تتجه العبادة في الواقع . وبكلمات أخرى ، إن الطوطمية ليست بديانة هذه الحيوانات أو تلك ، ولا هؤلاء الناس أو أولئك ، ولا بهذه الصورة ، أو بغيرها ، بل هي ديانة نوع من القوة المغفلة واللاشخصية ، التي توجد في كل من هذه الكائنات ، من دون أن تختلط بأي منهما . فما من إنسان أو شيء أو حيوان ، يملكها كلها كاملة ، والجميع يشاركون فيها . وهي مستقلة عن الكائنات الفردية التي تتجسّد فيها ، بحيث أنها تسبقهم في الوجود ، وتبقى بعدهم . فالأفراد يموتون ؛ والأجيال تنقضي ، ويحل محلها غيرها ؛ لكن هذه القوة تظل دوماً قائمة ، حية ، وشبيهة بذاتها . إنها تحيي أجيال الحاضر ، كما ستحيي أجيال المستقبل . وإذا فهمنا الكلمة بمعناها الواسع ، قلنا إنها الإله الذي تتجه إليه بالعبادة ، كل ديانة طوطمية . غير أنه إله لا شخصي ، بلا اسم ، ولا تاريخ ، محايث للعالم ، منتشر في عدد لا يحصى من الأشياء[٩] » .

....

ونجد في الطوطمية فكرة ثالثة ، هي فكرة « المحرّم » ، أي التحريم .

وكلمة « تابو » الدالة على المحرَّم كلمة بولينيزية : وهي تدل على المؤسسة التي أصبحت بعض

(٩) دركهايم ، المصدر نفسه ، ص: ٢٦٩ ــ ٢٧٠ .

الأشياء، أو بعض الأفعال، محرّمة بموجبها. ونرى أنها تستخدم كصفة للأشياء، والأعمال المنظور إليها، كمحرّمات.

ويهدف التابو، بالدرجة الأولى، إلى فصل المقدّس عن العادي.

ويحرّم، مبدئياً، قتل أو أكل الحيوان الطوطمي، أو قطف أو أكل النبات الطوطمي، إلا في بعض الاحتفالات الرسمية، التي هي حفلات تآخ، وتشارك، حقيقية.

ويحرم أن نلمس، وأحياناً أن ننظر إلى الأشياء المقدّسة. كما يحرّم الكلام خلال الاحتفالات المقدّسة. ويحرّم كذلك العمل، وأحياناً الطعام، خلال الأيام المخصّصة للأعياد الدينية.

«والعمل هو الصورة الأوثق للنشاط العادي: وليس له من غاية أخرى غير تأمين الحاجات الآنية للحياة؛ وهو لا يصلنا إلا بأشياء عامية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الحياة الدينية، في أيام العيد، تبلغ درجة استثنائية من الشدّة. وعلى ذلك فإن التضاد بين هذين النوعين من الأشياء، في هذه اللحظة، تضاد بارز؛ وبالتالي، فهما لا يمكن أن يتجاورا. وهكذا فإن العطلة المطلوبة في الطقوس، ليست إلا حالة خاصة من حالات عدم التلاؤم العام الذي يفصل المقدّس عن العادي؛ إنه نتيجة لتحريم ما[١٠]».

وهناك محرّمات أخرى، ذات أصل ديني؛ تسود الحياة المدنية والاجتماعية. فقد حُرّم قتل فرد من أفراد القبيلة. وحُرّم الزواج من امرأة من القبيلة نفسها؛ ويجب أن نتخذ لأنفسنا زوجة من خارج القبيلة: وهذا هو المقصود بالزواج من الخارج.

وتفرض هذه التحريمات، صوراً من الامتناع، والحرمان. أي تفرض ما يساوي هذه آلاما.

ويقول دركهايم:

«إنه ينشأ عن ذلك ــ أن التقشف، ليس ــ على ما يمكن أن نظن ــ بالثمرة النادرة، الاستثنائية وغير الطبيعية، تقريباً، للحياة الدينية؛ بل إنه، على العكس، عنصر أساسي فيها، إذ لا وجود لحياة دينية لا تشتمل على منظومة من المحرّمات.[١١]»

---

(١٠) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٣٩.

(١١) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٤٥.

وفي وسعنا أن نسمي التقيد بالمحرمات، باسم العبادة السلبية.

ولبعض الاحتفالات، موضوع أساسي، هو تكثيف منظومة كاملة من المحرّمات على رأس واحدة. وهذا ما يحدث في أستراليا، عند القيام بشعائر التكريس.

ذلك أن من الواجب على الشخص الذي سيكرّس، أن ينسحب من المجتمع، وأن ينقطع عن الاتصال بالنساء، وأن يعزف عن لقاء اللامكرّسين، وأن يعيش في الريف أو في الغابة، تحت إدارة بعض القدماء الذين يقومون تجاهه بوظيفة العرّاب. وتحرّم عليه أكثر الأطعمة؛ ويجب، ألا يمس حتى تلك الأطعمة المباحة له: بل إن عرّابيه هم الذين يدخلون إلى فمه كمية الطعام التي تكفي لإدامة حياته عليه. وقد يفرض عليه الصيام أحياناً، بصورة كاملة. فيجب أن لا يتكلم، ولا يلهي نفسه بشيء، ولا يغتسل، ولا يتحرك... ونتيجة هذه التجربة، هي أن يتغيّر الإنسان تغيراً تاماً، وأن يخلق نفسه خلقاً جديداً. ومتى تم التكريس، دخل المكرّس في مجتمع الرجال، واكتسب صفة القداسة، واشترك في الطقوس.

«ويحكم الحاجز الذي يفصل الشيء المقدّس عن الشيء العادي، لا يستطيع الرجل أن ينشئ علاقات صحيحة مع الأشياء المقدّسة إلا بعد التخلص مما هو عادي عنده. ولا يستطيع أن يعيش حياة دينية فيها بعض الشدة، إلا إذا بدأ بالانسحاب بشكل كامل، نوعاً ما، من الحياة العادية. وهكذا فإن العبادة السلبية، بمعنى ما، وسيلة من أجل غاية: إنها شرط الوصول إلى العبادة الإيجابية[١٢].».

....

وتشتمل العبادة الإيجابية على مجموعة من الشعائر التقليدية. ويستطيع المرء أن يذكر أولاً، عيداً كبيراً يسمى أحياناً باسم إينتيشيوما intichiuma، يقام ويحتفل به ساعة الانتقال إلى موسم جديد، يتبع عادة فصلاً قصيراً من الأمطار. عندئذ يتجه أفراد القبيلة، عراة تماماً، أي متجردين من ثيابهم العادية، إلى مكان توجد فيه حجارة وصخور تمثل الأجداد الخرافيين، الموَحِّد بينهم وبين الطوطم. وهم يأملون، بوسائل مختلفة، بنشر غبار مخصب مثلاً، أن يضمنوا تناسلاً غزيراً للنوع الطوطمي. فإذا ما تطهروا، عن طريق التقيد التام بالمحرّمات، اجتمعوا لكي يستهلكوا معاً ذلك

(١٢) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٤١ — ٤٤٢

الحيوان المقدسّ. «وعندئذ يشتركون، متآخين، في المبدأ المقدَّس الذي يقوم فيه، ويتمثلونه[١٣]. ».

ونحن واجدون هنا، في أبسط صورة ممكنة، معروفة الآن، كل المبادئ الأساسية لمؤسسة دينية كبيرة، كانت مدعوة لأن «تصبح واحداً من أسس العبادة الإيجابية: في الأديان الكبرى: وهو مبدأ التقرب إلى الله بالأضاحي. أو مؤسسة التضحية. وتبعاً لروبرتسون سميث، الذي عَرَض هذه الفكرة، أو أول من عرضها، «فإن للولائم التضحيوية موضوعاً أساسياً، هو إشراك المؤمن وإلهه، بأكل لحم واحد، بغية أن نصل بينهما بعلاقة قربى»[١٤].

«وعلينا، منذ الآن، أن نعتبر كشيء مقرّر أن الصورة الأكثر خفاءً للمناولة الغذائية، يُعثر عليها منذ أن نلتقي أبسطَ دين نعرفه حتى الآن[١٥]».

وتشتمل العبادة الإيجابية أيضاً على طقوس إيمائية mimétiques. فبحكم الاعتقاد أن التشبيه ينتج شبيهه، يقوم المؤمنون بحركات. أو يصدرون أصواتاً تهدف إلى تقليد الحيوان الذي يرغبون في ضمان تناسله بكثرة: كتقليد الكنغر في قفزاته، أو السرفة التي تتخلص من شرنقتها، أو تقليد أصوات الببغاء السوداء (فرئيس القبيلة، يكرِّر تقليد صوتها ليلة كاملة، ولا يتوقف إلا عندما يستفرغ كامل قواه، فيوضع مكانه عندئذ، ابنه، إلا أنه يعود إليه، متى استرد أنفاسه بعض الشيء).

وهناك أيضاً طقوس تمثيلية أو تذكارية. إذ يفترض أن القبيلة تنحدر من أجداد خرافيين، كانوا قد خلقوا السهول، والجبال، والسواقي، وبذروا بذور الكائنات الحية. فيذكّرون بهذه القصص. وقد يحدث أن يقوموا بنوع من التمثيل المسرحي للتذكير بذلك العهد القديم. وهكذا ينتقلون من الاحتفالات الدينية، التي لا يشارك فيها إلا المكرّسون، إلى استراحات جماعية، يقبل فيها الصغار والنساء. وتصبح العبادة نوعاً من الاستجمام. ومن هنا نفهم أن «الألعاب، والصور الأولى للفن، تبدو وكأنها نشأت عن الدين، وأنها احتفظت لمدة طويلة بصفة دينية[١٦]».

---

(١٣) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٨٢.
(١٤) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٨٠ ــ ٤٨١.
(١٥) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٨٦.
(١٦) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٥٤٤.

ويجب أن نذكر أخيراً « طقوس التكفير » وهي احتفالات حزينة غايتها أن تجابه كارثة ، أو لمجرد التذكير بها ، بالحزن لما أصاب الناس منها.[١٧]

ولما كان الميت قد أصبح كائناً مقدّساً ، فيجب أن نوقف ، لدى وجوده ، كل فعالية مألوفة أو عادية . وتقضي العادة أن نقوم ببعض الحركات ، وأن نبكي ، وأن نتفجع ، وأن يقبل الناس بعضهم بعضاً في لحظات معيّنة . وتتغيّر الطقوس بحسب درجة القرابة . وعلى النساء قص الشعور ، ودهن الجسم بالطين ، والاحتفاظ بالصمت التام ، خلال مدة الحزن ، التي قد تمتد إلى السنتين . وبعض النساء لا يخاطبن الآخرين إلا بالإشارة ، بعد انتهاء هذه المدة : وقد بقيت امرأة مسنة مدة أربع وعشرين سنة ، من دون أن تتكلم .

وعبثاً يعتبر الميت مقدّساً ، ذلك أنه بالرغم من ذلك ، غير طاهر . وتؤدي بنا هذه الملاحظة إلى أن نميّز من « العادي المألوف » وجهين من وجوه القداسة : أي ما نسميه بالمقدّس الخالص ، والمقدّس غير الخالص ، أو المدنس . وقد يحدث أحياناً أن ننتقل من إحدى القداستين إلى الأخرى . « فالنقي والملوث ليسا بنوعين منفصلين ، بل هما شكلان من أشكال النوع ذاته الذي يشمل كل الأشياء المقدّسة[١٨] فمن النقي الخالص ، نصنع الملوّث ، والعكس بالعكس . إذ أن الحيوان الطوطمي الذي ينتج أكله القوة والبأس ، يصبح بالنسبة لمن يأكله في غير أوانه ، سبب موت .

....

غير أنه لا ينبغي للممارسات التقشفية ، والشعائر التكفيرية أن تجعلنا نظن أن الطوطمية ، في جوهرها ، دين بؤس وتعاسة .

« ذلك أن الرجل البدائي لم يجد في آلهته ، أشخاصاً غرباء ، أو أعداء ، أو كائنات شريرة بالضرورة ، وكان عليه أن يطلب رضاها بكل ثمن ؛ بل كانت ، على العكس ، كائنات صديقة أو ذات قربى ، أو حماة طبيعيين . أو ليسوا هم الأسماء التي يطلقها على أفراد النوع الطوطمي ؟ ثم إن القوة التي تتجه العبادة إليها ، لا تتصور لديه حائمة عالياً فوقه ، وقاهرة له بتفوقها الساحق عليه ، بل إنها قريبة منه جداً ، وهي التي تهبه قدرات مفيدة ، لا يملكها هو بطبيعته . ولعل الألوهية لم تكن قط

(١٧) دركهايم ، المصدر نفسه ، ص: ٥٥٦ .

(١٨) دركهايم ، المصدر نفسه ، ص: ٥٨٨ .

أقرب إلى الإنسان، منها في تلك الفترة من التاريخ، لأنها ماثلة في الأشياء التي تعمر المحيط المباشر حوله، وهي محايثة له في الوجود. والشيء الملاحظ في الطوطمية، وفي جذورها، هو جملة من عواطف الثقة المفرحة، أكثر مما هي مشاعر الإرهاب والقهر[19].

....

لكن دركهايم، بعد أن قدّم لوحةً عن المعتقدات الطوطمية وطقوسها، حاول أن يكتشف أسباب هذه الديانة البدائية، وأن يستخلص نتائجها. وهنا تصبح تصوراته أقل موضوعية، وأدنى إلى الدواعي الذاتية، وبالتالي فإنها تصبح عرضة للنقاش.

والحق أن دركهايم يصل الشرح الذي يقدمه للطوطمية بتصوراته العامة للدين.

ويتميّز الدين بالدرجة الأولى بالفصل بين المقدَّس والعادي. ويقول: «إن تقسيم العالم إلى قسمين يشتمل أولهما على كل ما هو مقدَّس، والآخر على كل ما هو عادي، تلك هي السمة المميزة للفكر الديني[20]. ومن جهة أخرى فإن الدين أمر اجتماعي. «والمعتقدات الدينية حقاً، هي دوماً معتقدات جمعية، خاصة بجماعة معيّنة تعلن أنها تؤمن بها وتمارس الشعائر المتصلة بها[21]». وعلى ذلك فإنه يمكن أن نعرِّف الدين بكونه منظومة متآزرة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأشياء مقدَّسة، أي أنها مفصولة، ومحرَّمة، أو قل هي معتقدات وممارسات تصل كل المؤمنين بها بطائفة معنوية، ترمز إليها كنيستها، أو ما يقوم مقام هذه الكنيسة»[22].

وإن الجماعة هي التي ترفع الفرد، وترقى به إلى ما يتجاوزه، وتنشئ بهذه الصورة مشاعر القداسة. «وهي بالنسبة لأفرادها بمثابة الإله بالنسبة إلى المؤمنين به»[23].

والبدائي، في المجتمعات الأسترالية خاصة، يشعر بأنه خاضع، ومحميٌّ، ومؤيد بقبيلته. ثم إن الشعب، المتفرق عادة خلال حياته العادية، يعود إلى نفسه، ويتركز عليها خلال بعض الاحتفالات

---

(١٩) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٢٠) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٥٠ ـ ٥١.
(٢١) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٦٠.
(٢٢) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٦٥.
(٢٣) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٢٩٥.

الدينية المقصورة على المكرّسين، ويمكن أن يَطلع عليها غير المدربين والنساء. لكن هذه الاجتماعات تثير مشاعر حماسية، فترى الناس يصرخون، ويغنون، ويصيحون، ويقفزون، ويرقصون، ويقذفون المرتدات*. ويتزاوج الجنسان خلافاً للقواعد المألوفة؛ ويتبادل الرجال نساءهم... وعندئذ يتصل البدائي بقوى خارقة للعادة، تستقطبهم بعنف جنوني»(٢٤) وعندئذ يدخل في عالم الأشياء المقدّسة.

وهذه المشاعر التي يحسُّها الفرد عندئذ ـــ وهي مشاعر من التبعية والحيوية المتزايدة ـــ تنتقل من القبيلة إلى رمزها أو رموزها، أو إلى الطوطم الذي تُمثّل صوره المختلفة لحواسه. وكانت القبيلة قد احتاجت إلى مثل هذا الشعار الذي يميّزها من غيرها، والذي يجعل وحدة الجماعة محسوسة.

وكان على الشعار بالضرورة أن يختار بين الأشياء، أو الكائنات التي يكون لها أكبر العلاقة بحياة البدائي. وهناك ملاحظة للعالم STREHLOW تؤدي إلى التفكير بأن القبيلة اتخذت كشعار لها ذلك «الحيوان أو النبات الذي كان أكثر من غيره انتشاراً في المكان الذي اعتادت أن تجتمع فيه»(٢٥).

....

وبعد أن درس دركهايم الديانة الطوطمية من ناحية أسبابها، انتقل لبيان نتائجها. وهو يظن أن هذه الديانة البدائية قد أثّرت تأثيراً كبيراً وعميقاً في الحياة العقلية، والأخلاقية، والدينية، للإنسانية جمعاء.

فنحن مدينون لها بالأطر التي يتحرّك فيها تفكيرنا: كالمكان والزمان، والأفكار العامة أو المفاهيم، والقوانين الأساسية لعقولنا.

ولا ريب أن الفرد يدرك مباشرة نوعاً من الامتداد، بحواسه، ولا سيما بالنظر. ولكن المكان المتجانس الذي يدركه الناس جميعاً بصورة واحدة، هو مكان من أصل اجتماعي. ففي بعض المجتمعات الأسترالية، يدرك المكان على صورة دائرة، لأن المكان الذي تشغله القبيلة، دائري

(*) المرتدة، سلاح كان الأستراليون يستخدمون طلقاته التي ترتد إليهم إذا لم تصب الهدف.

(٢٤) دركهايم المصدر نفسه، ص: ٣١٣.

(٢٥) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٣٥.

الصورة ؛ ويقسم إلى عدة أقسام بعدد العشائر المنتسبة إلى القبيلة(٢٦) . ومن جهة أخرى : فإن التمييز بين اليمين واليسار أمر متعلق ببعض التصورات الاجتماعية ــ فاليد اليمنى موصولة بعالم القداسة ، واليد اليسرى موصولة بالعالم اليومي ، المباح(٢٧) .

ولا ريب كذلك أن الإنسان يشعر بتتابع أحواله النفسية الفردية ، كالإدراكات ، والذكريات ، واللذات ، والآلام ، والرغبات . الخ .. ولكن من هذه الديمومة التي تمتد فيها الحياة اليومية ، لكل منا ، سيتميّز الزمان المتجانس المشترك بين الجميع . أما تقسيم الزمن إلى أقسام متكررة دورية فيقابل دورية الشعائر والطقوس ، والأعياد ، والاحتفالات الدينية .

ثم إن الكوسمولوجية الطوطمية اقتضت تقسيم الكائنات والأشياء في مجموعات تضمها كلها : ومن هنا جاءت الأفكار العامة ، أو المفاهيم التي هيأت صورة التصنيفات الإنسانية .

ولنلاحظ أن مبادئ العقل اللا شخصي ، أي الجمعي ، جاءت ففرضت نفسها على التفكير الفردي . فإذا لم توجد مثل هذه المبادئ ، فكل عمل مشترك كان سيصبح مستحيلاً . وكذلك فإن الطقوس الإيمائية متصلة بالاعتقاد ، بأن الشيء ينتج شبيهه . وهذه أول صياغة لمبدأ السببية «فالأسباب نفسها تنتج الآثار نفسها» أي لمبدأ من المبادئ الأساسية للعقل الإنساني .

وكانت الطوطمية أيضاً هي الأصل في الحياة الجمالية . وقد رأينا سابقاً كيف أن العبادة أصبحت تسلية ، ومصدراً للألعاب ، ولبعض صور الفن ، ولا سيما فن التمثيل .

وكانت الديانة أصلاً للحياة الخلقية ، والاجتماعية ، والحقوقية ، للإنسانية . وأول ديانة معروفة هي الديانة الطوطمية . وتمثّل التحريمات أول صورة للقوانين التي يفرضها المجتمع على الأفراد .

....

وأخيراً فإن دركهايم يرى في الطوطمية أصلاً للأفكار الدينية المعدّة للتطور تطوراً كبيراً فيما بعد ، كفكرة النفس ، والروح ، والإله .

---

(٢٦) تنقسم القبيلة إلى عدد من العشائر ، متصلة بصلة خاصة من صلات الأخوة .

(٢٧) انظر Robert Hertz في مقال بعنوان : أولوية اليد اليمنى ، في المجلة الفلسفية ، عدد ديسمبر (كانون الأول ١٩٠٩) .

ويقبل الأستراليون الفكرة القائلة بأن كل جسم إنساني يحمل كائناً داخلياً، هو مبدأ الحياة، وهو النفس. (علماً بأن بعض القبائل لا تهب المرأة نفساً). وفي كل مرة، تحل نفس أحد الأجداد في جسم جديد. أما عند الموت، فإنها تعود إلى بلاد النفوس، ثم ترجع وتتقمص من جديد.

وكان الأجداد كائنات طوطمية، حيوانات، أو نباتات أو من الإنسان والحيوان، مثال ذلك، رجال ـــ كناغر. ولكن «الأجداد هم الطوطم مجزءً»[٢٨] إذ أن تجسد أو تقمص جدٍّ ما هو الذي يأتي بالنفس، أو الروح الفردية، «أما النفس، بصورة عامة، فما هي بشيء آخر غير المبدأ الطوطمي، المتجسد في كل فرد»[٢٩]؛ إنه «من المانا المفرّدة»[٣٠].

وبهذا نبيّن أن النفس شيء مقدَّس، متعارض مع الجسم، الذي هو شيء عادي profane أو غير مقدَّس.

وفي المجتمعات التي ضعفت فيها الطوطمية، يمكن أن تعتبر النفس، كشيء على صورة الحيوان: ويتصورها هنود أمريكا الشمالية، أو شعب البورورس البرازيلي، كما لو أنها دب، أو غزال، أو طائر، أو حية، أو عظاية Lézard، أو نحلة. فإذا مات الإنسان، استعادت نفسه صورتها الأولى، وتقمصت من جديد في جسد حيوان ما. ويحسب دركهايم أن فكرة التقمص الواسعة الانتشار قد جاءت من هنا[٣١].

فإذا تجرَّدت النفوس من أجسادها، أصبحت أرواحاً. وبقاؤها بعد موت الأجساد، شيء لا بد منه لاستمرار الحياة الجمعية. ثم إن جزءاً من روح الأجداد، يتجسّد من جديد في جسد المرأة؛ وجزءاً آخر يسهر على حياة الوليد الجديد؛ ويحمي الإنسان، ويكون له كالملاك الحارس. ومن نفوس الموتى، من تتخذ مسكناً لها في الغابات، أو الكهوف، وتصبح أرواح الطبيعة.

وبعض الأرواح التي ينظر إليها، من حيث أنها هي التي قرّرت الطقوس أو الشعائر المشتركة لكل القبائل التابعة لمجموعة ما، تصبح آلهة قبلية حقيقية. بل لقد يحدث أن تكون هذه الآلهة معروفة لدى قبائل أخرى، دُعيَ ممثلوها لاحتفالات التكريس «وهي نوع من الأسواق الدولية، لها صفة

---

(٢٨) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٦٦.

(٢٩) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٥٥ ـــ ٣٥٦.

(٣٠) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٧٨.

(٣١) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٣٧٤ ـــ ٣٧٥.

دينية وعلمانية بآن واحد» ويمكن أن تتبنى هذه الآلهة من قبل هذه القبائل الأخرى. وهكذا يتم تبادل الأفكار، وتتألف أو تنشأ أساطير عالمية. ونلاحظ من خلال ذلك أن «العالمية الدينية، ليست بالسمة الخاصة بالأديان المتقدمة الحديثة»(٣٢).

مثال ذلك أن الإله بونجيل Bunjil قد أصبح الألوهية المعبودة في قبائل كل دولة فكتوريا تقريباً. ولها نفس الصفات لديها جميعاً.

«فهي كائن لا يفنى، بل وخالد أيضاً؛ لأنه لا ينشأ عن أي كائن آخر. وبعد أن مكث في الأرض زمناً ما، ارتفع إلى السماء، وهو يستمر في الحياة فيها محاطاً بأسرته؛ وتعزى إليه قدرة على تحريك الكواكب. وهو الذي نظم مسيرة الشمس. وهو الذي يجعل البرق ينبثق من السحاب، ويرمي بالصواعق. ولما كان هو الرعد، فإنه كذلك على صلة بالمطر: وإليه نتجه عندما ينقص الماء علينا، أو عندما يزداد سقوطه بصورة مفرطة. ويتحدث الناس عنه كما لو أنه شبيه بالخالق. ويدعى بأبي البشر، ويقال إنه هو الذي برأهم(٣٣)...

ويقول دركهايم: ها قد وصلنا إلى أعلى تصور ارتقت إليه الطوطمية. وهذا التصوّر هو النقطة التي يتصل فيها بالأديان التالية، ويهيئ لقيامها(٣٤).

ولا شك أن نظرية دركهايم هي النظرية الأكمل والأعمق بين كل النظريات التي اقترحت حول الطوطمية. ويمكن القول: إنها تظل بناءً نظرياً صلباً. بيد أنها بعيدة عن أن تكون النظرية الوحيدة التي تشرح وتفسّر هذا الحادث الديني. ويعدّد Arnold Van Gennep ثلاثاً وأربعين نظرية مختلفة، حول هذا الموضوع، في كتابة ذي العنوان: «الحالة الحاضرة للمشكلة الطوطمية(٣٥)».

ولقد أثارت أفكار دركهايم مناقشات حادة. وانتقد بشكل خاص ذلك التفسير السوسيولوجي الذي يقدمه للوقائع المعروضة من قبله.

ومن وجهة نظر عامة، اعتبر توحيده بين «المقدّس» والاجتماعي، موضوعة غير مبررة(٣٦).

---

(٣٢) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤١٣ ـ ٤٢٢.

(٣٣) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٣٤) دركهايم، المصدر نفسه، ص: ٤٢٢.

(٣٥) نشر دار Ernest Leroux عام ١٩٢٠.

(٣٦) انظر ماسيلي في هذا الكتاب، حول هذا الموضوع.

أما فيما يتصل بالمجتمعات الأسترالية خاصة، فإن من الصعب أن نقبل تفسيره للحياة الدينية كلها، بالحاجة التي شعرت بها القبيلة، إلى شعار نباتي أو حيواني يميّزها من القبائل الأخرى. ذلك أن الشقة كبيرة بين السبب ــ الذي هو الحاجة إلى امتلاك شعار، أو رمز ــ وبين النتيجة ــ التي هي تنظيم اجتماعي وديني، على ما يقول رونيه دوسو René Dussaud، في مقدمته إلى تاريخ الأديان [٣٧].

وقول دركهايم، بأن الصورة الطوطمية أقدس، بالنسبة إلى الرجل البدائي، من الكائن الطوطمي نفسه، قول هو أيضاً غريب حقاً. ويبدو أن الأمر الطبيعي هو أن تمضي القداسة من الكائن أو الشيء، إلى صورته. فليس الصليب بمقدّس إلا بالنسبة لأولئك الذين يرون شخصية المصلوب، شخصية إلهية.

وأخيراً، وبشكل خاص، فإن الانتقال من الطوطم إلى المانا يبدو صعباً على الفهم. وربما اعتقدنا، بالعكس، أن الطوطم يملك صفته المقدّسة، بسبب المانا، وأنه شكل من أشكال التجسد، قد يكون بدائياً جداً، للقوة السحرية الدينية المنبثة، التي لا يمكن إنكار وجودها في كل الأديان [٣٨].

أما بالنسبة إلى أعضاء القبيلة، فسيكون ذلك نوعاً حيوانياً أو نباتياً يتكثف فيه أكبر قدر من المانا [٣٩].

وإذا نحن نظرنا إلى فكرة المانا كشيء سابق لفكرة الطوطم، فربما قربنا بين الطوطمية والإحيائية أكثر مما فعل دركهايم.

---

(٣٧) باريس، نشر Leroux، ١٩١٤، ص: ١٥.

(٣٨) انظر Van Gennep, L 'Etat actuel du probléme totémique,p.48.

(٣٩) انظر ماسيلي.

الفصل الثاني

الإحيائية

يمكن أن نفهم من كلمة الإحيائية أنها الديانة التي تضع في الطبيعة كلها، أرواحاً شبيهة، بدرجات متفاوتة، بروح الإنسان.

ولقد سميت الإحيائية، في البداية، باسم الوثنية. وكانت هذه الكلمة قد أدخلت في تاريخ الأديان في القرن الثامن عشر على يد الرئيس De Brosses (١٧٠٩ ــ ١٧٧٧) مؤلف الكتاب: Du Culte Des Dieux Fétiches (حول عبادة الآلهة الوثنية) الذي ظهر عام ١٧٦٠.

وقد جاءت كلمة Fétiche أو الوثن من الكلمة البرتغالية، Fétiço، المشتقة من اللاتينية Facticius: وبهذه الكلمة التي تدل على معنى الشيء ــ الجنيّ، أو الشيء المسحور، المالك لصفة سحرية، كان البحارة البرتغاليون يسمون الأشياء المتصلة بالتقوى، وأدوات السحر عند السود.

ويرى الرئيس «دوبروس» أن عبادة الأصنام أو الأوثان، كانت في أصل الأديان كلها.

وهذه الفكرة، وهذه الكلمة «كلمة الوثنية» هما اللتان كان الفيلسوف الفرنسي أوغوست ــ كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) قد تبناهما عندما صاغ، في أول درس من دروس الفلسفة الوضعية، قانون الأحوال الثلاث، المشهور.

وتبعاً لهذا الفيلسوف، فإن العقل الإنساني مَرَّ بثلاث مراحل: المرحلة اللاهوتية، التي كان فيها الإنسان يعلّل الحوادث بإرادات شبيهة بإرادته، ولكنها أقوى وأجل؛ والمرحلة الميتافيزيكية التي

كان الإنسان فيها يعلل هذه الحوادث بمجرّدات، هي قوى الطبيعة؛ وأخيراً المرحلة الوضعية، التي كان الإنسان فيها يشرح أو يُعلِّل الحوادث بحوادث أخرى.

ولكن حتى في المرحلة اللاهوتية نفسها، كان هنالك تطوّر: فلقد بدأ الإنسان «بالوثنية» حيث كان يستخدم في التعليل أرواحاً خيرّة، وأخرى شريرة. وانتقل منها إلى مرحلة تعدّد الآلهة، حيث كان يدخل في التعليل آلهة، أو أرواحاً أقل عدداً، وأعظم بأساً. ثم إنه جمع الآلهة كلها في إله واحد، وهذه المرحلة هي مرحلة الإيمان بإله واحد.

ولكن نقد فكرة «التوحيد» التي اعتبرت تعليلاً أو تفسيراً «وهمياً» أي «خيالياً» قاد بعض العقول إلى القول بحالة ميتافيزيكية، ثم بحالة وضعية...

بيد أن الباحثين فهموا أكثر فأكثر أن الشعوب السوداء، من وراء الأشياء المادية، كانوا يعبدون قوى روحية شبيهة بالأرواح. وبدلاً من فكرة «الوثنية» آثروا استخدام كلمة أخرى، أدق منها، هي الإحيائية.

وقد صاغ الاتنولوجي الإنجليزي Tylor، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نظريته في «الإحيائية» ولما جاء الفيلسوف التطوري الإنجليزي، هربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) قبل جزءاً كبيراً من تصوراته هذه.

غير أن العلامة البريطاني فرايزر Frayzer قدّم، حول الإحيائية، ثم حول الطوطمية، معلومات غزيرة.

وفي فرنسا، أواخر القرن التاسع عشر، قام ليفي برول (١٨٥٧ ــ ١٩٣٩) بدراسات جميلة حول العقلية البدائية. وفيها يلوم أنصار الإحيائية، بتشويه أفكار البدائيين، بتقريبها بصورة مفرطة لتصوراتنا نحن حول النفس. بيد أنه لا يماري أبداً أن بين الشيئين علاقات وثيقة. ويعترف طواعية بأن البدائيين كانوا يستخدمون لغة الإحيائية، عندما يعرضون علينا، هم أنفسهم، طريقة فهمهم للإنسان والطبيعة، حتى ليمكننا أن ننصح من يريد أن يملك فكرة دقيقة عن التصورات الإحيائية، بقراءة الكتب الستة الكبيرة، التي خصصّها ليفي برول، لدراسة العقلية البدائية[1]، أو

(١) العقلية البدائية (باريس ــ ألكان) ١٩٢٢، وقبله كتاب الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية (Paris, Alcan, 1910) و«الروح البدائية» (Paris, Alcan, 1927) وكتابه: الخارق للطبيعة، والطبيعة في العقلية البدائية (Paris, Alcan, 1931)، و«الميتولوجيا البدائية» (الدار نفسها عام ١٩٣٥) والتجربة الصوفية والرموز لدى البدائيين (الدار نفسها عام ١٩٣٨).

بقراءة كتابه: قطع مختارة، الذي جمع فيه الصفحات الأكثر دلالة من أعماله السابقة[٢].

ويجب الاعتراف بأن من المستحيل أن يُفصَل بوضوح بين الإحيائية وبين التصورات الدينية القريبة منها.

ونحن نجد في الإحيائية بعضاً من الأفكار الأساسية في الطوطمية: كفكرة المانا، وفكرة التابو، وفكرة الأجداد الخرافيين ـــ الذين يصورون بصور نصف حيوانية، ونصف إنسانية.

ومن جهة أخرى، فإننا نجد بعض بقايا من الإحيائية، وبعض رواسب من الطوطمية في كل الأديان، وفي كل المناطق. (وسنوضح ذلك في الفصول التالية.).

بيد أن لنا الحق باستخدام كلمة الإحيائية، للدلالة على ديانة عدد كبير من المجتمعات، أكثر تطوراً من القبائل الأسترالية، ولكنها بالقياس إلى المجتمعات الحضارية القديمة، تبدو بدائية: مثال ذلك، المجتمعات السوداء في أفريقيا غير المسلمة، والمجتمعات البولينيزية، والمجتمعات الهندية في الأمريكتين، وشعوب الأسكيمو، الخ.

ويحسن بنا أن ندرس معتقدات هؤلاء البدائيين، فيما يتصل بالنفس والطبيعة، وممارساتهم السحرية، واحتفالاتهم الدينية.

....

وعند البدائي، أن النفس (التي قد تعني الروح أيضاً)، متصلة اتصالاً وثيقاً، ببعض أقسام الجسم؛ وعند الأستراليين، أنها متصلة بصورة خاصة بشحم الكلى.

ثم إن النفس تستطيع أن تترك الجسد، موقتاً، من غير أن يؤدي ذلك إلى الموت: فكأن لها، على بعض البعد، شيئاً من الحضور، بالنسبة إليه. وقد درس فرايزر في كتابه «الغصن الذهبي» هذه النفس الخارجية، بشكل خاص. وأوضح أن النفس يمكن أن تسرق، وتؤكل، وتنقل، بل ويُعوَّض عنها، في بعض الأحيان، وتُرَقّع وتُصلح، الخ[٣]. ويحدث لدى قبيلة الشيروكية

(٢) نشر كتابه هذا في دار Gallimard عام ١٩٣٦ ـــ ويمكن أن ننصح بقراءة كتاب Rich.Kreglinger، دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية بروكسل، Lamertin (١٩١٩). فإذا زار الإنسان باريس، استطاع أن يزور متحف الإنسان، في التروكاديرو الغني بالوثائق حول الحياة البدائية.

(٣) ليفي برول، الروح البدائية L'Ame Primitive، ص: ١٥٩.

Cherokee ، أن يعمد الرئيس ، خلال معركة ما ، أن يضع نفسه أو روحه في أعلى شجرة من الأشجار ؛ وعبثاً يُستهدف من قبل العدو ، أو تصوّب إليه السهام ، إذ أنه لا يقتل ولا يجرح . لكن عدوه الذي يعرف أيضاً هذه الحيلة الحربية ، يصوب ضرباته على الأغصان : وعندئذ يموت الرئيس .

وعند البدائي أن شخصيته لا تقف عند محيط شخصه . ذلك أن العقلية البدائية تضم إليه ، بالإضافة إلى جسده نفسه ، ما قد ينمو أو يكبر فوقه ، وما يخرج منه ، أي كالمفرزات والبراز ، مثل الشعر ، والأظافر ، والدموع ، والبول ، والمني ، والعرق . وتستطيع الممارسات السحرية أن تؤثر في هذه المنتجات الجسدية ، لتجعل الأثر ينتقل إلى الشخص نفسه ، من حيث أن منتجاته هذه جزء منه . ومن هنا جاء الحذر ، لدى عدد كبير من المجتمعات ، والخوف من أن تقع شعراته ، أو أظافره ، أو برازه ، الخ ، في يد الآخرين ، ممن يكنون له نيّات سيئة . ذلك أن امتلاك هذه الأشياء ، يعني القدرة على التصرف بحياته . فشعر الإنسان أو مفرزاته هي شيء منه ، كرجليه ، أو يديه ، أو قلبه ، أو رأسه . إذ أنها تخصّه بأكمل معنى لهذه الكلمة . ونحن نسمي هذه منذ الآن باسم خصوصياته appartenances (أي ما يخصه أو يعود إليه) .

« ويجب أن نضيف إلى هذه « الخصوصيات » تلك الآثار التي يتركها جسد الإنسان على المقعد أو الأرض ، ولا سيما آثار الأقدام[٤] . فإذا نحن وضعنا طفلاً فوق الآثار التي يتركها ساحر كبير ، فإننا نأمل أن تكون له مثل قوته وتأثيره » .

ومن خصوصيات الإنسان أيضاً ، ظلّه ، وخياله في الماء ، وصورته (ومن هنا جاء الخوف من أن يُرسم ، أو يُصوّر ، وهو خوف عام لدى البدائيين) . ومنها كذلك اسمه . ويقول راسموسين Rasmussen ، أحد كبار من درس جماعة الأسكيمو .. إن الإنسان يتألف عندهم من جسد وروح واسم . وقد أشار أحد السواح إلى أنه رأى فيجيين في حالة النزاع يصرخون هاتفين باسمهم بصورة متصلة على أمل أن تبقى لهم الحياة .

ومن الخصوصيات لباس الرجل : فالمرأة التي لبست ثياب رجل يتصبّب العرق منه ، تصبح حاملاً . ومن الخصوصيات كذلك ، تلك الأدوات الكثيرة الاستخدام . وبعض المجتمعات تحرق مخلفات الإنسان كلها لدى موته .

وينشأ الموت عن أن النفس (الروح) التي هي مبدأ الحياة وأصلها ، تغادر الجسد نهائياً . غير

---

(٤) ليفي برول ، المصدر نفسه ، ص : ١٣٣ ـــ ١٣٤ .

أن روح الفرد تظل متصلة بجثته، التي ينبغي أن نعنى بها، حتى لا ينتقم الميت من الأحياء الذين يغار منهم. والموتى بحاجة إلى الطعام والشراب، والتمجيد. والعقلية البدائية ـــ التي يكشف ليفي برول عن لا منطقيتها ـــ من حيث أنها لا تستبعد التناقض ـــ تقبل أن يكون الميت غائباً وحاضراً في أمكنة كثيرة، في الوقت نفسه. ولما كانت هذه العقلية تقبل الحضور الثنائي للموتى، فإنها تعتقد أن هؤلاء يمكنهم في بعض الظروف، أن يظهروا للأحياء، على كونهم يسكنون عالماً آخر.

«إن الموتى يعيشون... وعالم الموتى هو المقابل النقيض لعالم الأحياء. فكل شيء فيه معكوس[٥] ولما كان ليلنا بالنسبة إليهم هو النهار، فإنهم يأتوننا في الليل، والخطر كل الخطر في أن نلقاهم ليلاً. ومع ذلك فإن مجتمعات الموتى، مقسومة إلى قبائل، كقبائل الأحياء.

وقد يحدث للموتى أن يتقمصوا من جديد. وقد يحدث أيضاً أن يختفوا نهائياً.

ولو أن الأمر يتعلّق بنفوس (أو أرواح) روحية تماماً، فستكون هذه خالدة، بالضرورة. ولكن المجتمعات البدائية التي تجهل هذا النوع من النفوس (الأرواح)، لا نعثر لديها على اعتقاد بالخلود. والاعتقاد البديل، هو بعض البقاء بعد الموت. وما من مكان يُظن فيه أن هذا البقاء لا نهاية له. والاعتقاد بموت الموتى هو اعتقاد، عملياً، شامل[٦].

وعلى كل حال، فإنهم ما داموا أحياء، فإن هناءهم، وازدهار أحوالهم، وحتى استمرار ذريتهم، كل ذلك لا يتعلق إلا بإرادتهم وحدها.

....

إن عالم البدائي مؤلف من صور، تتخذ دوماً كحقائق؛ سواء أأدركت خلال اليقظة، أم عمرت النوم، أو تذكرها الإنسان على سبيل التنبؤ بما سيحدث، أو كانت تقابل تقاليد قديمة. وتوضع الأحلام والتنبؤات، والموضوعات الميتولوجية التي تعرض على أنها تاريخ الكائنات الخارقة للعادة، على مستوى واحد هي والإدراكات (كما لو أنه لا فرق بين عالم اليقظة وعالم الأحلام). وهكذا يَختلط باستمرار عالم الطبيعة، وما هو فوق الطبيعة.

---

(٥) ليفي برول، المصدر نفسه، ص: ٣٨٢ـــ٣٨٦.

(٦) ليفي برول، المصدر نفسه، ص: ٣٩٨ـــ٤٠٦.

ففي أفريقيا الاستوائية، مثلاً، يرى الناس أن الرحلة التي يقومون بها في الحلم، كالرحلة التي يقومون بها فعلاً. وذاك الذي يحلم بأن حية عضّته، ينبغي عليه أن يتبع نفس العلاج الذي كان سيعالج به لو أن الحية عضته فعلاً.

ثم إن الصور التي يتألف منها العالم الخارجي هي نفسها ملأى بقوى روحية، أو تسيطر عليها هذه القوى. «وكلمة الروح، على الرغم من أنها دقيقة جداً، هي أقل الكلمات سوءاً للتعبير عن هذه التأثيرات، التي تمارس باستمرار، حول البدائيين[7].» وتبرّر ملاحظة ليفي برول هذه، استخدام كلمة الإحيائية، على الرغم من النفور الذي تثيره هذه الكلمة لدى هذا المفكر المتشدد...

وتتخذ الأمزجة والاستعدادات العاطفية الإنسانية، مكانها بين هذه القوى الروحية. ذلك أنها تتظاهر وتساهم، بحكم قوتها نفسها، في إثارة أحداث مسعدة أو بائسة. ففي تاهيتي يُنيم أحد الزهاد الأتقياء، رجلاً أبيض في قميص أعطاه أحد المجذومين من أصحاب المشاعر النبيلة؛ ذلك أن هذا التماس لا يبدو له خطِراً: فالجذام، كما يرى، لا ينتشر إلا إذا كان المجذوم يشعر بالحقد تجاه من يختلط بهم...

وإذا كانت العقلية البدائية مُوَجّهة بهذه الصورة، فإنها ليست بسابقة للمنطق فقط، بل إنها صوفية أيضاً. ويهيمن عليها قانون اكتشفه ليفي برول، وأطلق عليه اسم «قانون المشاركة.» «فالأشياء، والكائنات، والحوادث، في التصورات الجمعية للعقلية البدائية، يمكن أن تكون هي نفسها وأشياء أخرى غيرها، في آن واحد، بصورة لا يمكن أن نفهمها نحن. وبصورة ليست أقل عسراً على الفهم، نراهم يصدرون ويتلقون قوى، وقدرات، ومزايا، وأفعالاً روحية، تُشعر بأثرها بعيداً عنهم، دون أن تنقطع عن أن تكون موجودة حيث هي.»[8].

مثال ذلك، أن بعض هنود شمال البرازيل، أي البورورو، يعلنون على الرغم من أنهم يعرفون أنهم بشر أنهم «آرارا» (أي ببغاوات حمر). وفي كثير من المجتمعات، تعزى غزارة الأغذية، وانتظام المواسم، إلى حسن القيام ببعض الاحتفالات، أو إلى وجود شخصية تتمتع بقوة روحية.

---

(٧) ليفي برول، المصدر نفسه، ص: ٥٥.

(٨) ليفي برول، الوظائف العقلية لدى الشعوب البدائية، ص: ٧٦ — ٨٠.

وهكذا نعود فنجد في داخل «الإحيائية» كما هو الأمر داخل الطوطمية، الفكرة القائلة بوجود قوة لا شخصية، مادية وروحية، منتشرة في كل مكان، يسمونها المانا في مالينيزيا.

وعلى ما يرى Kreglinger .

«فإن الحياة الدينية للبدائيين، تعرّف كلها بالمانا. وكل الشعائر التي يقومون بها تهدف إما إلى مدافعتها عنهم، إن لم يكونوا مهيئين لتحمل الاتصال بها، وإما إلى امتصاص أكبر كمية من مادتها المقدّسة، إذا كانوا قد قاموا بالتدريب المناسب لاستقبالها. والراهب أو الكاهن، هو الإنسان الذي يملك شيئاً من المانا، ويستطيع استخدامها كما يشاء... والمعبد من ناحية ما، مكان تتجمع فيه بكمية ضخمة، هذه المانا[٩]».

....

ولئن كانت هنالك قوى روحية، يمكن أن نقارنها أو نشبهها بالأرواح، تتسرب إلى الطبيعة، وتؤثر فيها، فإن الإنسان يستطيع أن يمارس تأثيراً ما في الطبيعة، كما يستطيع أن يؤثر في الكائنات الروحية، باستخدام أقوال وحركات معيّنة. ومثل هذا الأثر هو الذي يؤلف الشيء الهام مما نسميه بالسحر.

وعلى ما يرى سالومون ريناخ Salomon Reinach (١٨٥٨ ـــ ١٩٣٢) في كلمة ممتازة له «فإن السحر هو تكنيك واستراتيجية الإحيائية[١٠]».

والكلمات، إذا هي لفظت بصوت عال، أو غُنّيت، تصبح قوى فعالة. ويمكننا إرغام المرض على الهرب بعبارة كهذه:

---

(٩) انظر Kreglinger، في كتابه: دراسات حول أصل الحياة الدينية وتطورها، ص: ١١٤ ـــ ١١٥، والمانا هي الـ nkisiلدى البانتوس Bantous، وهي الـ ounkoulounkoulou لدى الكافر Cafres، وهي/الـ andriamanitha لدى المالكاش والـ Tinh لدى الأناميين، وتعتبر كأنها مادة سائلة لزجة تنشئ هي خصائص الأشياء والكائنات، ومالها من قوى، وهي قوة عمياء يستطيع المدرّبون أن يستثمروها لحسابهم، ومنها يحصلون على آثارها الحسنة أو السيئة على هواهم (الكتاب نفسه، ص: ٩٠ ـــ ٩١) وقد ترجم بعض المكتشفين الألمان هذه الكلمة، بكلمة Lebenskraft وبكلمة Seelenstoff. وسنقرب هذه الكلمة فيما بعد من كلمة براهمان الهندية.

(١٠) Salomon Reinach, Orpheus, Librairie d'éducation nationale, 43' mille en 1933, p.32; p.46

لقد طارت الببغاء
وطار الكوكو
وطار السُماني
وطار المرض[١١]

وعندما نقلد وقوع حادث ما، نجعله يحدث فعلاً. وقبل أن نقوم بحملةٍ ما، نمثّل سلفاً تفاصيلها؛ وكانوا يرقصون رقصات حربية؛ وبهذا يضمنون الظفر. وعندما نصب الماء تبعاً لبعض الطقوس، نتزل المطر. وهذا ما يسمى بالسحر المقلّد.

ويسمون باسم السحر الودّي، ذلك السحر الذي يستخدم المشاركة القائمة بين الفرد وصورته. فإذا جرحنا الصورة، أو قضينا عليها، يعتقد البدائيون أننا جرحنا صاحبها أو قتلناه. وهذا مبدأ «الإفتتان envoûtement». ولقد رأينا سابقاً أنه يمكن التأثير في خصوصيات فرد أو آثاره، غير الصورة، مثل شعره، وبرازه، ومنديله، وعرقه ... الخ. وهذا ما يسمونه أحياناً بالسحر المعدي.

وبعض الأشياء مشحونة بقوة سحرية، فهي تبعد الشر وتدني الخير، كالرقى، والتمائم، والحُجب، والخرزة الزرقاء، وحدوة الحصان، والقطة السوداء.. الخ.

وكل صور الزينة تقريباً، التي تسر حاجة المرأة إلى الفتنة، أو حاجة الرجل إلى التأنق، لم تصبح حلياً إلا بعد أن كانت من نوع التمائم[١٢].

وهنالك سحر صالح، يمارسه الرؤساء، والكهنة والسحرة التيميون، كما أن هنالك سحراً سيئاً؛ يمارسه السحرة الممتهنون. فهؤلاء يسببون المرض والموت؛ إنهم نوع من أكلة لحوم الإنسان. «أما ضحايا الساحر فإنهم يفترسون دون أن يعرفوا السبب؛ ولا يصلحون له كطعام (أو كطعم) إن هم ماتوا؛ فإذا ماتوا، فذلك لأن الساحر أكلهم»[١٣].

وعندما يريد الساحر الطيب أن يفسد عمل الساحر الشرير، يقوم بسحر معاكس: وعندئذ — كما تقول إحدى اللواتي درسن السود الكونغوليين Mary Kingsley — «يُؤثر روح الدواء، في روح المرض».

---

(١١) أشار إلى هذا ليفي برول في كتابه: La Mythologie Primitive, p. 97.

(١٢) ليفي برول: Le Surnaturel et la nature dans les sociétés primitives pp. 4-5.

(١٣) ليفي برول: في كتابه عن العقلية البدائية، ص: ٢٧٧.

ولما كان الساحر عدواً خطراً للمجتمع، فإنه ينبغي البحث عنه؛ ويصبح موضوعاً لحكم يصدر ضدّه، أي لاختبار يوفر الطيبين، ويؤذي الخبثاء. ويتم هذا الاختبار في أفريقيا الاستوائية، عن طريق السم، الذي لا يؤذي إلا المجرم.

....

وأخيراً فإننا نجد في المجتمعات الإحيائية، كما في المجتمعات الطوطمية. ميتولوجيا، أو منظومة من الخرافات، قليلة الانسجام فيما بينها إلى أبعد حد.

وتصف الخرافات قصة عجيبة، جرت في ماض بعيد لا علاقة له بالماضي التاريخي. وهذا الماضي هو حاضر، من جهة أخرى.

وعندما يقول الروحانيون إن العالم الروحاني، هو في أصل الأشياء كلها، فهذا لا يعني أنه يتصل بماض متعال، وراء التاريخ فقط، بل يعني أيضاً، وبصورة خاصة، أن كل ما يوجد منحدر منه، أو أن ذلك العهد كان خلاقاً. وأحداث الخلق ليست بحية في الأسطورة، باعتبارها حوادث مفصولة عن الحاضر بهوة زمنية فصلتها عنه. وعبثاً يوضع المشهد الروحي في زمن الخلق، ذلك أن صناعه مايزالون أحياء، وما يزال تأثيرهم مهيمناً(١٤).

وحتى جماعة البوشمين Bushmen، اللا مبالين بالماضي، والذين يعيشون في الحاضر فقط، فإنهم يملكون عدداً كبيراً من الخرافات والأساطير.

وتضعنا الأسطورة في عالم مائع، كانت فيه الحيوانات والناس، قريبين جداً بعضهم من بعض(١٥).

وتتيح لنا الأسطورة أن نكون على صلة بالأجداد، أجداد الحقبة الأسطورية، والحصول منهم على وعد باستمرارية فعلهم، وتجدده بصورة لا تنقطع.

---

(١٤) ليفي برول الميتولوجيا البدائية، ص: ٥ــ٨، ص: ٣٩.

(١٥) ويوضح ليفي برول كيف أن فولكلورنا قريب جداً من فولكلور البدائيين. ففي قصة ساندريون، تجد العالم مائعاً، وتتم فيه الاستحالات الأعجب ما يمكن. ثم إن ذئب البنت الحمراء المسماة لدى الفرنسيين باسم Petit Chaperon Rouge هو حيــوان ــ إنسان، كما هي الحال في: le chat botté (الميتولوجيــا البدائيــة، ص: ٣١٢ــ٣١٩).

وأروع احتفالات العبادة الإحيائية، هي الاحتفالات التي تقام على شرف الأجداد الأسطوريين،ــ وهي احتفالات يرقص فيها على صوت الموسيقى، ممثلون، كثيراً ما يحملون أقنعة وألبسة خاصة.

وهذه الاحتفالات، احتفالات دينية، وعلى الأقل بما فيها من مناولة (وتآخ)، يأتلف فيها الأعضاء الأحياء في القبيلة، ويتآخون، إما مع الأعضاء الماضين، أو مع القوى اللامرئية، بحكم شدة الهيجان المقدَّس الذي يثيره الاحتفال(١٦).

ثم إن ما قبل التاريخ المتصل بأوروبا، والذي يؤول الرسوم والمنحوتات المكتشفة في مغائر فرنسا الجنوبية، أو إسبانيا الشمالية، يقرّر ويؤكد أن السكان الأول لهذه المناطق، كانوا يدينون بدين قريب من الطوطمية أو الإحيائية.

ويجب أن تكون هذه المغائر قد استخدمت كمعابد، أو أمكنة مقدَّسة. فالرسوم، والرسوم الملونة والمنحوتات كانت موجودة في آخر القاعة ــ تماماً كما هي الرسوم المصورة الشعائرية لدى السود الأستراليين المنقوشة على الجدران الصخرية، في أمكنة محرَّمة، ممنوعة على النساء واللامكرَّسين ــ ثم إن موضع هذه الأعمال الفنية، يكشف عن أن القضية هنا ليست تأنيقاً زخرفياً، بل هي عمليات سحرية. فالرجل البدائي عندما رسم، أو صوّر، أو نحت حيوانات ــ كالماموت والرنّة Rennes والبيزون Beisons، والأحصنة، والأيّلات Cerfs ــ يظن أنه يمارس نوعاً من التأثير فيها. فهو يُمثلها مجروحة، لكي تكون أسهل للقنص بأسلحته. ولا يُمثل إلا الذكور المجروحة؛ ذلك أنه يجب احترام الإناث، التي تضمن مستقبل العرق(١٧).

ولقد وجدوا في مغارة Tuc d'Audoubert (في منطقة الآرييج) زوجين من البيزونات، منحوتين في الغضار في مكان بارز، بطول يساوي ٦٠ سم: ويرى الإنسان الأنثى، في الأمام، ساكنة، ممدودة العنق؛ ثم يليها الذكر، منتصباً نصفياً على رجليه الخلفيتين «ضخماً، هائلاً، شبقاً». والغاية هنا هي الحصول، بهذا التمثيل الرمزي، على تناسل النوع الحيواني الذي يعيش منه الصيادون.

---

(١٦) ليفي برول: الخارق والطبيعي في العقلية البدائية، ص: ١٢٩.

(١٧) مثال ذلك، في مغارة Niaux (الآرييج) التي سعدت بزيارتها، نجد كل الحيوانات المرسومة مخترقة بسهم، أو مصابة بجرح طويل مرسوم بالمغر الأحمر. انظر حول علاقات السحر والفن، كتابي الذي عنوانه L'Art et la Beauté (باريس، Nathan، ١٩٢٩، ص: ١٧٢ــ١٧٨).

ولقد وجد مكتشفو هذه الرائعة، أبناء الكونت Begouen، في هذه المغارة، آثار الراقصين والراقصات، منذ ما يقرب من خمسة وعشرين ألف سنة، تلك الآثار التي بقيت مثبتة في الغضار. فالرقص والغناء والموسيقى، كان عليها أن تكون منذ ذلك الحين، على الأقل، أساليب سحرية[18].

ويمكن القول إن الحلي، والحزّ، والبتر، والوشم، كانت علائم طوطمية، تتيح لنا التمييز بين القبائل والعشائر. ولا بدّ أن بعض الحلي كانت من نوع التمائم.

لكن الفنون الأولى، التي خرجت من السحر، تطوّرت بعد ذلك، مع تطور الأديان.

....

«وهكذا فإن الإحيائية قدّمت للناس فرضية أولى، تتيح لهم دراسة العالم؛ وشجّعت البدائيين السابقين، كما تشجع بدائيي هذه الأيام، على محاولة التأثير في الطبيعة، التي يظنون أنها مسكونة بأرواح شبيهة بأرواحهم. ويمكن القول، مع أوغوست كونت، إن الإحيائية نجحت في دفع الخمول عن العقل البشري»[19].

ولقد رأينا أن السحر الإحيائي، على ما يبدو، كان في أصل الرسم، والرسم الزيتي، والنحت، والرقص، والموسيقى، وبالتالي فإنه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أصل لكل الفنون. فإذا نحن فكرنا في الدور الرائع الذي يلعبه الفن، أو يمكن أو يجب أن يلعبه، في الحياة الإنسانية، فلا بدّ أن نعترف بالجميل لهذه الديانة البدائية على ما قدمته للبشر في كل العصور من الإحسان.

---

(18) في عام ١٩٤٠، اكتشفت طفلان في Montignac (الدوردوني) مغارة ذات رسوم من العصر الحجري، ربما كانت، تبعاً لأحد الخبراء في ما قبل التاريخ، أي الراهب Breuil، كنيسة سيكستين لـ Périgourdin.

(19) أوغوست كونت. دروس في الفلسفة الموضوعية (باريس، Baillière ١٨٦٤ الجزء ٥٤.

الفصل الثالث

الديانة المصرية

انتقلت الإنسانية ــ تبعاً لأوغوست كونت، الذي كنا أشرنا سابقاً، إلى قانون الحالات الثلاث، الذي اكتشفه ــ نقول إنها انتقلت بالضرورة من عبادة الأوثان، المسماة اليوم بالإحيائية، التي تعظم من شأن الأرواح المنبثة في الطبيعة، إلى مرحلة تعدّد الآلهة، التي تقتضي عبادة آلهة كثيرة. وهذه الآلهة تشبه الأرواح، ولكنها أقل عدداً، وأعظم بأساً.

وفي وسع الإنسان أن يدرس هذا الانتقال، بشكل خاص، في مصر. ذلك أننا نستطيع هنا متابعة تطور الديانة المصرية، خلال ما يزيد عن أربعين قرناً، في بلد يقع في نقطة الالتقاء بين شعوب أفريقية، وأخرى سامية، أدى انصهارها إلى تكوين الشعب المصري.

....

ولقد قام كثير من الكتاب الأغارقة واللاتين، بتقديم معلومات كثيرة عن الديانة المصرية، بدءً من المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي كتب يقول: «إن المصريين هم أكثر الناس تديناً بين الشعوب الأخرى».

لكن هناك وثائق أخرى لمعرفة هذا الدين، هي من نظام آركيولوجي أو مما هو مكتوب، أي أنها تأتينا من الأوابد القديمة، والنقوش، ومن أوراق البابيروس. وظل الناس عاجزين مدة طويلة عن قراءة النصوص المصرية المكتوبة بالهيروغليفية (أي من كتابة تستخدم رسوماً صغيرة) أو بكتابة

سريعة، إما هيرية hiératique، أي كهنوتية، استخدمها رجال الدين والكهنة، وإما شعبية démotique، استخدمهاالناس العاديون. ولكن الإنجليزي Young، في أوائل القرن التاسع عشر اكتشف سر الكتابة الهيروغليفية، ورأى أنها لا تتألف من حروف أبجدية، وأن الكتابتين الأخريين كانتا تبسيطاً للهيروغليفية. ثم جاء الفرنسي شامبوليون (١٧٩٠ ــ ١٨٣٢) فوجد السبيل إلى فك رموز الهيروغليفية.

وخلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، تمت اكتشافات أثرية حسنة، في مصر، على يد بعثات فرنسية، وألمانية، وإنجليزية، وأمريكية، وبلجيكية، وإيطالية، الخ.

وقد اكتشفت، في الأوابد المصرية، نصوص ليس لها تلك الصفة المقدّسة لتوراة أنزلت على موسى، ولكنها تقدم لنا معلومات ثمينة عن الديانة المصرية. فكتاب الأهرامات هو مجموعة من النصوص المنقوشة على الجدران، والممرات، والغرف، في الأهرامات الخمسة في صقارة، التي يعود أحدها للأسرة الملكية الخامسة، والأخرى الباقية للأسرة السادسة؛ ويشتمل هذا الكتاب على نصوص تستخدم في الطقوس، وكتابات تتصل بمستقبل الملك في العالم الآخر؛ ومن النعوش، في هذه القطع الأثرية، ما هو قديم جداً ــ فكتاب النعوش Livre des sarcophages يعود إلى عهد الأمبراطورية الوسطى؛ وهو يتألف من نصوص مكتوبة بالهيروغليفية السريعة، موضوعة داخل النعوش الخشبية؛ ويحتوي على كتابات معدّة لحماية الميت من الأخطار المهددة له في عالم آخر، ولإتاحة العيش له فيها بسلام. أما كتاب الموتى فيعود إلى الأمبراطورية الجديدة: وقد جمعت فصوله على ملفات من البابيروس كانوا يضعونها ضمن الأقمشة التي يلفون بها المومياوات. وكانت نسخه الأرقى والأثمن محاطة الصفحات برسوم تزيينية. ويتألف هذا الكتاب، بشكل خاص، من نصوص سحرية، وصلوات، متصلة بمستقبل الموتى في الدار الآخرة.

أما الكتاب الهام جداً، فهو كتاب العالم الألماني ERMAN، بعنوان Die Religion der Aegypter[1]، والمترجم إلى الفرنسية بعنوان La Religion Des Egyptiens[2] أو ديانة المصريين. ويمكننا أن نقرأ أيضاً عرضاً موجزاً ولكنه ممتاز للمؤلف Kreglinger، في الكتاب الذي ذكرناه سابقاً، بعنوان: دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية (ص. ١٦٧ ــ ٢٥١)؛ والفصل المتعلق بالدين (ص: ٦٣ ــ ١٣١) من كتاب Les peuples de l'Orient méditerranéen:L'E'gypte،

(١) برلين ــ ليبزيغ، ١٩٣٤.

(٢) باريس ــ بايو ١٩٣٧.

الذي ألفه Etienne Driaton' وجاك فانديه Jacques Vandier(٣) ـ وهو أحدث الكتب التي تتيح لنا أن نعيد وضع المشكلة الدينية في الإطار الذي يقوم فيه التاريخ العام لمصر القديمة(٤).

....

وتكشف لنا الديانة المصرية عن بقايا طوطمية كثيرة، لابستها(٥)؛ وهي ديانة إحيائية تتميّز بشكل خاص بالأهمية المعلقة على حياة الموتى في عالم الآخرة؛ إنها ديانة متعددة الآلهة، حاول بعضهم توجيهها إلى عبادة الإله الواحد.

وفي مصر، نجد حيوانات مقدَّسة، يحترم نوعها كله في طول البلاد وعرضها؛ مثال ذلك، القطة: فقمبيز الفارسي، في القرن الرابع قبل الميلاد، الذي حاول غزو مصر، وأتته عبقريته، وجعلته يضع أمام جيشه قططاً وطيوراً من نوع أبي منجل IBIS، لم يجرؤ المصريون على توجيه سهامهم إليها. وهنالك حيوانات مقدَّسة، يحترم نوعها في مناطق معيّنة. مثال ذلك، التمساح: وقد رأى هيرودوت تماسيح زيّنت آذانها وأرجلها الأمامية بالحلي. وهنالك حيوانات مقدَّسة فردية، تختار تبعاً لعلائم مميَّزة؛ مثال ذلك ثور آبيس Apis، الأسود والذي له بقعة بيضاء مثلثة الشكل، على الجبهة.

---

(٣) باريس، P.U.F. (مجموعة Clio) ١٩٣٨.

(٤) إن زائر باريس يجد متعة كبيرة في زيارة متحف اللوفر، ويطّلع على المجموعة الفنية العائدة للآثار المصرية.

(٥) في هذا الفصل، وفي كل ما يليه، سنأخذ كلمة «بواقي» الطوطمية بأوسع معانيها. وقد كتب سالومون ريناخ يقول: حيثما اشتملت عناصر من خرافة، أو شعيرة من الشعائر، على حيوان أو نبات مقدَّس، أو إله، أو بطل ممزق أو مضحى به، أو جماعة مقنعة من المؤمنين، أو تحريم لطعام ما، فإن واجب الشارح المطلع، هو أن يبحث عن كلمة السر في مستودع المحرّمات والطواطم (Mythes, cultes et religions, paris, Leroux, 1904, t. I p. 7). ولقد مارى البعض في قيمة هذه الطريقة، وأكدّوا أنه لا يجوز الكلام عن بواق أو مخلفات طوطمية، إلا إذا أثبت الباحث أن المجتمع المدروس، كان في الماضي البعيد مقسماً إلى قبائل مرتبطة بنوع حيواني ما، أو بنوع نباتي. ولكن هذه المسألة، في مختلف المجتمعات، تلقت أجوبة، كثيراً ما كانت متعارضة، في فرضيات المختصين. ومن غير أن نحاول حل مثل هذه المعضلات في هذا الكتاب المبسّط، فإننا سنسمي باسم البواقي أو المخلفات الطوطمية، إما آثار الطوطمية بالمعنى الضيق الذي ذكره دركهيام وعرضه في الفصل الأول من كتابه، وإما آثار عبادة قديمة لحيوانات، أو لنباتات، مستوحاة من فكرة المانا التي هي في صلب الطوطمية كما هي في صلب الإحيائية.

فمعبد سيرابيس Le serapeum ، الذي اكتشفه الفرنسي ماريت Mariette (١٨٢١ — ١٨٨١) كان يحتوي النعوش التي وضعت فيها جثث تلك الثيران.

« ولابدّ أن بعض هذه الثيران المقدّسة قد أصبحت آلهة ، أو كائنات مثّلت آلهة محلية . وكثيراً ما صُحبت الآلهة بحيوانات مخصصة لها ؛ وكثيراً ما مُثّلت برؤوس حيوانات أو ببعض تفاصيل مستعارة من العالم الحيواني . مثال ذلك ، هوروس Horus ذو الرأس الصقري ، وأنوبيس الذي له رأس ابن آوى ، وتوث Toth الذي له رأس ابيبس (الطائر الذي اسمه أبو منجل ، والذي يشبه البط . وكان يظهر مع فيضانات النيل ، ويقضي على الحيّات والثعابين) ، وباستيس Bastis ، الذي له رأس قطة ؛ وإيزيس Isis الذي كثيراً ما يُمثّل ، بوجه فيه قرون بقرة . وكان خنوم Khnoum إلهاً محلياً في مصر العليا ، ويُمثل بصورة تيس ، أو برأس تيس . وكانت أسطورته تجعله الإله الخالق ، الذي سَوّى العالم ، من أعالي برجه الفخاري ، كما كان يُسَوّي جسم كل إنسان »[٦] . ويذكرنا هذا الحيوان — الإنسان بصورة خاصة ، باساطير الطوطمية .

وبمناسبة هذه الملاحظات الأخيرة ، يقول المؤرخ السويدي ، سوديربلوم Söderbelom ؛

« إن تاريخ الأديان لا يدعم فكرة اكسينوفان وفورباخ التي ترى أن الآلهة صيغت على صورة البشر . فالإلهي (أو الله) ، كقاعدة ، يتخذ صورة حيوان قبل أن يتبنى السمات الإنسانية . وعند البدائي ، أن الحيوان أكثر خفاءً من الإنسان . ولكن ما من مكان بقيت فيه عبادة الحيوانات ، بمثل هذا الإصرار ، كما بقيت في الديانة المصرية[٧] .

ثم إن الإحيائية كانت أيضاً واحدة من معتقدات مصر القديمة . فهناك أرواح تقوم بأمر الطبيعة ، والنجوم ، والشمس خاصة ، والأشجار ، والأنهار ، ولا سيما النيل .

وقد عرفت مصر القديمة السحر ومارسته . وكان فيها رُقى ، وتماثيل شافية . وكانت هذه التماثيل مغطاة بتعويذات أو تعازيم ، ضد الثعابين والعقارب ؛ وأي إنسان عضّته هذه ، كان عليه أن يصب الماء على رأس التمثال ؛ فإذا مرّ الماء على النصوص المنقوشة اكتسب القدرة على الشفاء ؛ ويكفيه أن يشربه حتى يعافى .

---

(٦) انظر : Dri on et Vandier, L 'Egypte, P. 70 .

(٧) انظر كتاب هذا المؤلف الذي عنوانه ، م تز تاريخ الديانات Manuel d 'histoire des religions ، ترجم إلى الفرنسية ، ونشر في باريس في دار Leroux ، ام ١٩٢٥ ، ص : ٧٥ . وسنتساءل فيما بعد عما إذا كانت الـ KA المصرية ليست اسماً آخر لطوطم ، (ص ٤٨) .

غير أن مشكلة استمرار حياة الموتى في الآخرة، مشكلة شغلت المصريين بشكل خاص. وتختلط في وعيهم، في هذا الموضوع، أفكار كثيراً ما تبدو لنا غامضة. لكن في وسعنا أن نوضحها عندما نفهم ماذا يعني بالنسبة إليهم الإنسان الحي. لقد كان هذا الإنسان يتألف من جسم، وظل، وصورة، واسم، ونفس (أورورح ba) ومما سمي القرين Ka. وهذه العناصر المختلفة تلعب، أو يمكن أن تلعب، دوراً في حياة الآخرة.

فلا يجوز أن يُشوّه الجسم، أو يُمزق إرباً إرباً، من قبل أعداء الميت؛ ويجب أن يحفظ ويصان من كل عدوان، ويحافظ عليه بكل الوسائل. ومنذ أن جاء العصر الحجري الجديد، أخذ الشعب يضع موتاه في قبور، ويُوَجِّه وجهها إلى ناحية المساكن (لكي يستطيعوا ملاحظة ذريتهم) وتقرّب اليد إلى الفم، وفيها حبات قمح، يوضع مثلها حول الرأس. وبسرعة أخذوا يحنطون الجثة، أو كانوا يفرغونها مما فيها، ويحفظونها، ويحنطونها بعد ذلك.

وعندئذ كانوا يضعون الجثة ـــ المومياء، في آبدة جنائزية، هي بيت خلود. أما في عهد الأمبراطورية القديمة، فكانوا يدفنون الفراعنة داخل الأهرامات: وكل الناس يعرفون اليوم هرم الجيزة العظيم، الذي يحميه السفنكس. وما من منظر يمكن أن يوحي للإنسان بمثل هذه العظمة وهذا السر. وتعود أهرامات الجيزة إلى عهد الأمبراطورية الرابعة، أي إلى الألف الثالثة قبل الميلاد؛ وتعود أهرامات صقارة إلى الأسرتين الخامسة والسادسة. وحول الهرم الملكي، نجد الأهرامات الصغيرة المخصّصة للملكة، ولأفراد الأسرة الملكية، ولقبور بعض الأفراد القريبين، وتدعى عندئذ باسم المصطبة. (أو هكذا كان يسميها عمال ماريت). وكلما تقدمنا في الزمن، كانت الأهرامات تصغر وتتضاءل، والمصاطب تكبر وتتعاظم. وفي أواخر الأمبراطورية القديمة، وأثناء الأمبراطورية الوسطى والجديدة، أخذ الناس يعتقدون أن الجثة تحفظ بشكل أفضل، إذا وضعت في قبر تحت الأرض، أو ما يسمى باسم hypogées أو (الناووس).

ولما كانت الصورة معادلة للحقيقة، فإنهم يضمنون استمرار الحياة للميت عندما يقيمون له نصباً أو تمثالاً في قبره، ويفضل أن يكون ذلك في قبر آخر غير ذاك الذي يحتوي مومياءه. ومن هنا نشأت تلك التماثيل الرائعة للفراعنة، أو للشخصيات الرفيعة الشأن. وهي روائع في النحت العالمي. وجدت مقبورة في مقابر مصرية، خفية على كل الأنظار.

ولا يكفي أن يعيش الميت بعد موته فقط؛ بل يجب أن يكون في الآخرة، سعيداً. ومنذ الأزمنة السابقة للتاريخ كانوا يضعون في القبر أغذية وحلياً، وعقوداً من اللؤلؤ، وأشياء تصلح لزينة

الوجه والشعر، مصنوعة من العاج. كما توضع تماثيل صغيرة أو نقوش بارزة تمثّل نساء يرتدين لباسهن، أو عاريات، ينبغي أن يكنّ خليلات، أو إماءً، وأوشيبتي ouchebeti، أي بدائل أو نواباً، يقومون مقام الميت، إذا اقتضى إله قاس منه أعمالاً شاقة. والرائعة الأولى التي هي من هذا النوع هي الحاملة الأنيقة للقرابين في اللوفر.

....

ولما كانت الصورة معادلة للحقيقة، فقد كانت ترسم أفاريز داخل النعش، تمثّل كل الأشياء التي كان الميت يستخدمها أثناء حياته. وكانت الأطراف الدنيا تنحت وتلوّن بصورة تمثّل الميت، وهو يشرف على الأعمال في أراضيه، أو يتلهى أمام موائد فخمة، أو رحلات، أو متقبلاً هبات كثيرة. ويعتقد Maspéro، ومعه كثير من الاختصاصيين في التاريخ المصري القديم، أن هذه الصور الأخيرة ينبغي أن تخلق للميت، بصورة سحرية، ما يقابل الأشياء المرسومة، خلقاً فعلياً.

وللاسم قوة أكبر من الصورة. فيضمن بقاء الحياة للميت، عندما ينقشون اسمه كتابة تستمر ظاهرة، ويطلبون إلى الكهنة والمارة أن يلفظوا اسمه.

والروح هي أيضاً لا تقبل الفناء. ويعبرون عن هذه الفكرة، هيروغليفياً، بطائر ذي رأس إنساني. ويتمثلونه طائراً في السماء، قريباً من الشمس، أو يعيش في عالم تحت—أرضي، أو يقيم فوق الأرض في واحات سعيدة.

ويطلعنا كتاب الموتى على العقبات التي يلقاها الموتى في عالم الآخرة؛ والوسائل التي يتوسل بها في حل هذه المصاعب. وقد يحدث، أثناء التشييع، أن يُمثّلوا مسرحيات درامية ترمز إلى انتصار الميت على أعداء شياطين.

....

ويبدو أن الملك وحده، في الأسر الأولى، كان له الحق في الخلود، في عالم شمسي؛ ولكن كان عليه، لكي يقبل في عداد الآلهة، أن يخضع لمحاكمة، وأن يبرهن على أنه أشاع العدل بين الناس في

الأرض . لكن هذه الميزة شملت بعد ذلك ، بعض كبار الموظفين . ثم إن هذا الحق أعطي للجميع . ولكن هؤلاء جميعاً كانوا يُلزمون بالخضوع لمحكمة إله الموتى الأكبر ، أي أوزيريس . وهم ملزمون جميعاً بتبرير سلوكهم . وتختلط بالمفاهيم والتصورات الدينية ، منذئذ ، بعض الأفكار الأخلاقية ذات القيمة المختلفة ، لكن بعضها جميل جداً .

ويطلعنا الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى على الاعتراف السلبي الذي كان ينبغي أن يقوله الميت أمام محكمة اوزيريس .

« إني لم أؤذ أحداً قط ، بالخداع ، ولم أجعل أقربائي بؤساء . ولم آت بأية دناءة في بيت الحقيقة . ولم أتواطأ مع الشر ، ولم أفعل الشر ، ولم أطلب ، كرئيس للناس ، أن يقوموا بأعمال إضافة إلى المهمة (التي اتفق عليها) ؛ ولم يوجد بسببي ، لا خائف ، ولا فقير ، ولا مريض ، ولا بائس . ولم أعمل قط ما تكرهه الآلهة ، ولم أكذب على أي إنسان ، ولم أدع السيد يسيء معاملة عبده ، ولم أسبب الجوع لأحد ، ولم أحمل أحداً على البكاء . ولم أقتل قط . ولم آمر مطلقاً بالقتل ، بصورة غير مشروعة . ولم أكذب على أحد . ولم أنهب مطلقاً مخزونات المعابد . ولم أقلّل من المواد المخصّصة للآلهة . ولم أنهب ، خبز المومياوات ، ولا أشرطتها . ولم أزن قط . ولم أرتكب أعمالاً مخجلة مع كاهن في منطقتي الدينية ، ولم أغلِ أسعار المواد التموينية ، ولا قللتها ... ولم أضغط قط على الميزان ، ولم أتلاعب أو أغش في الوزن الذي أشار إليه الميزان . ولم أبعد الحليب قط عن فم الرضّع . ولم أنهب مطلقاً من الماشية ، في مراعيها ، شيئاً . ولم آخذ طيور الآلهة بالشبكة . ولم أصطد سمكاً ميتاً . ولم أدفع قط الماء أيام الفيضان ، ولم أحرف الماء عن قناته . ولم أطفئ مشاعل المعابد في وقتها . ولم أغش في القرابين المقدّمة للآلهة ، ولم أدفع الحيوانات والماشية المملوكة للآلهة ، ولم أكن عقبة في وجه إله ، أثناء رحيله . إني بريء ، بريء ، بريء[(٨)] .

لكن الحاشية التي توضّح هذا النص في بعض النسخ ، ترينا أوزيريس ، جالساً على عرشه ، وأمامه « المرحوم » الذي وضع قلبه على كفة الميزان ، أمام الحقيقة كوزن مقابل ، في كفة الميزان

(٨) انظر : Pierret, Le Livre des morts des anciens Egyptiens, Paris, Bibliothèque orientale elzévirienne, 1.re éd. en 1882, 2e éd. en 1907 .

الأخرى. ويأتي الإله Toth فيسجل نتائج الوزن. وعندئذ تعذّب الروح التي كذبت، ثم تعدم. أما الروح التي صدقت «فإنها تدخل في ملكوت السعداء[٩]».

والنفس، من حيث هي خالدة، هي أيضاً القرين. وهكذا تترجم كلمة Ka، التي كانت مثار نقاش، مرات عديدة[١٠]. ويبدو أن الكا تمثّل أعمق ما يوجد في شخصية الفرد، وكأنها انبثاق جديد لكا عائلية، أي أنها نوع من الأصل génie المشترك لكل أفراد المجموعة groupe. ولكن هذا التعريف يقرّب الـ «كا» من الطوطم. وهكذا فإن المختص بالشؤون المصرية، الممتاز، الفرنسي Maret[١١]، يرى، وهو يستلهم ذلك من نظريات دركهايم، أن الـ «كا» هذه هي تفريد المانا، أو قل المادة الإلهية.

وعلى الرغم من الاعتقادات المتصلة بحياة الآخرة، فإن بعض المصريين يقدّرون أن السعادة يجب أن يبحث عنها في هذه الأرض، فقط. ومثل هذا التضاد الحاد في الأفكار، يكفي للبرهان على الحيوية العقلية التي يتمتع بها هذا الشعب. ــ ويذكرنا سوديربلوم بالحكمة المصرية القائلة «حياة، وهناء، وصحة»[١٢]. ويشير Kreglinger، حول هذا الموضوع، إلى بعض النصوص الممتعة.

فهذه امرأة ميتة ترسل إلى زوجها هذه الرسالة:

«يا رفيقي، يا زوجي! لا تكف أبداً عن الطعام، والشراب، والاستمتاع بلذات الحب مع النساء، وإقامة الاحتفالات! وأقبل على كل اللذات، ليلاً ونهاراً! ولا تدع المجال للهموم لكي تشغل أصغر مكان في قلبك. ذلك أن الذي يسود في بلاد الغرب، هو النوم والظلام. إن هذا مسكن لن

---

(٩) يكشف Kreglinger عن الأهمية التاريخية الأساسية لهذا الاعتراف: «لا يمكن أن ننسى ونحن نقرأ هذا النص، أن العهد الذي كتبت فيه هو العهد الذي كان يعيش فيه الإسرائيليون في مصر، وبالتالي لا يمكن أن ندهش عند العثور على كثير من الأفكار المتشابهة، وأحياناً نفس الأفكار، في الوصايا العشر التي تلقاها موسى من ربّه، وعلمها لبني إسرائيل الذين كان يقودهم في الصحراء». انظر: Etudes sur l 'origine et le développement de la vie religieuse, p. 198.

(١٠) Kreglinger، المصدر المذكور عنه سابقاً. ص: ١٩٨ ــ ٢٠٤ و Drioton et Vandier في كتابهما عن مصر، ص: ١٢٤ ــ ١٢٥.

(١١) انظر Moret، في مقاله الذي عنوانه: هل الـ «كا» المصرية طوطم قديم. في مجلة تاريخ الأديان، الفصل LXVII (١٩١٣) ص: ١٨١ ــ ١٩١.

(١٢) سوديربلوم: موجز تاريخ الأديان، ص: ٧٦ ــ ٧٧.

يخرج منه أبداً أولئك الذين وجدوا فيه . إنهم ينامون على صورة المومياوات ، ولن يستيقظوا أبداً ... أما الإله الذي يملك الأمر هنا فيسمى : الانطفاء المطلق . » .

ثم إن أغنية هاربيست Harpiste ، الشعبية ، منذ الأمبراطورية الوسطى ، أي منذ الألف الثالثة قبل العهد المسيحي ، والتي كانوا ينشدونها ، حول القبور ، فتقول الشيء نفسه .

اتبع قلبك ما دمت تعيش
واستمتع إلى أبعد الحدود
ولا تسمح لقلبك أن يتحطم
وارو رغباتك ، وابحث عن السعادة مادمت على وجه الأرض .
إذ ما من شخص يأخذ أمواله أو أملاكه معه
وما من شخص جاء إلى هنا ، ثم عاد(١٣) .

ومع ذلك فإن كثيراً من المصريين الآخرين قد احتفظوا بأمل كبير في الخلود ؛ وهو أمل انتقل إلى الأديان التي كانت على صلة بمصر القديمة(١٤) .

....

ونلاحظ أن إحدى السمات المميزة للديانة المصرية هي الأهمية الممنوحة للملك ، الفرعون . والفرعون يتمتع بالحماية الخاصة من الآلهة ، ولا سيما الإله الصقر هوروس(١٥) . وهو يشارك

---

(١٣) ذكر ذلك كريغ لينجر Kreglinger في كتابه المذكور سابقاً عن أصل الحياة الدينية ، ص : ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(١٤) « وقد تبنى هذا جزئياً إسرائيليو ذلك العهد الذين كانوا يعيشون في مصر ، آنئذ ، ثم إنهم فيما بعد ، وعن طريق كتبهم ، نقلوها إلى المسيحية الناشئة . وبفضل الأمل بالخلود الذي كانت تقتضيه عقائدهم ، وفضل السحر الأخاذ الملازم للأسرار التي كان يحتفل بها ، انتشرت عبادة أوزيريس وإيزيس ، في أول الأمبراطورية ، حتى آخر حدود العالم الروماني » . انظر كريغ لينجر ، في كتابه المشار إليه ، ص : ٢٠٦ .

(١٥) في اللوفر ، مِسلّة تسمى باسم الملك — الثعبان (أو الحية) وهي ترينا الملك الصقر هوروس منتصباً على مربع يرمز إلى القصر الملكي ؛ وفي وسط القصر ، وبصورة مسقطة عمودياً ، كتب اسم الملك بالإشارة الهيروغليفية التي هي الثعبان . والمجموعة ترمز إلى الحماية التي يبسطها الله على الملك .

في ألق الشمس ؛ وهو منذ ما قبل لويس الرابع عشر ، بزمن طويل ، الملك ـــ الشمس ؛ إنه ابن الإله . إنه الإله .

ولكن من أين جاءته هذه السلطة المتعالية على الإنسان ؟ من الوراثة ولا ريب . ولكي يحتفظ الدم الملكي بنقائه ، كان الملك يتزوج أخته الشقيقة ونصف الشقيقة . غير أنه لم يكن هنالك مغتصبون فقط ، بل كان هنالك ملوك أحد أبويهم على الأقل لم يكن من أصل ملكي . وعندئذ نشأ وهم مناسب لإنقاذ الوضع : لقد كانوا يرون أن الإله نزل إلى الأرض ، وأنجب هو نفسه الملك في حضن أمه الأرضية . كان هنالك إذن زواج مع الآلهة . وعدا ذلك فإن التكريس كان يهب الملك سلطاناً خارقاً : ثم إن التاجين ، تاج مصر السفلى ، وتاج مصر العليا ، الموضوعين على رأس الملك الجديد ، كانا يمثّلان الساحرتين اللتين كانتا تنقلان إليه السائل الإلهي .

والواجب الأول للملك ـــ على ما رأينا سابقاً ـــ هو إشاعة العدل . وكانت القضية ، تبعاً لعبارة رائعة ، هي «أن نرفع العدالة إلى ذاك الذي خلق العدالة»(١٦) .

لكن هذا الدور لا يستغرق كل وظائف الفرعون . ذلك أن كل حوادث الطبيعة كانت معلقة به ، وعليه ، ولا سيما دورة الشمس المنتظمة ، وفيضان النيل المخصب . بل إن الجفاف لا يأتي إلا عن طريقه ، إذا استحق الناس العقاب ، وذلك لأنه تجسيد للملك الأعظم الذي برأ الكون .

ويجب أن يعبد كالإله ، في حياته ، حيث يتماهى مع الإله هوروس . وبعد الموت يتماهى مع الإله أوزيريس .

....

ومع أن ديانة مصر القديمة مغمورة بالطوطمية والإحيائية ، فإنها قد تجاوزت هذه المراحل البدائية . ذلك أنها كانت متعددة الآلهة .

وكان كل واحد من الآلهة «ألوهية» محلية ، ربّما كانت تحولاً لحيوان مقدّس ، أو طوطماً للقبيلة الغالبة . وكان له في محلته كل السلطات . ثم اتحدت البلاد . ففرضت الأسرة الحاكمة عبادة إلهها الحامي في كل مكان ، متبنية ، معه ، كآلهة إضافية ، تلك الآلهة المحلية .

---

(١٦) ذكره دريوتون وفانديه في كتابهما عن مصر .

وجمع الكهنة هؤلاء الآلهة ثلاثياً، وثمانياً، أو تساعياً. وعرضوا أساطير معدّة سلفاً لشرح العلاقات بين هذه الآلهة.

والشيء الذي ينشئ وحدة الديانة المصرية، خلال العصور، ليس هو المحافظة على نص مقدّس، ولا على جملة من العقائد؛ بل هو استمرار العبادة، التي استبقاها الفراعنة المتتابعون، ولو أنها تتجه إلى آلهة مختلفين. «فالديانة المصرية كانت في جوهرها، تلك العبادة الفعلية للآلهة، المالكين الشرعيين للأرض المصرية. لقد كان هذا هو مبدأها، وكان رابطة وحدتها»(١٧).

ويبرز من بين الآلهة العديدين، في هذه الديانة المتعددة الآلهة، عدد ضئيل، لأسباب مختلفة.

ففي المقام الأول، يبرز أوزيريس، بالاشتراك مع زوجته إيزيس، وابنه هوروس.

ثم إن أوزيريس، إله Busiris في الدلتا، مُوهِي (وُحِّد) مع ممفيس وآبيدوس، ومع إلهين للموتى؛ وهذا ما جعله إله الآخرة. وتقيم المعتقدات الشائعة بينه وبين أخيه سيت SETH شيئاً من العداء، وهذا الأخير هو إله مصر العليا(١٨): والقضية هنا هي أن نرمز إلى خصومات الشمال مع الجنوب، وانتصار الدلتا.

ويمكن أن نلخّصَ أسطورة أوزيريس، على اختلاف تفاصيلها في الروايات المتعددة، فيما يلي: كان أوزيريس وريثاً لأمبراطورية تضم الأرض كلّها. وكان يحكمها كملك طيب صالح: ذلك أنه «أوقف فيها المعارك والنزاع» وأشاع العدل. وعلّم الناس الصناعات والفنون ونقل الناس من البربرية إلى الحضارة. ولسوء الحظ، فإن أخاه SETH ـــ أو TYPHON في الرواية اليونانية يحسده، فيقتله، ويمزق جسده أربع عشرة قطعة. لكن إيزيس، زوجة أوزيريس وأخته، جمعت قطعه المبعثرة، وأعادت إليها الحياة. ولما كانت نائمة على الجثة، التي بُعثت حية، حملت بهوروس. وربّته بصعوبة، وهي مختفية في مستنقعات الدلتا. ولكن هوروس كبر، وناضل ضد سيت، وانتصر وانتقم لأبيه. وكان أن أوزيريس أصبح يحكم مملكة الموتى.

وهذا الإله الطيب، الحسن النية، المريض المتألم، والذي مات وبُعث، كان دوماً الإله الأكثر شعبية في مصر، والمحبوب بأكبر رقة. وقد مُثّل كرجل ألبس قميصاً ضيقاً جداً، من قمصان

---

(١٧) Drioton et Vandier, ouvr. cit, p. 64.

(١٨) وفيما بعد سيوحّد الهكسوس الآسيويون، موقتاً، بين سيت وبعل الإله الفينيقي.

الجنائز. وعلى رأسه قلنسوة حادة محاطة من جانبيها بالريش، ولحمه مطلي باللون الأخضر، لون الانبعاث. أما إيزيس، التي تمسك بطفلها هوروس بين ذراعيها، فإنها كانت تمثّل دوماً صورة الحب الأموّيّ الرقيق[١٩].

ولقد وُجد من رأى في أسطورة أوزيريس صورة للتعبير عن موت النبات المتبوع بانبعاثه حياً، كما وُجِدَ من قرّبها من قصص دينية أخرى[٢٠].

وهناك إله آخر اسمه الـ (Râ أو الـ Râ)، إله هليوبوليس، وهو إله الشمس الطالعة، وأكبر الآلهة الشمسية. ويقال إنه ينتقل في السماء على زورقين، أحدهما لليل، والآخر للنهار.

وآمون، إله المدينة الصغيرة طيبة. وهو، أول الأمر، إله غامض، يعبد في معبد تافه. ولكن عندما أصبحت طيبة هي العاصمة، أصبح هو أول الآلهة. وواتت العبقرية الكهنة، فماهوا بينه وبين الإله Râ: ومنذ ذلك الحين، أصبح هذا الإله الحديث النعمة، الإله آمون، را.

وفي الأزمنة الأخيرة من الديانة المصرية، ارتقى شأن الإله سيرابيس SERAPIS (Osiris-Apis): وكان البطالمة يرون في عبادة هذا الإله المصري، وسيلة لتوحيد معتقدات رعاياهم المصريين والأغارقة.

....

وكانت عبادة هذه الآلهة تتم في معابد، اعتبرت كأنها «منازلهم» ولما كانت معدّة لسكن كائنات خالدة، فإنها بنيت بالحجارة، أي بمواد «تدوم طويلاً».

(١٩) كانت صورة إيزيس، التي تضم الصغير هوروس إلى صدرها، أكثر الصور شعبية في الديانة المصرية؛ وقد انتشرت بعد ذلك هي وأسرار إيزيس، في كل البلاد الواقعة على البحر المتوسط، لتصبح بعد ذلك مريم العذراء وابنها سوديريلوم في الكتاب المذكور آنفاً، ص: ٥٩.

(٢٠) إن أوزيريس، مثل آدونيس، و Actéon و Hippolyte وديونيزوس زاغروس و Orphée، والمسيح، بطل متألم، بطل يبكى عليه، ويُبعث حياً. وتقتضي أسطورته شعائر وطقوساً، تقدّم فيها الأضاحي، وبخاصة تضحية ثور مقدّس، يقطّع أربع عشرة قطعة وتؤكل جميعاً مع المؤمنين، ثم يُعوّض عنه بثور آخر مقدّس، كما لو أنه يُبعث حياً من جديد. وقد عجب الأغارقة من التشابه القائم بين أسطورة أوزيريس، وأسطورة ديونيزوس زاغروس، حيث الثور الفتي تفترسه التيتان، ويبعثه زوس حياً من جديد، ويهيئ له حياة مجيدة. وقد نشأت هذه الأساطير من طقوس الأضاحي، وهي تتشابه دون أن تكون مستعارة.

وكان لمعبد آمون، أيام رعمسيس الثالث، مساحة تزيد خمس مرات على مساحة محافظة السين. وفي أيام الأنطونيين، كان هنالك اثنان وأربعون معبداً لسيرابيس.

وكان عدد كبير من الكهنة يخدمون هذه المعابد. وكانوا يملكون ثروات ضخمة؛ وكان كهنة آمون. خاصة، هم الذين يملكون أملاكاً واسعة، والذين يشتركون بشكل واسع في النهب المألوف للشعوب المستعمرة(٢١). وفي أيام رعمسيس الثالث، كانت ثروة آمون تشتمل على ٢٣٥٠٠٠ هكتار، و ٨١٫٠٠٠ عبد، و ٥٠٠٠ تمثال موضوعة على نفس المستوى، هي وتماثيل الأحياء، و ٤٢١٫٠٠٠ رأس من الماشية.

وكانت العبادة اليومية تقوم على إطعام الإله، وإصلاح هندامه، وإلباسه. أما الأطعمة المقدّمة على صَوانٍ، فكانت تعطي أخيراً للخاصة التي وهبها الملك دخلاً طعامياً، على حساب المعبد.

وأحياناً، كانت تقوم مسيرات، واحتفالات شعائرية. وقد رأى هيرودوت في الليل، على البحيرة سايس SAIS المقدّسة. تمثيلية تدور حول أسرار أوزيريس. وفي بعض الأعياد (أو الاحتفالات) كانوا يأكلون حلوى تمثل أوزيريس.

....

وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة، أو في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وجد ملك ذو نزعة مثالية نبيلة، ويتميّز بطاقة عجيبة، هو أمنتحوتب الرابع (أو أمينوفيس الرابع) وأراد أن يدخل عقيدة التوحيد الإلهية.

فتبنى إلهاً، ليس أساسياً، ولكنه وحيد، أو هو إله كان حتى ذلك الحين قليل الأهمية، اسمه آتون (أو خاتون). وهو تجسيد للقرص الشمسي.

ولما كان يشعر أنه لا يستطيع القيام بهذا الإصلاح، إذا ظل يعيش في طيبة، حيث يبرز تأثير كهنة آمون كبيراً، فقد ترك هذه العاصمة، منذ السنة الرابعة من حكمه، وأنشأ في مصر

---

(٢١) لم تخف المنافع الاقتصادية للأمبراطورية الكبيرة الاستعمارية على الفراعنة... وفي كل عام، كانت تفد إلى مصر قبائل من كل الأنواع، كان المستفيدون الأوائل منها، بلا ريب، هم الملك والكهنة (ولا سيما كهنة آمون).
انظر: Drioton et Vandier, L 'Egypte, p. 323; p. 451.

الوسطى ، مدينة جديدة هي آخِتْ خاتون AKHET-ATON ، أي أفق القرص الشمسي (وهي الآن تل العمارنة).

وفي هذه المصر ، حيث احتفظ الاسم بكل الأهمية السحرية التي كانت له في المجتمعات البدائية ، بذل أقصى الجهد ، في محو اسم آمون . ومن دون أن يمحو أسماء الآلهة الأخرى ، قضى بمنع عبادتهم . وترك حتى اسمه هو الدال على معنى : امون راض . واتخذ اسم اخناتون الدال على معنى ألق خاتون . ونحا الموظفون المقيمون في العاصمة الجديدة نحوه ، فاتخذوا اسماً آتونياً atonien وهكذا تمت ثورة دينية خارقة للعادة ، كانت قطيعة واضحة مع الماضي المتعدد الآلهة .

ولكن ماذا كانت بواعث الملك في هذا الأمر ؟ لقد قيل إن القضية بالنسبة إليه هي أن يقضي على قوة الكهنة ، السياسية ؛ كما قيل إنه كان يريد القضاء على السمات الطيبية من الديانة ، بغية جعلها في متناول غير المصريين في الأمبراطورية . وكانت عبادة الشمس تتيح له إنشاء ديانة عالمية . ولعله انقاد في ذلك إلى عاطفة دينية بريئة .

ولم يكتف الملك بالقضاء على العبادات القديمة ؛ بل أراد أن ينشئ ديانة جديدة ، هي دين الحياة العالمية أو الشاملة . والشمس هنا هي ، في الوقت نفسه حقيقة ورمز ، وكانوا يُمثّلون القرص الشمسي وهو ينشر أشعته في كل الاتجاهات ، وكانت هذه الأشعة تنتهي بصور الأيدي .

....

وهذا الذي ألّهه الملك ، ليس بكائن عظيم البأس ، ولكنه مع ذلك ، شبيه بالإنسان ومحدود مثله ؛ ولم تكن شمسه هي الشمس الحقيقية ؛ بل هي كل الخيرات التي تنشرها الشمس في العالم ، أي الحرارة ، والضوء ، الذي ينير العالم ، والصادر عن الشمس التي هي مصدره الأكبر . إن هذا التأثير الطيب ، وهذه الطاقة المحيية ، يكتشفها الفرعون في كل مكان حوله ؛ فهو يعترف بتدخل إلهه ، لا في خلق العالم فقط ، أو في أحداث رائعة ، لا تفسير لها ، ومعزولة ، تجري حوله ، بل هو يلمحه في كل مكان ، وفي كل الحياة التي تخفق على سطح الأرض ، وفي كل الجمال ، وكل الفرح ، وكل السعادة ، التي يشعر بها ، بفضل الخيرات التي يفيضها الإله على العالم ، أي على كل الكائنات الإنسانية التي تعرف كيف تتأمله وتقدر عمله[٢٢] .

(٢٢) يا خاتون الحي ، إنك تظهر ، متألقاً في الأفق ، أنت الذي كنت تعيش يوم تم خلق الأشياء . وعندما تشرق في الأفق ، الشرقي ، نراك تضيء كل البلاد بجمالك ! وعندما تظهر ، كبيراً ولامعاً ، رائعاً وقوياً ، فوق البلاد كلها ،

بل إن أخناتون نفسه يؤلف على شرف إلهه أناشيد رائعة، ترى فيها نبرات فرانسوا داسيز.

«عندما تشرق في الصباح، وعندما تنشر، طيلة النهار، الأنوار فوق الأرض، فإنك تبدِّد الظلمة. وتقدم لنا منحة النور. وعندئذ تبتهج البلدان من الفرح؛ والناس ينهضون من فراشهم، ويقفون على أقدامهم، وتكون أنت أنت الذي أيقظتهم، وهم يغسلون أطرافهم، ويرتدون ملابسهم. وكل الأذرع تعبدك عندما تظهر، والأرض كلها تعاود عملها، والماشية تبتهج من العشب الذي تعود فتعطيها إياه؛ والأشجار والمروج تخضر؛ والعصافير تخرج من أعشاشها، وحتى أجنحتها تعبد «كا» ك. وتقفز الماعز بأرجلها؛ والطيور، وكل الكائنات التي تخترق الهواء بطيرانها تعود فتحيا، عندما تشرق. والبواخر تهبط وتصعد في النهر؛ وكل الطرق مفتوحة لدى ظهورك؛ وحتى أسماك الأنهار، ترتمي إليك؛ ذلك أن أشعتك تتسرَّب حتى أعماق المياه.

إنك أنت الذي تغذي الطفل في حضن أمه؛ وأنت الذي تهدئه لتمنعه عن البكاء. وأنت الذي تجري النَفَس الذي يحيي كل طفل خلقته، عندما يفتح عينيه على النور. وأنت الذي تفتح فمه عندما يبدأ بالصراخ؛ وتعنى بحياته. وعندما يكون العصفور الصغير في البيضة ويزقزق داخل قوقعته، فإنك أنت الذي تعطيه الهواء الذي يجعله يعيش، وبفضلك يملك القدرة على كسر غلافه.

ما أكثرها عدداً تلك الأشياء التي خلقتها! لقد خلقت الأرض، برغبتك، عندما كنت وحيداً؛ وأنت الذي خلقها، وخلقت معها في الوقت نفسه كل الناس، وكل القطعان، والماشية، الحبشة، وفي كل مكان، وضعت كل إنسان في مكانه، وتعني بالابقاء عليه، وتعطيهم جميعاً الغذاء الذي يطلبونه...

إن كل العيون تتأملك عندما تتألق، يا آتون المشرق، فوق أرضنا.

لكن هذه الثورة الدينية النبيلة، تترافق مع تحوّل أخلاقي عميق. فالشمس تضيء كل الأمم، وكل الناس، وكل الكائنات. ففيهم جميعاً قطعة إلهية منك. ويمكن أن نثق بعفويتهم. «فالحرية واحدة من كبريات أفكار الديانة العمارنية amarnienne... والفكرة الكبرى الثانية، هي حب الطبيعة.

فإن أنوارك تحيط بكل الشعوب، حتى آخر العالم الذي خلقته. ومع أنك بعيد عنا، فإن أنوارك مع ذلك، تهبط إلينا على الأرض، وتبدو للعالم في كل الاتجاهات. انظر Kreglinger، في كتابه المذكور آنفاً.

وفي وسع الإنسان أن يدرك أن عقيدة كهذه قد دعت إلى التحابب بين المخلوقات، والفرح بالحياة[٢٣].

ويظهر التحول في العبادة أولاً. ذلك أن تدخل الطبقة الكهنوتية لم يعد ضرورياً؛ ويكفي أن نفتح عيوننا لنكتشف الإله العظيم الإحسان. فالمعبد العماراني (من تل العمارنة) يتألف من أرض مكشوفة، وممرات بلا سقف؛ أما الهيكل الأساسي فهو معرّض كله للشمس.

«ثم إن الفن كله يتحول. ذلك أنه عندئذ يقوم على الواقعية والروحانية... فحب الطبيعة موجود في كل مكان في تل العمارنة: في الدين، وفي الأناشيد الموجهة إلى الشمس، وفي مشاهد الحياة العائلية، وكذلك في زخرفة المنازل أخيراً. ولم تعد الطيور، والأزهار، والثمار، موضوعات زخرفية، منمنمة، بل أصبحت مِنحاً ثمينة من الطبيعة، نعيد رسمها بدقة، وحساسية، وسحر لا يوصف»[٢٤].

غير أن المحافظين، التقليديين، ساءتهم هذه الثورة التي تتم في كل المجالات. ولا يقبل الكهنة تغييرات اجتماعية تنال من مصالحهم. فانفجر رد الفعل منذ أن مات أخناتون، في عمر التاسعة والعشرين. أما صهره الأول فإنه لا يحكم إلا سنة واحدة؛ ويأتي صهره الثاني، فيخضع لكهنة آمون، ويهجر تل العمارنة، ويعود إلى طيبة[٢٥]، ويغيّر اسمه من توتنخ أتون، إلى توتنخ آمون[٢٦]. فإذا جاء خلفه حور محب، وهو عسكري لعب الكهنة بعقله، هدم المعابد، ومحا اسم خاتون، وأعاد اسم آمون إلى كل مكان.

---

(٢٣) دريوتون وفانديه، مصر ص: ٣٣٥. ولا نفهم أن هؤلاء المؤلفين الذين أشاروا إلى مثل هذه الأفكار، استطاعوا مع ذلك أن يقولوا: «ليس لهذه الديانة أي اهتمام بالأخلاق» (ص: ٣٣٤).

(٢٤) المصدر نفسه، ص: ٤٦٠.

(٢٥) إن هجر تل العمارنة المفاجئ جعل المعابد والقصور التي غطاها رمل الصحراء، تظل محفوظة. وقد أتاحت الحفريات التي تمت في هذا المكان، اكتشاف وثائق الوزارات والمراسلات التي تبودلت بين الملك المصري والملوك الأجانب. وهذا مما يتيح لنا أن نعرف جيداً هذا القرن الرابع عشر ق.م.

(٢٦) إن قبر توتنخ آمون هو القبر الوحيد الذي لم يمس، حتى يوم اكتشافه. وكان الأثاث الجنائزي على مستوى هائل من الغنى. ومنه قطعة من الذهب بارتفاع ٢٣ سم، وهي تصوِّر الفرعون محاطاً بإلهي الشمس ورع وبأبي الهول ونسور وكوبرا. وكان ورثة ويلهلم هورون أحد جامعي التحف في برلين المولود عام ١٨٧٠، صديقاً لعالمي الآثار الإنجليزيين هوارد كارتر ولورد كارنافون اللذين اكتشفا المقبرة في وادي الملوك في تشرين الثاني ١٩٢٢. وحصل عليها منهما وستباع خلال شهر.

وهكذا كانت نهاية واحدة من أجمل الحركات الدينية التي عرفها التاريخ العالمي.

....

ومنذ القرن الرابع، ق. م. بدأت تنتشر عبادة إيزيس التي اعتبر أنها تحمل وعداً بالبقاء بعد الموت، في العالم الإغريقي والروماني. ويُشارك أوزيريس وسيرابيس في عطف إيزيس. ويصبح سيرابيس الذي موهي (أي عُدَّ كأنه) مع جوبيتر، الإله المفضل لدى كل من يطمح إلى عقيدة التوحيد.

وحوالي بداية العصر المسيحي، أثارت العبادات المصرية، التي اتخذت صفة عالمية أوسع فأوسع، حركة روحانية قوية.

ويصف لنا المؤلفون اللاتين كهنة إيزيس، رجالاً بلا لحى مكللي الرؤوس بتيجان الكهنة، وعليهم قميص من الكتان؛ يدعون بقرع الأجراس، جماعة المؤمنين إلى الاحتفال بنوع من القداس، أمام المادون (مريم العذراء).

وسنجد هذه العبادات المصرية، عندما ندرس ديانة روما، وإيطاليا اللاتينية[٢٧]. ونجد، حتى في طبعة نشرت عام ١٧٩٨، لكتاب Elégies de Tibulle'، ترجم من قبل ميرابو، ملاحظة تعلّم القارئ بأن معبداً لإيزيس كان موجوداً في ضواحي لوتيس Lutéce، أي باريس الحالية، في قرية إيسّي Issy، وأن كاردينالاً، في القرن السادس عشر حطم تمثالاً لتلك الآلهة، احتفظ به حتى ذلك الحين، على سبيل الفضول[٢٨].

....

إن الديانة المصرية هي من النوع الذي لا يمكن أن يدرسه الإنسان من دون أن يشعر بالكثير من التعاطف الغني بعرفان الجميل.

(٢٧) انظر ما يلي في الصفحات الأخيرة من بحثنا عن ديانة روما وإيطاليا الرومانية.

(٢٨) ميرابو: Elégie de Tibulle، باريس، ١٧٩٨، المجلد الأول، ص: ١٣١.

ومنذ أقدم العهود، شاعت في الأوساط الكهنوتية حياة عقلية غنية، استفادت منها فروع أخرى للنشاط الإنساني غير الفكر الديني وحده. مثال ذلك أن مصر الفرعونية كانت الأولى التي استخدمت تقويماً زمنياً أسّس على حركة الشمس، والعودة الدورية للفصول، بأيام من أربع وعشرين ساعة، وأسابيع من سبعة أيام. «وهذا التقويم الذي فرضه جول سيزرا على العالم الروماني، مع بعض التعديلات، والذي أصلح وطوّر في القرن السادس عشر على يد البابا غريغوار الثالث عشر، هو الذي أصبح التقويم العالمي.» ويبدو أنه يعود إلى الألف الخامس ق. م، وأنه وضع على يد الفلكيين الذين كانوا يعملون في هذا المركز الديني الكبير، هليو بوليس[٢٩].

أما الضرورة الدينية القاضية ببناء الإهرامات، فإنها أدّت إلى خلق الهندسة وتنميتها.

ثم إن الأمل بالبقاء بعد الموت، الذي غذته الديانة المصرية وحفظته، هدأ من روع الناس وسَكّن قلقهم، خلال عشرات القرون، في مصر أولاً، ثم خارجها، عندما شاعت، في العالم الروماني، عبادة إيزيس، وأوزيريس، وسيرابيس.

أما فكرة الاعتراف المفروض على الموتى، فلا بدّ أنها ساعدت على إشاعة أفكار أخلاقية ممتازة: كالفكرة التي تقتضي ألا يؤذي الإنسان جيرانه، والقريبين منه، وألا يشقيهم، وألا يسيء إلى أي إنسان، وأن لا يسبب المتاعب في محيطه، وألا يُبكي الناس.

---

(٢٩) انظر دريوتون وفانديه، في كتابهما المشار إليه آنفاً، ص: ٤٩ ـــ ٥١.

الفصل الرابع

أديان الهند

الفيدية ــ البراهمانية الهندوية ــ الجائينية ــ البوذية

تكشف لنا الهند[1] ، كما كانت الحال مع مصر ، عن ديانة تبدأ من عبادات قديمة جداً ، تحتفظ منها بآثار عديدة ، ولكنها تتجاوزها جميعاً تجاوزاً عظيماً . وما من مكان في العالم ، قامت فيه الإنسانية بإنشاء روائع في الفكر الميتافيزيكي ، وتعمقت بمعرفة أسرار الحياة الروحية ، كما فعلت في الهند .

وتقدّم لنا ديانات الهند خليطاً من المخلفات الطوطمية والإحيائية ، وتعدداً في الآلهة ، يتجه تارة إلى عقيدة التوحيد ، وتارة أخرى ، إلى إلحاد غني بالتقوى . ويمكن لهذه الملاحظة أن تفسّر لنا هذا الشعور المختلط الغائم الذي نشعر به تجاه هذا العالم الواسع ، المحروم من الوحدة . ومن أجل الحصول على شيء من الوضوح الذي لا غنى عنه ، يجد الإنسان أنه مرغم ، هنا أكثر من أي مكان آخر ، على التضحية ببعض جوانب هذا الواقع اللامتناهي التعقيد . ويمكننا أن نفهم ، على كل حال ، لماذا يحسن بنا أن نضع الهند ، ومصر قبلها ، بين الديانات البدائية ، كديانات الأستراليين والبولينيزيين ، وبين الديانات الأكثر تطوراً كديانات الساميين[2] .

---

(١) الهند التي نعنيها هنا هي الهند التي كانت تحت النفوذ البريطاني ، وفيها يومئذ (أي عام ١٩٣٩) ٢٠٠ مليون هندوسي الذين ظلوا إحيائيين . وهنالك أيضاً مسيحيون ، وسيخ ، وجائينيون Jains ، وبارسيسيون Parsis .

(٢) يقول بول ماسون أورسيل في كتابه ، الفلسفة في الشرق (تاريخ الفلسفة لاميل برهييه ، باريس ، ألكان ، ←
باريس ، بايو Payot ، ١٩٣٢ .

ويمكن أن نميِّز في الهند ديناً أصلياً، أو أصلياً نسبياً، هو الدين الذي استبقاه البراهمانيون منذ القرن السابع ق. م على الأقل، حتى أيامنا هذه، أي الدين البراهماني، ومع دينين منشقين عنه منذ القرن السادس ق. م، أي الجائينية، والبوذية.

غير أن بعض المؤرخين يميزون البراهمانية الحقة (إذا نحن أعطينا لهذه الكلمة معنى محدوداً) عن دين أسبق منها هو الفيدية Védisme وآخر متأخر هو الهندوية أو الديانة الهندية INDOUISME.

وقد عُرض هذا التمييز ـــ الذي نأخذ به، كنقطة بداية ـــ بصورة واضحة، بشكل خاص، من قبل سوديربلوم Söderblom. في موجزه عن تاريخ الأديان[٣]. ويمكن أن يقرأ فصله (ص: ٢١١ ـــ ٢٣٠) عن هذه القضية، بكثير من المتعة. أما إذا أردنا المزيد عن هذا الموضوع، فيجب أن نقرأ أعمال رجل ألماني متخصص بالشؤون الهندية، سيكون هو دليلنا في بحث البوذية، وهذا الألماني هو H.Oldenberg، في كتابه دين الفيداس Die Religion des vedas، المترجم بقلم فكتور هنري تحت عنوان La Religion du véda[٤].

....

ويقال إن جماعات، نسميها فيما بعد باسم الهنود الأوربيين، جاءت إما من نواحي بحر البلطيق، وإما من روسيا الجنوبية، فاحتلت إيران، أي فارس الحديثة[٥]؛ ثم إن جماعة منهم في القرن السادس عشر قبل الميلاد (تبعاً لتقديرات بعض الناس)، غزت شمال غربي الهند. وهؤلاء

١٩٣٨): «إن الهند، من كل النواحي، تشغل مكاناً متوسطاً بين بلاد سومر، أو الساميين وبين عالم جزر المحيط الهندي (ص: ١٢٠) وانظر حول السومريين ما يلي من هذا الكتاب.

(٣) باريس. دار لورو ١٩٢٥. وسنبرر فيما بعد نظرية هذا المؤلف التي ترى في الفيدية، فكرة السلام بالأعمال، أي بالتضحيات خاصة، وفي البراهمانية فكرة السلام في المعرفة، وفي الهندوية، فكرة السلام عن طريق الإيمان والحب.

(٤) Paris, Alcan, 1903، ويمكن أن نقرأ أيضاً لـ René Grousset كتابه Les Civilisations de l 'Orient الجزء ٢، L'Inde (Paris, Crès, 1930). وكتاب الدكتور Albert Schweitzer بعنوان Les grands Penseurs de l 'Inde (Paris, Payot, 1936). ويستطيع زائر باريس أن يزور متحف Guimet، لكي يلاحظ آلهة الهند، والشرق الأقصى عامة.

(٥) انظر فيما بعد: فصل ديانة الصين L'Inde.

الهنود ـــ الإيرانيون، على ما جاء في بعض النصوص، يوصفون بالشقرة والجمال. وكانوا يسمون أنفسهم باسم الأنباس ARYAS (أي النبلاء).

ثم إنهم، في الهند، احتلوا البنجاب، ثم وادي الغانج، ثم بقية البلاد. ونجحوا في السيطرة على شعوب برونزية اللون، بدرجة صغيرة أو كبيرة، أو سوداء بصورة متفاوتة، أو شبيهين بالدراويديين السود من جنوب الهند.

ولكن في أي وضع كان يعيش هؤلاء الناس قبل سيطرة الآريين. لقد اعتبروا برابرة، لمدة طويلة، بحكم ما كان يقوله عنهم مستعمروهم. لكن العالم الهندي Bannerji، والإنجليزي Sir John Marshall، قالا، بعد ذلك، إنه كان هناك في وادي الأنـدوس INDUS، حضارة رائعة قبـل الفيدية، حوالي العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد[٦]. ولقد تساءل الباحثون عما إذا كان السومريون ـــ هؤلاء المحتلون الأول لبلاد الكلدان، الذين سنتحدث عنهم فيما بعد[٧] ـــ لم يكونوا في أصل هذه الحضارة، حتى لقد تحدّث قوم عن حضارة سومرية ـــ درافيدية[٨].

وعلى كل حال، فإن الشعوب الخاضعة، كانت أقرب من غزاتها إلى الطوطمية والإحيائية البدائيتين. ويجب أن تكون هذه الأديان ما تزال حيّة، أو مستمرة الوجود؛ ذاك أن بعض آثارها ما تزال موجودة حتى اليوم، لا فيما يسمى «بالخرافات»، خرافات الشعوب الأكثر تخلفاً في الهند الجنوبية، بل كذلك، في الديانة الحالية الهندوية Indouisme. كالحيوانات المقدّسة المهيأة للبقاء مقدّسة، مثل البقرة، والقرد، والثعبان؛ أو المستعدة لأن تصبح «آلهة ذات رأس حيواني، كما هي حال الإله غانيش Ganesh الذي له رأس فيل؛ أو كالنباتات المقدّسة؛ وربما الآلهة النسوية، السابقة للآلهة المذكرة، على نحو ما بقي حتى الآن منها في منطقة الديكان Dekkan؛ أو كالسمات المقدّسة للأجسام السماوية، والأنهار، ولا سيما نهر الغانج، أو كالتعظيم الذي يقدّم للموتى؛ أو كالممارسات السحرية؛ أو الدور الكبير الذي تلعبه اللينغا Linga، وهي صورة العضو الجنسي المنتصب، الذي كان يجب أن يكون قد اعتبر كما لو أنه يمارس تأثيراً سحرياً ملائماً للخصوبة الشاملة؛ وتلك مخلفات مؤكدة للطوطمية أو الإحيائية. التي نجدها في هند هذه الأيام؛ ويمكن أن نقبل، بناءً على ذلك، أن هذه الصور من التفكير والعمل، كانت موجودة في الهند قبل وصول

---

(٦) هنالك حفريات رائعة تمت في حوض الأندوس Indus، في هاريا Harappa أو موهنجو ـــ دارو Mohenjo-Daro، هي التي أدت إلى هذه الفكرة، أو القول بها.

(٧) انظر في فصل، أديان آسيا الغربية.

(٨) انظر: Masson-Oursel, La Philosophie en Orient.

الآريين. بل إننا لنتساءل عما إذا لم تكن فكرة التناسخ أو التقمص، المؤلّفة بين عبادة الأجداد، وبين احترام الحيوانات، لم تنشأ في مثل هذه الأوساط.

أما ما تعلق بالغزاة، فربما كانوا مدينين إلى الطوطمية، بمفهوم التضحية الذي كان يحتل مكانة كبيرة في نفوسهم. غير أن الإحيائية، سرعان ما كانت قد تحوّلت لديهم إلى ديانة متعددة الآلهة. ولقد وجد الباحثون في بوغاز ــ كوي Boghaz keiü، في كابادوشيا Cappadoce، معاهدة سلم، تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد بين الحثيين(٩) وبين الآريين الذين كانوا يؤلفون كتلة المحاربين الثانية، لأولئك الذين انتقلوا قبل قرنين من فارس إلى البنجاب (وكانوا يسمونهم الميتانيان اندرا Mitanniens Indra، والميترا MITHRA والفارونا VAROUNA ــ الذين سيكونون كبار آلهة الديانة الفيدية védisme(١٠).

....

وتعرّف الفيدية بالكتاب الذي يعتبر مقدّساً لديها، أي الفيدا véda أو الفيدا (بالجمع) les védas. وكلمة الفيدا تعني المعرفة. وهذه معرفة نحصل عليها عن طريق السمع، لا عن طريق البصر. وبدلاً من أن يقولوا «إنه كتب» تحمل النصوص كلمة: «إنه سُمع». إنه «تواتر مقدّس»(١١).

أما القسم الأقدم عهداً أي الريغ ــ فيدا Rig-Véda الذي يحتوي على ١٫٠٢٨ نشيداً، فلعله أُلّف ما بين ١٥٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد. لكن أقدم الأناشيد تعود فيما يظن إلى القسم الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا هو «أقدم كتاب مقدّس في الإنسانية»(١٢).

وتشتمل الفيدا، بشكل خاص، على أناشيد شعائرية، وعبارات سحرية، ولا سيما العبارات المستخدمة لطرد الشياطين EXORCISMES ووسائل لإيقاظ الحب، وقصائد فلسفية أيضاً، وحتى قصائد مدنية mondaines (تنشد في المناسبات العامة التي تجري بين الناس).

---

(٩) انظر الفصل المتعلق بديانات آسيا الغربية.

(١٠) انظر: René Grousset, Histoire de la philosophie orientale (Paris, Nouvelle Librairie nationale, 1923), pp. 14-15.

(١١) انظر Söderblom, Manuel d 'kistoire des religions, p. 223.

(١٢) نفس المصدر، ص: ٢١٩.

ومن الغريب أن هذا الكتاب الصادر عن الآريين الغزاة ، لا يشتمل بتاتاً على واحدة من الأفكار التي تعود الناس أن يعتبروها خاصة من أكبر خصائص الفكر الهندي ، أي فكرة التناسخ .

....

والإله الذي يتكرَّر اسمه وذكره في الفيدا ، أكثر الأحيان ، هو إندرا Indra . وإندرا هذا هو إله الطبيعة وإله الرعد ، والعاصفة ، والمطر ، وهو كذلك نوع من الإله الوطني ، وإله محارب « يخوض معارك مظفرة من أجل شعبه » .

ويقابل إله القوة الغاشمة ، إندرا ، إله العقل VAROUNA (فارونا) . وكان في البداية إله السماء[١٣] وعلى الأخص ، سماء الليل ، السماء الملأى بالنجوم . ولكنه شيئاً فشيئاً يصبح إله النظام الشامل ، الذي يتعلق به السير المنتظم لحركة الطبيعة ، والإله الأخلاقي ، الذي يراقب العالم ، ويهدي الإنسانية .

ويشرك بفارونا ، إله آخر هو ميترا MITHRA (إله السماء النهارية) ، والنور ؛ والحق أيضاً (ذلك أن الإله الذي يرى كل شيء ، يستطيع ، بصورة خاصة ، أن يقيم حق العدالة بين الناس) .

ويقال إن لفارونا وميترا أُمّاً اسمها آديتي Aditi ، وهي جوهر أو مادة مشتركة بين الآلهة ، وبين الكائنات الأخرى كلها ، ولعلها صورة جديدة للمانا القديمة . ولعله يجب أن نلاحظ ، مرة أخرى ، تقدّم أو سبق الإلهات على الآلهة ، كما أن نظام الأمومة أو الأموي ، يتقدم ويسبق النظام الأبوي .

ويمر في الأناشيد الفيدية أيضاً ، ذكر دياؤوس ــ بيتار Diaous pitar ، المقابل للأب زوس Zeus pater لدى الإغريقيين ، والذي هو أبو أغلب الآلهة الأخرى ، ويشرك مع « بريتيفي ــ مطر ــ prithivi , matar ، الأرض ــ الأم » ؛ وأحد أبنائها سوريا SOURYA[١٤] هو إله الشمس ؛ وفاتا Vata إله الهواء ، ويسمى كذلك Wotan ، كالإله الجرماني ؛ ومانو Manou ، المشرّع ، الذي يذكرنا اسمه بالكلمة .

---

(١٣) قرَّب بعضهم كلمة فارونا من الكلمة الإغريقية الدالة على السماء ، أورانوس . كما قرِّبت من الكلمة الدالة على كبير الآلهة لدى الفرس ، آهورا Ahoura . انظر ماسيلي في فصل ديانات غرب آسيا . وانظر أيضاً Dumézil ، في كتابه عن أورانوس ، فارونا . باريس ، دار ميزونوف ١٩٣٤ .

(١٤) لغوياً ، تعادل كلمة سوريا دلالة الكلمة الإغريقية الدالة على الشمس Hélios .

وقليلاً فقليلاً، تتضاءل أهمية كل هؤلاء الآلهة، لتحتلّ المنزلة الأولى بدلاً منهم: الهة التضحية، ولاسيما Agni، إله النار (١٥) الذي هو، في الوقت نفسه، إله البيت (أو المنزل العائلي)، ثم سوما SOMA إله السائل المقدّس.

ذلك أن الفكرة الأساسية في الفيدا، أو الفكرة المركزية، للديانة الفيدية، هي قيمة التضحية. ولما كان الموتى بحاجة، في بقائهم، إلى التغذية، بالأضحيات أو الأضاحي الجنائزية، فإن الآلهة بحاجة أيضاً إلى أن تقدم لهم الأضاحي، ويحتفل بها بمساعدة النار، ويصب لهم السوما، السائل المخلّد.

إن التضحية تقيم أود الآلهة؛ والتضحية تخلق الآلهة. وهكذا فإن الفعل هو الذي يخلق الوجود. وهذه الفكرة، بين كل الأفكار الهندية، هي الأكبر صعوبة على الفهم بالنسبة للأوروبي، الذي يرى، بلا ريب، أن الفعل يعني تغيير الواقع القائم، وليس خلقه. وحتى هنا، فإن العمل الإنساني أي البشري، هو الذي يخلق حقيقة خارجية بالنسبة إلى الإنسان، وأعلى منه.

ثم إن التضحية تتيح، بواسطة الآلهة التي تقيم أودها، بعد أن خلقتهم، تتيح إرواء الرغبات الإنسانية؛ كالخلود، وطول العمر، والثروة، والذرية الذكور.

والسلام، بالنسبة إلى الإنسان، في هذا العهد، هو السلام عن طريق التضحية.

ويحتفل بالتضحية كهنة سحرة. فهم وحدهم الذين يعرفون ما يجب أن يقال من تعابير، لدى التضحية، التي يطلقون عليها اسم البراهمان Brahman، وسوف يسمون أنفسهم بعد ذلك باسم البراهمة، أو البراهمانيين.

وهم لا يشكلون عندئذ ما نسميه نحن: بالخدمة العامة؛ إذ لا عبادة للدولة. ثم إن الكهنة يحظرون السحر على الآخرين، ويعلنون أنه مخالف للدين؛ إلا أنهم، هم، يمارسونه لحسابهم، وحساب من يطلبه إليهم. ويطلبون عليه أجراً مناسباً، ويفضلون البقر كأجر، ويطلبون البقرة أو البقرتين. وكانت البقر آنئذ كبيرة الثمن: ويقول النشيد رقم ١٠ من الكتاب العاشر من الريغ ـ فيدا: «إذا أعطيت بقرة للبراهمة، كسبت كل العوالم».

ويلاحظ هنا كيف بدأ انقسام المجتمع إلى أربع طبقات وراثية. أعلاها طبقة البراهمة. تليها طبقتان آريتان، طبقة الـ Kshatryas، وتشمل الأمراء والمحاربين، وطبقات الفايسياس Vaîcyas، أي

(١٥) يمكن أن تقارن هذه الكلمة بالكلمة اللاتينية ignis، أي النار.

الفلاحين ومربي الماشية ؛ ثم تأتي طبقة غير آرية ، هي السودرا çoudras ، وهم الناس الملونون ، من عمال ، وصناع ، وعبيد . وبعيداً عن هذه الطبقات نجد دونها ، وخارجها ، طبقة الباريا parias أو الشاندالا chandâlas ، المعتبرة كحثالة البشرية .

....

بيد أنه حتى في أعظم العهود الفيدية ، كانت بعض النفوس تتساءل عما إذا لم تكن كل هذه الآلهة المتعددة ، وجوهاً مختلفة لإله مجهول واحد ، هو الإله الأعلى . ويعبر النشيد ١٢١ من الكتاب العاشر من الريغ ـــ فيدا عن هذا القلق ، بكلمات رائعة .

« هو الذي يهب الحياة ، ويمنح القوة ، وظله هو الخلود ، وظله هو الموت ، فمن هو هذا الإله ! ولنمجّده بالأضاحي ؟.

وهو الذي بفضله تقوم جبال الثلج والبحر ، مع الساقية البعيدة . هو الذي ذراعاه ، مناطق السماء ، فمن هو هذا الإله ! ولنمجده بالأضاحي ؟.

وهو الذي ، بقوته ، كان يطوف بعينيه حتى فوق المياه ، التي تهب القوة ، وتأتي بنار الأضحية ؛ وهو الذي يقوم ، وحده ، فوق كل الآلهة ، فمن هو هذا الإله ، ولنمجّده بالأضاحي ؟ » .

....

لكن نشيداً آخر من الريغ ـــ فيدا يردّد مثل هذه الفكرة :

إن الحكماء يسمون الكائن الأوحد ، بصور شتى : فهم يسمونه أنيي Agni ، وميترا ، وفارونا (١٦) ...

ويمكن أن نرى في هذه النصوص تصعيداً لفكرة المانا ، بمقدار ما هي في الوقت نفسه طموح إلى فكرة التوحيد الشاملة .

وعلى كل حال ، فإن هذه المقاطع تشهد بوجود حياة عقلية حارة ـــ بفضلها أو بها نستطيع شرح التطور الديني الذي انتقل من الفيدية إلى البراهمانية الحقة .

---

(١٦) هذه النصوص مذكورة لدى René Grousset في كتابه عن تاريخ الفلسفة الشرقية ، ص : ٢٩ .

وحوالي القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، استخرج البراهمة من هذه « الفيدية » ديانة مُعَدَّة لتبرير الموقع المتميّز الذي اختصوا به ، في الجماعة . وهذا مايسمى ، بالمعنى المحدد للكلمة ، باسم البراهمانية .

والنصوص المقدّسة للبراهمانية ، هي البراهمانا والأوبانيشاد .

وينبغي أن يكون البراهمانا قد نشأت حوالي العام ٨٠٠ و ٦٠٠ قبل الميلاد ، ولديها كتب تتعلّق بصورة تقديم الأضاحي ، وبتبرير تفاصيلها المعقدة ، إما بطريق الايتيمولوجيا (فقه اللغة ، أو علم الاشتقاق) ، وإما بأساطير حول الآلهة .

ويجب أن تكون الأوبانيشاد oupanishades (الاتصالات السرية) ، قد أُلّفت حوالي العام ٦٠٠ و ٣٠٠ ق . م . ويسمونها فيدانتا VEDANTA ، وهي خلاصة للفيدا(١٧) .

وتحتوي الأوبانيشاد بعضاً من أجمل النصوص الهندية(١٨) .

وتعرض الأوبانيشاد فلسفة ذات عمق فريد . وقد تساءل البعض : عن أي نوع من الناس يمكن أن تصدر هذه الفلسفة . وصرّح أب جزويتي أن الرهبان وحدهم كانوا قادرين على تقديم مثل هذا « الكشف ـ الروحي » . ويرى آخرون ، على العكس ، أن الطموح إلى الخلاص ، ينبغي أن يكون قد جاء على يد أناس علمانيين ، لم تكن ترضيهم قط شعائر التضحية الخارجية المفرطة

---

(١٧) شاءت صدفة من الصدف أن تعرف أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر هذه النصوص . ذلك أن شاباً فرنسياً يحب الاطلاع هو : Anquetil-Duperron (١٧٣١ ـ ١٨٠٥) أغرم بديانة زرادشت (انظر تفاصيل ذلك في الفصل الخاص بديانات غربي آسيا) وأراد أن يدرسها في أرضها حيث هي ، لدى البارسيس ، في منطقة بومباي فانخرط بالعمل كبحار خلال عشرين سنة لكي يذهب إلى الهند . وحمل مخطوطات كثيرة حول ديانة الفرس القديمة . وبين هذه المخطوطات ، كان يوجد ٥٠ (خمسون) أوبانيشاد . مترجمة إلى الفارسية . فترجمها ذلك الشاب إلى اللاتينية . وكان كتابه نوعاً من الاكتشاف العظيم لبعض الأوروبيين ، وبخاصة للفيلسوف الألماني شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) .

(١٨) توجد في الأوبانيشاد أجمل الأقوال التي قالتها الهند في حياتها كلها . وذلك التَنَفس الغض والصافي الذي يشيع في الأوبانيشاد ، أراح النفوس ، وأتاح لها أن تتنفس بحرية أكبر . وهناك ألوف من الناس ، ما تزال حتى اليوم تبدأ نهارها بتأمل مقطع من مقاطع الفيدا ، أي الأوبانيشاد . أما كلامها المتعلق بالوحدة والحرية ، والهدوء والسلام ، فقد وجد صدى في الغرب أيضاً . ويقول شوبنهاور : إن هذه القراءة هي أكثر القراءات نفعاً ، وأعظمها جدوى ، من بين كل القراءات الموجودة في العالم ؛... ولقد كانت سلوى لحياتي ، وسوف تكون عوناً لي ساعة الموت . سوديربلوم ؛ في كتابه : موجز تاريخ الأديان ، ص: ٢٥٢ ـ ٢٥٤ .

السطحية ، أو الكشاتريات النبيلة Kshatryas . وعلى كل حال ، فإن الكهنة البراهمانيين ، سرعان ما ثبتوا مثل هذه الأفكار . وبدلاً من الإلحاح ، كما في الماضي ، على السلام ، عن طريق التضحية ، أعلنوا عن السلام بطريق المعرفة . ولما كانوا هم من يملك هذه المعرفة ، فقد قاموا بتعليمها لمريديهم .

....

ويمكننا إذا نحن أهملنا الدراسة المغرقة في « فنيّتها ــ أو اختصاصها » والمتصلة بمختلف المدارس البراهمانية[١٩] أن نعتبر من الأطروحات الرئيسية للبراهمانية ، أطروحات الهوية البراهمانية (كمبدأ أساسي للكون) والآتمان Âtman (الأنا العميقة) وأطروحة تقمص أو تناسخ النفوس أو الأرواح (samsâra) المتعيّنة بحالات الوجود السابقة (Karman) .

وتدل كلمة براهمان Brahman[٢٠] ، في البدء ، على القول الذي يتلفظ به خلال عملية التضحية . ذلك أن هذه تضمن بقاء الآلهة والعالم ، ثم أصبحت تدل بعد ذلك على النظام الشامل للكون .

....

« ففي البداية لم يكن يوجد إلا البراهمان : إنه هو الذي خلق الآلهة . « والحقيقة ، إن البراهمان الخالد موجود في كل مكان ، في الأمام والوراء ، وعلى اليمين ، وعلى اليسار ، وفي السمت ، والنظير . إنه ذاك الذي فيه نسجت السماء ، والأرض ، والجو ، والعقل أيضاً ، والحواس كلها . » ــ « فالزبد ، والأمواج ، وكل المظاهر ، وكل الوجوه . لا تختلف عن البحر . وما من فرق أيضاً بين العالم والبراهمان . » . والحقيقة أن كل شيء هو براهمان . » .

والعالم الخارجي ، المؤلف من صور محسوسة ، وعالم الأسماء والأشكال ، مادته هي البراهمان .

فإذا فهمنا الأمور على هذه الصورة ، وجعلنا البراهمان ، في آن واحد ، تلك الوسيلة الأساسية للقوة السحرية ، والمبدأ الأعلى لكل حقيقة ، فإن البراهمان يبدو وكأنه النسخ الدقيق للمانا المالينيزية .

---

(١٩) انظر حول هذه المدارس كتاب René Grousset ، تاريخ الفلسفة الشرقية ، ص : ٥٣ ــ ١٦٧ ؛ ولنفس المؤلف كتابه عن « الفلسفات الهندية » . وانظر ماسون أورسيل عن « الفلسفة في الشرق » ، ص : ٩٦ وما بعدها .

(٢٠) يجب ألا نخلط بين براهمان هذا العهد ، وبين الإله براهما ، العائد للعهود اللاحقة (ص : ٧٦) .

وبعد أن اكتشف المفكرون الهنود جوهر العالم الخارجي، عادوا إلى أنفسهم. ورأوا في أعماق ذواتهم، ما يسمى بالآتمان âtman : والجسد الإنساني مغمور بأنفاس حية؛ والجميع يتعلقون بنفس مركزي هو الآتمان.

«إن الآتمان هو في الوسط، والأنفاس الحية vitaux تدور حوله.» — والآتمان هو روحي في أعماق قلبي، والأصغر من حبة الشعير، والأضأل من بذرة الخردل، والأقل حجماً من حبة الأرز. والآتمان هو روحي في طيات قلبي، وهو أوسع من الأرض، وأوسع من الجو، وأوسع من السموات في العالم اللامتناهي.

....

وندرك في الآتمان حقيقة هي في آن واحد، غير مخلوقة ولا قابلة للفناء. أما البداية، والصيرورة، والنهاية، فليست إلا مظاهر.

ولما أدرك المفكرون الهنود في البراهمان، ذلك المطلق الموضوعي، وفي الآتمان، ذلك المطلق الذاتي، فإنهم إذن سيكتشفون حقيقة أساسية أيضاً: هي وحدة الهوية العميقة للبراهمان والآتمان. فالمطلق الحقيقي هو الآتمان — البراهمان:

....

«إن الآتمان — حقاً، هو الذي يجب أن نتأمله، وأن نصغي له، وأن نفهمه، ونفكّر فيه؛ ذلك أن الذي أصغى والذي فهم، والذي تأمل، والذي فكر بعمق في الآتمان، ذلك الإنسان هو الذي يعرف العالم كلّه — فما يوجَدُ في أعماق الإنسان، ويوجد في الشمس، هما شيء واحد.».

وعندما ننظر في أعماق وجودنا (كياننا) نجد الوجود. وهو الوجود الذي يُلقى في أعماق كل النفوس الإنسانية، وكل الموجودات الحيوانية والنباتية، وكل الحقائق.

وتجاه كل ما يوجد، يجب أن نشعر ونقول: أنت هذا. (أو أنت ذاك)[٢١].

....

(٢١) لقد جعل شوبنهاور هذا التعبير شهيراً.

بيد أن الأنا، في الظاهر، تتميّز من هذا العالم الذي تتماهى معه في الحقيقة.

فكثرة الكائنات والأشياء شر: ولولاها لما وُجد من ألم أو عذاب. «وكما أن الشمس، عين العالم، تظل في مأمن من كل مرض يهاجم العين الإنسانية، فكذلك الكائن الوحيد، الآتمان الذي يسكن في كل الكائنات، يظل بعيداً وبمنأى عن ألم العالم وعذابه.».

ويُعلّق أولدبنرج على هذا النص، بما يلي:

«أما أنه راق للآتمان الفريد، والسعيد جداً، أن يتظاهر أو يظهر في عالم الكثرة، والانقطاع، فإن في ذلك لمصيبة كبرى: ومن الأفضل ألا تكون هنالك كثرة[٢٢].

....

وكيف يمكن تفسير شر الكثرة هذا، وشر التمييز القائم بين الأنا والعالم؟.

إن العقيدة البراهمانية، تبدو، في تفسير هذا الأمر، وكأنها استعارت من المعتقدات الشعبية لمستوحاة من طوطمية بعيدة، فكرة التناسخ (samsâra).

وكانت الفيدية قد تلقت من الإحيائية واحتفظت بفكرة البقاء بعد الموت، ولكنها لم تكن تقبل قط تسلسلاً غير محدود لصور وجود مختلفة، يعيشها نفس الكائن.

أما الآن، فإنها تفكر، بالعكس، أن كثرة الموجودات (أو الكائنات) مرتبطة بانتقال هذه الكائنات، من حال لآخر، فوق هذه الأرض، أو في عوالم أخرى، من خلال تتابع لصور وجود إنسانية أو حيوانية.

وكل صورة من هذه، متعيّنة بالأعمال المنجزة خلال صور الوجود السابقة. وهذه الضرورة هي التي تسميها «كرمان» Karman.

وتبعاً لصورة الوجود التي عشناها، وما فيها من خير أو شر، فإننا سنبلغ، بعد الموت، صورة جديدة للحياة أعلى أو أدنى. إن سلوكنا هو الذي يُعيِّن صورة تقمصنا.

---

(٢٢) انظر Oldenberg, Le Bouddha (Paris, Alcan, 1903), p. 40.

وهكذا فإن الفكرة الدينية تصبح مبدأ الأخلاق: أما الحدّ المضروب على هذه الأعمال الإنسانية، فإنه تناسخ أفضل أو أسوأ.

غير أن الولادة من جديد، تعني المساهمة أو المشاركة في «عذاب هذا العالم مرة أخرى. وهذا البدء المستمر في الوجود هو بدء مستمر في احتمال الألم. فمن أين يمكن أن يأتي السلام؟ ويقول نص براهماني: «أنقذني ـــ فأنا أشعر أني كضفدعة في قعر بئر بلا ماء.».

وقد يمكن ذلك، لو كان الإنسان لا يرغب في شيء آخر غير الآتمان؛ ذلك أن الآتمان الخالد، هو وراء هذه الكثرة وهذا العذاب: «إنه، هو، الخالد، من وراء الخير والشر؛ وما قد عُمل أو لم يُعمل، لا يغنيه في شيء: فما من عمل يؤثر فيه، هناك حيث هو.».

وهناك نص جميل، استعاره أولدبنرغ من البراهمانا، براهمانا المئة درب، ينبئنا بهذا الكشف:

«وكما تنتزع المطرّزة قطعة من القماش الكثير الألوان، وتنشئ بدلاً منها، قطعة أخرى، أجمل شكلاً، فكذلك الروح (في الموت) تترك جسدها يسقط عنها ويغيب في النسيان، وترتدي جسداً آخر، وشكلاً آخر، إما إلهياً أو بشرياً، وإما صورة كائن آخر... فكما عمل، وكما كان سلوكه، سيكون عندئذ: فمن يعمل الخير يصبح كائناً طيباً، ومن يعمل الشر يصبح كائناً سيئاً؛ وبالأعمال الصافية، يصبح صافياً، كما يصبح خبيثاً، إذا ارتكب الأعمال الخبيثة... وهكذا تكون حال المنغمس في الرغبات. أما من تلاشت لديه الرغبات، والذي تحرّر منها، والذي لم يعد يرغب إلا في الآتمان، والذي حقق رغبته، فجسده، لن تفارقه الأنفاس الحيّة (في جسد آخر) ولكن هنا تتكاثف. فهو البراهما ويعود البراهما، وهذا ما تقوله العبارات التالية:

عندما حرّر المرء نفسه من كل رغبة في قلبه،
فإنه، وهو الفاني، في هذا العالم، يدخل خالداً في البراهما.

وستنطفئ شعلة الرغبة عندما يقتنع الإنسان بوحدة الهوية بين الآتمان، والبراهمان. إن هذا هو السلام عن طريق المعرفة.

وتشيد الأوبانيشاد، تشيد بفرح التوحيد الروحي بين الأنا والكائن (أو الوجود العالمي)، الذي ينشأ من هذا الانكشاف؛

....

وعندما يتأمل الرائي الوجود المتألق، والخالق المفعم بالقوة، والروح، المتماهي مع براهمان نفسه، عندئذ، يتعالى فوق الخير والشر، وقد صفت نفسه من كل هوى، ويصل إلى فهم الهوية العليا... وهؤلاء الراؤون سيجدون الآتمان، البعيد على قربه، لطيان في قلبهم... وعندئذ فإن الحكيم، الذي بلغ الكمال، وغمر شعوره بسلام عميق، يتحد مع الكل ويبلغ الآتمان الذي يدخل في كل شيء... وكما أن السواقي والأنهار تضيع في المحيط، معيرة اسمها وشكلها، لتصبح هي المحيطَ نفسه، فإن الحكيم وقد تحرّر من الاسم والشكل، يضيع في الجوهر المتألق، جوهر الروح le Esprit وراء الوراء... وذاك الذي يعرف براهمان، الكائن الأعلى، يصبح هو براهمان نفسه(٢٣).

....

وهنالك مدرسة هندية هامة، هي مدرسة اليوغا، تقدم وصفات معدة لتهديم الأنا السطحية، حتى لا يبقى إلا الأنا العميقة. أما نصير هذه المدرسة، اليوغين، فإنه يحاول أن يكون ما هو: تارة بتصاعد في التدريبات المنتظمة بدقة، كالسكون الكامل، وتنظيم التنفس على صورة خاصة، وتغييب الحواس، وتركيز الفكر، وإزالة كل فكرة من النفس، وتارة بطريقة «الإيحاء الذاتي المتسرّع» الذي يحطم إطار الشخصية العادي، ويقتل الأنا الخارجية أو السطحية.

فمبة النظرة المضاعفة، والوجود في كل مكان، وملكة التجرّد عن المادة، كانت المزايا والفضائل العادية جداً لليوغين. وحالات الإيحاء الذاتي، والرعدات، والنوام HYPNOSE، والتخشب الجسدي، التي يثيرها المتقشف في ذاته، كانت تهبه قدرة مغناطيسية، بمعنى ما، أو سلطة على من حوله(٢٤).

وعندما يستطيع البراهمان. أو مريده، أن ينقل إلى ابنه إدارة الطائفة وأحوالها، بعد أن يكون قد أكمل واجباته العائلية، فإنه ينسحب، كزاهد متوحد، إلى الغابة العميقة، لكي يقوم هناك، في جو السكون، بالتأملات الدينية، أو أنه يصبح راهباً متسولاً: «والعارف، هو، أي الآتمان، والبراهمانات، يعدلون عن رغباتهم، في إنجاب الأولاد، وتملّك الثروة، والرغبة في كسب الشهرة الاجتماعية، ويمضون إلى الطرقات العامة، كمتسولين.» وهكذا تبدأ الموناشية أو الرهبنة الهندية،

(٢٣) نص مستمد من René Grousset في كتابه عن تاريخ الفلسفة الشرقية، ص: ٤٣ ــ ٤٤.

(٢٤) انظر: Grousset, ouvr. cit, pp. 162-164.

ويبدأ ظهور الفقراء (إلى الله)، أي هؤلاء المرتعشين المتشنجين من ذوي الشعور الطويلة، الذين يلبسون مزقاً قذرةِ داكنة اللون، ويتعرضون لهبات الرياح، عندما تدخل الآلهة إلى أعماق نفوسهم[٢٥].

....

ولما كان البراهمانات يملكون المعرفة، الضرورية، ولو لم تكن كافية لبلوغ السلام الداخلي، فإنهم يمارسون على المجتمع كله سيطرة عنيفة. وفي القرن السادس قبل المسيح، وُجد من يماري في سلطتهم هذه، من قبل فرقتين منشقتين، هما الجائينية، والبوذية ــ اللتان سندرسهما فيما بعد[٢٦]. وعندئذ يرى الكهنة أن من الضروري تقريب المعتقدات الشعبية من الديانة التي يقومون على رعايتها؛ ومن هنا جاء هذا الخليط من العقائد التقليدية الرفيعة الشأن، ومن هذه الخرافات ذات الأصل المغرق في البعد التي كثيراً ما أُطلق عليها اسم «الهندوية INDOUISME».

وعلى الرغم من أنه لا يمكن إعطاء تواريخ دقيقة لهذا التحول المتزايد في الأفكار، فإنه يمكن وضع الهندوية، في القرون الأولى من التاريخ الميلادي، وهي عهد بدأت البوذية فيه بالانهيار، والتراجع.

أما النصوص المقدَّسة في الهندوية فيما عدا النصوص السابقة، أي الفيدا، والبراهمانا، والأوبانيشاد ــ فهي البورانا Pouranas (أو الموروثات القديمة) التي تعرض أساطير قديمة؛ ــ والماهابهاراتا Mahâbhârata، التي ربما كتبت في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ــ على كونها قد عُدِّلت بقوة خلال الأجيال التالية: وأجمل جزء فيها هو الباغافات جيتا Bhagavat gîta أو (أغنية السعداء) التي تشيد بالإله كريشنا Krishna[٢٧]؛ ــ والرامايانا Râmayana، وهي ملحمة كتبت

---

(٢٥) انظر: Oldenberg, La Religion du Véda, p. 406. Le Bouddha, p. 30.

(٢٦) ونحن نعدل هنا عن الترتيب التاريخي لكي نتبع الترتيب المنطقي، من حيث أن الهندوية الحالية هي استطالة للبراهمانية السابقة.

(٢٧) البهاغافات جيتا، ترجمة سينارت Senart، الطبعة الثانية. باريس Les Belles-Lettres عام ١٩٤٤.

في تاريخ غير معروف، (ولعلها بقدم الماهابهاراتا Mahâbhâratât) أعيدت كتابتها في القرن السادس عشر والسابع عشر على يد الشاعر تولسي Toulsi، وهي تحكي حياة الإله راما Râma.

....

لكن معتنقي هذه الديانة الهندوية (أو الهندوسية) يستمرون في الاحتفاظ بفلسفة البراهمانية العميقة، التي ربما خُفّف ما فيها من تشاؤم. وهم يجدون تعابير جميلة لها، في أعمال مثل البهاغافات ــ جيتا.

مثال ذلك أن الإله كريشنا يعرض أنه مثيل أو متماه مع براهما، أي الألوهية التي تستطيل بها البراهمانية Brahman اللا شخصية القديمة، أي أنها تضحية الأجيال القديمة، والكائن العالمي أو الشامل.

«إني أنا نفسي، التضحية، وأنا الصلاة، وأنا القربان، والخير الذي يقدمه القربان. إني عملية التضحية، والسائل المقدّس، وكذلك النار التي تتوقد فوق المذبح.

وأنا الأب والأم لكل شيء موجود؛ وأنا الذي يلد، والذي يحفظ هدف كل كلمة، والتطهير، والمقطع المقدّس OM[٢٨].

وأنا الصوت والسيد والمغذي (أو المرضع)، والبيت والمسكن، والملجأ، والصديق، ومنبع كل حياة، وأوفيانوس الحياة. وأنا البداية والنهاية، والكنز، والتحولات، والبذار الذي يحمل الثمار دوماً.

وبفضلي تتلقى الشمس النور والحرارة، وأنا الذي أنزل المطر، والذي يستطيع حجبه. أنا الحياة والخلود، وأنا أيضاً الموت، والعدم...

وأنا أسكن، من حيث أني كلمة، في قلب الجميع؛ وأنا طيب الخير.

(٢٨) أو AUM: وهو مقطع مقدّس، يتكثف فيه كل ما هو إلهي.

وأنا الإله في كل شيء؛ وأنا قوة القوي، وجمال الأشياء الجميلة، وذكاء الناس الأذكياء، وأنا المعرفة في عقل الذين يعرفون، وأنا الصمت الذي يخيّم على السر الإلهي(٢٩).

....

«إن اكتشاف الكائن الكلي أو الشامل يتيح لنا القضاء على كل رغبة أنانية، واستعادة الهدوء الذي تعطينا إياه الحكمة، والسلام الذي يسود القلب:

وهذا الذي يتأمل لعبة الطبيعة، كمشاهد مجرَّد لا يتأثر بشيء، يعترف بأنها تخضع للقانون؛

وذاك الذي يرى أن الفرح، والألم، والحجرة، والسبيكة الذهبية، والصديق، والعدو، كلهم سواء؛ والذي يحتفظ بهدوئه دوماً، بارد القلب والنفس، سواء تلقى المديح أم اللوم، لا يستطيع أبداً أن يُغرى بشيء في العالم، لأنه يفهم القانون الذي يخضع له كل شيء. وعن مثل هذا نقول إنه أصبح سيداً على الطبيعة...

وهذا الرجل، لا يعود الحزن يرهقه، ولا المسرة تفرحه، ولا شيء مطلقاً، يحركه، لا الشهوة، ولا الحسد، ولا الخوف، ولا الغضب؛ إنه يتلذذ بالحكمة التي استطاع الظفر بها. إنه راهب، إنه قديس، يعيش، متحرراً من كل الأشياء الخارجية، ويحيا، سيداً على نفسه، كما هو سيد على حياته الداخلية.

إنه لم يعد متصلاً بأي شخص، ولا بأي شيء؛ ويتحرر من كل رغبة، والمصائب لا تهزه، والسعادة لا تؤثر فيه... تلك هي سمة ذاك الذي قد بلغ مرتبة الحكيم حقاً(٣٠)».

....

وبين هذه التأملات الفلسفية العليا، وبين العبادات الشعبية، يتم الانتقال، وهذا هو الفكرة، المميزة للهندوسية، فكرة الباكتي **BHAKTI** أو التفاني **dèvotion**: أي الإيمان بإله،

(٢٩) **Bhagavat Gita, cité par Kreglinger, Etudes sur l 'origine et le développement de la vie religieuse, pp. 284-285.**

(٣٠) بهاغافات جيتا، نفس المصدر السابق، ص: ٣٠٠ــ ٣٠١.

والحب لهذا المنقذ الإلهي . ويتم السلام في مثل هذا الحب ، لا في التضحية ، ولا في المعرفة .

وهذا الإله ينعم على أفضل المثقفين من المؤمنين به ، بكشوف رائعة ، مطابقة للتصورات الفلسفية التقليدية ؛

« وهذا الذي أخلص لي ، أنا كريشنا ، بكل ما فيه من إيمان ، وبكل الحماسة التي تحملها قناعته ، هذا سأحرره من كل قوى الطبيعة ؛ فينحل بي ، أنا الذي هو جوهر براهما ... »

والذي يستسلم إليّ ، استسلاماً كاملاً ، والذي لا يحب أحداً غيري ، هذا الرجل سيكتشفني ...

وذاك الذي يتعرّف إليّ ، من حيث أني الكائن الوحيد ، الذي يعيش داخل الكائنات كلها ، في هذا الرجل سأعيش ، وهو يعيش فيّ ، كيفما كان الطريق الذي يمضي به الحظ إليه ، على هذه الأرض[٣١] .

وفي الوقت نفسه ، فإن هذا الإله يمكن أن يُحب من أكثر الناس تواضعاً ، وضآلة شأن ، أي من أولئك الذين لم تكن البراهمانية السابقة تقيم لهم أدنى وزن ، كالنساء ، وأفراد الطبقات الدنيا . « فمن لا يلفظ اسم راما Râma أو ينظف صورة كريشنا ، أو يقبل قدم سيفا Civa وهو يرقص ؟ » .

وتبرهن أعظم الفلسفات عمقاً ، على تفاهة الفوارق الاجتماعية التي يقيمها الناس فيما بينهم ، بالقياس إلى وحدة الكائن الكلي الشامل . وبالتالي فإنها تتيح لنا أن « نهب دلالة رمزية لعبادة الصور ، حتى التي هي أتفهها قيمة »[٣٢] .

أما الآلهة الأكثر شعبية في الهندوسية فهم سيفا أو شيفا ، وفيشنو ، المتجسد ، بين أشياء أخرى ، في راما وكريشنا .

أما شيفا فهو إله الهدم الخلاق ، أي ذاك الذي يحل الكائنات والأشياء وينتجها ؛ إنه النشاط القاتل والمولّد للوجود (الكائن) . إنه الذي نمجّده ، في آن واحد ، بالرذيلة ، والإماتة والتقشف .

ويرمز إليه باللينغا linga ، أي عُميرة الهندوسي (عضو الذكورة) ؛ حتى ليختلط واحدهما بالآخر ؛ ويتحدث الهندوسيون عن « شيفا الذكر » .

ويشرك هذا الإله مع ألوهيات دموية ، مثل دورجا Dourga ، وكالي Kali السوداء .

---

(٣١) انظر سوديربلوم ، في كتابه عن تاريخ الأديان ، ص : ٣٣٢ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٢٣ .

وكثيراً ما يرسم حاملاً على رأسه هلال القمر، بثلاث عيون، وعقد من رؤوس الموتى، معلق في العنق، وأذرع عديدة، وأيد تحمل الفؤوس والحراب، وجسده محاط بثعابين. وأحياناً يكون نصفه رجلاً والنصف الآخر امرأة؛ لأنه الحبيب والمحبوبة، والأب والأم لكل الكائنات، وهو الذي نعبده عندما نتذوق المتعة الكبرى. ونراه أحياناً يرقص، وأيديه الكثيرة تشكل هالة حول جسمه. وأحياناً أخرى، يُمثّل كمتقشف، عارياً، أو لابساً قشور الشجر. وإنه لرمز رائع للإشارة إلى الطبيعة التي تجتمع فيها كل المتناقضات.

أما فيشنو، السعيد جداً، ذو العيون المؤلفة من زهرات اللوتُس، فهو المحافظ (الذي يحفظ) والواقي، واقي العالم. ولديه قريباً منه لاكشمي LAKHSMI، إلهة الجمال، والحب، والخصب، التي كرّست لها البقرة. وكثيراً ما يكون مصحوباً بالطائر الشمسي Garouda.

وهو يُمثّل في شكل إله له أربع أذرع، ماسكاً بين يديه قرصاً، ومعه بوق صدفي، ومطرقة، وزهرة نيلوفر.

ولقد تقمص وأعاد التقمص مرات عديدة، لكي ينقذ العالم (وهذه أيام نحسه: إذ لقد كان مرة بعد مرة، سمكة، وسلحفاة، وخنزيراً، وأسداً، وقزماً؛ وكان راما وكريشنا).

وأما راما Râma، الابن الأكبر للملك هندوسي (هندي)، فقد طرد من قبل أبيه نتيجة لمؤامرات أخ غير شقيق له. لكن امرأته الحلوة سيتا SITA، تحرص على مرافقته في الغابة الموحشة، حيث يمضي ليعيش حياة بائسة. ولكن رافانا RÂVANA، ملك الشياطين اختطفها، ونقلها إلى سيلان. فيتحالف راما مع ملك القرود؛ وبجيش من هؤلاء، يقوده الجنرال القرد هانومان Hanouman، يدخل إلى سيلان، ويهاجم رافانا ويقتله ويستعيد سيتا [٣٣].

أما التقمص الآخر لفيشنو، أيْ في كريشنا، فإنه الإله الأكثر شعبية، بين الآلهة الهندوسيين. وحتى اليوم، في الهند، ما نزال نصادف في كل لحظة، تماثيله الصغيرة أو صوره لدى باعة الأشياء الدينية. إنه إله أسود، أو أزرق غامق، بعينين طويلتين لامعتين، يعزف بالقيثارة، بين راعيات.

---

(٣٣) إن كثيراً من مشاهد رامايانا منحوتة على جدران معبد أنكور فات Angkor Vat، في كمبوجيا.

وتذكرنا أسطورة كريشنا بحكايات مألوفة : لأنه يولد في أسطبل ، من عذراء ، بأعجوبة ؛ ولكنه يضطهد من قبل ملك فاسد ، بغية إزاحته من الوجود ؛ وينقذ بمصادفة سعيدة . وفي أول الأمر يكون راعياً غامضاً . غير أنه أخذ ، ذات يوم ، إلى المعبد ، فأدهش البراهمانيين (أو البراهمانات) بعمق حكمته . وعندما أصبح رجلاً ، عاش حياة غريبة ، ملأى باللذات والمتع الشهوانية ، ويخطب وعظية من أعلى المستويات . فهو إذن أشبه ما يكون بخليط من المسيح ودون جوان . إذ كان له ست عشرة ألف حبيبة ؛ وكان يعظهن بالاستسلام ، والإخلاص ، والطيب .

وهناك قصيدة من القرن الثاني عشر ، هي الجيتا ــ غوفيندا ، تقص علينا (غراميات) كريشنا . وقد سموها باسم نشيد الأنشاد ، الهندوسية . وقد ساعدت على إنشاء عبادة ، حول كريشنا ، تتصف بأنها جنسية ورقيقة .

وأخيراً فإن أتباع فيشنو يرون أيضاً أن آخر مصائبه وقعت على شخص بوذا ــ الذي لا يعتبره البوذيون إلهاً ، بل مخلّصاً أو منقذاً .

وكثيراً ما قُرِّب شيفا وفيشنو من إله ثالث ، هو براهما ، لينشئوا بذلك ثلاثية (Trimourti) : فالبراهمان اللا شخصي ، ربما يظهر كخالق في براهمان ، وكهدام في شيفا ، وكعناية إلهية Providence في فيشنو . ولكن هذا من إنشاء اللاهوتيين ، أكثر مما هو معطى من معطيات التقوى الشعبية .

وهناك ، في الهندوسية ، عدد كبير من الآلهة الأخرى ، ــ مثال ذلك ، إله الحكمة غانيش أو كانيش Ganesh ، ذو الرأس الفيلي (له رأس فيل) . ــ وهنالك عدد كبير من الحيوانات المقدّسة ؛ منها ، في المقام الأول ، البقرة ، ثم القرد ، ثم الثعبان (أو الحية) . وهناك أيضاً أشجار مقدّسة ، وأنهار مقدّسة ، أهمها نهر الغانج المشهور .

وما يزال الناس يؤمنون بالتقمص . وعلى ذلك فإن التطبيق الدقيق للشعائر الجنائزية يساعد الموتى على الحصول على تقمص أفضل . ويمكن أن نقدم للموتى خدمة ثمينة ، إذا نحن أحرقناهم ، ورمينا بالرماد في مياه الغانج .

ويظل نظام الطبقات قائماً ، كقاعدة أساسية في المجتمع (٣٤) والطبقة ، من حيث المبدأ ، هي

(٣٤) إن نظام الطبقات ذو علاقة وثيقة بالتصور البراهماني للكارمان karman ، فإذا كانت الولادة الحالية نتيجة لمجموعة الأعمال السابقة فإنه ليس على المجتمع إلا أن يلاحظ ويُبقي على ما لايستطيع تغييره . وإن اريستقراطية ←

مجموعة مهنية وراثية، مرتبطة ببعض الالتزامات المتصلة بالغذاء والزواج. وتساهم هذه الالتزامات في استبقاء وضع منحط جداً للمرأة.

وكلما اتسع نطاق توزيع العمل، كان عدد الطبقات يتزايد، لكن البراهمان يظلون هم الطبقة الحاكمة.

ومن الهندوس المتنورين، كالمهاتما غاندي، من قام ويقوم بجهود جبارة للتقريب بين الطبقات، وإسباغ صفة إنسانية أو لنقل أنسنة العلاقات مع أفراد الطبقة ـــ المنحطة ـــ الموضوعة في أدنى درجة من درجات المجتمع.

وتقوم العبادة في الديانة الهندوسية على تمجيد الآلهة، وتكرار عبارات معيّنة في الإشادة بهم، والعناية بتماثيلهم أو بالحيوانات المقدَّسة، والتوضؤ بالأنهار المقدَّسة، والقيام بالحج إلى المعابد الأكثر احتراماً، وخاصة معبد بيناريس Bènarés.

أما مركز الحياة الدينية في الهند، فإنه دوماً في بيناريس، «صرة العالم» وهي تقدِّم بحجاجها، وأبقارها المقدَّسة، وقرودها المقدَّسة، والألفي معبد القائمة فيها، ومعابدها الصغيرة الأخرى التي لا حصر لها، والخمسة آلاف تمثال التي فيها للآلهة، وحماماتها المقدَّسة، ومحارقها للموتى، واحداً من أعجب المناظر في هذا العالم.

....

وقبل أن ندرس المرطقات الكبرى للهندوسية، لابد من الإشارة إلى ديانة السيخ، التي هي نوع من التأليف بين الدين الهندوسي والدين الإسلامي، وتعود إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر(٣٥) وإلى البراهما ساماج Brahma Samaj التي هي تأليف بين ديانة فيشنو، والبوذية والمسيحية، تعود إلى القرن التاسع عشر.

الدم تؤلف جزءاً من الحق الأعظم، أو الحق الطبيعي. انظر: Sylvain Lévi, L 'Inde et le Monde (Paris, Champion, 1926), pp. 65-66.

(٣٥) انظر الصفحات ٢٥٦ ـــ ٢٥٧.

ويمكن أن نجد خليطاً من الأفكار المشابهة، لدى هندوسيين متميزين من أواخر القرن التاسع عشر: راماكريشنا وفيفيكاناندا (٣٦).

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد، عورضت الديانة الأصلية، أي ديانة البراهمانيين، بهرطقتين أو حركتين انشقاقيتين: الجائينية Jaïnisme (٣٧) التي قصرت عملها على الهند، والتي لا تزال موجودة حتى اليوم؛ والبوذية، التي انتشرت في آسيا، بعد أن طردت من الهند. ولا يزال لها فيها عدد كبير من الأتباع.

وبين هاتين الديانتين وجوه شبه كبيرة.

فهما تقربان عناصر مسلوخة عن طبقتها، وتؤمنان بصورة حرة، بمثل أعلى نادت به شخصية قوية، ويتحدون من أجل نشر هذا التصور الجديد للحياة.

وترفض هاتان المجموعتان، تلك العبادة التقليدية السابقة، ولا تهتمان مطلقاً بالتقاليد الفيدية، والألوهيات التي ما تزال معبودة حتى الآن، ولا تقيمان أي وزن لنظام الطبقات.

أما مؤسس الديانة الجديدة فإنه لا يتقدم إلينا كإله؛ بل هو رجل، كاشف، منقذ. فالجائينية والبوذية دينا سلام.

....

ولقد ظهرت الجائينية قبل قليل من ظهور البوذية.

وينتسب مؤسسها، مثل بوذا، إلى أسرة من الخشارترية (أي من المحاربين والأمراء). ولقد سمي باسم «ماهافيرا MAHÂVÎRA» (أي البطل الكبير) و «جينا» (المنتصر). وعاش كمتقشف، مستغنياً حتى عن كل لباس. وبدأ ينشر عقيدته في وسط النبلاء الذي كان ينتسب

---

(٣٦) يحسن أن نقرأ كتابي رومان رولان: (حياة راماكريشنا) (باريس — ستوك ١٩٢٩) وحياة الفيفي كاناندا Vivekananda (باريس — ستوك ١٩٣٠)، وكذلك انظر حول راماكريشنا الصفحات ١١٧ — ١٤٩ من Swâmi Siddhéswananda وذلك في الكتاب: بعض وجوه الفكر الفيدانتي (مركز الدراسات الفيدانتيكية).

(٣٧) ألفظ الكلمة جائينية، وانظر حولها كتاب:
. Guérinot, La Religion Djaina (Paris, Geuthnar, 1926)

إليه . وصار له مريدون كُثُر . وتريد الروايات التقليدية أن تجعله يموت في الثانية والسبعين من عمره .

والجائينية ، كالبوذية ، دين ملحد . إذ لا ترى أنه كان هنالك خلق : فالعالم عندها كان موجوداً دوماً ، وهو خالد . أما فكرة الخلق ، التي تريد أن ينشأ كل شيء من العدم ، فإنها غير مقبولة في العقل . وما من خالق . وما من كائن كامل ، في أصل الأشياء . فالكمال ليس إلا الغاية المثالية للجهود الإنسانية .

والجائينية ، كالبوذية ، تقبل فكرة التقمص . وكالبوذية نراها تقدم أخلاقاً سامية المستوى : والقاعدة الأولى ، هي أن لا يقوم الإنسان بأذى لأي كائن حي .

أما الفرق بين الهرطقتين ، فيقوم على أن الجائينية تقتضي تقشفاً قاسياً . وتعلن عن القيمة العظيمة للصيام . وكانت في البداية ، قد أمرت بالعري ، ثم تسامحت مع الضعفاء ، وأقرت لهم بلباس خفيف . بل لقد حدث انشقاق بين اللابسين والعراة ، لابسي الثياب البيضاء ، ولابسي الهواء .

ولما كانت الجائينية قد دفعت بالتقشف إلى أقصى مدى ، فإنها انتهت إلى الإعلاء من قيمة الانتحار . وعندها أن مما يرفع قدر الإنسان ، أن يدع نفسه تموت من الجوع . وكان المؤمنون ، بعضهم أحباراً ، ولاسيما الأحبار المتسولين ؛ وبعضهم الآخر ، علمانيين ، يؤلفون نوعاً من الطبقة الثالثة .

ولا يزال للجائينية من يؤمن بها في الهند(٣٨) .

....

وقد لعبت البوذية التي ظهرت في الهند ، في القرن السادس قبل الميلاد ، وما تزال تلعب في العالم دوراً أهم بكثير من دور زميلتها الأخرى . أي الجائينية .

والنص المقدَّس عندها هو الـ TRIPITAKA (الترييبتاكا) باللغة السنسكريتية . أو التيبياتاكا TIPITAKA (باللغة البالية(٣٩)) أو السلاسل الثلاث . أما أول هذه السلال فتحتوي القواعد

(٣٨) هنالك أكثر من مليوني جائيني في الهند ، ولا سيما في منطقة أحمد آباد .

(٣٩) والبالي ، لغة يتكلم بها الناس في الشمال الغربي من الهند الوسطى . وقد ظن بعضهم أن هذه اللغة هي لغة بوذا نفسه .

الرهبانية، وتحتوي الثانية على الوسائل الموصلة للسلام، والثالثة على التصورات الفلسفية، والنفسية خاصة.

ويقال إن مريدي بوذا، قاموا بعد موته مباشرة، بجمع عدد من كتاباته. ثم انضاف إليها غيرها بالتدريج. ولقد تغيّر القانون، أي القاعدة التي تعرِّف بصحة النصوص، تبعاً للمدارس والاتجاهات. أما القانون البالي، فإنه لم يتم إلا في بداية العهد المسيحي.

وتبعاً لملاحظة العالم الألماني (المختص بالهنديات) ماكس موللر، فإنه إذا كان البراهمان يملكون أقدم «كتاب مقدّس» في العالم، فإن البوذية يمكن أن تفخر بأنها تملك الأكثر ضخامة.

وأحسن كتاب حول البوذية، هو من تأليف العالم الألماني (المختص بالهنديات) أولدنبرغ H.Oldenberg بعنوان: (Leben,Lehre,Gemeinde) وقد ترجم إلى الفرنسية بعنوان (بوذا. حياته، عقيدته، وطائفته) وطبعته دار ألكان لأول مرة عام ١٨٩٤، وطبعته مرة ثانية عام ١٩٠٣.

....

وتنشأ طرافة البوذية، بالمقارنة مع عدد كبير من الأديان الأخرى، من أنها، وهي العقيدة المخالفة، من بعض النواحي، لتقاليد الوسط الاجتماعي، استمدت، من تجربة حياة مؤسسّها، هو نفسه.

ومن المهم، تبعاً لذلك، أن نعرف هذه الحياة؛ ويمكن أن نلخّصها فيما يلي، بعد أن نهمل بعض التفاصيل الأسطورية، حتماً (٤٠).

فهذا الذي لم يصبح بعدُ «بوذا» والذي سيكون فيما بعد، اسمه Gôtama (غوتاما)، ولد حوالي منتصف القرن السادس، قبل الميلاد، في شمال الهند، غير بعيد عن الهملايا. وكان من أسرة من صغار الأمراء، هم الساكيا SAKYAS، ومن ذلك نشأ الاسم الذي يطلق عليه في اللغة الشعرية، اسم حكيم بيت الساكيا، ساكيا موني.

أما أمه، مايا MÂYÂ، فقد ماتت بعد بضعة أيام من ولادته.

ويعيش أول الأمر، تلك الحياة الغنية التي يعيشها النبلاء والأغنياء. ويتزوج. ويرزق بغلام. ومع أنه يعيش في ظروف خارجية ملائمة جداً، فإنه يصاب بكآبة عميقة.

(٤٠) سنرى فيما بعد أن هذه الكلمة تعني الملهم، أي ذاك الذي يحسن الرؤية، وأن غوتاما يصبح بوذا في عمر السادسة والثلاثين.

وتكشف لنا أسطورة بوذية عن الموضوعات التي يتناولها تفكيره، وهذه الأسطورة هي أسطورة اللقاءات الأربعة. إذ يخرج غوتاما من قصره؛ فيلتقي شيخاً هرماً، ويفهم عبث الشباب؛ الذي سينتهي إلى الكهولة. ويخرج، مرة أخرى، ويصادف مريضاً. فيكتشف أن الصحة يوماً ما، صائرة إلى المرض. وفي المرة الثالثة يخرج ويرى جثّة، ويقول لنفسه: ما فائدة الحياة، ما دام الموت آتياً لا محالة؟ وفي الخروج الرابع، يجد نفسه أمام راهب، له وجه هادئ وسعيد. فيقرّر أن يحتذي حذو الراهب، وأن يعزف عن الملذات، ويعيش العيشة التائهة، عيشة من يبحثون عن الحقيقة وهدوء القلب.

وكان عمره تسعة وعشرين عاماً، عندما خرج ذات ليلة مقمرة، وترك قصره، وأسرته. وخلال سبعة أعوام، كان ينهك جسمه بالتدريب على أقسى صور الحرمان، متأبياً تقريباً على كل طعام. وكان من حوله خمسة متقشفين، يعيشون معه، فأعجبوا بجهوده البطولية.

ولكن غوتاما يفهم أن هذا الانهماك لا يؤدي إلى السعادة، ولا إلى السلام؛ فيعدل عن هذه الممارسات التي لا جدوى منها، فيستحم ويتغذى جيداً لكي يستعيد قواه المفقودة. فيتألم الرهبان لهذا السقوط، ويهملون رفيقهم.

وعندما بلغ السادسة والثلاثين انكب على التأمل. فنراه يجلس تحت شجرة تين ستسمى فيما بعد، شجرة العلم. وفي مساء ٨ كانون الأول، تنكشف له الحقيقة، وسيكون، بعد ذلك، هو البوذا أي «الرجل الملهم illuminé» بالمعنى القوي لهذه الكلمة. وتعني كلمة الملهم هنا، ذاك الذي يعرف، والذي ينقذ. وهذه هي الليلة المقدّسة لدى البوذيين.

وعلى أربع مرات، يبقى سبعة أيام تحت شجرة المعرفة «متذوقاً سعادة الخلاص». وتأتي أسطورة متأخرة، فتصوّره وهو يكاد يصغي لشيطان البوذية «مارا» غير أنه يتغلب عليه.

وتثور عاصفة، وتدوم أياماً سبعة. ولما كان محاطاً بسبع حلقات من ثعبان يحميه، فإنه يحتفظ بهدوء القلب. وعندما اتخذ الثعبان صورة شاب فتي، وجّه بوذا إليه أولى كلماته، التي يمكن تسميتها: صور الغبطة السبع.

«سعيدة وحدة السعيد الذي يعرف الحقيقة ويراها؛ وسعيد ذاك الذي يظل صامداً في طريقه، والذي لا يتناول بالأذى أحداً؛ وسعيد ذاك الذي ذهب من نفسه كل هوى، وانزاحت كل رغبة؛ وإن التغلب على عناد الأنا، هو حقاً أعلى غبطة.».

ويفكر البوذا بنشر الحقيقة، و تلك الحقائق التي أتى على كشفها. وكان يود عندئذ أن يكشفها للرهبان الخمسة الذين كانوا رفاق جهوده في التقوى. فيجدهم في بيناريس. فيلومه هؤلاء على أنه عزف عن طموحاته القديمة، وهبط إلى حياة الفخفخة. فيشرح لهم البوذا أنه ينبغي تجنب التطرف، من الجهتين، أي التطرف في اللذائذ القذرة والعابثة، والتطرف في التقشف، التعيس والعابث، وأنه ينبغي اتباع «الطريق التي تكون بين هذين الطرفين» لكي نصل إلى العلم، إلى السلام، وإلى الفناء السعيد،

وعندئذ يلقي البوذا أمام الرهبان الخمسة وعظة بيناريس الشهيرة، التي تلخص في أربع حقائق مقدَّسة عقيدته كلها (وسنعرض فيما بعد هذه الحقائق الأربع).

فاقتنع الرهبان؛ وبدؤوا يمجدّون المعلم؛ ويصبحون الأعضاء الأوائل في الطائفة البوذية.

ومنذ ذلك الحين، انصرف بوذا، إلى إشاعة الحقيقة، وقضى كل حياته في الوعظ، وقبول المؤمنين الجدد. وكان بينهم ملوك كما كان بينهم عمال متواضعون، دون أي حساب للفروق الطبقية، ويفتح بابه على مصراعيه لكل من يريد أن يدخل في دينه: وكان في ذلك ثورة أخلاقية عميقة.

وهكذا فإن البوذية لم ترفع من شأن الناس، المتواضعي الشروط، فحسب، بل رفعت من شأن الساقطين الذين رفضهم المجتمع. ولقي ابن عم بوذا، آناندا، واعظة دينية، على بئر، فطلبت منه بعض الماء، وكلمها برقة، وهداها إلى الدين الجديد.

لكن بوذا، الذي شاخ، بدأ يحس بتضاؤل قواه. وفي عمر الثمانين، قرّر أن يدخل في النيرفانا.

وكان في كوسينارا Kousinârâ، مُتمدِّداً تحت شجرتين توأمين، اكتستا بأعجوبة، بالأزهار. فودّع مريديه، وعلم أن أحب أقربائه إليه، آناندا، يختبئ لكي يبكي. فيرجوه، بحب ومودة، أن يأتي إليه، ويقول له:

لا تمض هكذا، يا آناندا، ولا تتألم وتتوجع، ولا تيأس. أو لم أقل ذلك لك؟ وعلى الإنسان أن ينفصل عن كل من وما يحب، وأن يُحرم من كل ما يملأ قلبه سحراً، وأن يودّع كل ما هو عزيز عليه. وكيف يمكن، يا آناندا، لمن يولد، ويخلق، ويصنع، ويساوره القلق باستمرار، أن لا يموت. إن هذا ليس بممكن، ولكن أنت، يا آناندا، لقد مجّدت «الكامل» مدة طويلة. بحكم العطف

والطيب، بفرح، وبلا تصنع، ولا حدود، بالكلام، والفكر والعمل. لقد عملت الخير، يا آناندا؛ فثابر وستتحرر من خطيئاتك[41].

وبعد أن قال لمريديه هذه الكلمة الأخيرة! «ناضلوا بلا كلل» مات البوذا.

وعندما طلعت الشمس، اجتمع المريدون ونبلاء كوشيناري، وأحرقوا جسده.

....

والآن أيمكن أن نعتبر القصة التي رويناها فيما سبق، ذات قيمة تاريخية؟ والبوذا، هل وُجد حقاً؟ إن هذه المسألة قد تلقت أجوبة مختلفة.

وقد استخدم العالم الهولندي كيرن Kern ترجمة حياة، أسطورية، شائعة بين البوذيين في الشمال (نيبال، والتيبت، والصين) اسمها «لاليتا فيستارا le Lalita vistara» وانتهى منها إلى أن بوذا شخصية أسطورية، لا تزيد قيمتها التاريخية عن قيمة كريشنا.

ثم إن الفرنسي Senart، المختص بالشؤون الهندية، جعل من بوذا بطلاً لأسطورة شمسية[42]. فكلمة بوذا تنشأ من كلمة MAYA (وهي كلمة تعني، الوهم، والسراب)، كالشمس التي تخرج من الظلام؛ ثم إن أمه تموت بعد مدة قليلة من ولادته، كما الظلمات تزول بعد قليل من طلوع الشمس. ويتغلب على الشيطان ويحيا حياة مجيدة، ويحرك «دولاب القانون» كما الشمس تنتصر على السحب، وترتفع في كبد السماء، وتدير قرصها المتألق اللمعان. ثم إنه يتضاءل كالشمس، ويهبط باتجاه الأفق. أما لهب المحرقة، الذي انتهى به وجوده، فإنه كآخر شعاعات أرسلتها الشمس قبل المغيب.

وقد نقدت هذه الفرضية الذكية، من حيث أنها اعتمدت أكثر مما يجب على اللاليتافيستر‍ا، أي أنها ارتكبت نفس الخطأ، الذي يرتكبه أولئك الذين يعتمدون على الأناجيل المزورة، لكي يثبتوا عدم وجود المسيح، من الوجهة التاريخية[43]. لكن سينارت، في طبعته الجديدة

(٤١) نص ذكره أولدنبرغ في كتابه: البوذا، ص: ١٩٨.

(٤٢) Essai sur la légende du Bouddha, Paris، في الطبعة الأولى عام ١٨٧٥، والثانية عام ١٨٨٢.

(٤٣) أما سالومون ريناخ فقد أكد، ساخراً، أنه يمكننا اعتبار نابليون نفسه بطل أسطورة شمسية. فقد ولد في جزيرة، ومات في جزيرة، ولديه ١٢ ماريشالاً، كما أن للسنة ١٢ شهراً.

لكتابه، اعترف بأن « في القصص التقليدية، عدداً من العناصر، لا نملك أي سبب سليم لاعتبارها مزورة »؛ وأن كثيراً من التفاصيل، ذات لون تاريخي حقاً، وسمة واقعية تتميز بها من بقية عناصر القصة.

وبالمقابل فإن أولدنبرغ يعتقد أن بوذا شخصية تاريخية فعلاً. إذ لم يفصل بين موت بوذا، وبين أول مجمع بوذي تبنّى حول حياته وعقيدته نصوصاً كتبت قبل هذا بمدة طويلة، إلا قرن واحد. ومن جهة أخرى، فإن بوذا مذكور في نصوص جائينية.

وعلاوة على ذلك، فقد وجد الموضع الذي وُلد فيه بوذا، وهو موضع أقام فيه نصباً تذكارياً، الملك البوذي الكبير آسوكا Açoka في القرن الثالث قبل الميلاد (وقد اكتشف هذا النصب الحجري عام ١٨٩٦). ولقد تحقق الباحثون من كل المراحل التي مرّ بها المعلّم، والتي كان يتبعها مريدوه، كالحجاج الصينيين البوذيين[٤٤]. ووجدت عام ١٨٩٨ في هضبة للبقايا المقدّسة، مرمدة يقال، تبعاً للكتابة التي عليها، إنها احتوت رماد جثة بوذا.

ويخلص سوديربلوم من هذه الوقائع إلى القول: «إن تاريخية بوذا لا يمكن أن توضع موضع شك[٤٥].».

....

«وكان بوذا، على سرير موته؛ قد قال لأناندا: إن العقيدة والقاعدة التي علمتها وبشّرت بها: تلك هي مُعَلِّمك، عندما أكون قد غبت عن هذه الدنيا.».

وتترك هذه العقيدة، كل المجال للفحص الحر، والتجربة الحرة للفرد؛ وبهذا تتميّز من عدد كبير من عقائد دينية أخرى. وقد قال بوذا:

«لا تؤمنوا بشيء لمجرد أنه سُمع حديثه؛ ولا تؤمنوا بشيء، تضعونه على ذمة التقاليد. أو لأنها مقبولة منذ أجيال كثيرة، ولا تؤمنوا بشيء تبعاً لمكانة معلميكم أو رهبانكم. ولكن هذا الذي

---

(٤٤) انظر: Sur les traces du Bouddha, Par René Grousset.

(٤٥) سوديربلوم، Söderblom, Manuel d 'histoire des religions, p. 276.

جربتموه أنتم ، وأعترفتم بصحته أنتم ، والذي ينسجم مع خيركم وخير الآخرين ، هذا الشيء ، اعتقدوا بصحته ، ونسّقوا سلوككم تبعاً لذلك[٤٦] . » .

....

وهذه الثقة بالعقل الفردي ، هي من القوة ، بحيث يمكن القول : إن البوذية تعتبر ، لأول وهلة ، كفلسفة لا كدين ، ومع ذلك فنحن أمام دين لا أمام شيء آخر . ذلك أن الغاية ليست أن نجد حقيقة باردة ، بل أن ننقذ النفوس ؛

وكما أن لماء البحر الواسع طعماً واحداً ، هو طعم الملح ، على ما يقول بوذا فكذلك لهذه العقيدة ، وهذه القاعدة ، طعم واحد ، هو طعم الخلاص .

ويرى دركهايم في البوذية ديناً حقيقياً ، لأن مجموعة من الناس تقبل فيها نوعاً من التمييز بين المقدّس وغير المقدّس . والحقائق الأربع المعروضة في عظة بيناريس[٤٧] حقائق مقدّسة .

فما هي هذه الحقائق الأربع ، التي تلخّص كل هذه العقيدة ؟ .

أما الأولى فهي حقيقة الألم ، إن الحياة ملأى بالآلام .

فهذه ، أيها الرهبان ، هي الحقيقة المقدّسة حول الألم . فالولادة ألم ، والكهولة ألم ، والمرض ألم ، والموت ألم ، والاتحاد مع ما لا نحب ، ألم ، والانفصال عما نحب ، ألم ، وعدم تحقيق الرغبة ألم ، وكل الأشياء التي نتعلق بها هي أسباب ألم .

لكن الهرطقة البوذية تلقت من العقيدة الأساسية فكرة التقمص ، وما تزال تحتفظ بها . وهكذا يمتد وراء الحاضر المؤلم ، ماض كبير من الألم ، ومستقبل طويل من العذاب . وقد وجد البوذا تعابير رائعة لكي يُعبِّر عن هذا الاكتشاف المتشائم :

ما هوالشيء الذي ترون ، أيها المريدون ، أنه الأكثر انتشاراً ؟ أهو الماء الذي ترونه في المحيطات الأربعة ، أم الدموع التي جرت ، والتي ذرفتموها ؟ على حين أنكم في هذه الرحلة الطويلة ، كنتم

---

(٤٦) نص ذكره Kreglingler في كتابه : دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية ، ص : ٣٠٨ .

(٤٧) دركهايم : الصور البدائية للحياة الدينية ، ص : ٤١ . أما عن وعظة بيناريس ، فانظر كتاب أولدنبرغ ، البوذا ، ص : ٢٠٥ وما بعدها .

تتيهون، على حسب المصادفة، من رحلة إلى رحلة، وكنتم تئنون، لأنكم تشتركون فيما تكرهون، ولم تكونوا تشتركون فيما كنتم تحبون؟ فموت أم، أو موت أب، أو موت أخ، أو موت أخت، أو موت ابن، أو موت بنت، أو فقد الأقرباء، وفقد المال، إن هذا كلّه، قد عانيتموه خلال أزمنة طويلة. لقد سال من الدموع أكثر مما ترون من ماء في المحيطات الأربعة.

«إن الألم الشامل يتصل بعدم استمرارية الكائنات، والأشياء، والعواطف. فكل شيء يمضي؛ وما من شيء يمكن أن نتعلّق به. فيا أيها الرهبان، إذا كنت أقول لكم أن كل ما أشعر به هو الألم، فذلك بسبب عدم بقاء الأشياء على حالها.».

وتتميّز البوذية عن أغلب العقائد البراهمانية، ولا سيما عن براهمانية الأوبانيشاد، بهذا التأكيد على أنه ما من شيء باق، لا في العالم المادي ولا في العالم الروحي. وليس هناك من عالم، ولا من جوهر، ولا روح ــ جوهر. وليس هناك إلا حالات مشروطة بحالات أخرى سبقتها ــ تتجمع تارة لكي تنشئ عالماً وهمياً، وأنا وهمية.

«فتأملات البراهمان تجد الوجود (أو الكائن) في كل صيرورة، كما يقول أولدنبرغ، وفي كل وجود ظاهر، يرى تأمل البوذيين الصيرورة.» ولما كان تتابع الأسباب والمسبّبات، يتم في عالم الصيرورة، فإن أولدنبرغ، يضيف القول: «هناك نجد الجوهر (أو المادة) بلا سببية؛ وهنا نجد السببية بلا جوهر (أو بلا مادة)[49].

والقانون الأساسي، هو الكارمان الذي يجعل المسبّبات تلي الأسباب. ويرمز إلى هذا التتابع بدولاب يدور على نفسه، وهو دولاب الصيرورة. والكارمان، ومجموعة الكارمانات، هي القماش الذي صنع منه هذا العالم اللا مادي.

ويمكن أن تساعد هذه الاعتبارات على فهم الحقيقة الثانية المقدّسة، أي الحقيقة حول أصل الألم:

«فها هي، أيها الرهبان، الحقيقة المقدّسة حول أصل الألم: إنها الظمأ (إلى الوجود) الذي

---

(٤٩) انظر كتاب أولدنبرغ المشار إليه سابقاً، ص: ٢٥١، ويمكن أن نقابل وجهة نظر أغلب البراهمان (ويضع أولدنبرغ في الهامش قوله: أي: الأوبانيشادات القديمة) بوجهة نظر الفلاسفة الأغارقة من مدرسة إيلي Elée (بارمينيدس)، وانظر أيضاً: كتابي الصغير حول تاريخ كبرى الفلسفات، ص: ٢٠ ــ ٢٣.

ينتقل من ولادة إلى ولادة ثانية أخرى، مصحوباً باللذة وبالشهوة التي ترى هنا أو هناك متعتها: أي الظمأ إلى اللذات، والظمأ إلى الوجود، والظمأ إلى اللا استمرار.

ونجد هنا واحدة من الفكر الأصعب ما تكون على الفهم، في العقيدة البوذية ـــ كما كانت الحال في صعوبة فهم الفكرة البوذية القائلة، بأن التضحية تخلق الآلهة، والعمل أو الفعل يخلق الوجود ـــ وهنا نجد أن الرغبة هي التي تخلق الوجود. فرغبتنا في الوجود تخلق الوجود؛ وظمؤنا للوجود يجعلنا نوجد، حتى بعد الموت، ونتقمص، أي أن نعود فنتألم.

أو قل على الأصح ـــ ذلك أن هذه الطريقة في التعبير، تبدو وكأنها تقتضي روحاً ـــ مادة âme-substance ـــ إن الرغبة تجعل الحالات المتعددة المؤلفة لفردية الإنسان الظاهرية، يجذب بعضها بعضاً، وستظل تتجاذب، حتى فيما بعد الموت.

تلك هي الميتافيزياء العميقة التي يَستدعيها البوذا، لكي يشرح الألم، والتي يراها ضرورية لسلام الإنسانية ـــ أما ما تعلق بالمشكلات الميتافيزيكية الأخرى، مثل مشكلة أن نعرف ما إذا كان العالم محدوداً أو غير محدود، متناهياً أم غير متناه في الزمان والمكان، فالبوذا لا يهتم بحلّها، بل يرفض أن يطرحها على نفسه. إنه يشبّه نفسه بطبيب (٥٠): فهل يجب قبل معالجة إنسان أُصيب بسهم مسموم، أن ندرس طبقة، أو أسرة، أو مكان إقامة، الخ.. ذلك الرجل الذي رمى بالسهم؟.. «وهذا الذي لم يكشف عنه النقاب، دعه غير مكشوف، وهذا الآخر الذي كشف عنه النقاب، دعه مكشوفاً.». فالبوذية على ما يقول أولدنبرغ ـــ غريبة عن كل اهتمام ميتافيزيائي، ليس له أصل في الاهتمامات الأخلاقية (٥١).

أما الحقيقة الثانية من الحقائق المقدّسة فهي مُعَدّة لتهيئة الثالثة ـــ التي ستكون نتائجها الأخلاقية هامة ـــ وهي الحقيقة المتصلة بالقضاء على الألم:

«هاهي، أيها الرهبان، الحقيقة المقدّسة حول القضاء على الألم، إنها إطفاء كل ظمأ (إلى الوجود) بالقضاء الكامل على الرغبة، بنفيها، والعدول عنها، والتخلص منها، وبعدم إفساح أي مجال لها.».

---

(٥٠) على ما سيفعل المسيح فيما بعد.

(٥١) انظر أولدنبرغ في كتابه المشار إليه، ص: ٢٥٨ ـــ وهذا الرفض لطرح المشكلات الميتافيزيائية، لا يبرّر اسم «الوضعية» إذا طبقناها على البوذية، على ما فعل Grousset، في تاريخ الفلسفة الشرقية ص: ١٧٤. فعقيدة التقمص تصوّر ميتافيزيائي، لا علاقة له بما نسميه بالموقف الوضعي.

وهكذا فإن الغاية التي يجب أن نهدف إليها ، هي حذف الرغبة ؛ تلك الرغبة التي تربطنا بالأشياء الخارجية ، والتي تصل موقتاً بين مختلف العناصر التي تتألف منها (أنا) كل فرد منا . فإذا نحن قضينا في قلوبنا على الظمأ إلى الوجود ، فإننا ننجو من الوجود ، وبالتالي من الألم . والكائن المتجرد ، تماماً ، يستطيع أن ينتزع نفسه من الولادة ومن الموت ؛ وعندما تزول أنانيته ، تزول معها فرديته ؛ فيدخل في عالم النيرفانا .

والنيرفانا ، هي «إعدام الرغبة ، والقضاء على الكراهية ، وإزالة الضلال (التيّهان) . إنها غاية هذا «الجهل» بالحقائق الأربع المقدَّسة . أي جهل أصل التعلق بالحياة أو الوجود» .

«ولما لم أكن أرى هذه الحقائق المقدَّسة الأربع ، كما هي ، فقد قطعت كل الطريق الذي يمضي من ولادة إلى أخرى . أما الآن ، فلقد رأيتها : وتوقف فيّ سيل الوجود . وقضي على جذور الألم ، فلم يعد بعد الآن من ولادة» .

....

وعلى ذلك فإن النيرفانا هي إعدام الوجود الفردي ، والقضاء على العذاب الذي لا ينفصل عنه ، ولكن هل يكون في إعدام الوجود الفردي ، إعدام لكل وجود ، أي العدم الخالص ؟ أو هو ، على العكس ، وجود من نوع ما ، ولكنه مختلف جداً عن وجودنا الفردي ، بحيث لا نستطيع وصفه إلا بتعابير سلبية ؟ أو قل هو وجود من نوع أعلى ، حيث تمحي حدود كل فردية ، في المطلق ؟ وقد أجيب عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة ، في مختلف المدارس البوذية ، ومختلف المنظرين للبوذية .

لكن هذا الهدف المثالي ، أي النيرفانا ، لا يبلغه الناس إلا من خلال جمله من الوجودات (مراحل مختلفة نوعياً من صور الوجود) . ـــ ويمكن الاعتراض على ذلك بالقول : إن مثل هذا التقدم يقتضي استمرارية النفس ذاتها ، ما بين وجود وآخر . وإننا سنعود هكذا إلى الروح ــ الجوهر لدى البراهمانيين . ويجيب المفكرون البوذيون عن هذا الاعتراض ، بالقول : إن الكائنات التي يتبع بعضها البعض في سلسلة الوجودات ، ليست على وجه الدقة ، لا الكائن نفسه ، ولا كائنات مختلفة تماماً ؛ كشعلة تحترق كل الليل . فهي ليست في كل لحظة ، هي نفسها تماماً ، ولا هي ، تماماً ، شيء آخر . وفي كل الأحوال ، فإن هنالك فائدة معنوية (أو أخلاقية) في الاعتقاد «بأن الأعمال السيئة ، في سلسلة الوجودات ، تلتصق بأقدام الأحمق» وإن «ذاك الذي فعل الخير ، عندما ينتقل من هذا العالم إلى العالم الآخر ، ستستقبله أفعاله الطيبة ، كما يستقبل الأهل والأصدقاء مسافراً عاد إلى بلده .» أما

الاعتراض الميتافيزيكي المتصل بتغيّر هوية الشخص، ووقوفها ضد مثل هذا الاعتقاد، فإنه فكرة سيئة، ناشئة عن الرغبة، التي تلوم البوذية عليها (٥٢).

والطريق مفتوحة منذ الآن لكي تصل بنا إلى الأخلاق. وهكذا نصل إلى رابعة الحقائق المقدّسة، وهي الحقيقة حول الطريق الذي يؤدي إلى حذف الألم.

«هذه، أيها الرهبان، هي الحقيقة المقدّسة التي تؤدي إلى القضاء على الألم: إنه الطريق المقدّسة ذات الثمانية فروع، التي تسمى: بالإيمان الصافي، والإرادة الصافية، والكلام الصافي، والعمل الصافي، ووسائل الوجود (أو الحياة) الصافية، والتطبيق الصافي، والذاكرة الصافية، والتأمل الصافي.».

....

وعندما ندع جانباً هذه التقسيمات السكولاستيكية، فإن في وسعنا استخلاص الأخلاق البوذية، من عدد كبير من النصوص الأخرى، ومن المقاطع الشعرية، والحكم، والأساطير (أو القصص) العائدة لمئات الحيوات التي مرَّ بها البوذا، قبل أن يصل إلى الكمال، في آخر مرحلة من وجوده الأرضي.

ويمكن أن نميِّز في البوذية أخلاقاً سلبية، تأمر بما يجب ألا تفعله، وأخلاقاً إيجابية، تأمر بما يجب فعله.

أما الأخلاق السلبية فهي أخلاق الاستقامة. وهي تشتمل على خمسة نواهٍ.

١ ــ لا تقتل (وعلى البوذي أن يمتنع عن قتل الحيوانات (٥٣)).

٢ ــ لا تستول على ملك غيرك.

٣ ــ لا تأخذ امرأة غيرك.

٤ ــ لا تكذب.

٥ ــ لا تشرب شراباً مسكراً.

---

(٥٢) أولدنبرغ، كتابه السالف الذكر، ص: ٢٢٧ ــ ٢٢٨، وص: ٢٥٨ في الهامش وص: ٢٦٠ ــ ٢٦١.

(٥٣) لقد زرت في جزيرة سيلان، في Kandy، ديراً بوذياً، يمرِّر رهبانه شرابهم في غربال، لكي يطمئنوا إلى أنهم لا يبتلعون حشرة، ولا يقضون على وجود ما

أما أخلاق البوذية، الإيجابية، فتوصي بالاستسلام للعذاب الفردي، والتأمل في آلام الأحياء، وبذل الجهد للمشاركة، في الخيال، في آلام الآخرين وأفراحهم، والطيب، والشفقة، والمسامحة على الإساءات، والتضحية من أجل الآخرين.

أما طيب القلب (والاستعداد لفعل الخير) فله من القيمة أكثر مما لأي عمل ديني (إنه خلاص القلب وسلامه).

«وكما أن ضياء النجوم كلها لا يعادل ـــ أيها الرهبان ـــ في القيمة سدس ضياء القمر، وأن ضياء القمر يمتصه، ويلمع، ويتألق، ويُشع، فكذلك، أيها الرهبان، كل الوسائل المستخدمة في هذه الحياة للحصول على قيمة أو استحقاق ديني، ليس لها قيمة سدس طيب القلب، أي خلاص القلب.».

وطيب القلب الحقيقي هو استعداد من استعدادات النفس أكبر قيمة من أية هبة مادية؛

«فمن لا يقدم، صباحاً، وظهراً، ومساءً، إلا لحظة من طيب القلب، داخل نفسه، يحصل منها على فوائد أعظم، أيها الرهبان، من الذي يقدّم صباحاً وظهراً، ومساءً، وكل مرة، هدية فيها مئة إناء من الطعام».

ويؤدي طيب القلب إلى واجب مسامحة الآخرين، وهو واجب عبَّر عنه البوذا في عبارة رائعة: «فلئن كنا نرد على البغض، ببغض مثله، فكيف يمكن أن تنتهي البغضاء؟ وتكشف لنا أسطورة كونالا Kounâla، عن أمير شاب اقتلعت له عينيه زوجةُ أبيه لأنه كان يرفض حبها الآثم له، وفي الوقت نفسه يتوسل إلى أبيه أن يسامح تلك التعيسة، ويقول: «إن قلبي لا يكن إلا عواطف الطيب لأمي التي أمرت بشمل عينيّ.».

ولا يكفي أبداً أن لا ندع الآخرين يتألمون، بل يجب أن نحسن إليهم، وأن نهَبَهم ما لدينا، وأن نهب أنفسنا لهم. وهذه هي الفكرة التي تُعبّر عنها بصورة رائعة قصة الأرنب الصغير. فلقد كان البوذا، في وجود سابق له، أرنباً صغيراً ليس له ما يقدّمه كصدقة، فطلب أن يُشوى لكي يكون طعاماً لراهب متسوّل «وكانت هذه أعطية، وأعطيةً من النوع الذي لم يُعمل قط، وهذا ما أردت أن أعطيكه اليوم»... ويجب أن لا نعطي الآخرين ما لدينا فحسب، بل أن نعطيهم كذلك ما لدينا نحن، أي وقتنا، وحياتنا، وشخصنا.

والإنسان الذي يعمل هكذا، هو براهمان، مهما كان أصله:

فالإنسان الفقير، المتجرِّد من كل شيء، والذي لا يمكن أن يدخل الخوف إلى قلبه، إن هذا، أسميه أنا «براهمان». وهذا الذي لا يستخدم العنف لا تجاه الضعفاء، ولا تجاه الأقوياء، والذي لا يقتل ولا يأمر أحداً بالقتل، هذا الرجل أسميه أنا «براهمان». وهذا الرجل الذي يظل متسامحاً حتى مع المتعصبين، ورقيقاً حتى مع العنيفين، بلا طمع بين الناس الشديدي الطمع، هذا الرجل، أسميه أنا «براهمان». وهذا الذي سقط عنه الحسد، والزهو، والنفاق، كما تسقط حبوب الخردل الموضوعة على رأس إبرة، أسميه أنا «براهمان». وهذا الذي يسمع كلاماً صحيحاً، بلا خشونة، والذي لا يزعج أحداً، أسميه أنا «براهمان»(٥٤).

ويمكن أن نصنَعَ «سلام قلوبنا» أو اطمئنانها في أيِّ شرطٍ من الشروط الاجتماعية. بيد أن الناس الذين يؤثرون أن يعيشوا حياة أكثر تقشفاً، يمكنهم أن يصبحوا رهباناً، والنساء منهم يصبحن راهبات. فالرهبان مرغمون على البقاء عزاباً وفقراء، ولكنهم يعيشون في الفرح، لأنهم تنازلوا عن الرغبة في الوصول إلى الفرح.

وكما أن البوذية لا تهتم بالتمييز بين الطبقات، من ناحية المرتبة الاجتماعية، فإنها كذلك لا تهتم بالفروق بين الطبقات الاقتصادية، أو العرقية، أو القومية. إنها عالمية. وهي تطمح في أن تُقبل من الناس جميعاً، وأن تكون الديانة العالمية...

وكلما ازداد الإنسان تجرّداً، ازدادت مرتبته قيمة في سلم الكائنات، وازداد قربه من حالة البوذا. فعندما يكون قد تغلب تماماً على الرغبة في الوجود، فإنه سيحصل على الخلاص، ويرقى إلى النيرفانا.

وفي يوم ما، سيصل الناس جميعاً، في كل العوالم، وحتى نثارة الغبار، إلى النيرفانا.

....

ثم إن الإلحاد البوذي، في صورته الأصلية، لا يشتمل على أية عبادة غير عبادة الذكرى.

وليس هناك من مكان للصلاة لبوذا الذي لا يعتبر كإله، والذي إذ دخل في عالم النيرفانا، لم يعد يستطيع أن يقدِّم شيئاً للمؤمنين. إن كل ما هنالك هو حضوره (في الذكرى) في قلب أولئك الذين أنقذهم.

---

(٥٤) نص ذكره Kreglingler في كتابه، ص: ٣٢٦.

وفي بعض الاحتفالات، ينثر الزهر أمام تمثال المعلم. (وبعض تماثيله يُعد بين النحوت الرائعة، وذلك منذ أن التقى الفكر البوذي، في تركستان، بالفن الإغريقي، ومنذ أن بدأ يظهر هذا الفن الإغريقي البوذي، حيث التماثيل الأولى للبوذا كانت كتماثيل آبولون).

وفي كل شهر، يقوم الرهبان أربع مرات، بنشر العقيدة.

وقد يحدث أن يقيم الناس أعياداً لإحياء ذكرى المنقذ، حول الستوبا stoûpas، وهي أوابد معدة لاحتواء البقايا المقدَّسة.

....

وبدأت البوذية، بعد موت المعلم، تنتشر في الهند، ومنذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حصلت هذه البوذية على دعم أفضل ملك عرفه العالم، أي آسوكا Açoka.

وبمقدار ما كان يمتد أثر البوذية، صرنا نشهد زوال الحروب، والعقاب بالموت، والاضطهادات، وحملات الصيد الفتاكة، كما صرنا نرى أن المستشفيات تقام للناس، وحتى للحيوانات.

لكن البراهمان (رهبان الديانة البرهمية) كانوا يقاومون بعنف هذه الهرطقة التي تقضي على ميزاتهم.

ومع ذلك فإن البوذية بدأت عهد الانحطاط حول القرن السابع من التاريخ الميلادي. وفي القرن الثاني عشر، استبعدت من الهند.

إلا أنها ما تزال توجد في مناطق آسيا الأخرى، حيث كانت قد انتشرت سابقاً، مثل سيلان، وبرمانيا، وسيام، وكمبودجيا، وتركستان، والتيبيت، والصين، وكوريا، واليابان(٥٥).

ويُميِّز الناس، حول بداية تاريخنا الميلادي، بين اتجاهين كبيرين من اتجاهات البوذية: اتجاه المركبة الصغيرة (هينايانا) واتجاه المركبة الكبرى (موهايانا). إذ تعتبر العقيدة كمركبة تنقل الإنسان

(٥٥) يعرض سيلفان ليفي هذا التوسع الذي عرفته البوذية في الفصل الذي عنوانه: الإنسانية البوذيه، من كتابه المشار إليه آنفاً: الهند والعالم (ص: ٢٣ ــ ٥٩).

إلى السلام. أما المركبة الصغيرة فهي مركبة خفيفة تسمح بإنقاذ فرد واحد؛ وأما المركبة الكبيرة، فهي عربة أوسع، حيث يستطيع المؤمن أن ينقذ معه آخرين.

أما بالنسبة إلى الهينايانا Hînayâna، التي تدعي الإبقاء على أطروحات الكنيسة البدائية، والتي لها أنصار، وخاصة في سيلان، وبرمانيا، فإن النيرفانا تعني القضاء الكامل على الذات، والموضوع، على الأنا والعالم، أي أنها عدم خالص. وقد سُمِّيت «عدمية ميتافيزيائية».

أما الماهايانا، المنتشرة اليوم في أكبر قسم من العالم البوذي، فإنها تقدّم لنا أفكاراً جديدة، ذات مفارقات أقل، وأكثر ملاءمة لمتوسط الإنسانية، الذي يستطيع بهذه الصورة أن يتقبل الديانة البوذية.

ويقابل المثل الأعلى الهينايانى، الذي هو الأرهات arhat، أي الذي يجعل من القديس ذاك الذي يبحث عن سلامه الشخصي، عن طريق الدخول بأسرع ما يمكن في النيرفانا ــ ما نسميه بالمهايانا الذي يضع مثله الأعلى في البوديستافا Bodhestava، أي البوذا المقبل، الذي يؤجل دخوله في النيرفانا، ويبقى في العالم لكي ينقذ الناس الآخرين.

وبغية ملاءمة الدين مع مختلف «الوجدانات» يقدّم لنا هنا مختلف وجوه بوذا، البوذايات الماضية، والحالية، والمقبلة؛ مثال ذلك آميتابها أو آميدا Amitâbha,Amida، أي النور اللامتناهي، الذي يذكّرنا بإله شمسي؛ Avalokitesvara (آفالو كيتسفارا)، وهو أُلوهية ملأى بالشفقة، تنزل إلى جهنم ــ أي الجهنمات الموقتة، التي ترسل البوذية إليها، موقتاً، بعض الكائنات، من أجل التخفيف على من حَلَّ بهم العقاب، الخ. ومن هذه الناحية فإن البوذية تبدو وكأنها تقترب من دين متعدد الآلهة؛ وهي تشبهها في الظاهر.

وتصبح النيرفانا (إعدام النسبي، أو عدمه) حقيقة مطلقة. وهي في التبشير الشعبي، جنة ذات سماء ذهبية، وأزهار لوتس عملاقة، حيث يتحرَّر الإنسان من كل ألم، وتُعزف موسيقى تشنف الآذان، أو تأخذ بالأبصار، وتظهر راقصات جميلات هن الأبساراس Apsaras، فيسحرن القلوب. ويصل المؤمن إلى هذه الجنة بعفو من الله، أي بعفو من Amida. وعلى ذلك فإن في وسعنا أن نرجو Amida بأن يمنحنا عفوه هذا.

وتعتبر المهايانا أقل غلواً عقلياً، وأقل زهداً، وأقل تشاؤماً من الهينايانا.

وسنعود فنجد البوذية في الصين واليابان (وستدرس ديانة هذه البلاد في الفصول التالية).

وفي الهند الصينية، هناك ديانة حديثة هي الكاؤدائية Caodaïsme، أو البوذية المجدَّدة، تجمع كل الكائنات المقدَّسة للأديان الكبرى، حول بوذا، تعظيماً له.

وفي التيبيت، نجد بوذية متفسخة، تخلط بتصورات طوطمية وإحيائية غريبة. وهذه هي الديانة اللامية (وكلمة لاما Lama تعني المشرف الأعلى). ويعتبر فيها أن البوذا تقمص في شيء مثل البابا هو الدالاي ـ لاما Dalaî Lama، وهو رئيس طبقة دينية رجعية.

فإذا وضعنا جانباً هذه الحالات الاستثنائية، الشبيهة بهذه، فإن البوذية أحدثت أطيب الآثار في الحياة الأخلاقية، والاجتماعية، والجمالية، لدى الشعوب التي انتشرت بينها.

....

ولقد تساءل بعضهم عما إذا لم يكن للبوذية شيء من التأثير في الديانة المسيحية الأصلية. ويرى سالمون ريناخ، «أن الملك آسوكا، كان يفخر، حوالي العام ٢٥٠ قبل المسيح، بأنه أرسل مبشرين إلى الملوك الأغارقة، جيرانه، وسورية، ومصر؛ وعلى ذلك فإن تأثيراً بوذياً ما في الإسينيين Esséniens وحتى في الهيلينية الألكسندرانية، ليس بالأمر اللا مقبول»(٥٦). ثم إن المسيحية البدائية، تأثرت بالإسينيين(٥٧) (وهؤلاء فرقة يهودية متقشفة جداً، و تستبعد الزواج).

وعلى كل حال، فإن بعض الأوروبيين قد تأثروا شخصياً بسحر البوذية(٥٨).

وهناك كاتب كبير يتكلم اللغة الإنجليزية، ومن أصل إيرلندي ـ إغريقي، تجنّس بالجنسية اليابانية، واسمه Lafcadio-Hearn (١٨٥٠ ـ ١٩٠٤) توسّع في شرح الفكرة القائلة بأن البوذية هي الدين الذي ينسجم أفضل الانسجام مع تصورات العلم والفلسفة الحديثة. فالبوذية على حق في أن ترى في العالم مجموعة من الحوادث المتآزرة والمتغيرة، وفي النفس، كتلة موقتة من الحالات المتعددة. ثم إن الوجود السابق للأحياء والأشياء يقابل مفهوم الوراثة الحديثة.

---

(٥٦) Orpheus, p. 85.

(٥٧) انظر الصفحات التالية في بحث الديانة اليهودية.

(٥٨) يوجد في باريس في الرقم ٣١ من شارع السين، جمعية لأصدقاء البوذية. ويوجد في القاعة هيكل بوذي، ومكتبة بوذية.

ومهما يكن من أمر هذه الأطروحات الأخيرة ، فإن من المؤكد أن الهند تمثّل بالنسبة إلينا واحدة من قمم الحياة الدينية العالمية .

ولا ينبغي أن تنسينا غرائب الهندوسية ، تلك الفكرة الأساسية في الديانة أو الديانات الهندية ؛ كالتماثل العميق والقرابة ، بين كل الآلهة ، وكل الناس ، وكل الكائنات ، وكل الحقائق .

وجملة : « أنت ذاك » البراهمانية هي التعبير الأجمل عن اكتشاف هذه القرابة ، والنداء الأروع لعاطفة الإخاء التي يجب على الإنسان أن يُحسَّ بها ، تجاه كل الآخرين ، وكل الكائنات الأخرى ، وكل مظاهر الواقع .

ومن خلال كل رهافة الميتافيزياء البوذية ، نستطيع أن نلمح حقيقة سيكولوجية وأخلاقية عميقة : هي أن ألم الإنسان ، ينشأ من حرصه على الوجود ، والأنانية .

وما من عقيدة في العالم كالبوذية اقتضت ، بعبارات مؤثرة بهذه القوة ، احترام كل حياة ، والرقة ، والشفقة ، والعفو عن الإساءات ، وهبة الذات .

الفصل الخامس

ديانات الصين
السينية ـــ الكنفوشية ـــ الطاؤية والبوذية الصينية

يجب أن نضع، في بداية الحياة الدينية في الصين، ديانة بدائية، قريبة من صور أخرى للإحيائية، على كونها خاصة بأهل الصين، ولهذا السبب اقترح تسميتها بالسينية.

وتعتبر ديانة كونفوشيوس، أو الكونفوشية، كما لو أنها إنضاج للسينية وتطهير لها.

أما ديانة لاؤ ـــ تسو Lao-Tseu، أو الطاؤية. في صورتها الأصلية، فإنها تتناقض أو تتعارض مع بعض ميول السينية، والكونفوشية.

وأفضل دليل لدراسة هذه الأديان، هو كتاب «ديانة الصينيين[1]» لمؤلفه مارسيل غارنيه Marcel Granet. وكتابه عن حضارة الصينيين[2]، وبصورة خاصة كتابه: الفكر الصيني[3].

....

والنصوص التي تتيح لنا معرفة السينية، هي خمسة كتب دينية، بشكل خاص، وهي الكنغ les King، التي يعود أقدم أجزائها، إلى عهد أقدم من كونفوشيوس، أي من القرن السادس، قبل العهد المسيحي، غير أن كونفوشيوس وخلفاءه عدَّلوها تعديلاً ملحوظاً.

(١) باريس، في دار النشر Gauthier-Villaras، ١٩٢٢.

(٢) باريس، Bibliothéque de Synthése historique، في مجموعة La Renaissance du Livre، ١٩٢٩.

(٣) نفس المجموعة، ١٩٣٤.

وتقبل إحيائية الصين البدائية ، بوجود عدد كبير من الأرواح ، تختلط بحياة البشر . وتوضع في رأس القائمة ، أرواح الأجداد ، وعبادة هؤلاء ، هي أول ديانة صينية قديمة .

ولقد اعتُبر ، لمدة طويلة ، أن الأجداد الأول المعبودين ، كانوا الأجداد الأبويين . ونحن نعرف اليوم ، أن أول عبادة كانت للأجداد الأمويين ، وذلك في عهد يسبق تاريخنا بألف سنة . وكانت النسّاجات ذوات أهمية اجتماعية كبيرة آنئذ . وكان البيت يعود للمرأة ؛ أما الزوج ، فإنه ، قبل كل شيء ، صهر . ولا تقمص لأحد غير الأجداد الأمويين .

وعندما احتل الحدّادون مرتبة اجتماعية ، غُلبت مرتبةَ النساجات ، وغَلب الرجالُ على النساء ، بصورة عامة ، وهكذا فإن العبادة الأساسية ، أصبحت تلك المتعلقة بالأجداد الأبويين [٤] وذكرى هؤلاء هي التي تستعاد في اللوائح التي توضع على هيكل الأجداد . وبهؤلاء كانوا يستعينون في مختلف الظروف المرهقة ؛ وهم الذين يذكرون في كل الاجتماعات الفرحة . وإليهم يتجه أكبر أفراد الأسرة عمراً ، في تقديم القرابين ـــ ولا تشتمل هذه الديانة على كهنة ولا على مراسم خارجة عن نطاق الأسرة . ـــ فالأجداد هم الذين يديرون ، ويجب أن يَوَجِّهوا حياة الأحياء كلها . وعندما يقوم أحد الناس بإنجاز ما ، فإن المجتمع يرفع قدر أجداده ، لا أحفاده .

وتقبل السينية أيضاً بوجود أرواح للأرض ، والمياه ، والجبال والغابات .

وفي الأزمنة القديمة التي كانت الغلبة فيها للنساء ، كان يشرك بعبادة الأجداد الأمويين ، تقديس وتمجيد الأرض ـــ الأم . أما في البيت العائد للمرأة ، فإن الزواج كان يحتفل به على الأرض نفسها أو على حصير توضع فوقها مباشرة ؛ وكانت الأرض ـــ الأم ، تؤثر تأثيراً مخصباً ، وعندئذ كان الأجداد الأمويون هم الذين يعيدون تقمصّهم .

وكان للسينية أماكنها المقدّسة ، وفيها كان الناس يحتفلون بأعياد الشباب ، التي تُهيىء أو تعدّ للإحتفال بالأعراس . وفي الربيع ، وبعد أعمال الشتاء ، كانت الفتيات يتعرضن لإغراء الفتيان الشباب ؛ وكان ذلك عهد « الخطوبات » . أما في الخريف ، وبعد أعمال الصيف ، فإن الشباب هم الذين يتعرضون لإغراء الفتيات : ثم يتم الزواج [٥] .

---

(٤) Granet, La civilisation chinoise, p. 14; pp. 197-205 .

(٥) المصدر نفسه ، ص : ١٩١ ، والصفحات ٢٠٣ ـــ ٢١٠ ، وبمناسبة حفلات التهتك الموسمية يتحدّث كارسون أورسيل عن روحانية بلا سر . انظر كتابه فلسفة الشرق ، ص : ١٢٦ .

لكن الأرض تشهد تضاؤل أهميتها عندما تتنامى عبادة السماء. إذ أن الأرض كانت نسائية. أما السماء فمذكّرة. وكان الملك يقوم بالشعائر التقليدية في معبد السماء. وهو نفسه يعلن أنه ابن السماء، لكي يثبت حقه الإلهي في حكم الناس. وهو يفخر بأنه «المنظم أو المنسق الشامل أو الكلي»(٦).

ويتحدثون في بعض النصوص عن سيد السماء، الملك المعيّن من أعلى (Chang-Ti). ورأي فيه بعضهم إلهاً شخصياً. لكن غرانيه Granet يبيّن أن لا شيء من هذا صحيح. وليس للعبارة من موضوع، غير تبرير لقب ابن السماء المعزو للملك.

إن عبارة الملك المعيَّن من أعلى، اختراع ذكي من قبل الميتولوجيا السياسية، ولكن ذلك لا يُمثل إلا التعبير الأدبي.(٧)

....

أما عن تدخل الإله الشخصي، فإن عمل الأرواح وعمل السماء، يتفقان في الرأي حول مكافأة الخير، ومعاقبة الشر، وذلك بواسطة حوادث طبيعية، حسنة أو سيئة، نافعة أو ضارة. فغزارة المحاصيل الطبيعية تبرهن على أن الملك أحسن القيام بالشعائر؛ ويمَجده الشعراء بحق، على هذا الأساس. وبالعكس، فإن فوضى الحوادث الطبيعية، تعتبر كترجمة لفوضى الدولة. فقوانين الطبيعة، تختلط، بهذه الصورة، بالقوانين الأخلاقية والاجتماعية. إنها «أنتروبوسنترية شعائرية وعاطفية»(٨).

وهكذا فإن في العالم مبدأ نظام، وهذا ما يسمى بالطاو. «إذ توجد في أعماق كل تصورات الطاو، مفاهيم النظام، والكلية Totalité، والمسؤولية، والنجع. وتدل كلمة الطاو على النظام الاجتماعي، الذي تعبر عنه مجموعة المنجزات(٩).

ويقرِّب غرانيه، وهو على حق، بين فكرتي الطاو والمانا(١٠) ويقيم ـــ الفكر الصيني ـــ على

---

(٦) Masson-Oursel, ouvr. cit; P. 128 ويشير هذا المؤلف إلى تشابه دور الملك مع النشاط الفرعوني.

(٧) Granet, La Pensée chinoise, P. 576 ويرى المؤلف أن فقدان فكرة «الله» هي إحدى مميزات الفكر الصيني.

(٨) انظر ماسون أورسيل: الفلسفة في الشرق، ص: ١٣٠.

(٩) انظر Granet، في كتابه الفكر الصيني، ص: ٣٠٠ وما بعدها.

(١٠) المصدر نفسه، ص: ٣٠١، الهامش رقم ١.

الرغم من الوحدة الأساسية، في العالم، التي تقرّب تقريباً صحيحاً بين كل الكائنات، بما فيها من بني البشر ـــ فاصلاً عميقاً بين مبدأين هما اليانغ Yang والينّ Yin[١١]، أما اليانغ، فهو المبدأ المذكّر، وأما الينّ فهوالمبدأ المؤنث. ويظهر التمييز بوضوح في النظام الاجتماعي الذي يقوم على أساس التعارض والوحدة بين الجنسين: «فعندما يخلط اليانغ والين سائِلَيهما، عندئذ تنشأ العشرة آلاف من الكائنات. ومن التعابير ما يذكّر بذكرى الأعياد البدائية: فاليانغ ينادي ويدعو، والين يجيب ويستجيب.».

ولا ينطبق هذا التمييز على عالم البشر والكائنات فحسب، بل يتناول الطبيعة كلّها. فاليانغ هو الشيء الخارجي، الظاهر، والحرارة، والشمس، والجانب المشمس، والصيف. والين، هو الشيء الداخلي، والبرد، والرطوبة، والجانب المظلّل، والشتاء.

والنظام الاجتماعي مضمون بحكم الاتحاد بين المبدأ المذكر، والمبدأ المؤنث: «فمرة الين، ومرة أخرى اليانغ، ذلك هو الطاو Tao».

وذلك هو التصور الفلسفي الأعمق، الذي يكتشف في السينية.

وهناك جزء من تقاليد السينية، نعود فنلقاه مدروساً ومصفى من الشوائب فيما سميّ بالكونفوشية، أي فلسفة كونفوشيوس وديانته.

ولقد عاش كونفوشيوس (Kong Fou Tseu Kong Tseu) في مقاطعة (شانتونغ Chantoung) في آخر القرن السادس قبل التاريخ الميلادي. ولما كان يتيماً بصورة مبكّرة، فقد كان مرة بعد أخرى، محافظاً، فمهندساً، فوزيراً، فمستشاراً للأمير لو Lou. ولكنه كان بشكل خاص مؤلفاً لكتب أعدّت لإشاعة الأفكار الأخلاقية، المستمدة من التقاليد القديمة. وعلى ذلك فإنه أسّس مدرسة، كان أعضاؤها مرتبطين به، عاطفياً، أشد الارتباط[١٢].

وكتب كونفوشيوس بعض الكتب المقدّسة السابقة. وأفضل عمل شخصي له، هو تاريخ لوطنه، Lou. عنوانه ربيع وخريف.

ولم يمار أحد في وجود كونفوشيوس التاريخي.

---

(١١) Granet، نفس المصدر، ص: ١١٥.

(١٢) كتب P.L. Couchoud، بعد أن زار قبر كونفوشيوس دراسة جذابة، حول هذا المفكر في كتابه: حكماء وشعراء آسيا. (باريس Calmann-Levy، ١٩١٦).

وتتجه عقيدة كونفوشيوس إلى عقل الإنسان. وليس فيها أية روحانية، ولا اعتماد على قوى خارقة للعادة. واقترح أحدهم، قبل قليل من موته، أن تقام الصلوات، فَرَدَّ عليه قائلاً: «إن حياتي هي صلاتي.».

وتنفي الكونفوشية الميتافيزياء كلها. أما المبدأ الكبير للمنطق الكونفوشي، فهو: «أن ما نعرفه، يجب أن نعرف أننا نعرفه؛ وما لا نعرفه، يجب أن نعرف أننا لا نعرفه. إن المعرفة هي هذا تماماً» بيد أننا نعرف أننا لا نعرف شيئاً حول ما وراء الطبيعة: «إنك من الحياة لا تعرف شيئاً، فكيف لك أن تعرف شيئاً من الموت؟» ومن الأفضل، عدا ذلك، ألّا نحُلَّ مشكلات معقدّة، مثل أن نعرف ما إذا كان الموتى يستمرون أحياء حقاً. ولو أن الناس واثقون أنهم لا يستمرون كذلك، فإن الأبناء العاقين لن يقدموا إليهم واجب الاحترام. ولو أننا واثقون، أن الأموات يظلون أحياء، فإن الأبناء العطوفين سينتحرون للحاق بهم. فمن الأفضل إذن ألا نعرف من هذا شيئاً. ـــ إن الكونفوشية هي «وضعية».

ولا يشغل كونفوشيوس باله إلا بالإنسان وبالأشياء الإنسانية. ولقد سمّوه بحق، «السقراط الصيني»[١٣]. وهو يحب أن ينشئ، بعيداً عن كل ميتافيزياء، منطقاً يجعل الإنسان يفكّر جيداً، ويعبّر بصورة جيّدة، وأخلاقاً تقود هذا الإنسان إلى السعادة. إنه يريد إنشاء علم للغة وللأخلاق والأعراف، ويتجاهل كلياً، مشكلة وجود الله أو عدم وجوده.

ويرى الرجل أن النظام الجيّد، يتعلق بسلامة اللغة وصحتها. وعلى ذلك فإنه يجب أن «نجعل التسميات دقيقة، صحيحة». فالابن العاق ليس بابن حقيقي؛ والزوجة الخائنة، ليست بزوجة حقيقية: والناس يخطئون في التسميات. «فيا أيها الأب، كن أباً، ويا أيها الأمير، كن أميراً!»[١٤].

«وتستخلِصُ أخلاقُ كونفوشيوس، الإنسانيةُ كلُّها، تستخلِصُ من التقاليد القديمة بعض العناصر الحيّة، المقبولة من الجميع. وهذا فن الحياة المنبثق عن الاتصالات الصداقية بين الناس المهذبين»[١٥] وهنا تفرض نفسها مقارنة الرجل بسقراط. فالحكمة القديمة، التي يعتبر كونفوشيوس نفسه مبشراً بها، صُوِّرت وكونت بفضل عبقريته.

(١٣) انظر Henri Berr، في مقدمته لكتاب الفكر الصيني لـ Granet، ص: ١٣.

(١٤) انظر غرانيه: الفكر الصيني، ص: ٤٤٥، وما يليها.

(١٥) انظر غرانيه: الفكر الصيني، المقدمة ص: ١٣.

والرجل الطيب حكيم، يتكوّن عن طريق الدراسة. ويرى كونفوشيوس «أن الناس يختلفون بالثقافة التي يتلقونها، أكثر مما يختلفون بأمزجتهم الطبيعية. والوحيدون الذين لا يتغيّرون هم الحكماء الذين هم من الطراز الأول، وأغبى الأغبياء. ولتنامي الفرد أهمية خاصة. فينبغي استبعاد كل اهتمام مغرور، وكل متابعة مسكينة للمنفعة الشخصية. فالرجل الشريف لا يطلب إلا أن يتجاوز نفسه باستمرار. ولا يخجل من أن يكون سيء اللباس، أو فقير الطعام[١٦]. إذ المال ضروري لكي نعيش ولكننا لا نعيش لكي نكسب المال».

وأول قاعدة في الأخلاق، هي احترام الأجداد، الذين يجب أن نحفظ لهم ذكرى جميلهم، كما يجب أن نقدّم لهم صور التقدير التقليدية، والآباء الذين يمثلون الأجداد لا بدّ من أن يحصلوا، خلال حياتهم، من أبنائهم، وأبناء أبنائهم على طاعة كاملة، وإخلاص لا حَدَّ له. وعلى الأطفال أن يشعروا بالعطف الذي تلقوه من أهلهم. «فما من أحد، على ما يقول كونفوشيوس، يتألم لمرض الأبناء، كما يتألم آباؤهم وأمهاتهم.

وأعظم واجب بين الواجبات هو حنان الأبناء. وتعلي المدرسة الكنفوشية من شأن بعض نماذج هذا الحنان: كالفتى ذي البشرة الحسّاسة، والذي ينام بلا ناموسية، لكي يشد إليه كل الناموس، ويضمن بهذه الصورة نوماً هادئاً لأبويه. وكالكهل الذي وصل أبواه إلى عمر المئة عام، ويتألمان من أنّهم في مثل هذا الكبر، والذي يلبس لباس الطفل، ليوهمهم أنه جاءهم طفل جديد، وأنهم ليسوا كهولاً بالدرجة التي يظنون، وكبنت الموظف الكبير الذي تلقى الأمر بأن يصنعَ لمليكه جرساً كاملاً، ويخفق مرتين، ويصبح هو وزوجنه مهدَّدين بالموت إن هو أخفق مرة ثالثة، فتعمد ابنته التي عرفت من أحد العرافين أن انصهار المعدن يصبح أسهل إن رُمي معه وهو على النار، شيء من لحم الإنسان، إلى إلقاء نفسِها في الموقد.

وعلى مثال حنان الأبناء،هذا، ينبغي أن تفهم كل الواجبات الأخرى: أي واجب الصغير نحو الأخ الكبير، والزوجة تجاه الزوج، والرعية تجاه الملك.

ولئن كان على كل فرد من أفراد الرعية أن يكون تجاه مليكه، كالابن بالنسبة إلى الأب، فعلى الملك أن يتصرَّف تجاهه كالأب. وعليه أن يضمن السلام لشعبه، والهناء، والتعليم. وهكذا نرى أن الأخلاق الكونفوشية هي أخلاق المسالمين، حقاً وصدقاً.

---

(١٦) غرانيه أيضاً، المصدر نفسه، ص: ٤٨١ — ٤٨٣.

ويجب أن يكون الإنسان صديقاً وفياً. وخلافاً لما كان الأمر عليه في حنان الأبناء تجاه آبائهم، نجد في الصداقة علاقة مساواة. فما من شيء أهم من اختيار الأصدقاء.

«وأخيراً يجب أن نحقق وفاقاً طيباً بين الناس كلهم، بإشاعة العدل أولاً: «ويجب أن نقابل الإحسان بالإحسان والعدل بالعدل.» ويجب ألا نفعَل للآخرين، ما لا نحب أن يفعلوه لنا. ولئن كنا ننكر شيئاً ما على من هو موقتاً سلطة، فلا يجب أن نمارس مثله على من هو دوننا. ولئن كنا ننكر شيئاً من أفعال من هو دوننا، تجاهنا، فلا يجب أن نرضاه نحن لمن هو فوقنا.»(١٧).

ثم إنه يجب على الرجل الشريف أن يحب أشباهه «وعليه أن يقابل الجميع بطيب القلب نفسه» أي بطيب شامل(١٨) وعليه أن يبرهن على هذا الطيب بتهذيب لبق.

تلك هي الفضيلة ـــ أي الفضيلة السهلة، والطبيعية ـــ التي يطالبنا بها كونفوشيوس(١٩). وأحسن الكلمات انطباقاً على هذه العقيدة، هي كلمة «الإنسانية humanisme»(٢٠).

وفي بكين معبد لكونفوشيوس، ضخم ومتقشّف، يخلّد ذكرى ذلك الذي كان «المعلم والنموذج للعشرة آلاف جيل».

....

وأشهر مريدي كونفوشيوس، هو مانشيوس MENCIUS (Meng Tseu)، وذلك في بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

وعنده أن المبدأ الذي تقوم عليه الحكومة، يجب أن يكون السماحة وطيب القلب. ويجب أن نعرف كيف نزيد قلوب الناس الصغار، نبلاً، وذلك بضمان وسائل العيش لهم.

---

(١٧) المصدر نفسه، ص: ١٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص: ٨٢. انظر، ص: ٧٥.

(١٩) هنالك أحد المختصين بالشؤون الصينية اسمه Wieger، وهو رجل ممتاز، ولكنه، ككل المبشرين يأبى ترجمة الكلمة الصينية، jen بكلمة الإحسان charité، ويفضل استخدام كلمة الغيرية. ذلك أنه يعتقد أن كونفوشيوس أوصى ببرودة القلب، وهذا غير صحيح على ما يرى Granet.

(٢٠) غرانيه، كتابه السالف الذكر، ص: ٤٨٦ ـــ ٤٨٩.

ويقترح مانشيوس أن تلغي الدولة الملكية الفردية، والضريبة، وتعيد توزيع الأراضي بين الناس، بصورة دورية. ولا تطالب إلا بالعشر أو القيام ببعض أعمال السخرة.

ويلح مانشيوس، بصورة خاصة، على واجب الملك في إحلال السلام. وعندما يسأل ابن الملك مانشيوس كيف يجب أن نتصرف لتعزيز الامبراطورية؟ يجيب هذا بقوله:

«نهيها الاستقرار عن طريق الوحدة... وذاك الذي لا يرى متعة في قتل الناس، يمكنه أن يهبهم هذه الوحدة... والآن، فإنه ما من رجل بين كل من أصبح، في هذه الأمبراطورية، راعياً للناس، لا يسره أو يروقه أن يأمر بقتل الناس. ولو وجد بينهم واحد فقط لا يحب أن يأمر بذلك، إذن لاتجهت شعوب الأمبراطورية كلها إليه، ولفتحت له ذراعيها، ولن يكون لها أمل إلا فيه[٢١]».

....

ويقابل السينية التقليدية، والكونفوشية التي هي صورة منظمة، ومصفّاة لها، تلك الديانة المسماة طاؤوية.

وتبعاً لما يقوله رجل صيني فكه، فإن النظام الكونفوشي، كان لا يروق لأولئك الناس الفرديين الذين يحبون القيام بنزهاتهم، شعث الشعر. وتتعارض الطاؤوية مع الكونفوشية، كما تتعارض الأوباناشيدا، مع الفيدا، ويتعارض روسو مع فولتير، والرومانسيون مع التقليديين[٢٢].

ويقال إن الطاؤوية Taoïsme فلسفة تعود إلى مفكر عميق، هو Lao Tseu (الحكيم الكهل)، الذي يظن أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد. ولعلّه كان أسبق بقليل من كونفوشيوس، الذي تقول الأسطورة إنه اتصل به، وترك الصين ليقوم برحلات إلى الغرب. ولا يعرف شيء مؤكد عن لاؤو ـ تسو.

أما بعده، فإن أكبر ممثل للعقيدة الطاوية هو تشووانغ ـ تسو Tchouang-Tseu، الذي كان يعيش حول نهاية القرن السادس ق. م.

وعلى كل حال، فإن الكتاب المسمى باسم Tchouang Tseu هو النص الطاوي الأساسي.

---

(٢١) انظر كتاب Doctrine de Confucius، ص: ٢١٦.

(٢٢) انظر: Lin-Yu-Tang, La Chine et les Chinois (Paris, Payot, 1937), PP. 132-134, P. 139.

والطاوية غير معروفة إلا بشكل سيء. بيد أنه يبدو كشيء لا شك فيه أن الطاوية كانت ميتافيزياء عميقة، قبل أن تصبح ديناً شعبياً.

إن الطاو Tao[(٢٣)]، هو نظام العالم، والمبدأ الخالد الذي تصدر عنه كل الحوادث. والوحدة أعلى مستوى من الكثرة. والعالم إنما ينشأ عن اتحاد الكائن Yang، واللاكائن (أو اللا وجود) الينّ Yin. وليست الحوادث إلا مظاهر فقط. وكل شيء هو نسبي. ويَحلَم تشواونغ ــ تسو أنه فراشة. أو لا يمكن أن يكون فراشة، تحلم بأنها تشووانغ ــ تسو؟

«وعندما رأى تشووانغ ــ تسو أسماكاً تتخبّط، قال: هاهي ذي متعة الأسماك! فيقول له أحد محدِّثيه: أنت لست سمكة، فكيف تعرف ماذا يُمتع ويروق للأسماك؟ إنك لست إياي؛ فكيف تعرف أني لا أعرف ماذا يسر السمكة؟» ... فلعلنا نستطيع فهم الكائنات الأخرى، لأننا، من قبل، كنا نتواصل معها في وحدة الوجود.

ولكي نعود فنجد هذه الوحدة، يجب أن نعدل عن الدراسة، والحياة الجمعية وأن «نتقيأ الذكاء»، نعتمد على الحدس والتركيز بدلاً من الانتشار، والتبسط. ويجب أن لا نبالي بشيء. ويجب، كما يقول Granet «أن نتعلم من الأطفال، والحيوانات، والنباتات، ذلك الفن البسيط والمفرح، فن ألّا نعيش إلا من أجل الحياة». ويجب أن نصبح شبيهين بالرضيع، الذي يضحك لكل شيء، والذي يأتي ويذهب، بلا هدف؛ وأن نحاول التشبه بالعجل الذي ولد الآن، أو بالماء. وهذا أفضل، الماء الذي يتخّذ كل الأشكال، ويتقبل كل شيء، ويعكس كل شيء.

وفي وسع الإنسان، بالرقص والسكر، أن يبلغ «الحال extase»[(٢٤)]. ثم إن الفضائل الأساسية الثلاث هي: الاقتصاد، وبساطة الوجود؛ ثم التواضع، والامحاء. فما من إنسان هو عظيم إن كان يبقي وراءه أثراً من ذاته؛ وأخيراً الشفقة. إذ يجب أن نقدِّم الخير حتى لمن يفعل الشر.

وعلى السياسة أن تضمن للناس حياة هادئة، وأن تسمح لهم بالبحث عن الطاو. هذا وإن الطاوية، المختلفة جداً عن الكونفوشية، لتلتقي معها في إدانة الحرب.

---

(٢٣) كلمة طاو لا تفيد سن نظام الكون أو النظام الشامل فقط، بل تعني الحياة، والطريق، والفصل. وانظر حول الطاو والطاوية كتاب الطريق والفضيلة لـ لاوتسو Lao Tseu (باريس، المطبعة الملكية، ١٨٤٢)

(٢٤) انظر غرانيه في كتابه: الفكر الصيني، ص: ٤٥٣؛ وص: ٥٠١ وص: ٥١٢ــ٥١٣؛ وص: ٥١٧، وص: ٥٢٦.

وربما وجد بعضهم في الطاوية الفكرة القائلة بأن الحكيم، عندما يصل إلى الطاو، يبلغ الخلود، وبالتالي، فإنه ينجو من الموت.

وعلى كل حال، فإن نزوع الطاؤوية إلى الحياة بصورة منسجمة مع الطبيعة naturisme، كانت تهدف إلى تأخير الموت، باتباع أساليب صحية، منعشة، تشتمل على عدد من القواعد الصحية، والتنفسية، والجنسية: كإجراء التناوب بين الصيام، والفطور، والتنفس بالجسم كله، والنوم بين عذراوات، أو فوق واحدة منهن من دون «تغيير في اللون» الخ.(٢٥)

....

وتسمح هذه الأفكار الأخيرة بفهم الانتقال من فلسفة عليا، إلى ديانة شعبية. فهذه تهدف، قبل كل شيء إلى تأجيل الموت. وما البحث عن أكسير لإطالة الحياة، والعرافة، والسحر، والجئومانسية (أي دراسة المكان الأكثر ملاءمة للبيوت، وفي قبور الأجداد خاصة) إلا بديل عن التأملات الميتافيزيائية لدى أساتذة الماضي.

وبعد مضي قرون عديدة، تكونت الفرقة الطاوية كفرقة دينية مستقلة بمعبدها، على الأسلوب الذي قدمته لها البوذية.

....

وفي أوائل العهد المسيحي، تسربت بوذية الماهايانا، إلى الصين، بطريق البحر، أو من طرق آسيا الوسطى. وبدأت تنتشر، بصورة خاصة، في القرن الثاني الميلادي.

وبدأت تتشوه بتأثير الحجاج، وكذلك بتأثير المترجمين. الذين كثيراً ما كانوا يضيقون بالتعبير في الصينية عن مصطلحات هندية، فتراهم يستخدمون مصطلحات طاوية. وأحياناً نراهم يتبنون فكرة الكارما المستعارة من عبادة الأجداد، من حيث أن العقيدتين توجهان الإنسان نحو الماضي.

وللبوذية فضل في إدخال روح جديدة من الشفقة، في بعض الأوساط الصينية. ثم إن واحداً من الـ Boudhisatvas (البوذيساتفا) الأكثر شعبية، هو AVALOKITESVARA، الذي تأنّث عندما أصبح الأميرة Kouananya. وكانت جميلة جداً، وطيبة جداً، وتتميّز بصورة خاصة بالشفقة على

(٢٥) عرانيه: كتابه السالف الذكر، ص: ٥١١ــ٤٥٣ــ٥٠١ــ٥١٢ــ٢١٣ــ٥١٧ــ٥٢٦ وما بعدها.

المعذبين الذين يتألمون في الجهنمات الموقتة، البوذية. وقد نجحت ذات يوم بالنزول إلى جهنم. ولكنها كانت من الطيب، والجمال، بحيث أن مكان التعذيب أصبح مكاناً لتذوق أجمل اللذات، وكان لابدّ من استبعادها، حتى لا تتغيَّر وظيفة الجهنمات.

....

وليس الصينيون بالشعب المغرم بالدين والعبادة، حتى إن واحداً منهم، فكه اللسان، كتب، حديثاً، يقول: «لو أنه كان يوجد في العالم شيء نأخذه مأخذ الجد، فإنه بالتأكيد، ليس الدين ولا العلم، بل هو اللحم الطيب.[٢٦]

ولما كانوا غير مغرمين بقضايا من هذا النوع، فإنهم، على ذلك، ليتمتعون بتسامح رائع. وكثيرون منهم يأخذون بديانة تخلط بين العقائد الثلاث المدروسة سابقاً. وفي وسعهم، على إخلاصهم للأخلاق الكونفوشية، أن يطلبوا من الكهنة الطاويين، القيام بما يجب لاستبعاد الأرواح الشريرة، والقيام بمراسم دينية من قبل الكهنة البوذيين، تشريفاً لموتاهم[٢٧].

....

وهذه الديانة هي بين العناصر والعوامل التي ساهمت، حتى أوائل القرن العشرين في تجميد الصين، ودفع أنظار الصينيين إلى الماضي، بالدرجة الأولى.

ولئن لم يتقدَّم العلم في الصين، على الرغم من الذكاء المنتشر بين الناس بصورة عامة، شبه واحدة، وعلى الرغم من المبتكرات الفردية الرائعة، فذلك لأن الناس لم يكونوا يعلقون أهمية كبيرة على مكتشفات لم يكن الأجداد قد عرفوها.

(٢٦) الصين والصينيون، كتاب للمؤلف نفسه Lin-Yu-Tang، ص: ٧.

(٢٧) ونحن نجد نفس الأديان مع خليط من المخلفات الإحيائية، لدى الأناميين، في الهند الصينية، الفرنسية سابقاً، (انظر في ذلك A. Giran في كتابه: Magie et religion Annamites, Paris, Challemel, 1912. وكنا قد أشرنا سابقاً إلى الكاودائية أو البوذية المجدّدة: وهذه تجمع حول بوذا، كل الكائنات المقدّسة لدى الأديان الكبرى، تكريماً لها، وفي نفس الوقت نراها تعتمد على الطاولات الدائرة من أجل بعض الكشوف.

أما الروتين في الحياة العامة، فقد شجّع على استمرارها، أن الناس مقتنعون بتفوق الموتى على الأحياء.

بيد أن عبادة القدماء من الأجداد، كانت تحتوي على فكرة سليمة وعميقة ــ استعادها الفيلسوف أوغوست كونت في ديانته الإنسانية ــ خلاصتها أننا مدينون للموتى بكل ما لدينا تقريباً، وبكل ما يجعلنا كما نحن أيضاً.

وهذه الفكرة، الباعثة على قبول الحكمة المعترفة بالجميل، والمتطبّعة بالتواضع اللبق، هي أهم ما قدمته الصين للحضارة العالمية.

الفصل السادس

أديان اليابان

الشنتوئية ــ والكونفوشية اليابانية والبوذية اليابانية

إن الديانة الأصلية لليابان، أي الشنتوئية[1] كانت كالسينية في الصين، صورة طريفة من صور الإحيائية. وقد نجد في بعض الأوساط بعض آثار طوطمية سابقة. وقد انضاف إلى الشنتوئية ديانتان، جاءتا من الصين، وكوريا، أي الكونفوشية والبوذية.

ونذكر من المراجع حول أهم هذه الأديان، كتاب الفرنسي Michel Revon، بعنوان Le Shintoïsme [2]. ويمكننا أن نقرأ أيضاً ذلك الفصل المخصّص للأديان (ص: ١٠٣ ــ ١١٨) في كتابنا الذي عنوانه Japon Illustré[3]، وأن نعيد، بالاعتماد على هذا الكتاب، وضع المشكلة الدينية، في إطار التاريخ الياباني والحياة الحالية لليابان.

....

أما المخلّفات الطوطمية، فتوجد، بصورة خاصة، لدى سكان البلاد الأوائل، أي شعب الآينوس Aînos، الذين دُفع بهم إلى الجزيرة الشمالية هوكايدو HOKKAÏDO (أو الـY'EZO). والدبّ هو طوطم الإينوس: وهنالك أسطورة تشرح لنا ظهور هذا الشعب ــ الأكثر لحًى وشعراً في

(١) الفظ: شينيتوئية Shineto.

(٢) باريس، لاروس، طبعة أولى. عام ١٩١٥.

(٣) انظر Challaye, Le Japon illustré, P. 271.

هذا العالم — عن طريق الزواج بين امرأة ودب. وهكذا فإن العيد الأهم، هو عيد الدب: وفيه يضحوّن، بصورة مراسمية، بدب صغير ينتزع سريعاً من أمه، وتتولى امرأة من الإينوس الإشراف على تغذيته، ثم يخنق من قبل أحد الرجال، وسط احتجاجات شعائرية، من قبل النساء، ثم يمزّق إرباً إرباً، وأخيراً يؤكل.

ونلاحظ في بعض الأوساط الشعبية اليابانية، خرافات غريبة، تتصل بالثعلب، الذي يبدو أنه كان سابقاً، حيواناً مقدّساً. وهو يشرك بإلهة الأرز «إيناري» Inari؛ ويلاحظ الإنسان صورته في كل المعابد المخصّصة لهذه الآلهة. وهنالك مرض عقلي غريب، ناشئ عن إيحاء ذاتي، تصاب به بعض النساء من الطبقات الشعبية، ويكُنّ ضحية له. ويطلق عليه اسم «المسّ من قبل ثعلب». وتتخيل المرأة المصابة أن الحيوان يدخل إليها من الصدر أو من المجال المحصور بين الأظافر والجلد، وأنه يعيش فيها حياة مستقلة عن حياتها الخاصة[٤].

....

والديانة الكبرى هي الشينتوئية Shintoïsme. وهي ديانة محلية. ولم يكن لها من اسم خلال مدة طويلة. ورداً على الكلمة البوذية Boutsoudô، أي طريق بوذا[٥]، وُجد من يخترع كلمة shinto أي الطريق الإلهية.

ولقد ظلت التقاليد، خلال قرون وقرون، بدون تثبيت، من حيث أن اليابانيين يجهلون الكتابة التي جاءتهم من الصينيين في القرن الخامس ب.م. والنص الأساسي المقدّس، هو الكودجيكي Kodjiki (أو كتاب الأشياء القديمة)، المكتوب باللغة اليابانية، في القرن الثامن، ولكنه يعرض تصورات دينية أقدم بكثير من تاريخ كتابته. وفي الوقت نفسه كتب بالصينية كتاب مقدّس آخر هو النيهونكي NIHONGI.

والشينتوئية هي، بصورة خاصة، عبادة الكامي Kami أي أرواح الموتى[٦].

ولما كانت هذه الأرواح قد ألّهت، فإن أرواح الموتى تظل تتجول بين الأحياء؛ وتطوف حول

(٤) المصدر نفسه، ص: ١١٦—١١٧.

(٥) بوذا، كلمة تلفظ في اليابانية Boutsou (بوتسو).

(٦) تعني الكلمة اليابانية Kami، جملة، كل ما هو فوق الذي يتكلم.

قبورها، وبيوتها القديمة، وبيوت ذريتها، وتشارك في أفراح وآلام أبنائها، وأبناء أبنائها؛ وتراقب سلوكها. ذلك أنها ملكت بحكم الموت، قوى خارقة للعادة. وكما يقول معلق على الشينتوئية بين القرن الثامن عشر ـــ والقرن التاسع عشر هو هيراتا Hirata «فإن كل الموتى يصبحون آلهة» وهم الذين يحدّدون وقوع الحوادث الطبيعية: فيعمرون الكون، ويخصبون الحقول، ويضمنون عودة الفصول، ويثيرون الكوارث والمجاعات، وعلى قدرتهم الكبيرة، على الخير والشر، فإنهم مع ذلك عطوفون، إن حفظ لهم الأحياء ذكراهم، وقدموا لهم القرابين، ومؤذون إذا تنوسوا أو أهملوا. فهم يكافئون، أو يعاقبون.

وهكذا فإن صلة من التعالق المتقابل تربط الأحياء بالأموات. والاعتقاد البدائي، هو أن هناء الموتى يتعلق بالعناية التي يخصُّها بهم الأحياء، وبالأغذية والمشروبات، والأشياء الأخرى التي يضعونها على قبورهم؛ وهكذا يجب أن نقدّم سيفاً للمحارب، ومرآة للمرأة. ثم إن الفكرة تتخذ صورة روحية؛ فيصبح ما يجب أن نقدمه لهم، مما يحتاجون إليه، هو الاحترام، والاعتراف بالجميل.

وهنالك عدة أنواع من الكامي: ككاميات الأسرة، وكاميات القرية أو القبيلة؛ وكاميات الوطن كله، أي أرواح أجداد الأمبراطور خاصة؛ ثم الكاميات التي تحرك الطبيعة، والأشجار، والحجارة، وحتى أدوات المطبخ وآلاته. فكأن الخيال الياباني يملأ العالم بأرواح خيرة أو شريرة. وهناك علاقات خفية تصل المرئي واللا مرئي.

وتبعاً لبعض النصوص، فإن هنالك «مئات المجموعات من الكاميات» ومن الأرواح، الأعظم قوة، من أصبح في عداد الآلهة الحقيقيين، الذين تتصل بهم أساطير قديمة.

وهناك ألوهيتان: هما أخ وأخت، حبيب وحبيبة، إيدزاناكي IDZANAGUI (الذكر الداعي) و IDZANAMI (الأنثى الداعية)، كلفتا من قبل الآلهة الآخرين بخلق العالم. ولما كانت المرأة هي أول من تكلّم، فإنهما لم ينتجا أول الأمر إلا «خدّجاً» ـــ مخلوقات غير مكتملة، كالولد الطرح ـــ مثال ذلك ولد يمص الدم يتركونه للأمواج في زورق صغير صنع من القصب. ثم لما تكلم الرجل، كما كان ينبغي، كأول من تكلّم ـــ على حبهما الأخوي والإلهي، وُلِدت الجزر اليابانية، ثم آلهة الطبيعة.

وتموت إيدزانامي عندما ولدت آخر مولود لها، وهو إله النار. فهبط إيدزاناكي إلى جهنم، لكي يبحث عن أخته ـــ حبيبته. ولما لم يقاوم رغبته في رؤيتها، رغم الوعد الذي قطعه لآلهة ما تحت

الأرض، فقد طرد من جهنم. فيتطهر في نهر. فيلد الماء الذي نزل من أنفه، سوكانو Souçanoo (الذكر القوي المبارك)، أي إله العاصفة الذي سيسيطر على المحيط. ثم سالت من عينه اليمنى نقطة نشأت منها تسوكي نوكامي Tsouki-No-Kami، إله القمر. وسالت من عينه اليسرى نقطة ولدت Amatéraçou (آماتراسو)، إلهة الشمس.

ولكن إلهة الشمس، رغبة منها في التخلص من عنف سوكانو، انسحبت واختفت في مغارة. وحاول الآلهة إخراجها منها، فوضعوا لها مرآة كبيرة، وعقداً من المجوهرات، وأقمشة، وحملوا Oudzoumé أودزوميه على الرقص رقصة جنسية تدعو إلى الضحك. ولما سمعتهم آماتراسو، فتحت باب المغارة شيئاً ما، فرأت نفسها في المرآة، وتقدمت إلى الأمام، فمدوا وراءها حبلاً من القش، فعاد النور إلى العالم.

وعندما هبط سوكانو إلى الأرض، قتل شيطاناً كان يريد أن يفترس فتاة شابة؛ غير أنه وجد داخل جسم هذا التنّين «ذلك السيف الكبير المُرَوِّض للعشب».

لكن إله الشمس يقررّ أن يُسَلِّم مصير الجزر اليابانية إلى واحد من ذريته، فيصبح أول الـ Tennos، أو الميكادوات Mikados. وتقدَّم إليه الكنوز الإلهية الثلاثة: أي المرآة، وعقد المجوهرات، والسيف الكبير، مروض الأعشاب...

ويستخرج Motoori، أحد شراح الشينتوئية من سخف هذه الأساطير الحلوة حجة لحساب الحقيقة التي تشتمل عليها. «فمن يخترع قصة سخيفة كهذه، لا مجال لتصديقها، إن لم تكن صحيحة؟ وهذه هي الحجة التي يطلق عليها اسم credo quia absurdum (أصدق أو أؤمن، لأن هذا سخيف)، لدى اليابانيين.

وقد زعم شراح الشينتوئية بأن ديانتهم لا تشتمل على أي قانون أخلاقي، ولا وصايا عشر، وذلك لأن اليابانيين لم يحتاجوا إليها قط: وكعرق إلهي، ليس عليهم إلا أن يتبعوا طبيعتهم. وتبعاً لموتوري «فإن معرفة أنه ليس هنالك طريق يجب أن يُتَّبع، فهذا يعني أن نَعرف «طريق الآلهة، ونتبعه».

بيد أنه يمكن أن نستخلص من التقاليد القديمة مجموعة من الأفكار، يحميها الرأي العام أو القانون، وهي تأمر بما يجب فعله وتنهى عما يجب ألا يُفعل.

فهناك أخلاق عائلية. وتبعاً للكاتب السابق الذكر لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn، الذي

أدلى بوجهات نظر ممتعة حول الأديان اليابانية[٧] «فإن الأسرة ديانة، والمنزل العائلي، معبد». وعلينا أمام قوائم الأسلاف، أن نصلي، وندعو، ونقدّم القرابين. ثم إن الموتى على ما يقول لافكاديو هذا، «يمثّلون تجربة الماضي الأخلاقية، أو القانون غير المكتوب»، وإنها لجريمة أن نحزنهم بسلوك مخز. ويرى هيراتا «إن الإخلاص لذكرى الأسلاف، هو مصدر كل الفضائل.» ويضيف قائلاً: إن الرجل الذي يقوم بواجباته حق القيام، تجاه الموتى سيقوم بواجباته بصورة جيدة تجاه الأحياء. وعلى الأبناء واجب إطاعة الأبوين، وعلى النساء إطاعة الرجال. وإنه لواجب أساسي أن نبقي على الأسرة بزواج خصب؛ وأن نعمل على أن يكون لنا ابن ذكر، وعند الاقتضاء نتبنى ابناً، يستمر في تقديم واجب الاحترام للأجداد.

وتقضي الأخلاق القروية بعبادة الأسلاف، وبإقامة علاقات طيبة بين كل سكان القرية.

وبصورة خاصة، فإن الأخلاق الوطنية أو القومية، توسّع دائرة الحنان العائلي، لتجعلها قسمين، أحدهما هو «الشعور الوطني» والثاني هو شعور الولاء. وكانت جزر اليابان قد خُلِقت من قبل إيدزاناغي وإيدزانامي، واليابان هي بلد الآلهة؛ والعرق الياباني هو عرق متميّز، ذو أصل إلهي. وينحدر الميكادو من إلٓهة الشمس، وهو الملك، والكاهن ــ الأكبر، والتجسيد الإلهي. وحتى عهد قريب، لم يكن على الميكادو أن يعقد أية علاقة مع الناس العاديين، الذين قد يرهقونه، إذا اتصلوا بهذا الكائن المثقل بمادة إلهية. وعلى الياباني أن ينقاد في كل مناسبة، وكل ظرف، لإرادة الميكادو. ويجب أن يكون باستمرار على أتم الاستعداد للتضحية بكل شيء للملك، والأمة: وكل شيء هنا يعني «أملاكه» وحريته، وحياته وحتى أسرته نفسها.

وأخيراً، فإن الشنتوئية، تكريماً منها لكل الكاميات Kami، تفرض واجب تطهير القلب والجسم. ويجب أن يُطهِّر الإنسان قلبه، وأن يلوم نفسه على أنه أساء إلى الأرواح، حتى من غير أن يشعر بذلك. ويجب أن نمضي إلى المعبد، أو إلى مكان العبادة في البيت، والجسم نظيف طاهر. فالطهارة الجسمية (أي النظافة) واجب ديني.

واليابان، حتى اليوم، مملوءة بمعابد صغيرة وكبيرة شينتوية. وليس الكهنة بملزمين بالعزوبة، بل إن في وسعهم أن يزاولوا مهنة أخرى.

(٧) وذلك في كتبه المختلفة (بالانجليزية) ولا سيما في كتابه: اليابان، محاولة تأويل، نيويورك، ماكميلان ١٩٠٤؛ مثال ذلك ص: ٥٤ ــ ٥٦.

وتقوم العبادة على تكرار صلوات (أو أدعية) أو جمل سحرية، تعود إلى أقدم العهود، وعلى تقديم الهدايا للآلهة، كالأرز، والخضار، والفواكه، والسمك. وهي تشتمل كذلك على رقصات دينية، ترقصها فتيات لا يلزمن بشيء، كالكهنة. وتذكر هذه الرقصات برقصة **Oudzoumé** أمام منارة إلهة الشمس، وعودة النور إلى العالم.

....

وكانت الديانة الأولى المستوردة إلى اليابان هي الكونفوشية في بداية التاريخ المسيحي ولقد دخلت إلى هذا البلد مع منتجات أخرى للحضارة الصينية. وكان تأثيرها مقصوراً على بعض الأوساط المثقفة، حتى القرن الثامن عشر. وفي هذه الفترة طبعت الكلاسيكيات الكونفوشية، وانتشرت على نطاق واسع؛ وأثرت تأثيراً كبيراً في التربية.

ومن الكتب الأثيرة على الشعب الياباني «مجموعة من الأساطير الكونفوشية» اسمها: النماذج الأربعة والعشرون للحنان البنوي.

وكانت الأخلاق الكونفوشية، العائلية والمحافظة، تتلاءم أفضل التلاؤم مع الروح اليابانية، التي صاغتها الشنتوئية على حب الأسرة، واحترام الماضي.

....

وفي القرن السادس ب. م. جاءت البوذية إلى اليابان على أيدي الكوريين، الذين كانوا قد تلقوها من الصين.

وكانت هذه الديانة تتقدم على الوجدان الياباني المغمور بالشينتوئية في عدة نقاط. فالشينتوئية تقبل عدداً لا متناهياً من الآلهة، أما البوذية، في صورتها الخالصة، فإنها لا تقبل أي إله. وتؤمن الشينتوئية بالبقاء المستمر لأرواح الموتى، من دون ثواب ولا عقاب؛ وكان هذا التصوّر يتعارض مع التقمص البوذي.

وكان على البوذية أن تتغيّر، لكي تتلاءم مع الوجدان الياباني. وجاء رجل ذكي فقرّبها من

الشينتوئية : واسمه Kôukai، وهو مشهور باسمه الآخر Kôbôdaîshi، في بداية القرن التاسع. واقترح اعتبار آلهة الشينتو الكبيرة، تقمصات لبوذا : وسمحت الفكرة البوذية عن البوذيساتفا Boudhisatvas وهي في اليابانية تسمى : (Boçatsou,Bosatsu)، بهذه المصالحة. ثم إن البوذية اليابانية قبلت من الشينتوئية أن تسكن أرواح الموتى لدى الأحياء، خلال مئة سنة؛ وبعد ذلك، فقط، تتقمص هذه الأرواح لكي تبدأ حياة جديدة.

وأخيراً فإن البوذيين اليابانيين عرفوا كيف يوفقون بين ديانتهم وبين طبع شعبهم الأميل إلى التفاؤل، بالتخفيف من وجوه التشاؤم الموجودة في العقيدة البوذية. وكانت هذه قد لاحظت ما يصيب الأشياء والكائنات من تغيّر، كما أن سيد البوذية كان قد ربط بهذا التغيّر تأكيده على حقيقة الألم الشاملة[٨]. لكن الياباني المتذوق للجمال، على العكس، يفرح بحكم أن العالم يثير الإعجاب، بما يقدمه من مناظر تتغيّر باستمرار: كجمال أزهار البرقوق والكرز، المتألق، وانعكاسات أشعة القمر، وألق ورق أشجار القيقب، المحمرة، والجمال السحري للثلج. وفي القرن الثامن عشر استعاد الشاعر عيسى ISSA في مقطوعة شعرية ناعمة (haîkaî) تعبيراً بوذياً شائعاً، لكي يستخلص منه نتيجة غير منتظرة:

إن هذا العالم القائم على الوهم
ليس إلا عالماً من الوهم
ولكن، مع ذلك!....
ومع ذلك فإن من اللطيف جداً أن نعيش في عالم الوهم هذا![٩].

وهذه البوذية، بوذية الماهايانا، تقدم للأكثر بؤساً بين الناس، ذلك الأمل المريح، بجنة AMIDA[١٠].

والإلهة الأكثر شعبية هنا، هي الكوّانون Kouannon أي الكوانين Kouanyn الصينية[١١].

---

(٨) الهايكاي، قصيدة صغيرة تتألف من سبعة عشر مقطعاً. أما التعبير البوذي الشائع فإنه يتحدث عن عالم من الندى. والندى كناية عن التغير السريع.

(٩) انظر ما تقدم عن ديانات الهند.

(١٠) انظر ما سبق في بداية البحث عن الصين.

(١١) انظر Marquis de La Mazeliére, Le Japon, Histoire et Civilisation (t. I, p. 365).

وهي إلهة الرحمة التي تُمثِّل العطف على كل الآلام؛ فهي كل ما يُعَزِّي، وما يقدم العون، ويحب! ويبدو أن دينها صورة لبانتيئية الرحمة، الخفية[١٢].

وهناك إله شعبي آخر، هو Djizô (جيزو). صديق الأطفال، الذي يساعدهم على ظهور أسنانهم، ويأتي إليهم ليهز لهم أسرّتهم، عندما يبكون، فإذا ماتوا، لعب معهم في العالم الآخر.

وتتألف المعابد البوذية من أبنية تقام من الخشب المطلي أو المليك Laqué. والمنحوتة، والمزّينة بأعمال فنية. وأجمل هذه المعابد في اليابان موجودة في كيوتو وضواحيها.

وتتألف العبادة من عظات مُعَدّة لتربية الشعب أخلاقياً، ومن طقوس تبدو وكأنها قداسات كاثوليكية. إذ يقرأ الكهنة، ويغنون، ويركعون؛ وتقرع الأجراس تنظيماً للإحتفال؛ وتشعل الشموع؛ ويحرق البخور فيعطر الجو. أما المؤمنون فإنهم يدعون، ويصلون، ويهمسون همساً ببعض الصلوات أو الأدعية، ويرجون الحصول على حماية البوذا آميدا، ويقولون العبارة: «نامو آميدا بوتسو» Namou,Amida,Boutsou.

....

وخلال قرون كثيرة، لم يجد أغلب اليابانيين أن عليهم الاختيار بين الأديان الكبرى المعروضة عليهم؛ وكانوا يقبلون خليطاً من تقاليد الشينتوئية، والمفاهيم البوذية، المخلوطة أحياناً بأفكار أخلاقية كونفوشية.

وفي القرن الثامن عشر، وخلال منتصف القرن التاسع عشر، قام بعض المفكرين، وكان أهمهم موتوري وهيراتا، فرفعوا من شأن الشنتوئية، الديانة المحلية الوطنية، معارضين بينها وبين الديانات الأجنبية، كالكونفوشية، والبوذية. وفي عام ١٨٦٨، وعندما ردّت السلطة الفعلية إلى الميكادو، ابن إلهة الشمس، أعلن عن أن الشينتوئية هي الدين الرسمي، وفصلت الديانة البوذية عن الدولة.

---

(١٢) يحب الناس، في الأوساط الشعبية مع كووانون ودجيزو واحداً من الراكان (أي القديسين البوذيين) وهو Bindzourou المستبعد من دائرة القديسين لأنه نظر إلى امرأة جميلة بكثير من المجاملة، ولكنه كان قد تلقى موهبة شفاء المرضى.

وعلى الرغم من هذه المنافسات الآنية والموقتة ، فإن أعداداً كبيرة من اليابانيين ، لا سيما في الأوساط الشعبية والريفية ، ما تزال تؤمن بالديانتين معاً .

....

لكن الرفع من شان الوطنية الدينية ، قد حملت اليابانيين ، على الأخذ بأمبريالية تحتقر حقوق الشعوب الأخرى ، وبالتالي مضادة لمصلحة الإنسانية الحقيقية(١٣) .

ولكن يمكن أن نعتبر بمثابة العطاء الياباني للحضارة العالمية ، ذلك الاعتراف بجميل الأسلاف ، والتهذيب المعروف عن الياباني ، وحبه للطبيعة ، ذلك الحب الذي يشيع في أفراحهم الضاحكة .

(١٣) إن الشعار الأمبريالي الياباني Nihon itchi (اليابان أولاً) ينشأ مباشرة عن الشينتوئية . انظر لمؤلف هذا الكتاب ، كتابه الآخر :

. La Chine, le Japon et les puissances (Paris, Rieder, 1938) P. 40

الفصل السابع

ديانات إيران

المزدكية ــ البارسية ــ الميثرائية ــ المانيخية

إن أكبر دين في إيران (إيران الحديثة، التي سكنت في الماضي، من قبل الفرس الحقيقيين في الجنوب، ومن قبل الميديين في الشمال) هو دين النبي زرادشت، أي المزدكية أو الزرادشتية. لكن هناك ديناً آخر سبق دين زرادشت. بل إنه يمكن الحديث عن مزدكية سابقة لزرادشت، وأخرى لاحقة لهذا النبي. وأخيراً فإن المزدكية عندما طردت من إيران، عادت فقدمت البارسية كبديل Parsisme.

وحتى في إيران نفسها، فقد ظهر دينان آخران، قريبان بدرجة أو بأخرى للديانات السابقة، وهما الميثرائية، والمانوية.

ويمكن أن نجد عرضاً موجزاً، ولكنه جيد، للمزدكية في الصفحات ٣٣٩ ــ ٣٦٥ من كتاب Kreglinger: دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية[١]. ويمكن أن نضع هذه المشكلات في إطار نظرة تاريخية شاملة[٢]، بالاعتماد على هيوارت Huart في كتابه: فارس القديمة والحضارة الإيرانية.

....

(١) بروكسيل، دار لامرتان Lamertin، عام ١٩١٩.

(٢) باريس، في دار Renaissance، عام ١٩٢٥.

ولقد رأينا سابقاً[٣] أن جماعات دعيت فيما بعد باسم الهنود ـــ الأوربيين (أو الآريين)، جاءت إما من نواحي البلطيق، أو من روسيا الجنوبية، وكانت تسمى الأرياس ARYAS (أي النبلاء) واحتلت إيران، قبل أن يقوم بعضهم بمهاجمة الهند.

أما في إيران، فإنهم سيطروا على شعوب سمراء اللون، أو لعلها سوداء، كانت تحتفظ بمعتقدات أو أعراف طوطمية، كما كانت الإحيائية، تزدهر لديهم. وكان الثور، والبقرة، والحصان، والكلب، والثعبان (أو الحية)، وبعض النباتات، أشياء مقدَّسة لديهم. وكانت المحرَّمات (التابو) عديدة، وكان اختراق حرمتها يقتضي عمليات تطهيرية. وكانت هنالك أرواح، بعضها خيِّر، وبعضها الآخر شرير، تحمي الحيوانات، والنباتات، وحتى بعض الأشياء، كأدوات العبادة. وكان السحر عظيم الشيوع. وكانت تعتقد أن أرواح الموتى تحمي الأحياء: فتصبح فيما بعد هذه الملائكة الحارسة Les Fravashis، التي ستلعب دوراً ما في المزدكية.

أما المهاجمون، فقد رأينا سابقاً بأنهم يدينون للطوطمية، أو لعلهم يدينون لها بمفهوم التضحية التي كانوا يعلقون عليها أكبر الأهمية، كما أنهم، هم أنفسهم، كانوا يؤمنون بعالم أرواح تعمر الطبيعة، على كون الإحيائية لديهم، قد تطورت إلى ديانة تؤمن بآلهة كثيرة. وكنا أشرنا إلى نص من نصوص القرن السادس عشر قبل الميلاد، يؤكد أنه كان للآريين بعض الآلهة الحامية، مثل إيندرا، وميترا وفارونا، التي نجد أسماءها في إيران والهند معاً.

ويلاحظ أن التشابه بين الديانتين ـــ كما هو الأمر بين اللغتين، الزند Zend والسنسكريتية ـــ تشابه وثيق.

ويلاحظ أن فارونا الهندوس، هي الآهورا Ahoura التي ستصبح الإله الأعظم للإيرانيين. أما الإله الشمسي ميترا MITHRA فإنه مكرَّم لدى الطرفين. والتضحية في إيران، كانت في نظر الناس، ذات قيمة عظيمة؛ وكانوا يعبدون النار؛ ويستخدمون سائلاً مقدَّساً هو الهاؤما Le Haoma، المقابل للسوما الفيدية. وكانت هنالك طبقة وراثية من الكهنة، كهنة النار، يمكن أن نقارنها أو نشبهها بطبقة البراهمان.

غير أن بعض الوقائع تفرض الاعتقاد بأنه قامت في عهد قديم جداً، فِرقَة دينية، فصلت بين الإيرانيين، والهندوس. حتى إن الكلمات المقبولة جداً لدى إحدى الديانتين، تصبح، في بعض

---

(٣) في أوائل البحث عن الديانات الهندية.

الحالات، ذات معنى سيئ في الديانة الأخرى. والديفاس Dévas، وهي آلهة خيّرة في الهند، تصبح شياطين خبيثة في إيران[٤]. وكذلك فإن الآسوراس ASOURAS، وهي شياطين بالنسبة إلى الهنود، في العهد اللاحق للفيدا، تصبح أرواح الخير لدى الإيرانيين. ثم إن إيندرا (أو إندرا)، في إيران، التي تسميها ANDRA، يصبح شيطاناً ضاراً، مؤذياً، يثير الهرطقات؛ أما فارونا الهندي الذي يُصبح فارينا VARENA، فهو شيطان الحياة اللاهية والفحش.

وعندما انفصل الإيرانيون عن الهنود، أنشؤوا المزدكية، التي سميت بهذا الاسم، نسبة إلى الإله الكبير Ahoura Mazdâ (السيد الحكيم تماماً). لكن الدين الذي يعتبر أحياناً، كالمزدكية قبل زرادشت، يضع إلى جانب هذا الإله الكبير، ميثرا الذي يختفي في النصوص الزرادشتية، كما يضعون أيضاً إلهة ــ أماً، هي أناهيتا Anâhita[٥].

....

والنص المقدّس في المزدكية هي الآفستا أو الزند آفستا Avesta أو Zend Avesta. (والأفستا كلمة تعني «النص» والزند، تعني الشرح).

ولم تجمع هذه النصوص المقدّسة إلا في القرن الثالث ب. م، ولم تقرّر ككتاب ديني إلا في القرن الرابع. لكن قسماً من هذه الكتابات، يعود إلى عهد أقدم بكثير من ذلك، ولا سيما الأغاني الخمس المسماة Gâthâs، التي يقال إنها من تأليف زرادشت.

وقد حملت الآفستا من الهند عام ١٧٦٤، على يد الفرنسي Anquetil-Duperron، الذي هام بأفكار زرادشت، وأراد دراستها في موطنها لدى البارسيس، في منطقة بومباي. وكما قلنا سابقاً، فإنه تطوّع في عمر العشرين، كبحار صغير[٦].

(٤) إن شهادة الإيمان المطلوبة من المؤمنين المزدكيين هي القول: «إني لم أعد أؤمن بالديفاس، وأؤكد أني من أتباع زرادشت، وعابد لآهورا مازدا وعدو للديفاس» ــ ويمكننا أن نفهم هذا الأمر عندما نتذكر أن الوثنيين الذين آمنوا بالمسيحية اعتبروا آلهتهم القديمة كشياطين مؤكدين.

(٥) إن الألوهية الأكثر شعبية كانت آناهيتا، وعلى الأرجح فإن هذه صورة منقولة من شعوب ما بين النهرين، أي عشتار. وكانت أحياناً العذراء الطاهرة؛ وأحياناً كانت العاهر الكبيرة. وعلى الأرجح فإنها كانت إلهة الماء والخصوبة: انظر Denis Saurat في كتابه تاريخ الأديان (Paris, Denoel Steele, 1933)، ص: ١٢٧.

(٦) انظر فيما سبق بحثنا عن ديانات الهند.

وقد وُجد من شك في الوجود التاريخي لشخصية زرادشت الذي أطلق عليه الاغريق اسم ZÔROASTRES، والرومان اسم ZOROASTER بحيث أصبحت الكلمة الفرنسية المقابلة هي ZOROASTER. ويجعل منه أحد الشراح الفرنسيين، وهو جيمس دار مستيتر James Darmesteter إلهاً نشأ من العبادة، أي من تجسد الهاؤوما HAOMA. ويرى الهولندي Kern أنه كبطل لأسطورة شمسية. بيد أن عدداً كبيراً من النقاد يرون أنه شخصية تاريخية حقاً وصدقاً. وهذا رأي SÖDERBLOM الذي يقول:

«إن ديانة الآفستا لم تتألف من تلقاء ذاتها، بل نشأت عن مؤسس: ولنقارن معتقدات الآفستا بالديانة الآرية القديمة، وبالوثنية الإيرانية القديمة، وسنرى بوضوح أن هناك تطويراً قد أنجز وأريد، وأن ديانة جديدة، خلال ذلك، قد تأسست[٧]».

ومن جهة أخرى، فإن زاردشت يتحدث عن نفسه كما لو أنه شخص فان، وليس ككائن عجيب، غريب.

ويقال إنه تلقى من الإله الأعظم Ahoura Mazdâ، وحياً انكشف له فيه القانون، وأنه بشّر بدعوته، أهل بلده، وهو محاط بأسرة كبيرة العدد، كانت تشاركه حياته، وتساعده في نشر دعوته.

وعلى كل حال فإن تفاصيل حياته وأوقاتها، غير مؤكدة. ومن المقبول عادة أنه عاش في القرن السابع أو السادس ق. م[٨].

....

ولقد طهّر زرادشت الديانة السابقة، ووجّه الديانة المتعددة الآلهة نحو فكرة التوحيد، وعرض أخلاقاً في منتهى السمو.

---

(٧) انظر Söderblom, Manuel d 'histoire des religions, P. 364، ويعتقد Kreglinger بوجود زرادشت، كحقيقة تاريخية.

(٨) المصدر نفسه، ص: ٣٦٤. إلا أن مؤرخاً آخر للأديان هو Clemen، يؤرخ ظهوره بالعام ١٠٠٠ ق. م (انظر كتابه: (Les Religions du monde, Paris, Payot, 1930, P. 158).

والمزدكية قبل كل شيء، عبادة الإله الأعظم Ahoura Mazdâ أو Ormazd، المسمى أحياناً ORMUZ «الخالق اللامع، الجليل، الكبير جداً، والطيب جداً، والجميل جداً»... إنه روح في أعلى درجات الحكمة، وهو ينشر الفرح حتى في أبعد مكان ... » إنه إله النور، والنقاء، والحقيقة: وكل المواهب التي لها بعض القيمة، تأتي منه، وتصدر عنه، وأولها هبة الحياة، ثم هبة الخلود أيضاً.

وما من إله، في الماضي البعيد، فيما عدا يهوا Yahvé، مَسَّ عقيدة التوحيد، مثله.

ويساعد آهورا مازدا أنصاف آلهة، وهم القديسون الخالدون (Ameshas Spentas)، الذين كثيراً ما تنحل فيهم، أو تختلط بهم الألوهيات الثانوية في الأديان السابقة.

ولكن المزدكية ـــ وهي من الوجهة الفلسفية ثنائية الأطراف ـــ تضع أمام مبدأ الخير، مبدأ الشر، أنغرا مائينيو Angra Maînyou (أي الروح التي تضرب). وكثيراً ما يطلق عليها اسم أهريمان Ahriman.

وكانت الصعوبة تنشأ عن شرح ما هو شر في العالم. ومن النصوص ما يضع في جوهر آهورا مازدا، جوهرين صغيرين، أو «تجسّدين» اثنين، أي الفكر الطيب، المحسن، الخلاق للحياة، والشك، المولّد للموت. وهذا الوجه الأخير للكائن الأعلى الذي انسلخ عنه، هو الذي أصبح أنغرا مائينيو. وهذا المبدأ، هو شيطان الشر، ومنشئ الظلمات والموت. وهو يعيش في عالم سفلي، وهو سيد كل ما هو دنس، بعيد عن الصفاء. وما هو بالإله الكلي القدرة، بل هو شيطان، أو قوة موقتة، مصيرها الفناء.

ويخطئ الإنسان، إن ظن أن الروح هي مبدأ الخير، وأن المادة مبدأ الشر. بل إن الخير والشر يتقاسمان العالم ويختصمان حوله، سواء أكان عالم المادة، أم عالم الأرواح.

ولما كان أنغرا مائينيو حريصاً على الحلول محل خصمه، وتأكله الغيرة منه، فقد صعد إلى السماء يريد مهاجمتها. ولكنه، هو الآخر، محاط بأنصاف آلهة يجنّدها لخدمته، أو يخلقها، وهي تناضل ضد أنصاف الآلهة المحيطة بآهورا مازدا. وكلما خلق الإله الأعلى، شيئاً، خلق أنغرا مائينيو شيئاً مقابلاً.

ولقد انقضت ثلاثة آلاف عام فوق الأرض، قبل أن يظهر زرادشت. وكانت الأرض، في

الأصل، مكاناً للمتعة؛ ولكن مائينيو الخبيث أدخل عليها الشتاء والبَرد، والوحوش، والحشرات الضارة بالإنسان وبالعجول، والخراب، والبؤس، والموت، وأدخل في نفوس الناس عدم الثقة، والشك، وكل الغرائز السيئة

وستمضي ثلاثة آلاف سنة، بعد مرور زرادشت الذي وَجّه لنشاط مائينيو ضربة قاصمة. وكلما مضت ألف سنة سيظهر منقذ أو مخلص جديد، يولد بأعجوبة من عذراء مسّها منيّ زرادشت. وفي الألف الثالثة، يأتي آخر منقذ هو SAOSHYANT (ساؤوسهيان) فيقوم بعملية بعث الموتى. ثم يأتي نيزك فيصهر المعادن المختبئة في الجبال، والمعدن المنصهر حليب دافئ يقدّم للمؤمنين، أما الكافرون فيكون لهم عذاباً. وهناك بعض الناس الأشقياء بشكل خاص، فيعدمون، هم والشياطين. ومن عداهم يشرب كأس الخلود. ثم يقوم SAOSHYANT، وفي قول آخر، زرادشت نفسه، باحتفال ديني كبير فوق الأرض التي عادت فأصبحت طاهرة. أما العالم، الذي تخلّص من الفساد، فسيعرف السعادة الأبدية.

ويقول Kreglinger:

«وهكذا نكتشف في ديانة زرادشت تصوراً عظيماً، لا يعثر عليه لا في معتقدات المصريين، ولا في تأملات الهنود، على ما فيها من عمق. فللعالم تاريخ وهو يخضع لقوانين تمضي به إلى وضع مثالي، يجب أن تتجه إليه كل القوى التي تضطرب فيه. ويعتقد زرادشت أن العالم يخضع لمخطط، وهو سيرورة تاريخية، وساحة قتال تقوم فيها معركة عنيفة بين القوى المتعارضة، تنتهي إلى نشوء أو ولادة هذه الحالة الكاملة، التي يتمتع الفضلاء فيها ــ بعد أن يكونوا قد ساهموا في ولادتها العسيرة ــ بهناء أبدي(٩).

....

ويجب أن تكون الأرض ذلك الحصن الذي يحمي السماء من شياطين جهنم. وعلى الإنسان، كل إنسان، أن يساهم في النضال الذي سيؤدي إلى تغلب الخير في العالم كله. وهكذا فإن كل وجود إنساني يتخذ بهذه الصورة معنى عميقاً، ويكتسب قيمة لا متناهية.

---

(٩) انظر Kreglinger، في كتابه المشار إليه سابقاً، ص: ٣٥٥ ــ ٣٥٦. وانظر كذلك مقطعاً من كلام فيلسوف دانمركي هو هوفدينغ Harald Höffding (١٨٤٣ ــ ١٩٣١) نجده في كتابه: فلسفة الدين نشرته دار الكان، عام ١٩٠٨، ص: ٤٩ وما بعدها: ويمكننا مع ذلك أن نذكّر بأن في البوذية إيماناً بتطور يؤدي إلى السلام العالمي (انظر الفصل المتعلق بديانات الهند. وحقاً، فإن البوذية، كما يرى البعض، تأثرت بالزرادشتية.

ومن هنا تنشأ أخلاق ذات أساس ديني ، تعطي لكل الواجبات الإنسانية مدى بعيد الغور : فالخير هو كل ما يخدم قضية آهورا مازدا ، والشر هو كل ما يتعارض مع انتصارها ، أو يؤخره ، أو يعرقله .

وأول واجب من هذه الواجبات هو واجب التقوى . إذ يجب أن نؤمن بالدين السليم ، ونخضع لتعاليم زرادشت ، وكسب الأنصار لها . ويكفي أن نلفظ اسم آهورا مازدا ، ذي القوة السحرية ، حتى يضمن الإنسان نتائج طيبة للدعوة ، ويحمي نفسه. والواجب الثاني هو واجب النزاهة .

« فمملكة آهورا ، هي مملكة النور . أما مملكة أنغرا مائينيو ، فإنها مملكة الظلام ، فلنستبعد إذن كل الأعمال التي لا تتم إلا في الظلمات ، ولنزحها من طريق الحياة ، حياة المازدي ! وما من شعب في العالم كره الكذب ، كما كرهه الفرس[١٠] » .

إنها إدانة النميمة ، وكذلك إدانة الكلام بالسوء ، الذي يستخدم الأساليب المشبوهة ؛ وإدانة السرقة التي لا تنجح إلا في السر ؛ وحتى في الاتفاق على قرضَة حسنة ؛ إذ يحدث أن نكذب حتى نتجنب دفع ما علينا من حقوق . ويجب أن نفي دوماً بوعودنا ، حتى ولو وعدنا الخبثاء .

والقضية هنا هي قضية عدالة واستقامة ــ لا قضية طيب القلب ، أو حب المساعدة : فالمزدكية تحرِّم كل شفقة ــ إذ سيكون ذلك ضعفاً ، تجاه المنحازين للشيطان .

والعمل هو أيضاً واجب . إذ يجب أن نناضل ضد أنغرا مائينيو ، على هذه الأرض نفسها التي زرع فيها كل هذه الشرور ، وأن نتعاون مع آهورا مازدا لكي نجعل من عالمنا هذا مجالاً خصباً وسعيداً .

« ولما كان زرادشت مدفوعاً بحماسة أخلاقية ودينية فإنه يهدف إلى إصلاح اقتصادي واجتماعي . فروح الثور تصرَخ للسماء من الشقاء الذي أوقعتها فيه مختلف أشكال العنف ، والمعاملة السيئة لأولئك البداة الجشعين . وهي ترجو أن يوجد من يدافع عنها . ويتقدم زرادشت بهذه الصفة للدفاع بحماسة عن ضرورة التربية الذكية للماشية ، ويطالب بالعناية التي ينبغي أن تحاط بها المراعي ، وبحياة الاستقرار ، وبالسكن الملائم ، وبالسلام . والمهم أن نحسن معاملة الأبقار ، ونلغي الأضاحي الدموية . والمؤمن الحق ، والفلاح المتحمس لزراعته ، ومربي الماشية القدير ، وسيد المنزل ، أو شيخ القرية العادل ، كل هذه عبارات مترادفة في أغاني الـ Gâthâs . وكانت الخطة الزراعية التي وضعها

(١٠) كريغ لينغر ، المصدر نفسه ، ص: ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .

النبي، ذات أهمية قصوى بالنسبة للدين، الذي أسبغ عليه سمة العزم القوي، وأعطاه مثلاً أعلى إيجابياً، يقيم حياته على أساسه. وعندما انتشرت الزرادشتية فيما بعد، أصبحت الزراعة الجادة (وليس مجرَّد العناية بالمراعي فقط، كما يرد في الغاتا les Gâthâs) الشاغل الأساسي للزرادشتي، وظل المزارع النشيط دوماً ذلك النموذج للخادم الوفي لمازدا[11].

«وحتى يستطيع الإنسان أن يقوم بعمله المرهق، فإن عليه أن يتغذى جيداً، ويعنى بتنمية جسمه، وذلك، مثلاً، بأن يأكل اللحم. ولكي يزيد في عدد مخلوقات آهورا مازدا عليه أن يتزوج، بامرأة من عرق نظيف، مخلصة للدين، وأن تنجب أطفالاً سيربيهم هو على نفس الإيمان والعقيدة. فالمثل الأعلى ليس الزهد والتقشف، بل هو حياة عمل زراعي، ووحدة عائلية. وما من شيء يسعد آهورا مازدا، مثل أن يتأمل أولاً مكان عبادة، ثم مكاناً يكون فيه الرجل العادل قد أقام لنفسه بيتاً، مزوداً بالنار، والماشية، والزوجة، والأبناء، وتكثر فيه الماشية، والبركة[12]، والمراعي».

ولكن ماذا سيصبح الجسد والروح، في نهاية مثل هذا الوجود؟.

إنه سيكون من الكفر أن نلوّث النار، والأرض، والماء، وهي مخلوقات آهورا مازدا، عن طريق إلقاء الجثث فيها. وهكذا، فإن على الجسد، بعد الموت، أن يترك للكلاب، والصقور، في واحد من هذه الأبنية الأسطوانية التي تسمى باسم: أبراج الصمت.

أما الروح، فإنها تحاكم عندئذ، وتعاقب أو تكافأ، فتهبط إلى أعماق جهنم، أو تصعد إلى السماء، لتكون في جوار آهورا مازدا. وهناك تستمر في النضال لتساعد ربها، حتى يتم النصر الأخير.

....

وترمز النار إلى الكائن الأعلى، إله النور. وعلى هذا فإن العبادة الرئيسية هي عبادة النار. فكل معبد يحتوي أو يشتمل على غرفة للنار، حيث يشتعل لهب خالد، لا يجوز لأي إنسان أن يمسّه، أو يلوثه بأنفاسه. والعادة أن يضع الكاهن كفوفاً في يديه، وحجاباً يستر فمه.

....

(١١) سودربلوم. كتابه المذكور سابقاً، ص: ٣٦٥ ــ ٣٦٦.

(١٢) الذي ورد في النص، هو كلمة القداسة، بين الماشية، والمراعي، فغيرناها وجعلناها البركة، لحسن التلاؤم.

وللمزدكية تأثير كبير في الأديان الأخرى.

ويشير بول ماسون ــ أورسيل Paul Masson-Oursel إلى التشابه القائم بين الجائينية والبوذية من جهة أولى، وبين الزرادشتية من جهة أخرى: «من حيث أنها تصدر عن مبادرة إنسانية محضة؛ وانحياز إلى التحرر والتجديد؛ «واهتمام متماثل بالضياء والنقاء؛ وكراهية واحدة للأضاحي الدموية، واحترام واحد للحياة كلها». وهكذا فإن التجمعات الجائينية والبوذية «تبدو وكأنها تمت في إطار شيء من تأثير التطوير الإيراني، الذي قام به زرادشت.». وبصورة خاصة، فإن وجود فلسفة ثنائية، وأخلاق نضالية، تنضافان إلى السمات الملاحظة المشتركة، التي تؤكد العلاقة الوثيقة بين الجائينية، والزرادشتية[١٣].

ومن جهة أخرى، فإن الفرس، بعد انتصارات سيروس Cyrus التقوا اليهود المنفيين، في منطقة بابل، وسمحوا لهم بالعودة إلى بلادهم. وهكذا تفسَّر بتأثير المزدكية جملة تصورات أو مفاهيم يهودية، أثرت، بدورها، في الفكر المسيحي، مثل: ثنائية الشيطان والإله؛ وإيمان بوجود الملائكة؛ وخلود الموتى وبعثهم من جديد.

وبعد أن مضى زرادشت، وآب إلى ربّه، عادت المزدكية إلى التقاليد الشعبية القديمة. وعلى الرغم من احتفاظها بالمقام الأول لآهورا مازدا، فإنها تفسح المجال للآلهة القديمة، مثل أناهيتا Anâhita وميثرا Mithra.

وفي القرن السابع استولى العرب المسلمون على بلاد فارس. فتأثروا بعمق بالفرس[١٤]. ولكنهم قضوا نهائياً على المزدكية الرسمية. ولجأ بعض المؤمنين بالمزدكية عندئذ إلى الهند. فسُمّوا عندئذ

---

(١٣) انظر كتاب ماسون أورسيل الذي عنوانه: الفلسفة في الشرق. ص: ٩٠ ــ ٩٢ ويلاحظ المؤلف، مع ذلك، أن الصعوبة الأساسية، في هذه الفرضية، هي البعد ما بين بلاد الفرس، وشمال الهند ــ ويمكن أن نلاحظ أيضاً ذلك الفرق الكبير الفاصل بين التقشف الجائيني، وبين الروح الزرادشتية الآخذة بازدهار الحياة، وتألق الطبيعة (ص: ١٢٤).

(١٤) انظر ماسيلي في البحث عن ديانات غربي آسيا.

باسم بارسيس. ولا يزال منهم فريق، في منطقة بومباي[١٥] خاصة. وفي ضواحي بومباي، يرتفع بناء شاهق وسط الحدائق الجميلة، هو برج الصمت.

والديانة البارسية، هي البقية المزدكية.

«إلا أن العقيدة، بتأثير العلماء البارسيين المعاصرين، قد اتخذت تأويلاً ميتافيزيكيا خالصاً؛ فالكائن الخالص (آهورا مازدا) في نضاله ضد اللا وجود (آهريمان) استدعى إلى الوجود تلك الكائنات العرضية، والعالم النسبي. وهذا العالم غير الكامل، يحاول العدم، باستمرار، ابتلاعه، ويجب أن يدعمه الكائن الكامل، بعمل وعون مستمرين، وذلك حتى اليوم الذي يكون فيه العالم، الذي اكتمل وجوده أخيراً، بالصورة التي أرادها الإله[١٦]».

....

وإلى جانب الزرادشتية، تقدم لنا إيران ديانة أخرى مختلفة جداً، هي الميثرائية.

فميترا، أو ميثرا، الإله الشمسي المشترك بين الهندوس والإيرانيين، هو إله النور والحق. ولما كان يرى كل شيء بأوضح ما يمكن، فإنه يستطيع الحكم على الناس بصورة عادلة. ولا يرد له ذكر في أناشيد Gâthâs زرادشت. إلا أنه ظل يقوم بدور ما في التقوى الشعبية. ويجب أن يكون قد وجد في بلاد الفرس نفسها، طائفة سرية بدرجة ما، تؤمن به، وتعليه إلى مقام الإله الأساسي، وأشركت به حيواناً مقدّساً من أصل طوطمي، هو الثور.

ويقال إن ميثرا روّض ثوراً، ثم قدّمه أضحية، فنشأ من دمه جميع المخلوقات الحية. ولما كان «خالقاً» فقد ظل هو الوسيط بين الإله الأعلى، والناس، والمنقذ المخلص للأرواح أو النفوس.

وسيشرف، بصورة نار لا تقاوم، على إضاءة العالم، إضاءة تقضي نهائياً على الظلمات، وتضع حداً لكل شر. وسيعيد بعث الموتى، مثل الـSaoshyant في المزدكية.

وهكذا فإن الميثرائية كانت ديناً يعد بالسلام الشامل، الذي اتجهت إليه آمال جد عريضة.

---

(١٥) يقدّر عدد البارسيس في الهند بحوالي ٩٠,٠٠٠ ـ ١٠٠,٠٠٠ نسمة على الأقل.

(١٦) انظر Grousset, Histoire de la philosophie orientale, PP. 22-23.

ومع أنها دين للسلام، فإنها كذلك دين يقوم على الأسرار. لأنه يقتضي تدريباً، يضمن السلام على هذه الأرض، والخلود بعد ذلك، حتى قبل البعث.

وكانت العبادة تقتضي التضحية بثور. وكان هنالك مجموعة أسرار حقيقية ميثرائية: كالعماد، والتطهر بالعسل، والمناولة communion مع استخدام الخبز، والماء، والخمر، المخصّصة لهذه الغاية. وكان المدرّبون يسمون أنفسهم، فيما بينهم باسم الإخوة. ويسمون مديري شؤونهم باسم الآباء. كما يسمون أبا الآباء باسم رئيسهم الأعلى.

ولكي يفسّر Tertullien التشابه بين الميثرائية والمسيحية، فإنه يعتمد على حيل الشيطان. أما سالومون ريناخ فيجيب عن هذه الحجة، بالأسبقية المؤكدة للشعائر الميثرائية[١٧].

ولقد انتشرت الميثرائية في أرجاء الأمبراطورية الرومانية الواسعة، ولا سيما عن طريق الجنود، ومساعديهم الشرقيين، بدءاً من القرن الأول للميلاد؛ وحصلت على مجموعة من المؤمنين بها، خلال القرنين الثاني، والثالث الميلاديين، وتبناها الأمبراطور الروماني كومود Commode (الذي تبوأ العرش اعتباراً من عام ١٨٠ ب.م.). وكان الأمل بسلام شامل يملأ قلوب الجماهير.

واستطاع ريتان Renan أن يقول: «لو أن المسيحية أوقفت في نموها بفعل مرض مميت ما، فإن العالم كان سيصبح مثرائياً»[١٨].

وحاربت الكنيسة المسيحية هذا الدين بعزم يتوازى مع شبهه بدينها. وقد نجحت بسحقه في بداية القرن الخامس.

....

وظهرت بعد الميثرائية، ديانة أخرى، تتجه إلى الناس جميعاً، وكانت منتشرة في أطراف إيران وبابل، في القرن الثالث الميلادي: وهي المانوية Manichéisme.

وقد وُلد مؤسسها ماني Mani (أو مانس Manés أو مانيخيه Manichée)، في دولة بابل، ولكن أبويه كانا فارسيين. وكان يؤمن أول الأمر بطائفة تعتنق ديانة تبشّر بظهور المسيحية أو لنقل

(١٧) Salomon Reinach, Orpheus, P. 103.

(١٨) Renan, Marc-Aurèle (Paris, Calmann-Lévy, 7e éd. en 1895), P. 579.

سابقة لهذه المسيحية، وهي ديانة الماندئيين Mandéens، الذين يسمون أنفسهم أحياناً باسم الناصريين Nazaréniens أو باسم مسيحيي القديس يوحنا، وهي طائفة تعتبر هذا الأخير وكأنه النبي الحقيقي، والمسيح وكأنه أفاق. وكانت تدين العزوبة، وتطرّح التقشف. فدرس الزرادشتية، وأحب أن يطوّرها: وسنحت له الفرصة لزيارة الهند، والتعرف إلى الديانة البوذية. وعندما عاد إلى فارس، أخذ يبشّر بدينه، معتبراً نفسه مثل زرادشت، وبوذا، وعيسى؛ ويجد من ينقاد له، ويعتنق الدين الذي أتى به. ولكنه اضطهد من قبل الكهنة الزرادشتيين، رأدين، وصلب في العام ٢٧٦، وهو في عمر الستين

والمانوية نوع من التركيب بين تصورات إيرانية وبابلية، بالإضافة إلى عناصر بوذية ومسيحية. وكانت رغبة ماني، هي أن ينشئ عقيدة للسلام، ذات صفة عالمية، عن طريق صهر تعاليم الحكمة القديمة[١٩].

والفكرة الغالبة، هي فكرة التعارض بين الخير، والنور، والروح من جهة؛ وبين الشر، والظلام، والجسد، من جهة أخرى. والعالم خليط من الخير والشر؛ وكذلك الإنسان، بحكم أنه جسد وروح معاً. ويجب أن نحرِّر النفوس التي تتألم من سجنها داخل المادة. وعندما ترجع الأرواح، بعد التطهر، إلى مكانها الطبيعي، أي السماء، سماء النور، يحدث انقلاب عام وينتهي العالم.

وعندما يخاطب ماني المسيحيين، كان يؤكد أن العهد القديم صدر عن أمير الظلام؛ وأن كتابات القديس بولص، لا قيمة لها؛ وأن المسيح الحقيقي كان رسول النور، وأن حياته الجسدية وموته، كانا مجرّد ظواهر[٢٠]. وكان يقدّم نفسه للناس على أنه روح القدس (بارَقليط) الذي بشر به عيسى، وأنه مكلف بتكملة رسالته.

وانقسم أشياع ماني إلى أصفياء، أو كاملين، يعزفون عن الزواج، ويمتنعون عن الخمرة واللحم، إلا إذا كان سمكاً؛ ومؤمنين أو مستمعين، يتزوجون، ويعيشون حياة طبيعية، لكنهم كانوا يعزفون عن كل طمع أو كذب.

وكانت المانوية تطلب من معتنقيها ممارسة الصيام، والصلوات للشمس والقمر، اللذين يفيضان بالنور، وتفرض عليهم العماد والتدريب على الممارسات الدينية ـــ وكان هذا يقدّم أحياناً في

---

(١٩) سوديربلوم، كتابه المشار إليه آنفاً، ص: ٣٩٢.

(٢٠) انظر حول التشابه بين هذه الأفكار وبين أفكار مارسيون Marcion ما سيَلي من الحديث في أواخر هذا الكتاب.

مادة الموت، تحت اسم العزاء — كما تفرض عليهم المناولة بالمعنى المسيحي أو ما يسمى باسم الـ eucharistie، والولائم الأخوية.

وحوالي القرن الخامس، قام أحد مريدي ماني، واسمه مزدك، بالدعوة إلى الشيوعية، وأوصى أتباعه بشيوعية المال والنساء*.

وقد اضطهدت المانوية من كل الأديان، التي كانت تطمح إلى أن تكون هي صورة التأليف بينها. وعندما أبعدت عن فارس، انتشرت في تركستان، ومونغوليا، والصين، وحتى في سورية، ومصر، وفي أفريقيا الشمالية كلها. وكان القديس أوغسطين قد تبناها موقتاً، قبل أن يصبح خصماً لها. وفي القرن الحادي عشر، أدخلت إلى فرنسا، بطريق الفرقة أو الطائفة التي اسمها Cathares أو Albigeois لكنها اضطهدت اضطهاداً عنيفاً، وعُذّب أتباعها تعذيباً قاسياً، وأخيراً اقتلعت جذورها كلها على يد محاكم التفتيش.

لقد قدّمت إيران للعالم أفكاراً دينية رائعة، أهمها — وقبل كل شيء — فكرة الصراع الهائل، والشامل، بين الخير والشر(٢١). (ويمكن أن نطبّق هذه الفكرة على مواضيع أخرى غير مواضيع زرادشت، وعلى سبيل المثال، موضوع الصراع بين العدالة، و... ... الاجتماعي، وبين السلام والحرب). ويستدعي هذا التصوّر الفكرة التي تقول إن على كل إنسان أن يساهم في هذه المعركة الكبيرة، وإن كل الحياة الإنسانية يجب أن تدور حولها؛ وهذا ما يهبها معنى عميقاً، وما يشبه القيمة اللا متناهية.

ولا ريب أن فكرة زرادشت، الداعية إلى النزاهة الكاملة، والعمل الخصب، وضرورة الانسجام العائلي، تتلاءم أحسن التلاؤم مع هذه العقيدة النبيلة.

ثم إن الميثرائية ساعدت على تنمية روح الإخاء، وعلى الأقل بين أهل العلم initiés، المتحدين في الايمان بأمل كبير.

وقد مثّلت المانوية فكرة سامية، هي فكرة التوحيد الممكن بين أعلى مطامح الأديان الكبرى كلها.

---

* انظر حول التشابه بين هذه الأفكار وبين أفكار مارسيون MARCION ماسيلي من الحديث في أواخر هذا الكتاب.

(٢١) انظر Saurat, Histoire des religions, P. 139.

الفصل الثامن

أديان آسيا الغربية

ديانة السومريين ــ ديانة الآشوريين ــ البابليين ــ ديانة الحثيين ــ ديانة الفريجيين PHRYGIE ــ ديانة الفينيقيين

إننا نجد في آسيا الغربية ــ أو كما يقال أحياناً، في الشرق الأدنى الآسيوي ــ جملة أديان، بينها كثير من نقاط التشابه، وبينها من أثر تأثيراً ما في الأديان الأخرى.

وفي هذه المناطق، التقى السكان المحليون، والهنود الأوروبيون، والساميون. ويُميِّز المؤلفون عادة بين ساميي الشمال، (أي البابليين والآشوريين) وساميي الجنوب (أي الأحباش والعرب).

وسندرس في الفصل التالي ديانة الفلسطينيين، وديانة الإسرائيليين، ثم نعود بعد ذلك، لدراسة الاثيوبيين والعرب.

أما في هذا الفصل، فسنعرض، بإيجاز، ديانة السومريين، وديانة الآشوريين، والبابليين الذين جاءوا بعدهم، ثم ديانة الحثيين والفريجيين الذين يبدوا أنهم ورثوا تراثهم، وأخيراً ندرس ديانة الفينيقيين.

هذا وإن البحث في هذه المناطق، سطحياً، أو تحت الأرض. قد أتاح لنا اكتشاف عدد كبير من الوثائق الآركيولوجية (أو الأثرية) والكتابية، والأدبية، التي جدَّدت من نواح كثيرة، معرفة الشرق الأدنى الآسيوي[1].

(١) وقد درست، بصورة خاصة، الأ· ·م المسطّحة، والأختام الأسطوانية وطبِّق ذلك على الوثائق المكتوبة على الغضار، بغية توثيقها.

ولنشر هنا إلى ضرورة مراجعة كتاب سوديربلوم[٢] في كتابه، عن تاريخ الأديان. ولكن النصوص الأمتع، نجدها مجموعة في فصل من كتاب «تاريخ الأديان» لمؤلفه دونيس سورا Denis Sourat.

إن مجموعة الساميين المسماة بالشماليين، أي هؤلاء الذين سيطروا على ما بين النهرين — أي المنطقة الموجودة بين نهر دجلة، ونهر الفرات — وجدت عندما توغّلت في دلتا هذا النهر، شعوباً سمتها باسم السومريين، الذين كشفت الدراسات الحديثة عن أهميتهم.

وفي ذلك العهد نفسه، وفي شمال منطقة السومريين، حتى خط طول بغداد، كانت تقع منطقة الأكاديين، حيث كانت تقوم مدينة بابل.

وكان للسومريين تأثير بارز ما بين منتصف الألف الرابعة، ومنتصف الألف الثالثة قبل العهد المسيحي.

ولقد وُجد من وصل بين حضارة هؤلاء، وحضارة الدرافيديين الهنود، وافترض هؤلاء «وجود ثقافة أسبق من الثقافة الهندية يسمونها، السومرية الدرافيدية[٣]». وكذلك قابل الباحثون بين الثقافة السومرية، وبين بداية الحضارة المصرية. ذلك أن هذين الشعبين عاشا في دلتا: على الرغم من أن المصريين وجدوا دلتاهم معدّة تماماً لاستقبالهم، على حين أنه وجب على السومريين أن ينشئوا دلتاهم ويخلقوها إذا صح هذا التعبير. وعندما نزلوا من صحارى تركستان، أو من جبال عيلام، رأوا أن عليهم حفر الأقنية، وري الأرض، وتجفيف المستنقعات، قبل أن يصبحوا شعباً بحرياً وزراعياً، في آن واحد. وكانوا يزرعون الحبوب التي نقلوها إلى أرجاء العالم الأخرى. ولقد تعلم هذا الشعب كيف يُصنّع الغضار تصنيعاً ملائماً للإعمار، ولصناعة الخزف، وللكتابة. «والعملية المشتركة في مختلف

---

(٢) Soderblom, Manuel d 'histonre des religions

(٣) Masson-Oursel, La Philosophie en Orient (Paris, Alcan, 1938), P. 46.

هذه الأعمال، هي فرض شكل على مادة مرنة. ويعبر هذا الأمر، بمعنى ما، عن الميتافيزياء الضمنية التي تشتمل عليها أساطير سومر وخرافاتها(٤).

وللسومريين كائنات مقدَّسة، ورثوها عن الطوطميات البدائية: وهي النسر، والثور، والأسد.

وكانت الإحيائية تضع في الكواكب ـــ أي الشمس، والقمر، ونجمة الصباح ـــ أرواحاً تصبح أو ستصبح آلهة.

وكانت الآلهة تتغيَّر من مدينة إلى أخرى. وكانت هذه الآلهة المحلية، نسوية بالدرجة الأولى، «كما لو أنها أجزاء من تلك الإلّهة الكبرى، أي الأم العالمية ـــ التي كانت تُقدَّس وتعبد من شواطئ المتوسط، حتى خليج البنغال، من قبل الإيجيين والأسبانيين والدرافيديين(٥) باسم تيامة Tiamat، إلّهة المحيط؛ ونانا أو نينا Nana,Nina، التي هي نموذج عشتار البابلية. وهناك إله مُعَبَّ لمستقبل عظيم، هو مردوك، وهو الخالق، الذي تغلبَ على تيامة، وفرض شكلاً على المادة، وخلق الدلتا. وستوجد كل هذه الآلهة في الديانة البابلية التي ستنمو فيها الأساطير السومرية حول الخلق والطوفان.

وتخلق الآلهة الإنسان لكي يعبدها، ويغذيها. والإنسان مصنوع من هذا الغضار الذي أودع الله فيه روحاً.

أما الملوك، فهم أبناء الآلهة، وهم الذين يضمنون خصوبة الطبيعة، وينظمون الفيضانات، ويشرفون على النبات.

والسومريون الذين يفترض أنهم هبطوا من الجبال، حفظوا، على ما يبدو هذه العبادة للأعالي والمرتفعات التي أوحت إليهم عندما سكنوا ما بين النهرين ببناء الزيغورات Ziggourats، وهي أبراج ضخمة، تتألف من سبعة طوابق. ومنها زيغورات أور وخورساباد Khorsabad التي تصوِّر لنا هذا النموذج من البناء تصويراً مشخصاً. وكان برج بابل أعظم هذه الأبنية، وأشهرها بين الناس(٦).

---

(٤) ماسون أورسيل، في كتابه المشار إليه سابقاً، ص: ٤٧.

(٥) ماسون أورسيل، في كتابه المشار إليه سابقاً، ص: ٤٩.

(٦) ماسون أورسيل، المصدر نفسه، ص: ٤٨. «ويضيف المؤلف قوله: إن الباغودات الهندية، المبنية بالحجارة، والأبراج الصينية، التي حلّ فيها الصلصال الصيني محل غضار الكلدانيين، تنشر هذا النموذج من البناء بعد تغييره وتطويره.

واستطاعت مجموعة أو عدة مجموعات من الساميين السيطرة على السومريين والاكاديين. ولكن غزوهم هذا الذي بدأ في الألف الثالثة ق. م، لم ينته إلا في بداية الألف الثانية، قبل العهد المسيحي.

وتوطّن البابليون (أو الكلدانيون) في الدلتا، كما توطّن الآشوريون في منطقة تقع في شمال هذه الدلتا. ويتميّز البابليون بأنهم أغنى في ميولهم العقلية؛ وهم سباقون في الدين وفي الفن. أما الآشوريون فإنهم أقوى، وأكثر عنفاً، وبالتالي فهم محاربون أرقى من جيرانهم. وسيطر الآشوريون مدة طويلة على البابليين، قبل أن يسيطر عليهم هؤلاء. وحتى عندما كان البابليون أتباعاً، فإنهم كانوا يمارسون سيطرة روحية شبيهة بهيمنة الأغارقة على الرومان. وهم الذين قدموا القسم الأهم من المعتقدات الدينية. ويمكن الكلام على وجود حضارة آشورية ـــ بابلية(٧).

وكان بين ملوكهم ملك كبير هو حمورابي (٢٠٠٣ ـــ ١٩٦١) وهو الذي حقق «التركيبة السومرية ـــ السامية»(٨).

وحمل السومريون آلهتهم وأساطيرهم، كما حمل الساميون لغتهم، الفنية والمرنة معاً، وعبقريتهم السياسية: وعما قريب سنراهم يجمعّون المدن، والآلهة، مع المدن.

واحتفظت الآلهة بسماتها المحلية: وعندما تسيطر مدينتهم، يبدؤون بممارسة نوع من الهيمنة، وتصبح الآلهة الأخرى تابعة لها، وأحياناً تختلط بها.

فإله نيبور Nippour، إينلي ENLIL (أو بل Bel) عظيم التأثير والنفوذ.

وفي «أور» ـــ أي البلدة التي هجرها إبراهيم، تبعاً لحكاية سفر التكوين ـــ يحكم سين Sin وهو إله قمري. أما ابنه، الشَمَش shamash، فهو إله شمسي كما أنه إله العدالة.

وفي بابل، نجد الإله مردوك. وإليه تعود حكاية الخلق، التي تستطيل بأسطورة الطوفان. ويبدو أن هذه الأساطير ذات الأصل السومري، كتبت في زمن حمورابي.

وقد دعي مردوك من قبل الآلهة الأخرى إلى محاربة تيامة، ألوهية المحيط؛ ويتلقى منهم كل

---

(٧) يستطيع الباريسيون أن يروا في اللوفر جملة من الآثار الآشورية.

(٨) ماسون أورسيل في كتابه المذكور آنفاً، ص: ٥٠. والتواريخ المشار إليها هنا هي التي وضعها Delaporte في كتابه: Le Proche-Orient asiatique, P. 36.

السلطات . فيتغلب على تيامة Tiamat ، ويضع حدود البحر ، ويخلق الإنسان من الغضار ، لكي يوجد كائن ما ، يعبد ، ويخدم ، ويصون الآلهة .

ولكن بعض الآلهة ، الذين استاؤوا من خلق الناس ، قرروا القضاء عليهم . فيقوم أحدهم وهو إينلي أو بل Bel بتهيئة الكارثة . وظهر أحدهم الآخر واسمه EA في حلم رجل ، كان يحبّه ، وهو Out-Napishtim ، ويأمره ببناء سفينة . فيضع هذا الإنسان فيها أسرته ، وعماله ، وماشيته ، وحيوانات الحقول الزراعية . ويبدأ الطوفان ، ويغرق الناس جميعاً . فتخاف الآلهة وترتاع من هذا المنظر . وتتوجع ملكة الآلهة عشتار من هول ما رأت . «أما عرق البشر الأصليين ، فقد عاد غضاراً . «ولقد وافقت على شيء مشؤوم ، في جمعية الآلهة ، عندما وافقت على وقوع هذه العاصفة التي أودت بحياة شعبي ! » .

« وتدوم العاصفة سبعة أيام . ويدع Out-Napishtim ، حمامة ، تطير في الجو فتعود إليه ، ثم يدع سنونو يفعل مثلها ، فيمضي ثم يعود . ويدعو غراباً ، يمضي ولا يعود . وعندئذ يوقف سفينته ، ويقدّم ، على قمة الجبل أضحيةً ، تجتمع حولها الآلهة ، كأنهم الذباب » . لكن الإله الذي خطط للكارثة ، يشكو لذاك الذي فضح مخططه EA ، من هذه الخيانة ؛ ثم يهدئ من غضبه ، ويقدّم الخلود لأوت نابيشتيم ولامرأته ...

وعندما صارت الغلبة لبابل على المدن الأخرى ، فإن إلهها مردوك ، يصبح الإله الأكبر . وفي أيام حمورابي نراه يمتص أو يبتلع الآلهة الأخرى التي تعتبر عندئذ كمظاهر مختلفة له : فمن حيث أنه يضيء الظلمات ، فهو سين sin ؛ ومن حيث أنه إله الغلبة والسيطرة ، فإنه أنليل ENLIL ؛ ومن حيث أنه إله العدالة ، فهو الشمش ، الخ . وهو أيضاً الإله الأسمي في القرن السادس ق . م .

« وكان نبوخذ نصّر[٩] يعتبر مردوك ، عملياً ، إن لم يكن نظرياً ، كإلهه الوحيد والشخصي . وما من ملك في بلاد ما بين النهرين لم يتصور الألوهية ، بمثل هذا القرب من « التوحيد » . أما دين الدولة الرسمي فكان وظلّ متعدّد الآلهة . ونبوخذ نصّر ، هو صاحب أو مؤلف صلاة جميلة كان يتوجه بها إلى مردوك ، لدى تبوئه العرش ، حتى لكأن تقوى هذا الملك تتجاوز ، في الصفاء والعمق ، تقوى أسلافه على عرش بابل ، وآشور[١٠] » .

(٩) أو نبوخذ نصر (٦٠٥ — ٥٦٢ ق . م) .

(١٠) سوديربلوم ، كتابه المذكور سابقاً ، ص : ٩٥ — ٩٦ .

وشمش (أو الشمس) أي مردوك، المنظور إليه من زاوية العدالة، هو الذي أوحى للملك العظيم حمورابي، في بداية الألف الثانية ق. م، بقانون يتألف من ٢٨٢ مادة، تتميّز وسائل التعبير عنها، بالايجاز، كما تتميّز بعض عقوباتها بالقسوة المفرطة(١١)، على كونه يشتمل، على كثير من الحدود المعقولة. ولا يتدخل الدين هنا إلا في المقدمة والخاتمة: وهذا ما أتاح القول بأن البابليين كانوا، إلى حدٍ ما، قد فصلوا الدين عن القانون(١٢).

وإلى جانب مردوك، فإن الألوهية الأكثر شعبية هي عشتار، إلّهة نجمة الصباح، ونجمة المساء، والحب، والأمومة، والخصب. وقد قامت بعض العاهرات بخدمة معابدها في المملكة.

وعشتار هي الأم، أو الزوجة أو الحبيبة، بالنسبة تموز، المسمى أيضاً «بالطفل، والراعي، والسيد(١٣)، والذي بقتله خنزير بري، في قولٍ؛ ومن قبل عشتار نفسها في قول آخر. فيهبط إلى جهنم. وتتألم عشتار لذلك. وتريد أن تبحث عنه «في بيت الظلمات» أي في البيت الذي متى دخل فيه الإنسان، فلن يخرج منه» ويدعونها تدخل؛ ولكن كان عليها أمام كل باب من الأبواب السبعة، المحيطة بجهنم هذه، أن تترك قطعة من ثيابها؛ وتصل عارية أمام «ملكة جهنم» التي تسجنها عندها. وخلال مدة السجن، تيبس الأرض، وتصبح عقيماً؛ وتموت فيها الرغبة: فالرجال والحيوانات، على وشك الموت. وتخشى الآلهة أن لا يوجد من يقدم لها الأضاحي، فتتدخل لدى الألوهيات الجهنمية. فيخلى سبيل عشتار، وتعود إلى الأرض، مصحوبة بتموز، الذي بُعث حياً. ولكن نصوصاً أخرى متأخرة، تروي أن الإله الشاب عاد على أن يقضي نصف السنة مع إلهة الحب

---

(١١) فالمرأة التي تتهم بالزنى، دون أن تؤخذ بالجرم المشهود والرجل المتهم بالسحر، يلقيان في النهر الذي يغرقهما، إن صحت التهمة وإذا تسببت المرضعة بموت الطفل من جراء الإهمال، قطع ثدياها... الخ.

(١٢) انظر H. Berr، في المقدمة (ص ٩) لما بين النهرين لمؤلفه Delaporte، باريس ١٩٢٣. أما المسلة التي تحتوي هذا القانون المشهور، فقد وُجدت في Suse عام ١٩٠١—١٩٠٢. ويلاحظ أن الإله الشمسي، شمش يقوم هنا بدور إله التوراة في سيناء. ثم إن بين قوانين حمورابي، وبين القوانين الموسوية، مشابه يصعب أن تكون قد تمت بمحض المصادفة. وفضلاً عن ذلك فإن قانون حمورابي أسبق من القانون الموسوي بستة قرون، تبعاً للتاريخ الذي تعينه التقاليد المأثورة. ولئن كان هذا الأخير قد أوحى به الله إلى موسى، فإن الله يكون عندئذ قد نقل قانونه من قانون حمورابي. ولم ترق هذه النتيجة لأكبر علماء الألمان، الأمبراطور غيوم الثاني. ولهذا فإنه أرسل خطاباً مشهوراً إلى أحد أمراء البحر عنده، وقرّر فيه أن الله أنزل وحيه على عدة أشخاص عظماء، كل منهم بدوره، مثل حمورابي وموسى، وشارلماني، ولوثر، وجدّه هو، غيوم الأول. نقلاً عن Reinach, Orpheus ص: ٤٩—٥٠.

(١٣) يطلق اسم السيد في العبرية اسم آدون ومن هنا اشتق اليونانيون اسم آدونيس.

والنصف الآخر مع ربة جهنم. وهكذا يعلِّلون موت الطبيعة في الشتاء، وانبعاثها في الصيف، كما يبرِّرون الشعائر التي تقام لضمان عودة النبات. فالنساء يبكين لاختفاء تموز(١٤)، وتمثِّل تمثيليات درامية مقدَّسة، احتفالاً بذكرى حب الإله، وانبعاثه من جديد(١٥).

وهناك أسطورة أخرى تتعلق بعشتار، وهي أسطورة الملك جلجامش. ذلك أن الإلّهة تُسحَر به، ولكنه يأبى هذا الحب، وهو يعلم أنها تقتل كل محبيها. وحملها غيظها منه على أن ترسل إليه ثوراً غاضباً للقضاء عليه. فينتصر عليه، بفضل المساعدة التي يمدّه بها صديقه ENGUIDOU، وهو كائن مغطى الجسم بالشعر (ولعله أسد). فتلعن عشتار أنغيدو، الذي يموت من جرّاء هذه اللعنة. ولكن جلجامش المصاب بالجذام يخشى أن يموت هو أيضاً، فيرحل إلى جزيرة السعداء، طلباً لنصيحة أحد أسلافه، أي ذلك الإنسان الذي نجا من الطوفان وأصبح خالداً. فيبرئه هذا من مرضه، ويَدُلُّه على نبات يعيد الشباب. ويحصل عليه جلجامش، ولكنّ حيّة تخطفه منه، وتبتلعه.

ويسمح له ملك الموتى بالتحدث مع أنغيدو. ولكن هذا يتردّد في الإدلاء إليه بالحقيقة البائسة. ثم يخبره بما هي عليه حال الموتى من بؤس، إلا أولئك الذين قتلوا في المعارك.

فالرجل الذي لا يهتم به أحد
مثلك أنت، أو أنا، كم رأينا من أمثاله
فالجوع يفترسه، وليس لديه طعام
وهو مرغم على أن يأكل ما يُرمى به إليه.

---

(١٤) لقد رأى إشعيا نساء القدس يبكين تموز على باب معبد يهوه (شعيا ٨، ١٤). وقد تساءل قوم عما إذا كان النحيب على تموز، أي على إله النبات الذي يوشك أن يموت، ليس في الأصل، نحيباً من الإسرائيليين على فقدان القدس

(١٥) يعرض Denus Saurat واحدة من هذه الدرامات، في هذه الكلمات: «يبدأ العرض بدخول مظفر يمضي بالإله أولاً، إلى المدينة. ثم تأتي كارثة ترمي به في السجن، وفي سفح الجبل تجري محاكمته. لكن أنصاره يثيرون الشغب في المدينة. وتتوسل امرأته إلى الآلهة وتنتحب عليه. ذلك أن الإله قد قضى نحبه. فتمضي الإلّهة إلى القبر الذي يقوم الجنود على حراسته. لكن الإله ظل في قبره الذي نمت عليه نبتات قمح خضراء من القمح الفتي. وكان رجلان شريران قد حوكما قبله. أما أولهما فقد ربط، ميتاً، على باب بابل، ويصحب الإله إلى العالم الآخر. أما الآخر فقد اتضح أنه بريء، وأخلي سبيله. فاجتمع الآلهة المحسنون؛ وكانت معركة؛ فقهرت القوى الشيطانية. وعندما بعث الإله حياً، خرج من الجبل، في وضع المنتصر. وبعد أن وجدنا، في بلاد ما بين النهرين، جملة المعطيات الأساسية للعهد القديم، أي الخلق والطوفان ونوح، نجد هنا المعطى الأساسي للعهد الجديد: أي النصر، فالموت، فقيام الإله. انظر كتابه: Histoire des religions, PP. 110-112».

وهناك أيضاً أسطورة أخرى تتصل بعشتار، هي التي تتعلق بملك آشور، سارغون الأول[١٦]. ويقال إنه ابن لأب مجهول، وكان معروضاً في سلّة من القصب على نهر الفرات، وأنقذه فلاح، وأحبّته عشتار، وأوصلته إلى الملك[١٧].

وفي أيام حمورابي، حيث تجمّعت كل الآلهة في مردوك «فإن اسم السامية عشتار، أصبح مرادفاً للاسم العام «إلّهه» وامحَت تقريباً كل الألوهيات النسوية أمامها»[١٨].

ومع أن الآشوريين كانوا يُجلون ألوهيات أخرى، ولا سيما عشتار، فإنه كان لهم إله أول، كان في البداية ذلك الإله المحلي لمدينة آشور، قبل أن يصبح إلهاً وطنياً، وهو آشور. ولما كان الآشوريون قد جنّدوا أرهب قوة عسكرية عرفها العالم قبل روما، فإنهم كانوا يظنون أنهم يمجدون إلههم، بالأعمال الوحشية المريعة التي تتبع انتصاراتهم:

«فمذابح المغلوبين، وتهجير الشعوب جماعياً، وحرق الملوك الموتى الذين يمجدّهم العدو، في قبورهم، ومصادرة آلهته؛ تلك هي الوسائل التي ضمنت سيطرة نينوا، ولكنها تثير ضدّها من الكراهية ما جعل القضاء عليها يستقبل في آسيا الغربية كلّها، بارتياح عظيم (٦٠٦)[١٩].».

وهناك جوانب من الحياة الدينية، وفي الكلدان خاصة، أقل بشاعة. فمزامير الندم تطلب من الآلهة العفو عن الذنوب المرتكبة، إما ضدها، وإما ضد الناس الآخرين، مما يهب هذه الأناشيد مدى أخلاقياً. ولقد قورن بعض هذه القصائد بأناشيد العهد القديم:

«كان وهو جالس وسط التنهدات، والقلب مرهق، لا تسمع منه إلا الشكوى والتوجع، تفيض منه الدموع والتنهدات المرة، كالحمامة الموجعة، ويئن بعنف نهاراً وليلاً ويصرخ لربه العطوف، كالبقرة المتوحشة.».

وهناك قصيدة موضوعها، العادل المتألم: «يستغرب أحد الرجال المحبين للعدل، وقد أصيب

---

(١٦) أو ساروكين الأول Sarroukin 1 (٢٠٤٨ ــ ٢٠٣٠)

(١٧) إن المعطى العام هو معطى أساطير موسى ورومولوس. انظر رِيناخ Orpheus

(١٨) انظر: Delaporte, ouvr. cit; P. 131.

(١٩) Masson-Oursel, La Philosophie en Orient, P. 59 وحول الفظائع الآشورية: انظر Le Proche-Orient asiatique, PP. 210, 236, 241, 257, 272. لمؤلفه دولابورت.

بكوارث مختلفة، أن يكون ضحية لمصائب لم يستحقها. وعندئذ يرأف مردوك بحاله، ويرد عليه أمواله»[٢٠].

وفي «كتاب في الحكمة» يجد الإنسان أفكاراً معقولة وكريمة: «فالرجل الحكيم يتظاهر بأنه يعرف من الأمور، أقل مما يعرفه منها فعلاً.» ــ «وافعل الخير لذاك الذي أتاك بالشر».

....

والنظام السياسي في بابل وآشور، هو دوماً تيوقراطي (حكم باسم الآلهة، يتولاه ملك، له كل السلطات، وكل الحقوق). فكل سلطة تأتي من إله، أو من آلهة. والملك هو ممثل الإله على الأرض. وواجبه الأول هو رعاية الآلهة.

وهذا هو موضوع الأضحية التي هي الأمر الأساسي في العبادة. فالحيوان المضحّى به، يبدو، بالنسبة للمؤمن، وكأنه البديل الذي يجب أن يؤكل بدلاً عنه من قبل الإله. وكما تقول إحدى القصائد:

لقد قدم الخروف فداءً لحياته. وقدّم رأس الخروف بديلاً عن رأس الإنسان.

وكل الممارسات المتعلقة بكبش المحرقة، وكل الآمال بالسلام، تتعلق بذبح خروف إلهي: تلك هي النتائج الغريبة للأضحية الكلدانية[٢١].

....

أما الكهانة عن طريق كبد الخروف، فإنها دفعت بالبابليين إلى بعض الملاحظات التشريحية.

ومن جهة أخرى، فإن الكواكب التي كانت تراقب من أعالي الزيغورات قد شغلت مجالاً كبيراً من تفكيرهم: إذ كانوا يجدون في السماء، ما يشبه التنبؤات. ثم إن التنجيم قد أدّى إلى أبحاث هامة حول الكواكب والنجوم، أدّت هي نفسها إلى نتائج تتعلق بحتميات الطبيعة، كما أدت إلى معرفة قياس الزمن.

---

(٢٠) هذا هو الموضوع الذي سنجده فيما بعد في كتاب Job أو أيوب.

(٢١) انظر: ماسون أورسيل. في كتابه المشار إليه آنفاً، ص: ٥٣.

وكان الكلدانيون يميّزون بين أيام سعيدة ، وأخرى مشؤومة ؛ فاليوم السابع من كل أسبوع هو يوم محرَّم ، غير صالح لأي عمل . وهذا هو الأصل في عطلة يوم السبت (عند اليهود) . والأيام السبعة في الأسبوع ، تسمى بأسماء الكواكب المقدَّسة ؛ وهذا تقليد اتبعه الأغارقة والرومان بعدهم . فالاثنين هو يوم القمر ، والثلاثاء يوم المريخ MARS والأربعاء يوم عطارد ، والخميس يوم جوبيتير ، والجمعة يوم الزهرة . وكانوا يقبلون ويصدقون أن صفات الألوهية الكوكبية تؤثر في ذاك الذي يولد في ذلك اليوم : فهنالك أشخاص قمريون ، ومريخيون ، وزهريون . الخ .

وكثيرة هي الأفكار الدينية ، المنتشرة في أماكن شتى ، جاءت من منطقة ما بين النهرين ـــ حيث أرغم اليهود على الإقامة أيام الأسر البابلي ـــ كقيمة السماء ، وقيمة التضحية أو الأضحية المقدّمة للتكفير عن الذنوب ، وأساطير التكوين ، وقصة الطوفان ، وشرح أو تفسير التغيرات الموسمية بموت إله ، أو بانبعاثه حياً .

....

وكما هي الحال مع الشعوب السومرية ، فإن الناس يعزون اليوم أهمية كبيرة للحثيين التي ازدهرت مملكتهم (Hatti حتي) في آسيا الصغرى ، وعلى الأخص في كابادوشيا Cappadoce ، في القرن الثاني قبل الميلاد[٢٢] .

ويظن أن فئة من الهنود الأوروبيين قد سيطروا فيها على شعوب آسيوية ـــ يسمونهم اليوم باسم الـ proto-hittites ، من دون أن يغيّروا اسم البلاد . وهم هنود ـــ أوروبيـون يطلقـون عليهم اسم الحثيين .

ونجد لديهم مخلفات أو بواقي طوطمية محتملة ، مثل : الثيران الإلهية ، والثعابين المقدَّسة .

وكانت الألوهية الأساسية إلَهة ، هي الإلهة الشمس ، آرينا ARINNA (ملكة Hatti) التي كان زوجها إله العاصفة .

(٢٢) إن الاكتشاف الذي تم على يد الفرنسي شانتر Chantre ، ونعني به اكتشافات رقيمات مسمارية في خرائب العاصمة القديمة Hattous في بوغازكوي في كابادوشيا ، دفع بالألماني winckler ، إلى القيام بحفريات في موضع Hattous في بوغازكوي في كابادوشيا . وهذه الحفريات التي تمت بين ١٩٠٦ و ١٩٣٥ ساهمت في التعريف بشكل أوضح ، بالحثيين .

وعندما أوّلوا أو شرحوا بعض النحوت الحثية، اعتقدوا، أنهم اكتشفوا فيها نموذج أو مثال الألوهيات الفريجية، مثل: سيبيل Cybéle وآتيس Attis، وكذلك ما يشبه ديونيزوس Dionysos، وافترضوا أن الفريجيين كانوا قد جمعوا، حول هذه النقطة، جملة التراث الديني للحثيين(٢٣).

....

وعلى كل حال، فإن الفريجيين PHRYGIENS يستقرون في الحتي Hatti، تبعاً لاندفاع جاء من أوروبا، في بداية القرن الثاني عشر ق.م، بعد الاستيلاء على طروادة الذي تم حوالي عام ١١٨٠.

وكانت عبادتهم الرئيسية هي عبادة ألوهية نسوية، أي الإلهة الأم Cybéle وابنها أو حبيبها آتيس (أو حتيس). فيموت حتيس؛ فتبكي الأم حزناً عليه، وتمضي للبحث عنه. ثم إن الإله الشاب يبعث حياً. ولهذا يحتفلون، خلال أسبوع مقدّس، في نهاية آذار، بعذابه وانبعاثه، كرمز للنبات الذي مات، ثم عاد فظهر من جديد.

والعادة أن الكهنة، الغال galles يخصون: وخلال الحماسة التي ترافق الاحتفال الدموي، نراهم يقطعون عضوهم المذكر ويرمونه أمام تمثال الإلهة. ثم يلبسون ثوباً نسوياً، ويقلدون أوضاع المرأة وحركاتها. ويكون رئيسهم نوعاً من «البابا» نسميه بالأرشي غال Archigalle(٢٤).

وكان هنالك أيضاً في فريجيا نوع من العبادة، خاص بديونيزوس، إله الخمرة والسكر، وكان فيها مجال لما نسميه اليوم «بالمنكرات، أو العهر الجماعي».

ثم إن فريجيا استقبلت الميثرائية، فيما بعد، بالترحاب، لأنها رأت فيها ديناً غنياً بالأسرار، يعد بالخلود.

....

(٢٣) انظر سوديربلوم، موجز تاريخ الأديان، ص: ٢٠٨ــ٢٠٩.

(٢٤) في نفس المكان الذي نجد فيه الفاتيكان اليوم، كان يوجد من قبل Phrygianum (رئيس الديانة الفريجية) حيث كان يقوم كاهن كبير، يلبس ثوباً فخماً، بإقامة الشعائر التقليدية، على شرف سيبيل وحاتيس، خلال أسبوع مقدّس.

وعلى الشاطئ الشرقي للمتوسط، بين جبل كاسيوس Cassuis والكرمل، في شمال فلسطين، كان قد استقر شعب من أصل سامي، هو الشعب الفينيقي(٢٥). وكانت مرافئه، صور وصيدا، وبيبلوس، مزدهرة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

ويستفيد الفينيقيون من قضاء الدوريين Doriens على الأمبراطورية البحرية الآخية ـ الميسينية لكي ينتشروا في البحر المتوسط كله، ويؤسسوا مراكز تجارية ومستعمرات، أهمها كان مدينة قرطاجة.

وكانت ديانة قرطاجة وثيقة العلاقة بجارتها الجنوبية فلسطين، التي يقال إن الفينيقيين جاؤوا منها ـ وهي ديانة سندرسها في الفصل التالي(٢٦).

وتتجه العبادة إلى آلهة محلية، بعضها مذكر باسم بعل (وجمعها بعاليم Baalim أو EL، وأحياناً ملك(٢٧)) أو آدون (سيد)، والقسم الآخر مؤنث باسم بعلات أو ميلكات (ملكات) أو آشتوريل Ashtorel أي Astarté(٢٨). والبعل والبعلة يؤلفان زوجين، ينشأ عن اتحادهما، الخصوبة والحياة.

أما إله بابيلوس، آدونيس «فهو صياد شاب أحبّته آستارتي؛ وقد قتله في الصيد خنزير بري، وبكته حبيبته؛ ثم بُعث حياً(٢٩).

وفي قرطاجة، تألف الزوج الإلهي من بعل هامان وتانيت Tanit، وهي إلهة لعلها من أصل أفريقي شمالي، اتخذت فيها بعد سمة بونيه punigue أو لنقل فينيقية.

وكانت الآلهة تطالب بأوائل المنتجات من كل شيء. وهكذا يعلّلون، تبعاً لبعض

---

(٢٥) تمت حفريات سعيدة بدءاً من عام ١٩٢٩ في أوغاريت، أي رأس شمرا القديم، ومنها اطلعنا على أدب ديني يعود إلى منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

(٢٦) ومن هذه الكلمة نشأت كلمة Moloch (وهو إله العمونيين).

(٢٧) يبدو أن الكلمة Ishtar، كانت تلفظ عشتار، ومنها جاءت الكلمة الفينيقية آشتوريل Aahtorel والكلمة الإغريقية Astarté.

(٢٨) يرى سالومون ريناخ في آدونيس خنزيراً برياً مقدّساً، تعبده قبيلة من النساء، كن يأكلنه مرة في السنة، كطعام للمناولة، وبعد ذلك كن يشترين خنزيراً آخر.

(٢٩) وعلى كل حال، فإن تانيت هي الصورة الأفريقية لأستارتي (عشتار) الفينيقية. وإليها تعود إشارة Tanit، أي المثلث أو المربع المنحرف الذي توضع فوقه شحطة أفقية.

الشهادات، أن الناس كانوا يضحون لهم بأبكار المواليد. وقيل أيضاً إن الفينيقيين كانوا يضحون جماعياً بالأطفال للتكفير عن آثامهم، وقبل القيام بحملة استعمارية أو عسكرية(٣٠).

وتأثر الفينيقيون، دينياً وفنياً، بالشعوب المجاورة التي كان هؤلاء البحارة والتجار ينشئون معهم بعض العلاقات. وإليك هذا الحادث الغريب الذي يشهد على ذلك: فهنالك قبر لملك فينيقي معاصر لرعمسيس الثاني، يُمثّل هذا الملك، وعليه رداء مصري، أمام منصّة للقرابين؛ وكانت أسود من النوع الموجود ما بين النهرين، تحمل النعش الذي يحتوي بعض الخزف، وشيئاً من العاج الميسيني. وعلى هذا النعش نفسه وُجدت الحروف الفينيقية الأولى(٣١).

....

وفي الألف الثانية، نجح الفينيقيون بتحليل الأصوات المقطعية التي كانت مستخدمة في الكتابة الهيروغليفية، والكتابة المسمارية(٣٢)، وميّزوا فيها بين الحروف الصوتية وحروف المدّ. ومن هذه الكتابة نشأت الألفباء الإغريقية والألفباءات الحديثة(٣٣). ويفترض هذا الاختراع قدرة رائعة على التحليل، شبيهة بتلك التي برهن عليها الصيداوي موسكوس Moschos، عندما أنشأ الفرضية الذرية(٣٤).

والألفباء الفينيقية، والأفكار ذات الأصل الميزوبوتامي (أرض ما بين النهرين) المعروضة سابقاً(٣٥) هي التي تمثل العطاء الثمين الذي قدّمته آسيا الغربية، المغمورة بالروح الدينية، للحضارة العالمية.

(٣٠) سوديربلوم. كتابه المذكور آنفاً، ص: ١١٥ — ١١٦. سالومون ريناخ، Orpheus، ص: ٦١ — ٦٢. ويتساءل هذا الأخير عما إذا لم تكن القصة كلها، في أغلب الأحيان، نوعاً من الكوميديات الشعائرية، أو مجرد تمثيل شكلي. غير أن الشعائر الوحشية المنسوبة إلى شعب ما، أو طائفة دينية معيّنة، لا تذكر إلا من قبل الأعداء (ص: ٦١ — ٦٢). وتتعارض هذه الحجة الكريمة، مع بعض المشاهدات الفعلية (انظر ما سيلي عند البحث عن الديانة اليهودية.

(٣١) انظر Delaporte، كتابه نفسه، ص: ١٧٧.

(٣٢) وهي كتابة مؤلفة من خطوط صغيرة، شبيهة بالمسامير. دولابورت، ص: ٦١.

(٣٣) دولابورت. نفس المصدر، ص: ١٧٨ — ١٧٩.

(٣٤) تبعاً لصولون سترابون SOLON STABON، المستشهد به من قبل ماسون — ورسيل، ص: ٢٩، تفسر الفرضية الذرية المادة بتجمع عناصر فردية لامتناهية الصغر، هي الذرات.

(٣٥) انظر ص: ١٣٩، أي ما قبل صفحتنا هذه بقليل.

الفصل التاسع

اليهودية

هذه الديانة هي ديانة الإسرائيليين ، أو اليهود[١] ، أو العبرانيين . ويُصنّف الإسرائيليون بين الشعوب الساميَّة الغربية[٢] .

وتقتضي دراسة الديانة اليهودية ، أن نتساءل عما كان عليه الوضع الديني في فلسطين ، قبل تسلّل الإسرائيليين إليها ، ووضع هؤلاء ، قبل استقرارهم في فلسطين ؛ وهذا يعني أن نستعرض نشاط موسى وخلفائه ، ثم نشاط الأنبياء وتأثيرهم ؛ كما يعني تحليل معتقدات الشعب ، في تلك الحقبة التاريخية ؛ ثم إنها تعني ملاحظة تطور إسرائيل ، منذ ظهور المسيحية حتى أيامنا هذه .

....

(١) إسرائيل تعني : الإله يحارب أو قوي ضد الإله . وهذا هو الاسم الذي أطلق على يعقوب بعد مصارعته مع البطريرك (العهد القديم ، في سفر التكوين ، الفصل الثاني والثلاثون) . ثم إن القبائل الاثنتي عشرة اتخذت الاسم الجمعي ، اسم الإسرائيليين (سفر الخروج ، ٣ ، ١٦) واحتفظت به ، تلك القبائل التي شكلت ، بعد سليمان ، مملكة الشمال أو إسرائيل — أما كلمة العبراني التي تطلق على الأشخاص واللغة معاً ، فقد نشأت عن كلمة عبري (أي الأشخاص الموجودين بعيداً) ، واستخدمها الكنعانيون للإشارة إلى المهاجرين الذين جاؤوا من الضفة الأخرى للنهر . وأما كلمة اليهودي (وهي جيهودي بالعبرية) ، فكانت تطلق على سكان مملكة الجنوب أو مملكة جودا ، قبل إطلاقها على الشعب بكامله . وقد قبلت هذه الكلمة للإشارة إلى الأفراد ، بدءً من العهد الإغريقي — الروماني .

(٢) انظر ما سبق ، في بحث أديان آسيا الغربية .

وهناك كتاب قديم نسبياً ، ولكن من المفيد والممتع أن نقرأه ، ونعيد قراءته ، أو نتصحفه على الأقل . وذلك لأن مؤلفه يتميّز بذكاء عجيب ، غريب ـــ وهذا الكتاب هو تاريخ شعب إسرائيل ، لارنست رينان (١٨٢٣ ـــ ١٨٩٢)[٣] . ويمكن أن نضيف إليه المعطيات الأكثر حداثة ، التي جاءنا بها آدولف لود Adolphe Lods ، في كتبه المختلفة ، وأهمها : (إسرائيل ، من الأصول حتى القرن الثامن عشر) ثم (من الأنبياء حتى المسيح) .

....

والوثيقة الأصلية حول اليهودية هي الكتاب المقدّس لبني إسرائيل ، أي العهد القديم (التوراة) ـــ أما كلمة العهد Testament فقد أدخلتها الكنيسة المسيحية ؛ وهي ترجمة سيئة لكلمة التحالف Alliance : والقضية هنا قضية التحالف بين الله والإنسانية ـــ أما العهد القديم نفسه فهو القسم الأول ، من التوراة[٤] التي يطلق على قسمها الثاني اسم العهد الجديد المسيحي .

وقد كتبت أجزاء العهد القديم بالعبرية ، مع بعض الأجزاء ، باللغة الآرامية . وكانت هذه اللغة عظيمة الانتشار في الشرق الأدنى الآسيوي .

ويطلق اسم قانون العهد القديم (Canon) على المجموعة الرسمية التي تضم جملة الكتابات التي فيه . وقد كتبت الطبعة التقليدية التي يطلق عليها اسم الماسوريتيك MASSORETIQUE ، بالعبرية بين القرن السابع ، والقرن العاشر ب . م . وهي تؤلف ما يسمى بالقانون اليهودي[٥] ، وتشتمل على الكتب التي كان الكنيس يملك نصّها العبري حوالي القرن الأول ب . م . أما أكثر النصوص فقد ترجمت حول العام ١٥٠ ق . م إلى الإغريقية لحساب يهود مصر الذين كانوا يجهلون العبرية ؛ وتعزى هذه الترجمة إلى مجموعة من سبعين شخصاً ؛ ومن هنا جاء التعبير : ترجمة السبعين Traduction des Septante (وبهذه الصورة تذكر مقاطع العهد القديم ، في الأناجيل) . وهنالك أيضاً قانون كاثوليكي روماني ، مؤسس على التوراة اللاتينية ، ويسمونها الفولكات La Vulgate (وقد أنهيت حوالي العام ٤٠٠ ب . م) وقانون بروتستانتي . وتشتمل هذه القوانين على بعض الاختلافات .

---

(٣) Paris, Calman-Lévy, 5 vol; 1887-1893 .

(٤) وقد جاءت هذه الكلمة من كلمة Biblia أو الكتب ، أو الكتب المتميزة

(٥) وكلمة القانون جاءتنا من كلمة إغريقية ، تعني القاعدة .

فالقانون اليهودي، كالقانون البروتستانتي، لا يقبل ببعض الكتب المقدّسة التي يقبلها القانون الكاثوليكي، مثال ذلك كتب Tobie وكتب جوديث Judith .

«وما من نسخة خطية أصلية للتوراة حفظها لنا التاريخ؛ (بعض الأجزاء العبرية النادرة القديمة، اكتشفت حديثاً(٦)). وأقدم المخطوطات التي نعرفها للتوراة العبرية، ليست بسابقة للقرن العاشر بعد الميلاد. ولكننا نملك مخطوطات أقدم، مثل الترجمة الإغريقية، والترجمة اللاتينية. ويجب كذلك أن نذكر الترجمة السريانية (Peschitto) وهي نص بسيط، ويظن اليوم أنها بُدئت في أواخر القرن الثاني ق . م، والترجمة الغوطية gothigue التي قام بها الأسقف ULPFILAS (في القرن الرابع بعد الميلاد)(٧) .

وهناك (بين كل هذه الوثائق) عدد كبير من الاختلافات، ولكنها بدون نتائج خطيرة لفهم النص(٨) .

وكانوا في بداية العهد المسيحي يميزون في العهد القديم، بين القانون أو الشريعة (أو التوراة)، والأنبياء، والكتابات الأخرى، أو الهاجيوغرافية. (وكلمة Hagiographes تعني الكتاب المقدّسين).

وكان القانون يشتمل على خمسة كتب تعزى إلى موسى، وهي: التكوين والخروج، والأحبار، والعدد وتثنية الاشتراع. وكان الأغارقة يسمون هذه المجموعة باسم البانتاتوك (المجلدات الخمسة). ولكن يضاف إليها اليوم سفر آخر، هو سفر يشوع Josué، ويشار اليوم باسم الأسفار الستة (الهكساتوك)، إلى القسم الأول من العهد القديم.

ونجد في العهد القديم أيضاً: كتب الأنبياء، ونصوصاً مختلفة أخرى: فهناك مجموعة أغان

---

(٦) انظر Delaporte, Le Proche-Orient asiatique, P. 18 .

(٧) حذف هذا الأسقف قصص كثير من الحروب، لأنه رأى أن القوطيين ليسوا بحاجه لمثل هذه الأمثلة. سالومون ريناخ Orpheus، ص: ٢٥٢ .

(٨) أساء التراجمة الأغارقة فهم معان كثيرة في المقاطع الصعبة من النص العبري. بل إن القديس جيروم فعل مثلهم في الـ Vulgate، وهو عمل جليل، رغم أخطائه. وقد اعتبر أصيلاً من قبل مجمع Trente، ويقام له أكبر الاعتبار في الكنيسة الرومانية. انظر ريناخ في كتابه الآنف الذكر، ص: ٢٥٢ .

جميلة للحب، ونشيد الإنشاد؛ والمزامير الرائعة غالباً، وكتاب الأمثال، وسفر Job أيوب، وسفر الجامعة l'Ecclésiaste[٩].

....

كثيرون هم الناس الذين رأوا، ولايزالون يرون في الكتاب المقدّس le bibile، كلام الله. ثم إن مجمع ترانت، عام ١٥٤٦، حرّم الشك بالوحي الإلهي الموجود في البيبل Bible، بما في ذلك العهد القديم. ثم إن الكنيس اليهودي، ومختلف الكنائس المسيحية، متفقة على القول إن الكتاب المقدّس (البيبل) قد أوحي به من الله مباشرة، أو أنه «من إلهام الله». ويقترح بعض الناس أن يقصر هذا الإلهام على ما يتعلق بالدين والأخلاق؛ لكن الكنيسة الكاثوليكية طرحت هذه الفكرة.

ومنذ القرن السابع عشر، لفت الفيلسوف اليهودي الكبير سبينوزا، (١٦٣٢ ـــ ١٦٦٧) في مطوّله اللاهوتي والسياسي، عام ١٦٧٠، لفت النظر إلى التناقضات الكثيرة الموجودة في البيبل، وكان يسخر من الأحبار الذين يدّعون أن هذه التناقضات ظاهرية.

ثم إن واحداً من كبار الرواد، هو الخطيب ريشار سيمون، يقرّر في كتابه: التاريخ النقدي للعهد القديم (١٦٧٨)، أن الأسفار الخمسة الأولى، المعزوّة إلى موسى، والتي يتناول الحديث فيها موته هو أيضاً، لا يمكن أن تكون من صنعه.

وفي القرن الثامن عشر، يبرهن الطبيب الفرنسي Jean Astruc بصورة واضحة جداً على فرضية ذات أهمية أساسية، وُجد من أشار إليها من قبل، وهي تقول إن كاتب أو كتّاب الأسفار الخمسة قد خلطوا بين نصيّن مختلفين دون صهرهما معاً: أي النص الذي يطلق فيه اسم إلوهيم على الله (و Eloh'، تعني الروح؛ وإلوهيم جمعها، أي مجموعة الأرواح ذلك أن الفعل الذي يتبع هذا الجمع ورد في صيغة المفرد)؛ والنص الآخر الذي يطلق فيه اسم يهوه أو يهوي Iahvé (أي هذا الذي هو كائن)[١٠].

---

(٩) ويمكن الكلام على ترجمات حديثة نسبياً مثل ترجمة الأب Crampon ١٩٢٣، الكاثوليكي والتوراة المقدّسة (البروتستنتانية)...

(١٠) إن اللفظ الصحيح يتم بشكل أفضل عن طريق كلمة يهفى، لا عن طريق كلمة جهفى الكثيرة الاستعمال. وكان لفظ جيهوفاه المستعمل منذ القرن السابع عشر، خطأً.

أما النص الذي يسمى باسم الإيلوهيست فيشتمل على الفصل الأول من سفر التكوين، وعلى الآيات الأولى من الفصل الثاني. وأما النص الثاني اليهوي أو اليهفي، فإنه يبدأ من الآية الرابعة من الفصل الثاني.

وهكذا نفهم تلك الفروق التي تلاحظ في الروايتين. فخلق الإنسان يتبع خلق النباتات في النص الإيلوهي، ولكنه يسبقه في النص اليهفي. ـــ فإلوهيم، إذ خلق الإنسان على صورته، خلق في الوقت نفسه «الذكر والأنثى» (١، ٢٧). يهفي يخلق الرجل أولاً (١١ ـــ ٧) ثم يعلن «أنه ليس من الخير أن يكون الرجل وحده؛ وإذن فسأجعل له عوناً يناسبه[١١] (٢، ١٨) وبنى الرب الإله من الضلع التي أخذها من آدم، امرأة، فأتى بها آدم (٢، ٢١ ـــ ٢٢) ـــ وبصورة خاصة، فإن النص الإيلوهي لا يقول شيئاً عن خطيئة آدم، الموجودة في النص اليهفي فقط. ومن الملاحظ أن خطيئة آدم هذه، التي يبني القديس بولس عليها نظريته في خلاص البشر، غير واردة لا في سفر الأنبياء ولا في سفر المزامير، ولا في الأناجيل[١٢].

لكن الطريقة التي دشّنها ASTRUC تبناها بعده نقاد كثيرون. «وقد انتهى هذا الجهد العظيم إلى بعض النتائج المقبولة، في خطوطها الكبرى، بما يشبه الإجماع»[١٣].

وقد وصل هؤلاء النقاد إلى التمييز، في الأسفار الخمسة، بين ما وجدوه في المدرسة الإيلوهية، ثم في المدرسة اليهفية، ثم في مدرسة ثالثة، هي التي يعود إليها محتوى الدويترونوم أو سفر التثنية.

وقد سميت لهذا السبب باسم المدرسة الدويترونومية، ثم في مدرسة رابعة، سميت مدرسة الأحبار école de prêtres، وهي تهدف إلى تقنين وتنقية الأعراف القديمة، وتسمى أيضاً، المدرسة الكهنوتية[١٤].

---

(١١) انظر أصول هذه الآيات في سفر التكوين، في الفصل الأول والثاني خاصة.

(١٢) ويمكن أن نلاحظ أيضاً خصائص مختلفة للفصول الأولى من سفر التكوين. فحواء تطلق اسم الله بعد ولادة قايين وقابيل؛ غير أن اسم الله لا يجب أن يكون قد عرف إلا في الجيل الثالث. وعندما قتل قايين، قابيل (أو هابيل)، قال: «أي إنسان سيجدني، سيقتلني». على حين أنه لم يكن هنالك إنسان آخر على الأرض غيره.

(١٣) Lods, Israël, des origines au milieu du 8e siècle, P. 13.

(١٤) المصدر نفسه أيضاً. انظر ص: ١٤ ـــ ١٥. ومن المتفق عليه أن يشار إلى النص الإيلوهي بالحرف E، وإلى النص اليهفي بالحرف J، النص الدتيرونومي، بالحرف D، وإلى النص الصادر عن الأحبار بالحرف P، وتشتمل

وتشتمل أسفار الأنبياء، على مقاطع أضيفت فيما بعد، إلى جانب مقاطع صدرت عن الأنبياء أنفسهم.

أما الأعمال الأخرى فقد نشأت عن مختلف المؤلفين من غير الذين تعزى إليهم تقليدياً.

وعلى سبيل المثال فإن نشيد الإنشاد، بالتأكيد، ليس من عمل سليمان.

وهكذا فإن النقد التاريخي يقرِّر أن الكتاب المقدَّس اليهودي، ليس بمختلف جوهرياً عن النصوص المقدَّسة في الأديان الأخرى: وكهذه، فإنه عمل إنساني(١٥).

وتتيح لنا بعض مقاطع العهد القديم المؤولة تبعاً لمعطيات النقد الحديث، أن نحزر كيف كانت فلسطين ــ أو كما يقولون، أرض كنعان، قبل وصول الإسرائيليين. ويُستخدم عادة في ذلك جملة الوثائق الأثرية، والمكتوبة، المكتشفة خلال الحفريات التي بدأت منذ عام ١٨٩٠ في فلسطين، وكذلك في الأرض الفينيقية، من حيث أن البلدين كانتا في مستوى حضاري واحد، كما أن الفينيقيين يعتبرون اليوم من أصل كنعاني.

وكانت فلسطين، على ما يبدو، مسكونة من قبل شعب نشأ فيها أصلاً؛ ثم غزتها بعض القبائل من أصل سامي، واستقرت فيها. وجاءتها بعد ذلك جماعاتٌ إنسانية أخرى: مثال ذلك الفيلستان أو الفلسطينيون الذين يظن أنهم إيجيون طُردوا من شواطئ جزر بحر إيجة.

وقد وجدت في فلسطين بعض الآثار الطوطمية، المحتملة(١٦) إذ كانت هنالك قبائل وجماعات تحمل أسماء حيوانية (كالجحش، والغنم، والأسيد، والضبع، والغزالة، والحدأة)(١٧).

الطبعة التالية للبيبل على هذه المصطلحات على هامش التعليمات فكاتب أو كتاب الأسفار الخمسة، ما داموا يستخدمون مصادر مختلفة فإننا نفهم لماذا احتوت كتاباتهم على تكرارات وتناقضات. فبغض النظر عن تلك التي لوحظت من قبل، فإن المشهد الذي يتحدث عن امرأة بطريرك اختطفت إلى دائرة الحريم لدى أمير غريب، ثم أنقذت بأعجوبة، وُجد ثلاث مرات في سفر التكوين (١٢ ــ ٢٠ ــ ٢٦). ثم إن بلاد كنعان كانت تهيمن عليها بعض القبائل تارة، خلال أحد الأجيال، وأحياناً، غريب ما استولى عليها شيئاً فشيئاً من على يد بعض هذه القبائل.

(١٥) لا نظن أن الحديث يصح على القرآن الكريم، كما يصح على غيره من الكتب المقدَّسة التي حُوِّر فيها، وبُدِّل، ولو في التفاصيل، ــ المترجم.

(١٦) رأينا سابقاً أن الإنجليزي روبرتسون سميث، توسع في فكرة الطوطمية لدى الساميين القدماء.

(١٧) سفر التكوين ٣٣ ــ ١٩ والسفر ٣٦ ــ ٢٠ ــ ٣٠، والقضاة ٩ ــ ٢٨ وحول الحياة الدينية قبل مجيء اليهود، انظر Lods، كتابه الآنف الذكر، ص: ٩٥ وما بعدها.

وكان الكنعانيون يتقيدون ببعض الحرمات الغذائية: فمنذ العهد التاريخي، كانوا يمتنعون عن أكل الخنزير، المنظور إليه كأنه ملوّث أو مقدّس، وعلى كل حال فهو من المحرّمات، على حين أن هذا الحيوان كان يستهلك بحرية في الأزمنة السابقة للساميين.

وكانت الإحيائية تدفع إلى الاعتقاد بأن بعض الأشياء مقدّسة، كالجبال (مثل حرمون، والكرمل)؛ والينابيع؛ والأنهار؛ والحجارة التي أولّوها تأويلاً قضيبياً، وهو تأويل غير مقبول لدى الكثيرين؛ والأشجار (كشجرة الكهنة العرافين، قريباً من شكيم Sichem).

وكان هنالك أماكن مقدّسة، مزينة بأشياء مقدّسة. وسفر تثنية الاشتراع، الذي يأمر بهدمها، يصفها وصفاً صادقاً:

«تقوضون جميع المواضع التي كانت الأمم التي أنتم وارثوها، يعبدون فيها آلهتهم، على الجبال الشامخة، والتلال، وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون غاباتهم بالنار، وتحطّمون منقوشات آلهتهم، وتمحون أسماءهم من ذلك الموضع»(١٨).

«ولقد استخرج من أرض غيزر Guézer، أو نُفِض الترابُ عن مكان مقدّس يتألف من تتابع ثماني مِسَلّات ما تزال قائمة. وحول هذه المسلات، وجدت جرارات عديدة تحتوي على هياكل عظمية لأطفال رضّع، ما منها واحد، باستثناء اثنين، يزيد عمره، كما يبدو، على ثمانية أيام. وهذا العمر الواحد للرضّع يوحي بأنهم قدّموا كأضاحٍ للمكان» ومثل هذه الاكتشافات دليل على صحة الفرضية القائلة «بأن الأضاحي البشرية، ولا سيما ذبح الأطفال، كانت واحدة من السمات المميّزة للديانة الكنعانية»(١٩).

«كانوا يذبحون ضحايا بشرية عندما كانوا ينشئون بيتاً جديداً. وكانت الغاية، إما أن نضمن للبناء حامياً روحياً، أو حارساً حريصاً، هو روح الضحية، وإما أن نهدئ شيطان المكان (أو الجنيّ الساكن فيه) الذي نتجاوز على أرضه(٢٠)».

---

(١٨) سفر القضاة، ٩ــ٣٧. سفر تثنية الاشتراع، ١٢ــ٢ــ٣.

(١٩) انظر Lods، في كتابه الآنف الذكر، ص: ١١٢ــ١١٣. وانظر مثلاً، سفر تثنية الاشتراع، ١٢ــ٣١ و ١٨ــ٩ــ١٢.

(٢٠) انظر لود، في المصدر نفسه، ص: ١١٣.

وكان الموتى يحرقون على يد الشعوب الأكثر بدائية، قبل مجيء الساميين الأوائل، الذي يعينون تاريخه في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد. ثم صاروا يقبرونهم. أما الاعتقاد بخلود الموتى، فأمر تشهد عليه القرابين التي يقدمونها لهم.

وكانت الإحيائية، كما هي العادة، مصحوبة بالسحر.، ولقد وجدوا أشياء صغيرة كانت تستخدم كتمائم: كالحلي الحمراء اللون ــ لون الدم، السائل الحيوي ــ والحلي الزرقاء (باعتبار أن اللون الأزرق وسيلة تجانسية homéopathique لدفع الأثر السيئ. للعيون ذات الحدقة الزرقاء، الشريرة بشكل خاص).

ولكن الإحيائية، على احتفاظها بتأثير ضخم، انتهت إلى ديانة عديدة الآلهة. وكانت عبادة الكنعانيين، حين دخول العبرانيين إلى بلادهم، تتجه إلى من هو من قبيل بعل وعشتار[٢١].

وكان البعول آلهة محلية، مثال ذلك بعل زيبود ZEBOUD، سيد الذباب، لأن دوره قد يكون في طردها[٢٢]. وكان يجب أن يكون الكثير من هذه البعول حراساً (من الجن؟) لينبوع ينشر الخصب، كما لو أنهم حماة المزارعين.

أما العشتارات «فكانت في الحقيقة، مظاهر مختلفة لمبدأ الخصب... وفوق ذلك فإن هذا الاسم كان قد أصبح نوعاً من الاسم العام، المرادف لكلمة الإآلهة»[٢٣].

وكانت ألوهيات كثيرة تعبد فقط، في بعض المناطق؛ مثال ذلك داغون Dagon، إله القمح، وهو إله محلي تبناه الفلسطينيون الإيجيون.

وعندما وصل الإسرائيليون إلى بلاد كنعان، فوجئوا بلا أخلاقية الكنعانيين: من حيث عدم احترامهم للأبوين والأقرباء، وتضحيتهم بالأطفال، وقلة الحياء، والعهر، وممارسة اللواط. ويدين سفر اللاويين (الفصل ١٨، الآية ٢٧ ــ ٢٨، والفصل العشرون، الآية ٢٢ ــ ٢٤) هذه الممارسات البغيضة[٢٤].

---

(٢١) سفر القضاة، الفصل العاشر، الاية ٦. صاموئيل، الفصل ٧، الآية ٤ والفصل ١٢، الآية ١٠.

(٢٢) ومن هنا جاء اسم الشيطان المشهور بيلزيبوب.

(٢٣) لود، في كتابه المعروف، ص: ١٥١.

(٢٤) ويمكن أن نذكر أيضاً تلك القصص المتصلة بولد من أولاد نوح (سفر التكوين، ١٠، ٢٠ ــ ٢٧) في سدوم وعمّورة Gomorrhe سفر التكوين، ١٢، ١٣ و١٨، ٢٠ ــ ٢١) والفصل التاسع عشر.

بيد أن الإسرائيليين الذين دخلوا بلاد كنعان، كانوا، من نواح أخرى، قريبين جداً من الفلسطينيين الذين كانوا سيختلطون بهم.

...

وكثيراً ما يسمى الإسرائيليون، قبل استقرارهم في فلسطين باسم العبرانيين السابقين لموسى. ويفترض أن الكثير من أعرافهم ومعتقداتهم كان ينبغي أن تشبه مثيلاتها لدى العرب السابقين للإسلام[٢٥].

وكان هؤلاء العبرانيون السابقون لموسى، ساميين بداة، يعيشون تحت الخيام، ويربون الحيوانات. وكانوا منقسمين إلى قبائل، والقبائل منقسمة إلى عشائر، كل منها يتألف من مجموعة أسر.

وكان النسب العائلي موصولاً بالمرأة: وكان الأطفال ينتسبون إلى عشيرة الأم. وكثيراً ما كانت المرأة تبقى عند أهلها، وكان زوجها يأتي لزيارتها موقتاً[٢٦]. وعلى كل حال، فقد كانت المرأة هي التي تملك الخيمة[٢٧] التي يأتي الرجل ليساكنها فيها: وهكذا يفسّر النص اليهفي (سفر التكوين، الفصل الثاني، ١١ ــ ٢٤) القائل: ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلازم امرأته فيصيران جسداً واحداً.

وفي عهد قديم جداً على الأرجح، وسابق لانفصال مختلف فروع العرق، بعضها عن بعض، تحوّل النسب من المرأة إلى الرجل.[٢٨] وأصبحت الجماعة من النوع الأبوي. وعندئذ تصبح المرأة ملك زوجها. وكان في وسع الأب، في الأزمنة القديمة، أن يحكم على أولاده وأصهاره،

---

(٢٥) انظر فيما بعد، ص: ٢٤٩ ــ ٢٥٠ وحول التنظيم الاجتماعي للحياة الدينية للعبريين ما قبل موسى. انظر Lods، كتابه نفسه، ص: ٢١٦ وما بعدها.

(٢٦) مثال ذلك أن موسى كان متزوجاً بامرأة مدينية، بقيت في بلادها مع أبنائها (الخروج، ٤، ١٨؛ ١٧، ٣ــ٦).

(٢٧) التكوين: ٢٤، ٦٧، ٣١، ٣٣ والقضاة: ٤، ١٧، وراعوث: ١، ٨، نشيد الأناشيد: ٣، ٤.

(٢٨) وينشأ عن ذلك أن قرابة قريبة جداً من ناحية الأب لم تكن مانعة من الزواج؛ فإبراهيم تزوج أخته غير الشقيقة سارا، ابنة الأب نفسه، ولكن لا من الأم نفسها (التكوين: ٢٠، ١٢).

وأحفاده، بالموت[٢٩]. ثم حُدَّ من هذا الحق بتأثير القانون[٣٠]. ولكن الأب يحتفظ مع ذلك بإمكان بيع أولاده وبناته كعبيد[٣١].

....

ويعتقد أعضاء القبيلة أنهم جميعاً من الدم نفسه؛ ويدعو كل منهم الآخر باسم: الأخ، ويقيمون وزناً كبيراً لنقاء الدم[٣٢].

وكان الانتساب إلى القبيلة يتم عن طريق «الختان» الذي يجعل من الفتى ذكراً صالحاً للزواج. وكانت الكلمة الدالة على الخطيب، تعني «المختون». ونلاحظ في سفر التكوين (في الفصل ٣٤) أن أبناء يعقوب يفرضون هذه الشعيرة على أمير كنعانيٍّ يرغب في الزواج من أختهم. وكان الختان يتم أول الأمر في عمر المراهقة؛ وفيما بعد صاروا يقومون به منذ الطفولة.

وكان الختان إحدى الشعائر القديمة، وسابقاً، على الأرجح، لعصر البرونز؛ ذلك أن العبرانيين كانوا يستخدمون في القيام به، سكاكين من الحجر. ويبدو أن هذه العادة القديمة الأفريقية جاءت من مصر، وتبناها العبريون، بحكم الاحترام الإنساني، خوفاً من احتقار المصريين. ثم إن الإسرائيليين استبقوها، تجاه الشعوب التي لم تمارسها قط، مثل الآشوريين — البابليين — والفرس. واتخذت هذه الممارسة، مع الأيام «سمة التميّز، الوطنية والدينية معاً». وككل العادات القومية الأخرى، اعتبرت كأمر من أوامر يهوه Yahvé؛ بل أصبحت علامة التحالف بين يهوه وشعبه[٣٣].

ولقد وُجد من يتساءل عما إذا كان المجتمع الإسرائيلي البدائيّ، المؤلف من قبائل وعشائر، قد كان أو لم يكن مجتمعاً طوطمياً، بالمعنى التام لهذه الكلمة. ويبدو أننا نكتشف لديه بعض الآثار

---

(٢٩) التكوين: ٣٨، ٢٤، ٦٢، ٣٧.

(٣٠) تثنية الاشتراع: ٢١، ١٨ — ٢١.

(٣١) الخروج: ٢١، ٧؛ نحميا، ٥، ١ — ١٣.

(٣٢) انظر لود، كتابه نفسه، ص: ٢٢٣ — ٢٢٤.

(٣٣) لود: كتابه نفسه، ص: ٢٢٨ — ٢٢٩. انظر سفر التكوين: ١٧ — ٢، ويشوع: ٥، وانظر سفر الخروج: ٤، ٢٤ — ٢٦؛ و١٢، ٤٤ — ٤٧ — ٤٩.

الطوطمية. فمن الجماعات من كان يحمل أسماء الحيوانات أو النباتات: مثل أبناء Léa (أي الظبي البقري) وراشيل (الغنم).

وكانت بعض الحيوانات غير الطاهرة، أو المقدّسة، والتي هي من المحرّمات على كل حال، مستبعدة من الطعام. وكان التمييز بين حيوانات طاهرة، وأخرى غير طاهرة شيئاً معروفاً لدى الكاتب اليهودي، أو اليهفي.(٣٤)

وكانت الطوطمية موجودة لدى العبرانيين قبل موسى. فهناك أرواح تسكن بعض الأشجار؛ وبعض الينابيع، وينابيع الواحات، العزيزة على البداة؛ وبعض الجبال، وسيناء خاصة. وكان جبل سيناء مغموراً بقوة شبيهة بـ «مانا» المالينيزيين (ويعتبر أن الكلمة العبرية el تترجم هذه الكلمة بدقة). واضطر موسى إلى إقامة حدود، حول قاعدته: والكائن الحي، من إنسان أو حيوان، الذي يجتاز هذه الحدود أو يتجاوزها، كان يجب أن يقتل عن بعد، بالحجارة أو السهام، حتى لا ينقل إلى الآخرين، ذلك السائل اللزج المقدّس، المميت لغير رجال الدين profanes(٣٥).

وكما هي الحال في كل الشعوب، السابقة لموسى كانت إحيائية العبرانيين مصحوبة بالسحر. فكانوا يؤمنون بالعين الشريرة، وبتأثير اللعنة، والتمائم. وأشربة العواطف، و«فواكه المحبة»(٣٦). وكانوا يمارسون السحر المقلّد. فيشوع josué يضمن النصر لجماعته بتسديده حربته نحو المدينة باستمرار، وكذلك يفعل موسى، عندما يمسك بعصا الرب في يده، موجّهة نحو العدو(٣٧). أما السحر الودي sympathique، فإنه يشرح أو يفسّر التحريم القديم الذي يوجب عدم طبخ الجدي بلبن أمه. «لأن ذلك يضاعف عذاب السخلة التي قدّمت اللبن، وولدت الجدي»(٣٨). وكانت

(٣٤) الخروج: ٧، ٢، ٣، ٨ و ٨، ٢٠. ويقول لود، بهذه المناسبة: هذه النواهي لم تكن مستلهمة لا من اعتبارات في حفظ الصحة، غريبة على الشعوب البدائية، ولا من أنفة تقليدية من أغذية مجهولة لدى الآباء. ذلك أن هذه النواهي كانت مختلفة جداً لدى العبرانيين عما كانت عليه لدى العرب. فالجمل الذي كان الطعام الأول لدى العرب، كان غير طاهر في نظر الإسرائيليين. ونحن هنا أمام حرمة، أو تابو، أي تجاه وسيلة لوقاية النفس من أخطار روحية، ضد أخطار ناشئة من عالم الأرواح. كتابه نفسه، ص: ٢٨٥ ـــ ٢٨٦.

(٣٥) سفر الخروج: ١٩، ١٢ ـــ ١٣، ٢١، ٢٤ ـــ ٣٤، ٣.

(٣٦) التكوين: ٣٠، ١٤ ـــ ١٦.

(٣٧) يشوع: ٨، ١٨، ٢٦، والخروج: ١٧، ٨ ـــ ١٣.

(٣٨) الخروج: ٢٣، ١٩ ـــ ٣٤، ٢٦. تثنية الاشتراع: ١٤، ٢١. لود: كتابه نفسه، ص: ٢٤٠.

هذه الحالة الذهنية، مهما أوغلنا في أعماق التاريخ، أحد من العناصر المكوِّنة للعقلية الإسرائيلية، وكذلك لعقلية الشعوب القديمة بصورة عامة(٣٩).

ويشارك الإسرائيليون، في العهد البدائي، في المعتقدات العامة، للإنسانية حول خلود الموتى، فالموتى يعيشون في عالم آخر اسمه الـ Cheôl؛ وكانوا يستمرون في الاهتمام بعاقبة ذريتهم. وفي راما Rama، مكان قبر راشيل، يستمع جيريمي (إرميا) إلى.

صوت بكاء وندب
وتفجع مر
إنه بكاء راحيل
تبكي على بنيها، ولا تقبل أي عزاء(٤٠)

ويقول إشعيا، إنه عندما هبط ملك بابل إلى ديار الموتى، استقبله هؤلاء بكلام لاذع، قائلين له: أُهبِطت عظمتك، وصوت عيدانك إلى الجحيم، تحتك بفرش السوس وغطاؤك الدود(٤١).

ثم إن الموتى يملكون قوة ومعرفة فوق ما عند الإنسان؛ إذ يصبحون أرواحاً، آلهة. وهذه هي الكلمة التي يستخدمها العهد العتيق، عندما يرينا صاموئيل SAMUEL الذي ذكره pythonisse بطلب من شاؤول(٤٢).

ويبدو أنه كان هنالك بعض العبادة للأسلاف أو الأجداد، ولا سيما للأبطال، والشخصيات الاستثنائية المزوّدة بمانا عنيفة بشكل خاص(٤٣).

وعلى حين أن الكنعانيين، المستقرين في الأرض، كانوا يعبدون بعولاً محليين، فإن العبرانيين البدو كانوا يعبدون آلهة، هم حماة الجماعات المتنقلة.

---

(٣٩) لود: كتابه نفسه، ص: ٢٤٩.
(٤٠) إرميا: ٣١، ١٥.
(٤١) إشعيا، ١٤، ٩ وما بعدها.
(٤٢) صاموئيل، ٢٨، ١٣. وانظر أيضاً إشعيا ٨، ١٩.
(٤٣) انظر لود Lods، كتابه الآنف الذكر، ص: ٢٦٤.

وكانت العبادة تشتمل على الأرجح، على الحركات، التي ظلّت قائمة بعد ذلك العهد التاريخي. إذ كان يجب، قبل الدخول في علاقات مع الكائنات الإلهية، أن يتطهر الإنسان، أي أن يغتسل، أو يغسل وجهه ويديه، ويمتنع عن معاشرة النساء، وأن يغيِّر ثيابه: ذلك أن الثياب تتشرّب القوى الروحية من المحيط؛ وربما حملت إلى الوسط المقدَّس فوحانات معادية، أو حملت إلى الوسط العادي شيئاً من السائل الإلهي الذي قد يكون خطِراً. وكان العبري، الذي يدخل إلى مكان مقدَّس مثل جبل سيناء، يخلع نعليه، ويتقدم مغطى الوجه، حتى لا يموت إذ يرى الآلهة.

وكانت العبادة، فيما عدا شعائر التطهر هذه، تشتمل على هتافات، ورقص، وأضاح، واحتفالات.

وكان ينبغي أن يكون عيد الفصح «عيداً سامياً قديماً». وكان ميعاده على الغالب، «ذلك اليوم الذي يضحى فيه بأوائل مواليد القطيع»(٤٤).

وهكذا كانت ديانة العبرانيين، عندما دخلوا بلاد كنعان. وكانت تشبه في كثير من النقاط ديانة الفلسطينيين*. وليس من الصعب أن نفهم أن العبرانيين كان يغريهم أن يتبنوا ديانة السكان المحليين، وأن الممثلين الأكثر تطوراً لديانة التوحيد، بين العبرانيين، كثيراً ما اضطروا لمحاربة العودة إلى ممارسات وتصورات قديمة.

....

وكان العبرانيون، قبل تسلّلهم إلى الأراضي الكنعانية، على اتصال وثيق ببابل، ومصر. ويبيِّن لنا سفر التكوين (الفصل ١٢) كيف أن إبراهيم ترك أور في بلاد بابل، ومضى منها، ماراً بأرض كنعان، إلى مصر. كما أنه يقص علينا قصة أحد أحفاد إبراهيم، الملقب باسم إسرائيل، الذي كان مقيماً في مصر مع أسرته، بحكم أن ابنه يوسف أصبح الوزير الأول لأحد الفراعنة. وفيما بعد، ذاق هؤلاء الاضطهاد، وأرغموا على السخرة، وصنع الآجر من أجل الأبنية الملكية، فضاقوا ذرعاً بذلك، وهربوا بقيادة واحد منهم هو موسى.

---

(٤٤) انظر لود Lods، كتابه الآنف الذكر، ص: ٣٣٦.

(*) يلاحظ أن المؤلف كان يفرق بين الديانتين، ويلح على السقوط الأخلاقي الذي كان يعيش فيه الكنعانيون. فهل الفلسطينيون يومئذ شعب آخر مختلف في السمو الأخلاقي عن الكنعانيين، وشبيه بالعبرانيين؟ — المترجم.

وتطلعنا التوراة على أن الطفل موسى، الذي رُمي به إلى النهر، أنقذ على يد بنت فرعون، وكبر في البلاط الملكي. ولما قتل أحد المصريين الذي كان يسيء إلى أحد اليهود، هرب، والتجأ إلى الصحراء، حيث ظهر له الله في غويبة حارة، وكلّفه بمهمة إنقاذ شعبه، وتأمين استقراره في الأرض المقدَّسة، بلاد كنعان. فترك الإسرائيليون مصر: وكان الخروج من مصر، تحت قيادة سحابة وعمود من النار. فدخلوا في الصحراء، وقضوا فيها أربعين سنة. ولما وصلوا إلى سيناء، تلقى موسى من ربه الشريعة، أو الوصايا العشر، التي كشف عنها لبني إسرائيل، قبل دخولهم إلى أرض كنعان.

والوصايا العشر التي تعزوها الأخبار القديمة إلى موسى، صفحة جميلة من الأدب الديني، جاء فيها ما يلي:

أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبودية — لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي — لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من أسفل، ولا مما في المياه من تحت الأرض — لا تسجد لهن، ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك، إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ — وأحيط بالرحمة ألوفاً من محبيّ وحافظي وصاياي — لا تحلف باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يزكي من يحلف باسمه باطلاً — أذكر يوم السبت لتقدّسه — في ستة أيام تعمل جميع أعمالك — واليوم السابع سبت للرب إلهك، لا تصنع فيه عملاً لك أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك — لأن الرب في ستة أيام خلق السموات والأرض والبحر وجميع ما فيها. وفي اليوم السابع استراح، ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه — أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك — لا تقتل — لا تزن — لا تسرق — لا تشهد على قريبك شهادة زور — لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك[٤٥].

....

ولقد تساءل بعضهم عما إذا لم يكن موسى شخصية خرافية. ذلك أن حياته تشتمل على كثير من التفاصيل الأسطورية، بدءاً من إلقائه في النهر[٤٦]. ومن جهة أخرى، فإن من المستحيل أن يكون هو مؤلف الوصايا العشر، في صورتها الحالية، لأنها تقتضي وجود شعب له عجول وثيران

(٤٥) سفر الخروج، ٢٠، ٢ — ١٧، وتثنية الاشتراع، ٥، ٦ — ٢١.

(٤٦) انظر ما سبق، ص: ١٥٥ أسطورة ساراغون الأول، المشابهة.

تعمل في الحقول، والبيوت، والأبواب، أي أن له مدناً مغلقة بجدران خارجية، وبالتالي فإنه شعب مقيم يعيش على الزراعة. وهي تحتوي أفكاراً وعبارات ذات خصائص أسلوبية وفكرية نعرفها للدوتيرونوم (العائدة للقرن السابع)، بل للقانون الكنسي (من القرن السادس أو الخامس) وقد أدخلت الوصايا العشر في النص القديم، بصورة متأخرة

«ذلك أنها لا تظهر في الأدب الإسرائيلي إلا حوالي القرن السابع. فإذا نحن نظرنا إلى محتواها، رأينا أنها تعكس أفكار العصر ومؤسساته. وهي تدين، من حيث المبدأ كل صورة (ثقافية) مثل إشعيا الثاني أو المزامير اللاحقة للمنفى، على حين أن إسرائيل القديمة كانت تعتبر استخدامها حلالاً... ويبدو أن الوصايا العشر تفترض أن يوم السبت الدوري، شيء مقرّر من قبل؛ وعلى كل حال فإنها تهب هذا اليوم المقدَّس، وهو اليوم الوحيد الذي تشير إليه، أهمية أساسية، لم يتخذها قط، إلا بعد المنفى. وتُؤكد الوصايا في سفر الخروج (الفصل العشرين) وتثنية الاشتراع (الفصل الخامس) على الواجبات الأخلاقية والاجتماعية. وهذه سمة مميّزة للحركة التنبؤية (حركة النبوءات)، ولا سيما في بدايتها... إن الوصايا العشر... انعكاس مخفف لوعظ الأنبياء في القرنين الثامن والسابع(٤٧).

فإذا انتهينا من هذه التحفظات، فإنه لا مجال لتبخير شخص موسى وجعله وجهاً أو صورة إلهية، خرافية محضة(٤٨). ويمكننا أن نقبل بوجوده التاريخي. ونعترف في الوقت نفسه بضرورة إعادة تركيب شخصيته، وعمله، بالاستعانة بوثائق متأخرة عنه بعدة قرون.

وكان على هذه الشخصية القوية أن تؤلف بين قبائل الإسرائيليين وتجعلها شعباً حقيقياً عن طريق تأسيس ديانة وطنية.

وسيكون ياهفي إله إسرائيل، وستكون إسرائيل شعب يهوه. وهذا التعبير الذي كثيراً ما تكرّر، يبدو وكأنه يعبّر عن الفكرة الموجّهة لنشاط موسى(٤٩).

(٤٧) . Lods, ouvr. cit; PP. 365-366

(٤٨) . Lods, ouvr. cit; P. 358

(٤٩) . Lods, ouvr. cit; P. 360

والظن الغالب أن الإسرائيليين استقروا حول القرن الرابع عشر قبل الميلاد في أرض الكنعانيين .

ومنذ ذلك الحين لم يعد الإسرائيليون بدواً هائمين على وجوههم في الصحراء ، بل إنهم صاروا فلاحين مستقرين في الأرض . إذ لقد أهملوا الخيام للسكن في البيوت ، وبعد أن تحوّلوا إلى فلاحة الأرض ، بدؤوا يهتمون ، بين أشياء أخرى ، بغرس الأشجار المثمرة(٥٠) .

« وعندما كانوا بدواً ، كانت لهم كائنات مقدّسة ، أو إيلوهيم ، وكان موسى قد وَحّد القبائل بحملها على تبني أحد هذه الإيلوهيم ، وهو Yahvé إيلوهيم سيناء »(٥١) . وكان الجبل المقدّس بركاناً . أما ياهفي فقد ظهر للإسرائيليين في الصحراء على صورة باقة من النيران أو اللهب في أثناء الليل ، وعلى صورة عمود من الدخان في أثناء النهار ؛ وهذه هي الصفات المميّزة للبركان . وبطبيعة الحال ، فإن إيلوهيم بركان سيناء كان ذا علاقة بالنار ، والصاعقة ، وزلازل الأرض . ولقد تبدّى لموسى في غوبية حارة « على صورة لهب وسط هذه الغوبية » . وكان الرعد هو « صوت يهوه أو ياهفي أو يهفي »(٥٢) .

غير أنه ليس هنالك أية علاقة بين الإله الراعد في جبل طور ، وحامي القبائل البدوية ، وبين خصب الأرض ، التي كان البعول يضمنونه حتى ذلك الحين في أرض كنعان ، وكان من الطبيعي أن يقبل الإسرائيليون تلك الأعراف المفروضة على كل المهاجرين ، أي أن يعبدوا الآلهة المحلية ، من دون التخلي عن إخلاصهم لآلهة آبائهم . وعلى الأرجح فإنهم قد عبدوا ، أول الأمر ، معاً ، أو بالتتابع ، مجموعة البعول ، مالكي الأرض ، وحماة الحقول ، ويهوه ، سيد الشعب وحاميه .

ثم إن يهوه ، الذي كان موضوع إيمان أقوى ، وأشد حرارة ، وأكثر زهواً داخل شعب أعمق وحدة ، انتصر على البعول ، الذين كانوا يُعبدون بتقوى أدنى حرارة ، لدى شعوب أكثر تجزؤاً وتناثراً .

وامتص يهوى مجموعة البعول ، واستولى على لقبها الذي يعني السيد ، والذي كثيراً ما كان

(٥٠) انظر أيضاً لود ، في كتابه نفسه ، لمعرفة تفاصيل أخرى عن الحياة الدينية لدى الإسرائيليين ص : ٤٤٩ وما بعدها .

(٥١) انظر لود نفسه ، ص : ١٩٨ ، وص : ٥٢٩ ـــ ٥٣٠ . ويعرض لود ، ويناقش ، ويقبل الفرضية القائلة بأن يهوه كان أول الأمر إله قبيلة المدينيين الكينيانيين الذين كان منهم أبو زوجته (٣٦٧ ـــ ٣٦٨) .

(٥٢) انظر Amos ، ١ ، ٢ . المزامير ٤٩ ، ٣ ـــ ٩ ، الخ .

يضم إلى اسم كل منها[٥٣] . وأخذ منها صفاتها ، واعتبر كما لو أنه الذي يوزِّع على هواه ، ذلك المطر المخصب ، أو الجفاف : وإليه كان يطلب ، بعد الآن ، إنجاح الأعمال في الحقول . ومن أجله أقيمت المعابد ، أو وجهت الأماكن المقدَّسة لدى الكنعانيين .

وأصبحت فلسطين أرض يهوى أو يهفى[٥٤] . وعندما وضعوا يهوى في السماء ، فقد كان ذلك في سماء يعقوب ، ذاك الذي كان يصل إليه سلّم يعقوب ، القائم في أرض كنعان[٥٥] .

وهكذا فإن الدين الذي غلب ، لدى اليهود ، المستقرين في أرض كنعان أو قل إن التأثير الخاص بإسرائيل ، بدا ، آخر الأمر ، أقوى من تأثير فلسطين القديمة . وغلب الإيلوهيم على البعل أو البعول .

ومنذ ذلك الحين كانت هنالك عبادة لإله واحد . ولكنِ وحدة الإله ، ليست عقيدة التوحيد (أو قل إن المونولاتري ، ليست هي المونوتيئسم) . وظل الإسرائيليون ، حتى عهد متأخر (القرن السابع أو السادس ق . م) يقبلون بوجود آلهة وطنيين آخرين ، كانت الشعوب الأخرى تعبدها بحق[٥٦] .

وتبعاً لتعبير من تعابير لود Lods الحلوة ، فإن وحدة الأوثان ما هي إلا شكل من أشكال تعدد الآلهة[٥٧] .

....

(٥٣) مثال ذلك أن شاوول «ممسوح يهوه» يسمي واحدا من أولاده باسم Echbaal إشبعل أو إجبعل ، أي رجل السيد (١ ، Chroniques ، ٨ ، ٣٣ ، ١١ ، ٣٩).

(٥٤) انظر Osée ٤ ، ٣ . عندما كان الإنسان ينفى كان يطرد من وجه يهوى . وعندما مضى جنرال آرامي إلى الخارج ، حمل معه على بغلين ، شيئاً من تراب كنعان ، لكي يقيم هيكلاً على أرض يهوى ، انظر لود ، ص: ٥٢٣ .

(٥٥) سفر التثنية : ٣٣ ، ٢٨ .

(٥٦) انظر برهان لود ، في كتابه نفسه . ولدينا كاتب إسرائيلي يعلّل هزيمة لمواطنيه في بلاد المؤابيين ، بغضب إله مؤاب ، كيموش ، عليهم (٢ سفر الملوك ، ٣ــ٢٧) .

(٥٧) لود أيضاً ، ص: ٢٩٧ .

ولكن كيف كان الإسرائيليون يتصورون إلههم الخاص؟.

ويجيب يهوى الـذي سألـه موسى عن ذلك بقولـه: «أنـا هو الكائـن (الخروج: ٣، ١٣ ــ ١٤). ولقد لوحظ أن في هذا الجواب رفضاً للجواب:.... فالطبيعة العميقة لإله إسرائيل خفية لا تنكشف، ويجب أن تبقى كذلك»[٥٨]. ويسمى يهوى كذلك باسم «إله إبراهيم، واسحق، ويعقوب». وستظل هذه التعاريف ناقصة، ما لم تكن مصحوبة بتحليل أوسع مدى.

فالتصور الطبيعي ليهوى، كإله بركان سيناء، زال تدريجياً ليحل محلّه تصوّر إحيائي وعلى صورة الإنسان. ويبدو أن يهوى يملك نوعاً من الجسم الروحاني؛ وعلى كل حال، فإن له أعضاء شبيهة بأعضاء الإنسان «كالعيون، والآذان، والفم، والخياشيم، والأيدي، والقلب، والأحشاء» وهو يتنفس نفساً قصيراً أو طويلاً (هادئاً أو مضطرباً)[٥٩]. لكنّ له بشكل خاص عقلاً وعواطف شبيهة بمثيلاتها لدى الإنسان. ويتميّز بشكل خاص بعنف الغضب، إذا أسيء إليه.

والسمة الأكثر تمييزاً له، في ذلك الحين، هي أنه إله قومي.

فهو يدعم دوماً جموع الإسرائيليين في علاقاتهم مع الشعوب الأجنبية، وهو لا يلوم إبراهيم ولا اسحق، على خديعتهم لفرعون وأبي ملك، وهو ينصح شعبه بالسرقة، عند الخروج:

«فإذا انصرفتم، فلن تنصرفوا فارغي الأيدي ــ بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة من فضة وذهب، وثياباً تجعلونها على بنيكم وبناتكم، وتسلبون المصريين» (الخروج ١٣: ٢١ ــ ٢٢) ثم إن يهوى الوطني إله محارب.

«ذلك أن المنازعات الوطنية، في إسرائيل، تسمى باسم: حروب يهوى. وأعداء الأمة، هم أعداء إلهها. أما محاربو إسرائيل فليسوا إلا مساعديه (القضاة، ٥: ٢٣). ويهوى حاضر شخصياً وسط الجيش (تثنية الاشتراع، ٢٣: ١٥) إما بصورة غير مرئية، وإما على صورة شيء مادي، كالتابوت[٦٠].

وإذا كان الإله القومي لا يهمل شعبه أبداً، حتى ولو اقترف تجاه الأجانب، أعظم

(٥٨) لود أيضاً، ص: ٣٧٤.
(٥٩) لود أيضاً، ص: ٥٣٠.
(٦٠) لود نفسه، ص: ٥٥٣ وكذلك في الصفحات ٥٣٥ ــ ٥٣٦.

المنكرات، فإنه يمكن التساؤل، كيف حدث أن الإسرائيليين غلبوا على أمرهم أحياناً. والتعليل هو أن إسرائيل أغضبت يهوى، وعندئذ عوقبت، ولم يعد إلهها يدافع عنها، بل يصبح أداة من أدوات الانتقام منها.

وفيما عدا حالة الحرب، نجد يهوى يقدّم لشعبه، كل أنواع الخيرات والنعم. فهو يؤمن لهم إمتلاك الأرض، في جو من الطمأنينة، ويضمن لهم محاصيل طيبة، ويزيد عددهم، ويعد البطاركة بذرية كثيرة كعدد ذرات غبار الأرض، أو عدد الرمال على شاطئ البحر، أو النجوم في السماء.

وتعيد إسرائيل تنظيمها الاجتماعي إلى يهوى. فهو الذي يعين الملك، الذي يملك صفة مقدّسة. فالملك هو من قُدّس بزيت يهوى أمام الحبر الأعظم. مثال ذلك، أن الملك داوود يرقص أمام التابوت في لباس كهنوتي(٦١).

ويهوى هو الذي يهب اليهود قوانينهم الأخلاقية، إذ أنه أعطاهم الوصايا العشر عن طريق موسى، ذلك أنه أيضاً إله قديس، وإله عادل، وإنه ليشعر بغضب عنيف ضد كل ظلم، وضد الحنث باليمين، وضد الأذى الذي يصيب الأرامل والأيتام. وهو يعاقب الأفراد، لجريمة قام بها أحدهم، كالملك، أو جملة المقرّبين إليه، أو ذريته، أو الجماعة كلها. ولكنه يبارك الأتقياء في ذريتهم، حتى الجيل الألف منهم(٦٢).

....

ويعبد هذا الإله بصور شتى.

---

(٦١) لود نفسه، ص: ٤٥٦ ـ ٤٥٧. انظر أيضاً ص: ٤٠٤ وما بعدها وص: ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

(٦٢) لم تكن قداسة يهوى مطلقة. «فهو يدفع الناس إلى الخطيئة، لكي يعاقبهم. وإنه ليجعلهم ضحايا الإغراء. ويقسّي قلب المذنب الخاطئ، ويهدأ عندما تقدّم إليه القرابين. وبالجملة فإنه إله عنيف، قاس، ماكر، وساذج بدرجة كافية. وسيكون على الأنبياء أن يبذلوا جهداً كبيراً لكي يطهّروه. انظر Saurat في كتابه عن تاريخ الأديان، ص: ١٩١. ويرى الكاتب الإنجليزي، ولز أن إله اليهود، إله خبيث، متميّز، شديد الغضب تجاه هذه القذارة الصغيرة أو تلك، أو أمام مخالفة «التحريم الجنسي»، كالغضب الذي حمله على أحراق سدوم وعمّورة Gomorrhe. ويدافع إسرائيل زانغ ويل Zangwill، الذي يذكر هذا النص عن يهوى في كتابه، صوت بيت القدس باريس Paris، ١٩٢٦، ص: ١٠٤ وما بعدها.

ومنذ الأصل، كانوا يقدسون تابوت العهد، الذي يعتقدون أنه موجود أو حاضر فيه(٦٣). وبالمقابل فإنهم لم يبدؤوا (إلا بصورة متأخرة أي بدءً من القرن السابع ق.م) بالنظر إلى معبد القدس ــ الذي بناه سليمان كمصلى لقصره ــ كمركز للديانة الوطنية، وكالمعبد الوحيد المشروع ليهوى.

وكانوا يحترمون يوم السبت، بالتعطيل في اليوم السابع. وكانوا يقيمون أعياداً زراعية، من أصل كنعاني: كأعياد الخبز بلا خميرة «في الحين الذي يضعون فيه المنجل في الحصاد»؛ وكعيد الحصاد يوم البواكير (بواكير القمح)، أو عيد الأسابيع (الأسابيع السبعة لجمع الحبوب) ومن هنا جاء الاسم المتأخر، اسم البانتكوت أي اليوم الخمسين)؛ وعيد الغلة أو عيد المظال tabernacles، وقت القطاف؛ وخلال زمن ما، كانت الاحتفالات الريفية للهيبة البدوية، كجزّ الغنم، والفصح، قد تضاءلت، وأصبحت في المقام الثاني. ولم يعد عيد الفصح إلى مقام الشرف إلا في القرن السابع في الضفة الغربية (جودا)(٦٤)

....

بيد أن أتقى الإسرائيليين، أي القضاة(٦٥)، وأوائل الأنبياء(٦٦) أرهقوا كثيراً لمنع الشعب من العودة إلى العادات القديمة، أي إلى عبادة الآلهة القدماء. وهناك قصة في سفر الملوك ــ تتناقض مع مقاطع أخرى من السفر نفسه، وتعتبر غير صحيحة من الوجهة التاريخية، اليوم ــ ترينا ACHAB (آشاب) و JESABEL (جيزابيل) يعودان إلى عبادة بعل، والنبي إيلي يحصل من يهوى على وعد

(٦٣) انظر لود Lods نفسه، وفي كتابه نفسه، ص: ٤٩٣ ــ ٤٩٨. إن التابوت غني بالمانا غني، يجعل اليهودي التقي، الذي يمسّه حتى لا يقع، يسقط مصعوقاً (١ صاموئيل ٢، ٦ ــ ٧). وقد راجعنا هذا الاصحاح فلم نجد أثراً لمثل هذا الكلام ــ المترجم.

(٦٤) نفس المصدر، ص: ٤٧٢.

(٦٥) هنا وهناك رجل أو امرأة، ويقوم على رأس مواطنيه، ويتمتع بنفوذ عظيم؛ ويسمى شوفيت shôphet أو suffète، أو القاضي، كما حدث بعد ذلك في صور وقرطاجة، مع القضاة الأول. انظر Delaporte، في كتابه: Le Proche-Orient asiatique، ص: ٢٢٦.

(٦٦) حول القضاة، يجب أن تقرأ ما سيّلي.

بإنزال نار السماء على هيكله الخاص به ، على حين أن أربع مئة كاهن لبعل يطلبون عبثاً إلى إلههم مثل هذه المعجزة(٦٧) .

وكان أتقياء الإسرائيليين يقفون في وجه الممارسات السحرية وقد جاء في سفر الخروج قول يهوه : (لا تدع ساحرة تعيش)(٦٨) .

بل إن بعض المؤمنين ليصلون إلى حد رفض العبادة التقليدية التي تقدم للموتى « وهذه إساءة ليهوى الذي له وحده الحق بعبادة الإسرائيليين » وهم يعلنون أن الموتى لا يستطيعون شيئاً ولا يعرفون شيئاً : ومصيرهم هو العدم المطلق تقريباً(٦٩) . وحول هذه النقطة فإن وحدة الأوثان المتعددة الآلهة تتعارض مع الإحيائية .

....

ولكن بدءاً من القرن الثامن ق . م ، بدأت هذه الوحدة الوثنية المتعددة الآلهة ، تتجه أكثر فأكثر نحو الإحيائية .

وهنالك نوع من المنطق العاطفي ، يكمن وراء هذا التطور .

ويرى الإسرائيليون أن يهوى أقوى من الآلهة الوطنية الأخرى . ولقد أشرنا سابقاً إلى التجربة التي قام بها إيلي Elie والتي توِّجت بالنجاح . فالتابوت ، الذي حبسه الفلسطينيون عندهم ؛ كان قد أذلّ الإله Dagon ، حتى في معبده الخاص(٧٠) . ومن يعرف ما إذا كان إله في مثل هذه القوة ليس هو الإله الحق ، والإله الوحيد — على حين أن الآلهة الأخرى ، ليست إلا مظاهر إله ، أو كائنات شيطانية ؟.

وبفضل هذا الإله القوي ، يشعر الإسرائيلي بأن له من يدافع عنه ، حتى في الخارج . ذلك

---

(٦٧) سفر الملوك الأول: ١٨ . (وقد راجعنا هذا السفر فلم نعثر على أثر لما يقول المؤلف) .

(٦٨) سفر الخروج ٢٠ ، ١٨ . وسالومون ريناخ الذي يذكر هذا النص ، يضيف قائلاً: إن هذا كلام مشؤوم ، استلهمت منه الكنائس المسيحية بإفراط ، في الأمانة له . راجع كتابه Orpheus ، ص: ٢٧٠ .

(٦٩) انظر لود نفسه ، ص: ٥٥١ — ٥٥٢ . وانظر مراجع عديدة ، ص: ٥٥٢ . وفي هذه المرحلة من التاريخ الإسرائيلي وحده ، بدأت تنطبق فكرة ريتان التي ترى في نفي البقاء بعد الموت ، تفوقاً أصله سامي .

(٧٠) ١ صاموئيل ، ٤ — ٥ .

أنه يعزو إلى رضى يهوى أو غضبه. كل ما يحدث له من الخير أو الشر وتتجاوز سلطة يهوى حدود الدولة، ويكتسب مدى عالمياً، ويشعر الإسرائيلي التقي بأنه متعلق دوماً وفي كل مكان بيهوى وحده. ومع أنه متعدّد الآلهة، في أفكاره، فإنه شبه موحّد في طريقة شعوره وعمله(٧١).

ولقد ألف بعض الإسرائيليين، تعظيماً لإلههم، منذ القرن العاشر، حتى السابع، مجموعة الأساطير التي ستوضع بعد ذلك، في بداية كتابهم المقدّس: مثل خلق العالم والإنسان، والجنة المفقودة، والطوفان. وكثير من عناصر هذه الأساطير، مستعار من البلاد التي كانت إسرائيل على صلة بها، أي من مصر، وبابل خاصة، ولكنها جعلت ملائمة للعقلية والأعراف اليهودية. وعلى حين أن محرّر الفصل الأول، من سفر التكوين يتصور الفوضى البدائية، مثل كتلة ضخمة من الماء، على طريقة البابليين، فإن الكاتب اليهوي، يتصورها كصحراء مجدبة ــ إذ أن صيف فلسطين هو الفصل السيئ، مادام المطر لا يصيبه بخير(٧٢). والإله الذي يخلق العالم والإنسان، ما أقربه إلى أن يكون الإله الشامل، أو العالمي، والإله الوحيد للعالم.

ولم تنضج فكرة التوحيد الأخلاقي إلا في وسط الأنبياء، الذين جعلوا من الله، ذلك الإله الشامل، وإله العدالة المطلقة.

وتنطبق كلمة النبي على أشخاص مختلفين جداً. فهي تارة تدل على سحرة، سحرة متجمعين في «أخوياتهم»، يصابون أحياناً بهذيان مقدّس، «كالدراويش الدوارين والصارخين في إسرائيل». وتارة أخرى، تدل على رجال ذوي وجدان عال، يشعرون معه بأن من حقهم نقد التقاليد الضيقة الموجودة في وسطهم، كما أنهم مقتنعون هم أنفسهم أنهم يتكلمون باسم الله(٧٣) وهؤلاء الأنبياء، بالمعنى الثاني لهذه الكلمة، هم الذين طوّروا إسرائيل، باتجاه عقيدة التوحيد الإلهي، عندما اكتشفوا في يهوى، ذلك الكائن الذي يملك إرادة العدل الشامل، كصفة أساسية له.

---

(٧١) لود نفسه، ٥٢٩، مراجع كثيرة، في الصفحات ٥٦٨ ــ ٥٦٩.

(٧٢) ويرى سالومون ريناخ أن بعض المقاطع تكشف عن وجود أسطورة هي أقرب من القصص الإيلوهية واليهوية، في الخلق إلى الأساطير البابلية: مثل الكلام على إله يرغم البحر (سفر أيوب Job ٢٦، ٢، وجويمي (إرميا) والحية التي تخطف حشيشة الخلود من جلجامش في الأسطورة البابلية (ص: ١٣٦) أما قصة الطوفان، فأصلها بابلي (ص: ١٣٤).

(٧٣) كثيراً ما يفترق الأنبياء عن السحرة ويدفعون عن أنفسهم اسم النبي: «فأنا لست نبياً، ولا ابن نبي» هكذا يقول آموص (٧، ١٤). انظر أيضاً إرميا: ٢٣، ٩ ــ ٤٠ و٢٦، ٧ ــ ١٦ الخ.

«ومنذ القرن التاسع، يدين إيلي مكرّس يهوه، أشهب ACHAB، بسبب قتله نابوط NABOT وأبنائه*. وكان الدفاع عن العقيدة اليهوية المجروحة، والحق المعتدى عليه، بالنسبة لأنبياء ذلك الزمان، أمراً يعلو على مصلحة الوطن المباشرة»(٧٤) وبدأت إرادة العدالة بالانفصال عن الاعتبارات الوطنية الضيقة؛ وهذه الإرادة هي التي تهيمن لدى يهوى.

وفي القرن الثامن ق.م، كان الراعي عاموس يؤكد أن الدين الحق، هو أن نحب الخير، ونكره الشر، وأن العدالة أسمى من ممارسة الشعائر والطقوس.

لقد أبغضت أعيادكم ورذلتها، ولم تطب لي احتفالاتكم.
إني إذا أصعدتم لي محرقاتكم وتقادِمكم (تقدماتكم) لا أرتضي
ولا ألتفت إلى ذبائح السلامة من مسمّناتكم
أقص عني زجل أغانيك، فإني لا أسمع نغم عيدانك
بل ليجر القضاء كالمياه، والعدلُ كنهر لا ينقطع.

ويدين عاموس، ببلاغة رائعة أعمال الأغنياء «أكلة الفقراء، ومختلسي الفقراء»؛ ويبين أن رفاهية البعض تنشأ عن شقاء الآخرين ويبيّن أن يهوى يثور لمثل هذه المظالم(٧٥).

ونلاحظ النظرية نفسها، قبل الميلاد، لدى هوشع Osée في قوله: (٦، ٦) فإني أردت رحمة لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من المحّرقات.

وكذلك نلاحظ نفس تمجيد العدالة الإلهية، وإدانة المظالم الاجتماعية، في نبوءة ميخا (٢، ٢ وما بعدها).

ولكن أبلغ الأنبياء، هو إشعيا Esaie أو Isaïe، أو إيزاؤو ISAÜ، في القسم الثاني من القرن

(*) نابوط Naboth، يهودي رُجم بأمر الملك، أشاب (أو أشهب) الذي أبى أن يبيعه كرمه. وطبقاً لتنبؤات النبي أيلي، لم يتأخر عقاب الملك، فقد استولى جهو على العرش وقتل أشاب، وامرأته جيزابيل سقطت من نافذة في قصرها.

(٧٤) ١ سفر الملوك ٢١؛ ٢، الملوك أيضاً، ٩، ٢٥ــ٢٦، ولود، ص: ٤٩٠.

(٧٥) آموص ٥، ٢١ وما بعدها، و ٨، ٤ وما بعدها. ويقول رينان: هنا بالتأكيد وجد أول خطيب سمعه العالم، تاريخ شعب إسرائيل، الجزء الثاني، ص: ٤٢٥، ويقول أيضاً: إن أنبياء بني أسرائيل هم صحفيون عنيفون، من النوع الذي نسميه اليوم باسم الاشتراكي أو الفوضوي. إنهم مهووسون بالعدل الاجتماعي. المجلد ١ من المؤلف نفسه ص: ٣.

الثامن ق.م. فهو يصرّح بأن الله اختار شعب إسرائيل، وإسرائيل لم تكن على مستوى من اختارها، أو لم تكن عند حسن الظن بها، عندما فضلت على العدالة، تلك التقوى السطحية. وقد وضعوا في رأس عمله، قطعة مؤثرة، يعرب فيها عن هذه الفكرة، ولكن من فم يهوى، وهي تبدأ كما يلي:

إني ربّيت بنينَ، ورفعتُهم، ولكنهم تمرّدوا عليّ.
عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه
لكن إسرائيل لم يعرف وشعبي لم يفهم، الخ(٧٦).

وفي القرن السابع يُعلن إرميا أن الله سيعاقب شعبه، مستخدماً ضدّه نبوخذ نصر(٧٧). ونراه في مقطع من المقاطع ــ على ما يقول رينان حيث ترفعه المثالية اليهودية إلى مفهوم العبادة الخالصة ــ يعلن:

« وحين تكثرون وتنمون في الأرض في تلك الأيام، يقول الرب لا يعودون يقولون تابوت عهد الرب، ولا يخطر لهم ببال، ولا يذكرونه، ولا يفتقدونه، لا يُصنع من بعد. في ذلك الزمان، يدعون أورشليم عرش الرب، وتجتمع إليها كل الأمم باسم الرب في أورشليم ولا يمضون من بعد على إصرار قلوبهم الشريرة. (إرميا ٣، ١٦ ــ ١٧).

لكن يوشع الثاني، في القرن السادس ق.م(٧٨)، أي يوشع الذي يسميه رينان، المجهول الأكبر، كان يعلن بوضوح خاص، وبلاغة سامية، أن إله إسرائيل ينبغي أن يصبح إله الإنسانية جمعاء: فلا يجب، على الشعوب بعد الآن، أن يكون لها إلا إله واحد، معبده هو العالم كله، ولا يُمجَّد إلا بتحقيق العدالة:

---

(٧٦) إشعيا، ١، انظر أيضاً الفصل الخامس: « كان لحبيبي كرم في رابية .... فأثمر حصرماً برياً.

(٧٧) عزي خطأً إلى إرميا خمس قطع تتعلق بالاستيلاء على القدس، بعنوان: تفجعات، مترجمة إلى الفرنسية على يد Lefranc من Pompignan. ويأتي سالومون ريناخ الذي يذكر في Orpheus (ص: ٢٩٣) هجاء فولتير له، بقوله:
أتعرفون لماذا أطال البكاء؟
سيدنا إرميا في حياته؟
ذلك أنه، كَنَبيّ، تنبأ أن لوفران سيترجمه.

(٧٨) يعلن يوشع في السفر الذي بقي لنا منه، أن سيروس، ملك الفرس، والمنتصر على بابل، وسيحرّر اليهود الأسرى لديه. ويقدّر الباحثون أن هذا النبي يجب أن يكون متأخراً عن هذا الحادث. ومن هنا جاءت الفكرة، بأن يوشع ثانياً استعاد تحت اسم الأول، مواضيعه وأفكاره الأساسية.

فلا إله إلا أنا ، على ما يقول يهوى ليوشع .

وهكذا قال الرب : السماء عرشي ، والأرض موطئ قدميَّ ، فأي بيت تبنون لي ، وأي مكان يكون مقر راحتي؟ (٦٦ ، ١ من نبوءة أشعيا) .

ودور إسرائيل ، الشعب النبي ، هو أن تكشف للآخرين من الشعوب عن هذا الإله الوحيد :

«أنا ، يهوى ، دعوتك من أجل الخير
وأخذت بيدك
وهيأتك للاتحاد الإنساني ، ولتنوير الشعوب
لكي تفتحي ، يا إسرائيل ، عيون العميان
وتحرري السجناء من سجونهم
وإخراج أولئك الذين يحيط بهم الظلام»(٧٩) .

ومنذ الآن نجد التوحيد الإلهي فكرة مستقرة لدى اليهود . ولو أن اسم يهوى يحتفظ بدلالة مفرطة في قوميتها . وسيُعوّض عنها ، غالباً ، باسم آدوناي Adonaï (أو السيد) .

والإله الوحيد موضوع إيمان حار ، يعبّر عن نفسه بكلمات رائعة في بعض المزامير(٨٠) .

مثال ذلك في المزامير ٦٢ ، و ٦٣ ، التي يقال إنها تعود إلى القرن السادس ، ق . م ، والتي تبدأ هكذا .

كما الأيل الذي يتلهف باحثاً عن مجرى ماء ،
فكذلك نفسي تتنهد متشهية لقاءك ، أيها الإله !
إن روحي عطشى لله ، الله الحي ، الخ(٨١) .

....

(٧٩) سفر إشعيا ، ٦٢ ، ٦ ــ ٧ ، بترجمة رينان في كتابه المشار إليه ، ص : ٤٨٠ .

(٨٠) يحتوي كتاب المزامير على قصائد مختلفة جداً ، ومن المستحيل تعيين تاريخ لكل منها . انظر ، على سبيل المثال ، كتاب **Montet, Histoire de la Bible (Paris, Payot, 1924), P. 53** .

(٨١) هذان المزماران مفصولان خطأ عن القانون التوراتي (انظر Montet ، في كتابه المذكور آنفاً ، ص : ١٢٧ ، الهامش ١ .

بيد أن الإنسان يساوره الشك : إذ كيف يسمح الله بوجود كل هذه المصائب الحاضرة؟.

ويجيب الفكر اليهودي ، أولاً ، بأن علينا أن ننحني لإرادة الله العظمى ، حتى إذا لم نفهمها. وهذا هو موضوع سفر أيوب الجميل(٨٢).

ولكن الأكثر وروداً ، هو أن الناس يزهدون بالحاضر ، ليتصوروا المستقبل . والأمل هو إحدى سمات الديانة اليهودية . فاليهود ينتظرون ، بكل ثقة ، يوم يهوى ، أي العهد الذي سيهب فيه إله إسرائيل ، لشعبه العظمة والسعادة .

ويشيد الشعراء بموضوع هذا النهوض القادم لشعبهم(٨٣).

ومن هنا جاءت فكرة الأمل بالمسيح المخلّص ، التي تشكل أحد المظاهر الأكثر أصالة ، والأكبر عمقاً ، من اليهودية .

وكثيراً ما يتصورون المسيح كملك عظيم ، أو كقائد قوي ، يؤمن النصر السياسي والمادي لليهود . « وفي هذه الايديولوجيا الملكية يجب أن نبحث عن بعض أصول الأمل بالخلاص ؛... ولقد ساهم الأسف على عظمة الملوك الأول في إثارة التوقع ، لمجيء ملك في المستقبل ، يتوّج بالنصر(٨٤) .

ولكن قد يحدث أن الأمل بالخلاص يتجاوز الإطار الوطني ، وينطبق على الإنسانية جمعاء .

ويرى إشعيا الأول « كل الشعوب » تصعد إلى « جبل يهوه » إلى بيت إله يعقوب :

« ويحكم يهوى بين الأمم ، ويقضي بين الشعوب ، فيضربون سيوفهم سككاً ، وأسنتهم مناجل ، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب من بعد . (سفر إشعيا ، الفصل ٢ ، ص : ٣ ـــ ٤ . وتجد النص نفسه في سفر ميخا ، والفصل الرابع ، ص : ٢ ـــ ٣)

أما إشعيا الثاني ، فيُوَسِّع أفكاراً وجدناها من قبل لدى إشعيا الأول .

« هاأنذا أخلق سموات جديدة وأرضاً جديدة
فلا تُذكر السالفة ولا تخطر على البال
بل تهللوا وابتهجوا إلى الأبد بما أخلق ،

---

(٨٢) يرى Montet أن سفر أيوب يعود إما إلى الزمن الذي سبق المنفى ، مباشرة ، وإما إلى الزمن الذي يليه مباشرة .

(٨٣) مثال ذلك عاموس : ٥ ، ١٨ وما بعدها ، والفصل ٨ ، ٩ وما بعدها .

(٨٤) انظر لود نفسه ، ص : ٤٧٨ ثم ٥٤٨ ـــ ٥٤٩ .

فإني هاأنذا أخلق أورشليم ابتهاجاً وشعبها سروراً،
وأبتهج بأورشليم وأُسَرُّ بشعبي، ولا يسمع فيها من بعد
صوت بكاء، ولا صوت صراخ.
لا يكون هناك من بعدُ طفل أيام ولا شيخ لم يستكمل أيامه،
لأن الطفل يموت وهو ابن مئة سنة
والخاطئ يُلعن وهو ابن مئة سنة
فلا يبني أحد ويسكن آخر، ولا يغرس أحد ويأكل آخر...
ومختاريّ يتمتعون بأعمال أيديهم» (سفر إشعيا الفصل ٦٥ـــ١٧ وما بعدها).

غير أن مجيء هذا العالم المثالي لن يكون من عمل ملك زمني، بل من عمل مسيح روحي يسميه إشعيا الثاني باسم خادم ليهوى. وهو الذي يضع فيه الله روحه.

«ولكي يكشف للأمم ما هو عدل،
لا تراه يصرخ، ولا يرفع الصوت
ولا يطفئ الفتيل التي لا تزال تدخن
ولا يتعب ولا تثبط همته
ما دام لم يثبت العدالة في الأرض» (سفر إشعيا، ٦٢، ١ـــ٤).

ولعل إشعيا الثاني يستلهم من ذكرى النبي إرميا، الذي كانت حياته ملأى بالعذاب ـــ فانتهى إلى موت خفي. فيبيّن لنا في سفر خادم يهوى، الإنسان المعذب، المحتقر، المذّل، المسحوق، الذي يجعل من نفسه ضحية للتكفير عن الآخرين:

«إنه أخذ عاهاتنا، وحمل أوجاعنا، فحسبناه ذا برص، مضروباً من الله، ومذلاً(*). جرح لأجل معاصينا، وسحق لأجل آثامنا فتأديب سلامنا عليه، وبشدخه شفينا، (سفر إشعيا، الفصل ٥٣، ٤ وما بعدها).

ومن مثل هذا النص الأخاذ، سوف تستفيد المسيحية فيما بعد، فائدة كبيرة.

....

(*) نأخذ النصوص هنا من أصلها في الكتاب المقدّس المطبوع باللغة العربية، في المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٦٠ بيروت. ولو أننا ترجمنا النص من الفرنسية، لوجدنا اختلافاً في الأسلوب.

وخلال قرون طويلة، كان الأمل الإسرائيلي يتجه إلى غايات جمعية، مثل الانتصار المادي «للشعب المختار»، أو السعادة للإنسانية كلها؛ ولم يعد يهتم بحظوظ الأفراد. والمكافأة الوحيدة للسلوك الفاضل، إنما هو الحياة المديدة على هذه الأرض. أما الموتى، فإننا نجهل مصيرهم. فسفر الجامعة الذي يعود، فيما يقال، إلى القرن الثاني ق . م يقول: «إن كلباً حياً أفضل من أسد ميت، ذلك أن الأحياء يعرفون أنهم سيموتون، على حين أن الموتى لا يعرفون شيئاً»(٨٥) .

بيد أن المعتقدات في هذا القرن الثاني نفسه، تتغيّر حول هذه النقطة. ويبدو أن من الأصعب فالأصعب أن يقبل العقل أن يكتفي الطيبون بما يثابون به على هذه الأرض، أو أن يحدث ذلك فعلاً. فالتجربة تكذب هذا الرأي. مثال ذلك، في رأي رينان(٨٦) ، ما ذاقته أنطاكية من اضطهادات، رأى الناس خلالها أن الأفاقين يكافؤون، والمؤمنين يموتون تحت أشد أنواع العذاب، حتى لا ينكروا إيمانهم(٨٧) . وهناك بعض العقول، ممن يعرف أفكار الفرس، وأفكار الإغريق، تقبل الإيمان بخلود في الدار الآخرة، يسبقه حساب للموتى، كما تؤمن ببعث الأجساد. وإذا نظرنا في سفر دانييل الذي يردونه إلى القرن الثاني، قبل المسيح، رأينا أنه يقول: «إن كثيرين من هؤلاء الذين ينامون تحت الثرى، يستيقظون، فمنهم من وعد بالخلود، ومنهم من يساق إلى جهنم، خالدين فيها، وبئس المصير»(٨٨) .

وعلى كل حال فإن الفكر اليهودي، حول هذه النقطة، لم يعرف الإجماع. وكان الغريزيون (جماعة اللامساس) في بداية العهد المسيحي، يقبلون بالبعث، ولكن السدوسيين SADUCEENS، يرفضون ذلك، ولا يقبلون بوجود الملائكة.

....

(٨٥) سفر الجامعة، الفصل التاسع، الآية، ٤ ــ ٥ .

(٨٦) رينان . كتابه الآنف الذكر، الجزء الرابع، ص: ٣٢٤ .

(٨٧) Actes des apôtres, 23-8 .

(٨٨) ويعزو جوزيف تأسيس أول جماعة وإنشاء الملكية الخاصة للأرض، إلى مجرم كبير: هو قايين، قاتل أخيه. ولهذا فإنه يعتبر أن من علامات الفضيلة العليا، وضع الخيرات المادية بين يدي الجميع. انظر حول هذه المواضيع كتاب المؤلف نفسه La Formation du Socialisme, Paris, Alcan, 1937, PP. 71-19 .

وفي القرن الثاني ق . م تكونت طائفة شيوعية يهودية ، سميّت باسم الإسينيين ESSENIENS . ونلاحظ أن المؤرخ جوزيف ، والفيلسوف فيلون ، يصفانها بإعجاب .

ولقد دفع الإسينيون فكرة العدالة المطلقة المميزة ليهوى إلى أبعد نتائجها .

ذلك أنهم تخلوا عن كل ملكية شخصية ، وكانوا يمتنعون عن الذهب والفضة . وما من أحد منهم كان يملك أرضاً ، أو بيتاً . وكانوا يسكنون معاً في بيوت مفتوحة للرفاق القادمين من البلاد الغريبة . وكانت الثياب ، والأغذية والبضائع المحفوظة في مخازن جماعية ، ملكاً للجميع . وكانوا لا يعملون إلا ليحصلوا على الحد الأدنى الضروري لحياتهم . وكانوا يمارسون الزراعة والصيد ، ولكنهم يتأبون على التجارة التي تنمي حب الربح والرغبة في إيذاء الآخر . ولم يكن لديهم صناع يصنعون الأسلحة ، أو أشياء أخرى يمكن أن تستخدم في الحرب . ولم يكن لديهم عبيد . وكانوا جميعاً متساوين . وكانوا جميعاً أحراراً .

وفي أيام هيرود Hérode ، في بداية العهد المسيحي ، تعارض دكتوران في القدس : أحدهما شاماي Schammaï ، الشديد التقيد بالتعاليم ، والثاني Hillel ، الشارح الواسع التفكير . وعندما سأل أحد الوثنيين عن خلاصة القانون اليهودي ، أجابه هيلل Hillel : «لا تفعل لجارك ما لا تحبه لنفسك . إن هذا هو القانون كله . وما الباقي إلا الشروح[٨٩] » .

أما أخلاق الإسينيين ESSENIENSوممارساتهم ، وفكر هيلل HILLELالنبيل ، فإنها لا تزيد على أن تتابع كبار الأنبياء في أقوالهم ، وأن تهيئ لانبثاق المسيحية .

ويرى رينان أن الرائعة الأولى في اليهودية ، هي إنتاجها المسيحية ، وأن هذه مجدها ، وخلاصة تطورها . وبفضل المسيحية ينتصر الأنبياء نهائياً .ويسوع آخر الأنبياء هو الذي توّج عمل إسرائيل .

....

وفي العام ٧٠ ب . م ، وبعد ثورة ضد روما ، استولى الرومانيون على القدس ، وجعلوا عاليها سافلها . وعندما قام تمرّد آخر بقيادة المسيح المزيف بار ــ كوشيبا Bar-Cochebas ، هزم رجاله ، وقضي عليه عام ١٣٦ . وتفرّق اليهود في أرجاء العالم .

(٨٩) تلمود بابل ، الذي ذكره رينان ليستشهد به . الجزء الخامس ، ص: ٣١٩ .

وقد أضافوا، بعد تفرقهم هذا، كتباً أخرى مقدَّسة، إلى العهد القديم، كالتلاميد (ج: تلمود) التي جمعت الشروح المختلفة للقانون. وأول مجموعة ظهرت، وضعت بين القرن الأوّل، والقرن الرابع ب. م: وهذه هي ما سمي بتلمود القدس. وهناك مجموعة أخرى اعتبرت أعلى مستوى، هيئت في بابل ــ حيث كان اليهود في أوضاع طيبة، ملائمة للدراسات والمناقشات ــ وذلك بين القرن الثالث والقرن الخامس: وتسمى هذه تلمود بابل. وقد قيّمت هذه التلاميد، من ناحية قيمتها الدينية والأخلاقية، بصور مختلفة.

وهناك تيار عقلي وعاطفي، آخر، ذو أصل يهودي هو ما يسمى بالقبلانية Cabale. وفي آخر القرن الثالث عشر، وأول القرن الرابع عشر، كان أحد اليهود الإسبانيين، واسمه موسى دوليون، Moïse de Léon، يبيع إلى أناس أغنياء، من إخوته في الدين، كتباً سرّية تحتوي شروحاً للقانون. وتؤلف هذه الكتب، التي جُمعت عام ١٣٠٤، ما يسمى بالزهار ZOHAR، أي كتاب التألق، وهو نص أساسي من نصوص القبلانية. والشيء الذي نجده هنا هو مجموعة تأملات شبيهة بدرجة مناسبة بتأملات الهند، والكلدان. والقبلانية نوع من الحلولية المتفائلة. وهي تكتشف أن الله ماثل في الطبيعة وفي الإنسان. وفي أيام النهضة، حيث كان الناس يثورون ضد إدانة اللذات الجسدية، شاع الفرح عندما وجدوا، هذا «التأويل الحقيقي، للكتب المقدّسة، الذي يبرّر كل صور الجرأة على الدين». وقد استعار فكتور هوغو من القبلانية جزءاً كبيراً من منظومته، كما أن التيوصوفية في أيامنا هذه تستند، في قسم كبير منها، إلى القبلانية(٩٠).

ولعله يجب أن نضع إلى جانب التيار القبلاني، في إطار الفكر اليهودي، ما نسميه بالتيار الفلسفي. فقد حاول فلاسفة كثيرون، في عهود مختلفة أن يوفقوا بين النظريات الأساسية للديانة اليهودية، وبين تصورات أو مفاهيم المنظومات اللادينية، مثل فيلون الاسكندراني في بدء العهد المسيحي، ومحاولته التأليف بين الأفلاطونية، وبين الديانة اليهودية؛ أما في القرن الثاني عشر، فقد قام بمثل هذا التوفيق الفيلسوف اليهودي القرطبي ميمونيد. ولكن مع الأرسطاطالية، والأفلاطونية الجديدة. وفي القرن السابع عشر، كان سبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) المشبع بالفكر اليهودي يقوم بمحاولة مماثلة، ولكنه تجاوز حدود الدين اليهودي، وشعبه، وعرقه: إن هذا الفيلسوف عبقرية شاملة.

(٩٠) انظر Saurat في كتابه، تاريخ الأديان، ص: ٢٢١ ــ ٢٢٢. ويذكر المؤلف نصوصاً غريبة من القبلانية في صفحاته ٢٢٣ ــ ٢٣٩. ويمكن أن نقرأ كتاب Paul Vulliaud، الذي عنوانه القبلانية اليهودية للاطلاع على تفاصيل أخرى.

وعندما تفرق اليهود في أرجاء العالم، كانوا، حيثما ذهبوا، وبصورة دائمة، محتقرين، ومضطهدين بصورة بشعة. ويلومهم المسيحيون المتعصبون على أنهم صلبوا المسيح، وأنهم قتلة «الله». ولا شك أن معاداة اليهود الناشئة عن التعصب الديني، تتعزّز بالأسباب الاقتصادية والمستبقات العرقية.

وعندما استعرض Michelet الفرنسي هذه الإضطهادات، استطاع أن يقول: «إن اليهودي هو المصيبة بالمعنى الكامل، في كل صورها» ولا يزال كذلك.

ونحن نفهم أن بعض الإسرائيليين ظنوا أنهم يجدون علاجاً، لشقاء إخوانهم في الدين، في جمع اليهود المشتتين، في وطن مستقل. وفي أواخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين، كانت صهيونية اليهودي المجري هرتزل تعلن انبعاث الدولة اليهودية، والعودة إلى الأرض المقدّسة: وهذا هو الشكل الحديث لعقيدة الخلاص القديمة.

وفي تشرين الثاني من عام ١٩١٧، قبلت بريطانيا إصدار وعد بلفور الذي ينص على أن تصبح فلسطين، وطناً قومياً لليهود.

ولكن البلد يسكنها العرب الذين يحتجون بقوة على انتزاع ملكيتهم عن هذه الأرض. وقد أصبحت فلسطين منذ ذلك الحين مركز صراع مخيف، لم ينجح أحد في إيجاد حل له.

....

ويقوم اليهود، داخل الشعوب التي يعيشون في أراضيها اليوم، بعدد من الشعائر؛ وهذا صحيح بالنسبة إلى الرجال. أما النساء، فإنه لا قيمة لهن بالنسبة إلى الدين.

وتشتمل الطقوس الدينية على ختان الذكر، بعد ثمانية أيام من ولادته؛ فإذا بلغ الثالثة عشرة، أخضع للتكريس؛ ثم يكون الزواج، الذي يحتفل به في الكنيس، مع فرض حجاب الصلاة (التالث Taleth)، وتقام صلاة، وتغنى أغان بالعبرية؛ فإذا جاء الموت، فإن دفن الجثة يتم بعد غسل الجثة، ويكفّن الميت بكفن، ويلقى به بعد ذلك في القبر.

وعلى المؤمن أن يذهب إلى الكنيس مساء الجمعة، حيث يبدأ السبت منذ هبوط الليل. وتغنى أغاني الشكر لله من قبل الحاضرين، وأحياناً يهمس بها همساً.

أما السبت، فهو اليوم المكرَّس لله. وعلى اليهودي التقي أن لا يعمل، وألا يترك أحداً في بيته يعمل.

أما القيود المفروضة على الطعام، فإنها قاسية جداً: إذ لا يجوز أكل لحم الخنزير، ولا الحيوانات التي لم تذبح، ولا القشريات، الخ.

ويجب الاحتفال ببعض الأيام إما في الكنيس وإما في البيت الذي يمكن أن يقوم مقام المعبد؛ مثال ذلك يوم الفصح، حيث يُعوَّض عن الخبز العادي، بالفطير الذي لم تلامسه الخميرة، وحيث يجب أن تبدّل كل آنية المطبخ: ثم يوم الكيبور le Grand-pardon، وهو يوم صيام كامل.

وكان بعض اليهود قد فقدوا اهتمامهم بالدين والوصايا الدينية، في البلاد التي اعتبروا فيها متساوين مع المواطنين الأصليين، ومماثلين لهم في الحقوق والواجبات؛ ولكن الإضطهادات، ومظاهر المعاداة، ردّت قسماً من هؤلاء إلى تضامن أكبر مع إخوانهم في الدين.

....

ولا شك أن عقيدة التوحيد التي نشرتها اليهودية قبل المسيحية، تُمثّل تقدماً كبيراً بالنسبة إلى المعتقدات السابقة.

أما من الوجهة العقلية، فقد ساهمت في الايحاء بأفكار تتصل بعالم يخضع لمجموعة من القوانين الثابتة ــ وهذه فكرة تظل في العلم الحديث، باقية حتى بعد الإيمان بإله شخصي.

وأما من الوجهة الخلقية، فقد ساهمت في نشر الفكرة القائلة بأن كل الناس هم أبناء الله، وبذلك ساعدت مساعدة قوية على تكوين وتنمية عاطفة الإخاء الإنساني.

وبصورة خاصة، فإننا نكتشف لدى أفضل الإسرائيليين ــ أي لدى الأنبياء والإسينيين ــ طموحاً إلى العدالة، والتقدم الاجتماعي، لعلّه واحدة من أخص السمات وأنبلها، لهذه الديانة.

أما عقيدة الخلاص اليهودية (المسيانية اليهودية) فإنها إذا جرِّدت من كل تصور لاهوتي

خاص، استطاعت أن تبقي على الأمل بأن تحقق الإنسانية، ذات يوم، مجتمعاً عادلاً، متآخياً، سعيداً[٩١].

(٩١) لقد أشرت إلى مساهمة الفكر اليهودي في تكوّن الفكرة الاشتراكية، في كتابي: تكوّن الاشتراكية (ص: ١٦ ـــ ١٩) (باريس، ألكان، ١٩٣٧) وفي الصفحات ٤٣ ـــ ٤٧ في كتابي: تاريخ المُلْكية (باريس، بريس أونيفر سيتير، ١٩٤١).

الفصل العاشر

ديانات أوربا الشمالية والغربية

ديانة الجرمانيين ــ وديانة السلتيين

إن في وسعنا أن ندرس في أوروبا السابقة لتسرب المسيحية ، ديانة أوروبا الشمالية ، ولا سيما ديانة الجرمانيين ؛ وديانة أوروبا الغربية ، أي ديانة السلت ، وبخاصة ديانة الغاليين ؛ ثم ديانة أوروبا الجنوبية ، أي ديانة الأغارقة ، وديانة الرومان والايطاليين ، وهي شعوب تجمع أحياناً تحت اسم « آريي الماضي القديم الكلاسيكي » .

....

ويميزون عادة بين الشعوب ذات الأصل الجرماني ، ما بين جرمانيين شماليين (مثل الايسلنديين ، والنروجيين ، والسويديين ، والدانماركيين) وبين جرمانيين جنوبيين (كالانغلو ساكسون والألمان . الخ ..) .

ولا ريب أن بين معتقداتهم الدينية ، فروقاً في التفاصيل ، نستطيع إهمالها في وصفٍ نريد أن يكون سريعاً ، وعاماً .

هذا وإن الوثائق التي يمكن اعتمادها في معرفة هذه الأديان ، وثائق متأخرة نسبياً : منها نصوص الكتاب اللاتين الكلاسيكيين ، مثل سيزار César (١٠١ ــ ٤٤ ، ق . م) ، وتاسيت Tacite (٥٥ ــ ١٢٠ ب . م) ؛ والساغا Sagas ، والإيدا Eddas ، وهي أعمال أدبية ألفت في العهد

المسيحي ، ولكنها تطلعنا على الأساطير القديمة[1] ؛ وكتيبات التوبة Manuels Pénitentiels ، التي تشتمل على الأسئلة التي كان ينبغي أن يطرحها الكهنة المسيحيون على الجرمانيين الراغبين في اعتناق النصرانية ؛ وأخيراً فإن هناك عدداً من الأساطير الشعبية ، نكتشف فيها آثار ماضٍ انقضى. ثم إن الحفريات التي تمت ، ولا سيما في القبور ، مثال ذلك قبور التومولي Tumuli ، حيث يستريح الملوك الساكسون ، تساهم أيضاً في الكشف عن بعض الأعراف ذات القيمة والمفيدة.

ويروق الإنسان أن يقرأ كتاباً موجزاً وحديثاً ، عنوانه : أساطير الجرمانيين وآلهتهم ، لمؤلفه جورج دوميزيل G.Dumézil[2] وسنضع الوقائع الدينية في إطار نظرة عامة إلى العالم الجرماني ، بالاعتماد على كتاب كارستين T.E.Karsten ، بعنوان Die Germanen[3] المترجم إلى الفرنسية تحت عنوان : الجرمانيون القدماء[4] .

....

وتقوم الأشجار المقدّسة بدور كبير في ديانة الجرمانيين القدماء : فقريباً من معبد أوبسال Upsal ، نجد Yggdrasill ، وهي شجرة كونية ، وعمود العالم ؛ أما لدى الساكسون فإننا نجد ايرمينسول Irminsul التي كانت تعتبر ، هي أيضاً ، دعامة للكون.

وكان هنالك حيوانات مقدَّسة نُذرت لبعض الآلهة : كالحصان ، والغراب في Odin (WOTAN) . وكانت هناك أحصنة تجيب عن الأسئلة المستقبلية . وكانت الشعارات تحمل في

(١) هناك ترجمات فرنسية تمت على يد F. Wagner ، بعنوان : القصائد البطولية للإيدّا ، والساغا ، أوساغا الفولسونغ Völsungs ، باريس ، نشر Leroux والقصائد الأسطورية للإيدّا ، في مكتبة جامعة لييج ، ١٩٣٦.

(٢) Lerouxباريس ١٩٣٩ ، وجورج دوميزيل الذي يقول : «إنه مختص بالمقارنات» يقيم علاقات ممتعة بين ديانة الجرمانيين ، وديانة الهندوس ، وديانة السلت ، وديانة الرومان ، الخ . ويبيّن ، تبعاً لأعمال اللغوي الكبير Vendryes ، أن كلمات كثيرة دينية من لغات المجموعة ــ الهندية الإيرانية ، والسنسكريتية خاصة ، الفيدية والآفستية ، نعود فنجدها في لغات المجموعة الإيطالية ــ السلتية ، ولا سيما في اللاتينية ، والإيرلندية القديمة (٨ : P) ، مثال ذلك الجذر الهندي ــ الأوروبي فيد weid ، أو المعرفة savoir ، يعطينا الكلمة الهندية véda ، وجزءاً من الكلمة السلتية dru-vid, druide (وكلمة dru ، أي العنيف تقترب من الكلمة الألمانية treu) (ص : ٦).

(٣) Berlin-Leipsig ، ١٩٢٨.

(٤) الترجمة الفرنسية ، باريس ، دار بايو ، ١٩٣١.

أعلاها خنازير برية، أو ثعابين. وكان الرجال والنساء يمكنهم أن يتحوّلوا إلى ذئاب ـ غارو أو دببة ـ غارو Loups-Garous. وكان هنالك جماعات من الشباب بلا ملكية شخصية لهم، بل يستعملون أملاك الآخرين وزوجاتهم، ويطلق عليهم اسم Bersékirs، وهؤلاء كانوا محاربين ـ وحوشاً، جزء منهم إنسان، والجزء الآخر دب أو ذئب(٥).

«وكانت الكنيسة تحرّم على معتنقي الديانة الجديدة، ارتكاب الجريمة البغيضة، والكريهة» جريمة أكل الحصان: ومعنى هذا بلا ريب، أن الوثنيين كانوا يأكلونها، كشعائر دينية.

وكانت الإحيائية الشعبية تعمرُ الطبيعة بالأرواح، كالفان vanes، المذكّرة والمؤنثة، سادة الخصب(٦)؛ والإلفات elfes (والإلف جني صغير في أساطير اسكندنيافيا يرمز إلى الهواء والنار)، التي ترقص في وضح النور، أو التي تساعد الإنسان في البيت، والأقزام Trolls؛ وفي الماء، لدينا حوريات الماء nixes، التي تجذب الأحياء، أحياناً، نحو الهاوية؛ والجبابرة الذين يكونون في الغالب أغبياء؛ والأقزام، الذكية غالباً، أما تحت الشجرة الكونية «إيغادراسيل Yggadrasil» فكانت تسكن النورنات الثلاث Nornes، حارسة المصائر.

ومقابل الإحيائية، نجد السحر، كما هي العادة. وكانت الحروف الأولى، حروف الكتابة «les runes»، في البداية، تستخدم كوسائل سحرية، في الرقى والتمائم(٧). أما الغناء (lied) فكان في الأصل نوعاً من السحر أو التعزيم. وكان بعض النساء يعتبرن مالكات لمواهب خاصة من السحر والتنبؤ: أي أنهن ساحرات(٨).

(٥) دوميزيل، كتابه الانف الذكر، ص: ٧٩ وما بعدها، ولا سيما الصفحة ٨٢.

(٦) ويقرّب دوميزيل اسمها من الكلمة اللاتينية فينوس، ص: ١٣٢.

(٧) ويعتقد دوميزيل أنه يجد الجذر runr (وفي الجرمانية: السر السحري) في أسماء الآلهة الحازمة les Dieux lieurs (أي التي تصل بين الحوادث بعمليات سحرية، كما يجدها في الهند في كلمة فارونا، وفي الكلمة الإغريقية أورانوس مثل فورانوس (Ou-ranos)، ص: ٢٤ ـ رقم ٣.

(٨) ومع أن الجرمانيين اعتنقوا المسيحية، فإنهم ظلوا يستمعون لساحراتهم؛ ولكن محاكم التفتيش علّمتهم بأن يحرقوهن. وإنهم لدومينيكان ألمان، أولئك الذين سيكتبون الكتاب الدنيء الذي عنوانه: مطرقة الساحرات. هذا وإن البابا إينوسان الثامن إنما وجّه قراره البابوي المشهور، الذي أكدّ فيه على ما للساحرات من قوة ومكر، من أجل ألمانيا، وكان ذلك إشعاراً ببدء حملة إبادة شملت، خلال قرنين، ما يزيد عن مئة ألف بريئة أحرقت حية. انظر سالومون ريناخ، في كتابه Orpheus، ص: ١٩٤.

وأرواح الموتى تظل باقية، إما تحت الأرض في مملكة Hel، وإما في منطقة بعيدة، في مناطق الرياح. وهي تمر على الأرض، محمولة برياح العواصف، ولا سيما في نهاية الخريف.

«ويجب عندئذ أن نهدّئها بطقوس وهبتها الكنيسة المسيحية شرعيتها، عندما وضعت في ذلك التاريخ يوم الأموات. وحرّمت الكنيسة إقامة هذه الشعائر، على صورة مساخر، يلبسون فيها جلود الحيوانات، وهذه قرينة أخرى على مخلّفات طوطمية[٩]».

أما المحاربون الذين سقطوا في المعركة شهداء، فيمضون إلى الوال هلّا Wal Halla (أو Val Höll). ويشربون فيها نبيذ عسل لا ينضب، ويأكلون لحم الخنزير البري الذي يفترس كل صباح، ويعود فيولد كل مساء ويخرجون لكي يتقاتلوا، جلباً للمسرّة.

ولا بدّ أن واحدة من أقدم الإلهات، لدى الجرمانيين، كانت «الأرض ــ الأم» التي تسمى أحياناً NERTHUS. ويقدّم لنا تاسيت وصفاً ممتعاً للعيد الزراعي الذي كان الناس يحتفلون بها فيه. ويعتبر هذا النص كأقدم وثيقة حول شعائر أو طقوس الخصب في العالم الجرماني[١٠].

وفي رأي بعض الشراح أن نرسوس هذه يمكن أن توَحّد أو تُماهى مع فريا FREYA (المحبوبة)، إلهة الحب، والجمال، والخصب. أما أخوها وحبيبها فهو FREYER. «ويوجد حول فريير هذا نوع من الصوفية أو الميتولوجيا السلمية (ميتولوجيا السلام)، وهو سلام لا مثيل له، كمعهد ذهبي حق، يقابل بالتأكيد أحد أكبر المطامح في الروح الجرمانية[١١]».

أما الكواكب والنجوم، كالشمس والقمر، فقد كانت هي أيضاً موضوع عبادة. فالقمر

(٩) المصدر نفسه، ص: ٢٠٠.

(١٠) انظر Tacite, Germanie XL.

(١١) انظر دوميزيل في كتابه الآنف الذكر ص: ١٢٨. ويشير المؤلف إلى أن الساغا والكاتب الداغاركي (من القرن الثاني عشر) ساكسو غراماتيكوس يؤنسون Freyr، جاعلين منه ملكاً محباً للسلم. ويعتقد ساكسو أنه معاصر للأمبراطور أوغست، المحب للسلام «وإنه لحلم من أعظم الأحلام روعة في التاريخ أن هذا السلام الجرماني يتوضع على يد العلامة الداغركي فوق السلام الروماني، لدى القياصرة» ص: ١٢٩.

هو لإلهة Holle أو Holde، أو Holda. المتاهية مع ديانا الرومانية. وعن طريق التورية أو التلميح، أعطيت اسم الطيبة la bienveillante. وكانوا يرون أنها ملكة الساحرات، التي تركب ليلاً برفقة شيطانات نسائية، وتخطف أرواح الأطفال، الذين ماتوا بلا عماد.

وكانت الآلهة الكبرى الثلاثة قد موهيت، لدى تاسيت، مع الآلهة الرومانية: فأودين Odin (أو Odhinn، أو فودن Woden أو فوتان Wotan هو المريخ؛ وتيو Tiou أو Ty هو مارس؛ وثور Thor (أو Thôrr، أو Donnar) هو جوبيتر. وأودين هو بالدرجة الأولى، ملك ـــ ساحر؛ وهو الذي اخترع الـRunes. وهو أيضاً إله الريح (Wind) وبالتالي إله الأموات، وهو الذي يحمل إلى الوالهالا أو الوال هلّا Walhalla، أرواح الأبطال الذين استشهدوا في المعركة، على ظهور الوالكيري Walkyries. وعلى الرغم من أنه هو نفسه لا يحارب، ويفضل الاعتماد على السحر، فإنه إله المحاربين. وقد كان كبير الآلهة بالنسبة إلى أولئك الويكينغ vikings الجريئين الذين استعمروا في القرن الثامن غروئنلاند، واكتشفوا أمريكا، وأسّسوا الأمبراطورية الروسية.

أما ابنه Tiou فهو إله الحرب.

وثور أو «دونار» هو إله الرعد والمطر، وبالتالي فهو إله محب للفلاحين. ـــ وفي وسع المرء أن يرى في هذه الآلهة الثلاثة، آلهة طبقات شبيهة بطبقات الهندوس الثلاث الأولى؛ فأودين، إله الكهنة السحرة؛ وتيو Tiou للمحاربين؛ وثور، إله الفلاحين ـــ بيد أن ثور هو أيضاً إله عنيف، ومحارب مخيف، يقتل الشياطين بمطرقته الإلهية الحجرية.

وترتبط بهذه الآلهة أساطير عديدة وشاعرية(١٢). وأشهرها أسطورة BALDER، وهو شخصية تذكّرٌ في آن واحد بشخصية سيجفريد، والمسيح. وهو أجمل أبناء أودين. ويموت ضحيةً للغدّار الخائن لوكي Loki. ويهبط إلى جهنم. وعندئذ يهاجم الجبابرة الآلهة، ويلحونها. ولكن ما إن تم غروب الآلهة هذا، حتى طلعت قوة خفية، فأعادت النظام. وعاد بالدر والآلهة أحياء، وبدأ عهد شامل، من السعادة.

وكانت هنالك عبادة، قائمة على الأضاحي، ولا سيما القرابين البشرية، تقام على شرف

---

(١٢) ويمكن أن نقرأ عن أساطير حلوة، أشياء كثيرة في الكتاب المذكور آنفاً لدوميزيل. وإن أسطورة بالدر معروضة ومشروحة لدى كثيرين، ومنهم سالومون ريناخ (في كتابه أورونوس)، وسوديربلوم (تاريخ الأديان)، ص: ٥٧٢ ـــ ٥٧٤.

هذه الآلهة. ويشرف عليها الكهنة. ويلاحظ سيزار، في مقطع كثيراً ما نوقش فيه، أن الجرمانيين، خلافاً للغاليين لا يعرفون الدراوودة (جمع درويد Druide، أي الكهنة)[١٣]. وصحيح أن المجتمعات الجرمانية «ليست مرؤوسة ولا مقودة بنظام كهنوتي، يملك معرفة واسعة وطقوساً معقدة». وليس على رأس الجماعة من إدارة تشرف على «الأمر المقدّس» بصورة مستقلة، وقوية، بحيث تضمن استمرار التراث الديني المعقد. بل لقد تساءل بعض الناس عما إذا لم يكن هنالك في بلاد الجرمن، من «كنيسة مرئية» قضي عليها فيما بعد، نتيجة «قيام أصلاح فيما قبل التاريخ»[١٤].

وكان الكاهن الأول، هو الملك الذي كانت سلطته تتصف بأنها «دينية سحرية». وكان يمكن أن يُقتل بسبب من العجز عن القيام بأعمال السحر. وكانت ممارسة الجرمانيين تتقلّب «بين مبدأين، أو بين نموذجين: مبدأ الدم، ومبدأ الذراع، أي الرئيس بالوراثة، والبطل، أو الإداري ــ الساحر ــ والغازي ــ المتفوق Le Conquérant-Champion[١٥].

تلك هي ديانة الجرمانيين القديمة التي ضاعفت الكنيسة المسيحية، جهودها، لمحاربتها، وانتهت بالقضاء عليها، وحطّمت «الأوثان»، واقتلعت الأشجار المقدّسة، وبنت كنائس في الأماكن التي كانت تشغلها المعابد القديمة (فالأديان يرث بعضها بعضاً، مادياً ومعنوياً)[١٦].

ومع ذلك فإن هذه الديانة القديمة باقية في صور شتى. فالأسماء الإنجليزية والألمانية لأيام الأسبوع، تذكّرنا بالآلهة القديمة[١٧]. وبعض الأعياد الشعبية تذكرنا بها أيضاً[١٨]. والدرامة الفاغنرية النبيلة ترفع من شأنها، على تغييرها بحرية، مجموعة القصص التي تتصل بنشاطها. ذلك أن بعض ممثلي الوطنية ــ الاشتراكية (الهتلرية) كانوا يريدون أن يبعثوا الديانة الجرمانية من جديد، ليُحلّوها محل المسيحية المفرطة في عالميتها، في رأيهم.

---

(١٣) سيزار. حروب الغاليين ٦، ص: ٢١.

(١٤) دوميزيل. نفس الكتاب، ص: ٥ ــ ٧.

(١٥) دوميزيل. كتابه المعهود، ص: ٢٣.

(١٦) شارلماني اقتلع الشجرة المقدّسة لدى الساكسون Irminsul.

(١٧) يأتي بعد يوم الأحد، يوم الشمس، يوم الاثنين، يوم القمر؛ فالثلاثاء، يوم مارس، فالأربعاء، يوم المريخ، أي Woden (wednesday؛ ويتحدث الألمان الأقل إخلاصاً لـ «أودين» Odin من السكاندنافيين، عن منتصف الأسبوع، mittwoch). ثم يأتي يوم الخميس، يوم جوبيتر jeudi، أي ثور أو Donnar (thursday, donnerstag)، ويليه يوم الجمعة، يوم فينوس أو فريا Freya (friday, freytag).

(١٨) إن الأعياد الزراعية، مع ملك مايس وملكته، تتابع شعائر الخصب على شرف Nerthus.

وهكذا فإن الأساطير الجرمانية القديمة ... عادت فأصبحت، بالمعنى الضيق، خرافات أو أساطير، لأنها تبرِّر، وتدعم، وتثير سلوكات فردية وجمعية، لها كل صفات المقدَّس[١٩].

....

وقبل المسيحية بعدة قرون، كان السلتيون ـــ الذين ربما جاؤوا من الجزر الدانيماركية والسهول الألمانية الشمالية الواطئة ينتشرون في أوروبا الغربية كلها. ويمكن أن نميِّز بين تمييزات أخرى، أولئك الذين أتوا من الجزر البريطانية، وخاصة من إيرلندا، وأولئك الذين جاؤوا من بلاد الغال. وسيطروا فيها على الشعوب الأقدم منهم، والمتصلين بمجموعة الليغوريين، وتبنّوا، على الغالب، قسماً كبيراً من معتقداتهم.

ولم يبق شيء من الأدب الديني السلتي، الشفهي أكثر مما هو مكتوب. ونحن نعرف معتقدات هؤلاء عن طريق الكتاب اللاتين، مثل سيزار وتاسيت؛ وعن طريق الأدب الإيرلندي الذي تعود أقدم مخطوطاته إلى القرن الحادي عشر، ولكنها تحتفظ بتقاليد أقدم بكثير من تاريخها؛ وعن طريق الأساطير الشعبية، شريطة أن نحسن تأويلها. ويمكننا أيضاً أن نحاول فهم الأوابد الحجرية القديمة، الموجودة بكثرة في مقاطعة بريتانيا: كالقبور الحجرية الخام (Dolmens) والأحجار الأخرى المنصوبة، إما بصورة منفردة، (menhirs) وإما على صورة دوائر واسعة (cromlechs)، وإما في صفوف طويلة (alignements)[٢٠].

وفي وسع الإنسان أن يقرأ حول ديانة الغاليين، فصل: الآلهة الكبرى في الغرب، في كتاب كاميل جوليان الذي عنوانه: «على عتبة تاريخنا»[٢١] وإعادة وضع الحوادث الدينية في مجموعة الحوادث الاجتماعية، بالاعتماد على كتاب المؤلف نفسه: تاريخ بلاد الغال، Histoire De La Gaule[٢٢].

---

(١٩) دوميزيل. نفس المصدر، ص: ١٥٥ــ١٥٦.

(٢٠) يستطيع الباريسي زيارة متحف سان ــ جرمان آن ــ لي وهو متحف للآثار الباقية مما قبل التاريخ، سلتية كانت أم غالية ــ رومانية.

(٢١) باريس Boivin ١٩٣٠.

(٢٢) باريس هاشيت ١٩٠٨، ٥ أجزاء.

ويرى مؤلف إغريقي آخر، في السنديانة، الإله الأعلى، أي «زوس» الغاليين(٢٣). وتعبّر هذه العبارة الكثيرة المبالغة، على كل حال، عن التقديس الذي كانت تتمتع به هذه الشجرة المقدّسة ــ وكان الكهنة الغاليون أي الدرويد، الذين يلبسون لباساً أبيض، ينزعون بمشذب ذهبي هَدَال (نبات طفيلي ينمو على أغصان الشجر) السنديانة ــ البلوطة، ويتناولونه بقماش أبيض: ويعتبر هذا الهدال ذلك الدواء الذي يشفي كل داء.

أما «الحيوان السحري» لدى الغاليين، فإنه كان يشتمل على عدد كبير من الحيوانات المقدّسة. وكانت بعض القبائل تحمل اسمها: فالتوريسي Taurisci، هم جماعة الثور، والبرانوفيس Brannovices، جماعة الغراب. وكانت الشعارات تحمل في أعلاها صورة خنزير بري. وفي المكان الذي تقوم فيه نوتردام باريس، وجد علماء الآثار، هيكلاً (أو مذبحاً) عليه صورة ثور مع ثلاثة كركيات. وكان الأرنب حيوان فأل. وكان الديك ينفع في استبعاد الصواعق، على ما يستمر في فعله على أجراسنا.

وقريباً من برن، مدينة الدب، اكتشف علماء الآثار مجموعة مصنوعة من البرونز، تعود إلى بداية العهد المسيحي، تمثل، إلى جانب دب من قامة كبيرة، إلهة ذات اسم سلتي، هو ARTIO(٢٤)، وهي إلهة لها رفيق هو الدب. والأرجح أنها كانت ــ إلهة ــ دبّاً، أو دباً مقدّساً. ثم إن مدينة برن تربي دوماً بعض الدببة. ويرى سالومون ريناخ الذي درس هذه الوقائع كلها، بشكل خاص، يرى في هذه العادة «مثالاً على مخلّفات الطوطمية في البلاد الغربية(٢٥)».

وكانت تشتق من الطوطمية محرّمات غذائية. فكان السلت يأنفون من أكل لحم الحصان. وتبعاً لبلاين القديم pline، كان قطف الهَدَال متبوعاً بتضحية ثورين أبيضين وبوجبة مقدّسة. وكان هنالك محرّمات أخرى غالبة في بلاد الغال. فكان محرّماً أن تمس غنيمة غنمت من العدو. وكان هناك تابو آخر يحرّم على الابن أن يقترب من أبيه المسلّح.

....

«وقد نشأ عن ذلك أن الفتيان كانوا يُربّون في أسر غريبة أو على يد الدرويد، وهي عادة قديمة

---

(٢٣) ريناخ، أورنوس، ص: ١٦٧.

(٢٤) إن هذا الاسم السلتي قريب من اسم الدب بالإغريقية arktos.

(٢٥) ريناخ، كتابه الآنف الذكر، ص: ٢٣ــ ٢٤ و ١٦٩.

طال بقاؤها في إيرلندا، ومن هذه العادة يمكن أن نفهم حرص الفرنسيين، والإنجليز، خاصة، على إبقاء أبنائهم في المدارس الداخلية(٢٦).

وكان هنالك، منذ أيام الليغوريين، أمكنة مقدّسة: كالينابيع، والجبال، والغابات، ويبدو أن الكروملیش★، والألينيومان تحدِّد أو تعيِّن مناطق مقدّسة، مخصّصة للقيام بالشعائر الدينية.

والدولمن Dolmens، قبور مخصّصة على الأرجح، للطبقة الأريستقراطية. وتشهد الأشياء العادية والكمالية التي نجدها فيها على الاعتقاد بالبقاء بعد الموت. وتعتبر المانهير Menhirs كمصاطب جنائزية، أو منازل تسكنها روح جد قديم، أو كائن إلهي.

وكان الدرويد يؤمنون بخلود الأرواح: وتبعاً لبعض النصوص، فإنهم كانوا يؤمنون بالتقمص؛ وتبعاً لنصوص أخرى، كانوا يحسبون أن الأرواح تهاجر إلى الغرب، وتسكن في جزر بعيدة وسعيدة.

«وحرصاً على تجنيب الموتى رحلة طويلة جداً على الأرض، من يدري ما إذا كان المعاصرون للدولمن Dolmens، لم يكونوا يقبرون أقرباءهم على شواطىء هذا البحر الذي كان ينبغي اجتيازه»(٢٧).

وقد عَلّل بعض الباحثين شجاعة الغاليين، وعدم اهتمامهم بالموت، بتلك القناعة بالبقاء بعد الموت.

....

ومن المرجحّ أن السلتيين كانوا قد أخذوا عن الليغوريين، عادة عبادة «الأرض ـــ الأم». وكانوا غالباً ما يجمعّون ثلاث إلهات ـــ أمهات، تسمى باللاتينية Matres أو Matronac، وربما كانت العذراوات ـــ السوداء المحلية مخلفات لها.

ويُوَحدِّ سيزار بين الآلهة الخمسة الكبار الغاليين، وبين آلهة الرومان. «ولما كان صديقاً لبعض الدرويد» فقد عرف، تبعاً لدوميزيل، كيف «يعرِّفها بشكل ممتاز»(٢٨). وكان الإله الكبير هو

(٢٦) ريناخ، كتابه الآنف الذكر، ص: ١٧٠ ـــ ١٧١.

(★) الكروملك أو الكروملیش: آثار مؤلفه من حجارة منصوبة حول حجر كبير، والدولمن من هذا النوع تقريباً.

(٢٧) Camille Jullian, Histoire de la Gaule, t. I, PP. 156-159.

(٢٨) Dumézil, Mythes et dieux des Germains, P. 8.

توتاليس Teutalès ، وهو إله المدينة «والإله العام» ويوحِّد سيزار (أو يماهي) بينه وبين عطارد mercure ، مبدع الفنون وأبي القوانين ، ومربي الشعب . ـــ ويأتي بعده ، جوبيتر ، تارانيس ، إله الرعد ، القيِّم على السماء . وكان هنالك «مارس» غالي يشرف على الحرب . وهناك «أبولون» يطرد الأمراض . وكانت «الزهرة» معلمة الحرف . ـــ وهكذا عرّف سيزار الآلهة بمعايير اجتماعية : فقد كان هناك إله للمخترعين ، وللدرويد ، والمحاربين ، والأطباء ، والعمال . وإذا لاحظنا أن عطارد يشغل المكان الأول . فإن ذلك يُرَدُّ إلى نمو التقنيات ، وقيمة الفنون في العالم السلتي(٢٩) .

ومن طرائف الديانة ، لدى الغاليين ، كما هي الحال في الجزر البريطانية ، وجود أو إنشاء طبقة من رجال الدين الوطنيين ، وجمعية الدرويد (الغزيري العلم)(٣٠) . وكانوا يؤخذون من النخبة العقلية والاجتماعية . وكان الدرويد المقبل ، كالبراهمان الفتي في الهند ، وكالفلامين المقبل في روما ، يقوم بدراسات طويلة ، قد تدوم أحياناً عشرين سنة . وكانت الدراسة تقتضي جهوداً مضنية من الذاكرة ، لأن الأدب المقدَّس كان شفهياً : وكانت القضية تنحصر في تعلم الأساليب أو الصيغ السحرية ، والمفردات والتعابير المقدَّسة ، والأساطير والشعائر ، والكهانة وعلم التنجيم .

وكان الدرويد يشرفون كل الإشراف على الأضاحي ، هذه الأضاحي التي تقيم أود الآلهة . ويقال إنهم كانوا من قبل يقدمون قرابين بشرية ، أي أنهم ينفذون حكم الإعدام في أفراد محكومين ، بسبب جرائم ضد الحق العام . وكانوا يقطفون الهدال . وكان عليهم ، خلال مدة طويلة ، وقبل فصل السلطات بعضها عن بعض ، أن يقوموا بدور القضاة ، والفصل في المنازعات التي تقع بين الأفراد ، والجماعات ، وأن يشرفوا على إدارة المدن . وكانوا يجتمعون ، في أوقات ثابتة ، وربما في غابة قريبة من أورليان ، لتسمية رئيسهم الأعلى ، وتعيين اتجاه سياستهم .

وكان عملهم الأكبر ينحصر في تعليم الشباب : إذ أنهم كانوا يربون كل المراهقين النبلاء . ويعزى إليهم هذا التعبير الذي يلخِّص أخلاقهم : «مجِّد الآلهة ، لا تفعل الشر ، وكن شجاعاً طيباً» .

ويمكن أن يعتبر الإيمان بالقيمة الكبيرة للشجاعة ، والميل الشاعري إلى الطبيعة المعمورة

---

(٢٩) ويشبه دوميزيل التسلسل المكتشف بهذه الصورة ، بالتسلسل الهندي ـــ الأوروبي وبمكانة المبدع وحضوره القريب ، على فقدان غريب ـــ للمربي ـــ المزارع (كتابه المعروف ، ص: ١٠).

(٣٠) انظر ما سبق ، الصفحة الثانية من هذا الفصل ، في الحاشية رقم ١ هذا وقد أهمل الباحثون ، بصورة عامة الفكرة القائلة بأن كلمة druide تأتي من كلمة drusأي السنديانة .

بالأرواح، بمثابة المساهمات الكبرى التي قدمتها الديانة الجرمانية والديانة السلتية، إلى الحضارة العالمية.

....

ولم تنجح الكنيسة الكاثوليكية في القضاء نهائياً على الممارسات والمعتقدات السلتية، وحتى الليغورية. ولما لم تستطع القضاء على المنهير MENHIRS (وهي نصب حجرية عمودية قد تبلغ العشرين متراً في الارتفاع) فإنها اكتفت بأن وضعت صليباً في أعلى كل منها.

ولم تستطع المسيحية كسب الجماهير، ولم تصبح عقيدة شعبية، إلا عندما أصبح للمدن والقرى قبورها الخاصة بالقديسين المحليين، الذين يشفون الأمراض، ويحمون المحاصيل[٣١].

ونعثر في بعض الأرياف الفرنسية على مخلّفات وثنية كثيرة أخرى: كالإيمان بالـ feux-follets والـ loups-garous[٣٢] والصفة المقدَّسة لبعض الينابيع، وبعض الأشجار، مثل السنديان المبارك، وأنوار القديس يوحنا، الخ. أما الإيمان القديم بعدد كبير من الشياطين في بلاد الغال، فإنه ما يزال شديد الحيوية، لأنه ذو جذور عميقة في أرضنا[٣٣].

---

(٣١) كاميل جوليان، تاريخ بلاد الغال، الجزء ١ ص: ١٤١.

(٣٢) الكلمة الأولى تعني نيراناً تشاهد في المقابر (كوهم)، والثانية تعني نوعاً من الذئاب تعيش في أواسط فرنسا وترد في حكايات الأطفال.

(٣٣) انظر ريناخ في كتابه أورفوس، ص: ١٨٣.

الفصل الحادي عشر

ديانة اليونان القدماء

لقد وجدت ما بين الألف الثالثة، والألف الأولى، قبل العهد المسيحي، في جملة من بلاد جنوب أوروبا، مثل كريد، والبيلوبونيز، (بلاد اليونان) حضارات رائعة، هي التي نطلق عليها الآن، اسم الحضارة الإيجية، ثم المينوية، ثم الميسينية.

وكان الإيجيون، حول الألف الثالثة ق. م، قد أسسوا في كريد أمبراطورية وصلت إشعاعاتها إلى مسافات بعيدة في البحر. وكانت أمبراطورية بحرية، سميت في الأيام التي وصلت فيها إلى أبعد امتداد لها، باسم أعظم ملوكها «مينوس الأسطوري» أي الأمبراطورية المينوية. وقد أثرت هذه أعمق الآثار في بلاد اليونان (البيلوبونيز). ولكن الآخيين الشقر القادمين من MYCENES، استعاروا من الإيجيين السمر، قسماً كبيراً من ثقافتهم: إذ بدأ حول العام ١٦٠٠ ق. م، عهد مينوي أول[1]. أما في كريد نفسها، فإن الآخيين هم الذين يحتلون مركز الصدارة، حوالي العام ١٤٠٠، وعندما اتحد الآخيون تحت قيادة ملك ميسّين MYCENES آغاممنون استطاعوا الاستيلاء على طروادة، حول العام ١١٨٠ بعد حصار طويل، وحطّموا الأمبراطورية الحثية، إلا أنهم فوجئوا، بدورهم، بغزو كبير. ففي العام ١١٠٠ ق. م، جاء هنود أوروبيون من الشمال، كان أقواهم فئة

(١) إذا عدنا إلى التصنيف الذي يتبناه الدكتور كامل عياد في كتابه عن تاريخ اليونان نجد أن العهد-المينوي الأول بأدواره الثلاثة يبدأ من العام ٣٠٠٠ إلى العام ٢١٠٠ والعهد المينوي الثاني يقع ما بين عامي ٢١٠٠، إلى ١٥٨٠، ثم العهد المينوي المتأخر ويقع بين عام ١٨٥٠ و ١٢٠٠ ق.م.

الدوريين Doriens ، وانتصروا على الآخيين في « الأتيك » والجزر . بيد أنهم كانوا من الذكاء بحيث اعترفوا بتفوق الحضارة التي طردوا أو قضوا على ممثّليها ، واعتنقوا معتقداتها ، وأخذوا بأعرافها .

....

ولكي ندرس ديانة الأغارقة ، لا مجال أمامنا للإستعانة بكتاب مقدّس ، إذ لم يوجد شيء من هذا النوع ، كما لم توجد مطلقاً عقائد مفروضة .

أما المصادر الأساسية فهي ثمرات الأدب الإغريقي ؛ ولا سيما الايلياذة ، والأوديسية ، لهومير ، أو المؤلف أو المؤلفين ، الذين يطلق عليهم هذا الاسم ؛ ثم قصائد هيزيود Hésiode (القرن التاسع أو الثامن ق . م) . ثم إن لدينا أيضاً جملة الوثائق المادية والنفسية ، المكتشفة خلال الحفريات الرائعة التي تمت على يد الألماني شليمان SCHLIEMANN (١٨٢٢ — ١٨٩٠) ، في طروادة ، وميسين MYC'ENES وتيرانث TIRYNTHE ، وعلى يد الإنجليزي إيفانس EVANS في كنوسّس في كريد ، وعلى يد المدرسة الفرنسية في آثينا ، وعلى يد مختلف العلماء في نقاط مختلفة من كريد واليونان .

وقد أتاحت لنا مكتشفات هؤلاء أن نبدِّد خطأين كبيرين حول ديانة اليونان . ذلك أن الأغارقة في العصر الكلاسيكي ، قبلوا هم أنفسهم ، وحملوا الآخرين من المؤرخين على الاعتقاد بأن الهنود — الأوروبيين ، في العهود البدائية ، هم الذين غزوا البلاد ، وحملوا الحضارة إلى شعوب نصف متوحشة . ولكننا نعرف اليوم أن هذه الشعوب المغزوة كانت أعلى حضارياً ، بكثير ، من غالبيهم .

ومن جهة أخرى ، فلطالما ظن الناس أن الآلهة المصنوعة على صورة الناس ، على طريقة هومير والكتاب الأغاريق ، كانت في مركز الحياة الدينية الهيلينية . ولكننا نعرف اليوم أنه كان إلى جانب هذه الديانة الرسمية ، ديانة شعبية أكثر حيوية ، مصحوبة بتيار روحاني عميق جداً .

وهذه الأفكار الجديدة ، الموجّهة ، هي التي تحدِّد وجهات نظر الكتاب الذي خصّصه Rich.Kreglinger للبحث في الديانة لدى الإغريق ، في إطار سلسلته المعروفة بعنوان : دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية (الجزء ٢)(٢) . وبهذا الكتاب ننصح الدارسين لهذا الموضوع . وسنضع

(٢) إن العنوان الكامل هو La Religion chez les Grecs et les Romains (Bruxelles, Lamertin, 1920) .

الحوادث الدينيـة في إطـار الحوادث الاجتماعيـة الأخـرى، بفضل Alfred Croiset في كتابه عن الديمقراطيات القديمة[٣] وموريس كروازيه في كتابه عن حضارة اليونان القديمة[٤].

....

ويبدو أن الديانة الشعبية الإغريقية قد تأثرت تأثراً عميقاً بطوطمية قديمة. فقد كان هنالك نباتات مقدَّسة، ــ مثال ذلك سنديانة دودون Dodone التي تقـدم النبـوءات، أو الإجابـة عن الأسئلة المتعلقة بأمور الغيب؛ ــ وحيوانات مقدَّسة: مثال ذلك في كريد، ثور مينوس، المينوتور minotaure. وكثيراً ما كانت الأساطير اللاحقة تجعل من هذه الحيوانات المقدَّسة، إما ضحايا لإله ما، مثال ذلك العظاية lézard، ضحية أبولون، وإما الرفاق المألوفين لألوهية ما ــ مثال ذلك نسر زوس، وشوحة آثينا.

ويرى سالومون ريناخ أن تقمصات الآلهة التي تتخذ شكلاً حيوانياً، هي «من التاريخ الديني الذي يروى بالمقلوب، أو بصورة معكوسة»[٥] فزوس ينقلب إلى تمّ أو إوزة عراقية لكي يغري ويغوي ليدا Léda التي تبيض بيوضاً: وهذا يعني أننا أمام إوزة طوطمية أُلِّهت فيما بعد، وكانـوا يعتبرونها أباً لأطفال إنسانيين.

وكثيرة هي القبائل الإغريقية، التي أصبحت شعوباً، وظلّت تحمل أسماء حيوانات، مثل الميرميدون (أي النمل)، والأركاديين (الدببة).

ثم إن تضحية الحيوان المقدَّس، واستهلاك لحمه، في نوع من المشاركة العامة، كانا الأصل في بعض الطقوس. مثال ذلك في أثينا، تلك التضحية السنوية لثورٍ إلهيٍ في حفلة يطلق عليها اسم البوفونيا Bouphonia. وكذلك فإن لبعض الأقنعة نفس الأصل: ففي أثينا ترقص بعض الفتيات بلباس الدببة، وتتخذ أسماءها.

وفي الأصل، آمن الإيجيون والآخيون بقوة إلهية لا شخصية شبيهة بالمانا لدى البدائيين. وتوجد هذه القوة بشكل خاص في بعض الحجارة المقدَّسة، التي يفترض أنها سقطت من السماء،

(٣) باريس ــ فلاماريون، ١٩٠٩.

(٤) باريس ــ بايو ١٩٣٢.

(٥) سالومون ريناخ، أورفوس، ص: ١٢٠.

كأومفالوس omphalos دلف، صرة العالم؛ وفي بعض الحجارة المنحوتة والمنصوبة، على نحو ما وجد منها في كنوسوس، وستصبح هذه فيما بعد هرمسيات Hermés، أي حدوداً مزينة برأس إنساني، وقضيب جنسي؛ وفي بعض الأشياء، كالفأس المزدوجة، وهو سلاح للتضحية، ولابريس الكريديين labrys[٦] أو كلاب رعاتهم. وفي إيلوزيس المستجد كانت الكاهنات تُهَوِّي المستجد، لتحريره من خطيئاته، وإدخال المانا إليه.

وتعمر الأرواح الطبيعة كلها. ويمكن أن نُصوِّر هذه الأرواح بصورة حيوانية أو إنسانية: فالينبوع يصبح حصاناً.

وتمثل أرواح الموتى على صورة الثعابين، والطيور، والفراشات خاصة (ونلاحظ أن الكلمة نفسها psyché تدل على النفس والفراشة معاً) ويبدو أن الأغارقة أخذوا بآراء متناقضة، حول حياة الآخرة. فتارة يستمر الموتى، تحت الأرض، في حياة يجب على أبنائهم من بعدهم أن يحاولوا، بقرابينهم، جعلها حياة مريحة. وتارة، نجد النفس، تترك الجسد وتمر بالستكس STYX، وتذهب إلى جهنم، حيث تحاكم من قبل MINOS و Eaque' ورادامانت Rhadamante. فإذا هي استحقت العقاب، فإنها تخضع له في التارتار Tartare. وإذا استحقت الثواب، فستمضي سعيدة إلى الحقول الفردوسية (Champs 'Elysées).

ومنذ عهد قديم، ثارت شكوك حول وجود حياة الآخرة وطبيعتها. «وبطبيعة الحال فإن النزعة العقلانية تأبى الاعتراف بوجود الأشباح[٧] وتنحرف ديانة هومير، حول هذه النقطة، انحرافاً كبيراً، عن التقاليد الشعبية. ويعتبر آخيل هومير أن من الأفضل للإنسان أن يكون جندياً من المرتزقة في الدنيا، على أن يكون سيد الأشباح أو الأرواح جميعاً.

وكان للروحانية لدى الإغريق مرافقها الطبيعي، أي السحر. وفيه نجد كل السمات المميّزة للسحر الإحيائي. ولما كان هنالك هوية واحدة للصورة والحقيقة، فإن صورة الإله تملك قوته وسلطته. وقد أرسلت إسبارطة إلى اللوكريين تماثيل ديوسكور Dioscures لمساعدتهم. ثم إن التماثيل النسوية التي يصنعها الفنانون تسرّ الموتى سروراً عظيماً ــ وكذلك قيمة الحلم: فإننا نتعلم منه أخبار حوادث دقيقة. ففي إبيدور EPIDAURE'، يشفى الإنسان من مرضه، إذا حلم بأنه لم يعد

---

(٦) لم نعثر على معنى هذه الكلمة في القواميس التي بين أيدينا، ويقول مؤلف هذا الكتاب: لقد وُجد من يشتق اسم labyrinthe من هذه الكلمة.

(٧) سوديربلوم، Manuel d 'histoire des religions, P. 414.

مريضاً ــ وممارسة الافتتان أو الفتنة : فيتوقريط Théocrite ، في مقطع شهير من غزلياته IDYLLES[٨] يصف عمل إحدى الساحرات . ولقد وجدوا في أحد القبور الآثينية ، تماثيل صغيرة من الخشب في القلب الذي اخترقه مسمار . ــ وتأثير الكلمات ــ « فزوس ، يتكلم ، من أجل أن ينفذ ما عزم عليه ، وبحكم هذا الكلام ، كل شيء يتم على ما هو مطلوب[٩] » ــ وتأثير اللعنات : فتلك التي لاحق بها شعب آرغوس ، المدعو Atrée ، قاتل أبناء أخيه ، هي التي تفسّر موت ابنه آغاممنون ، ومصائب الأتريديين . ــ وتأثير الأيمان : « ليتميَّع مُخ الذي يحنث بيمينه ، وينصب على الأرض[١٠] » .

وشعائر المحاكاة جزء أساسي من العبادة . فالكوريت Courètes يضربون تروسهم ، تقليداً للرعد ، وجلباً للمطر . وفي كريت وديلوس تقوم آريان الشقراء برقصات معقدة ، في ثنايا المتاهة ، مقلدة مسيرة الشمس ، في عالم من النجوم ، مساعدة لهذا الكوكب على حسن متابعته لمسيرته .

ثم إن النحت ، في اليونان ، والرقص ، والشعر ، والمسرح ، وصور الفن كلها ، نشأت كلها في أحضان السحر : وهذا ما يساعد على فهم قوتها الإيحائية : « فالفن ، والأدب الإغريقيان ، مهما يكن الشكل العقلاني الذي انتهيا إليه ، يظلان دوماً تعابير عن العقلية السحرية[١١] » .

....

ولقد سبقت الإلٓهات في كريد واليونان وجود الآلهة ، وكان يجب أن تكون أقدم الإلهات ، هي الأرض ــ الأم ، Gè إلهة الخصب التي تلد النباتات ، والحيوانات ، والناس ، لكي تعود فتأخذهم إليها .

وهذه الأرض ــ الأم هي التي نجدها ، في صور مختلفة ، في كل الإلٓهات الأخرى : ــ في غايا Gaîa ، أم الآلهة الأولمبية ؛ وفي آرتيميس Artémis ، المعبودة تحت رمز المولتي ماميا Multimammia في

(٨) ولا سيما في القصائد : ١٧ ــ ٤٢ .

(٩) إيشيل (أو أسخيل) ، Les Suppliantes ، ص : ٥٩٨ ــ ٥٩٩ .

(١٠) هومير ، الالياذة ، ٣ ، ٢٩٥ ــ ٣٠٠ .

(١١) Kreglinger ، كتابه المعروف ، ص : ٣٧ . ويكتب المؤلف عن هذا الموضوع في الصفحات : ٣٢ ــ ٣٧ من كتابه .

معبدها Ephése' المشهور، ورفيقة الحيوانات المتوحشة، وحامية صغارها قبل أن تصبح صيادتها؛ ــ وفي أفروديت، الشهوانية أكثر من أرتيميس، والأكثر رقة، وهي إلهة الحب، والجمال، والأزهار: وقد انتشرت عبادتها التي جاءت من جزيرة قبرص، في أنحاء اليونان كلها. وكانوا يشركون معها إيروس EROS'، الذي كثيراً ما يعتبر ابنها، وأحياناً يرى كأنما وجد قبلها، ليساعدها على الخروج من الأمواج، عندما تولد من زبد المحيط.

ثم إن الأرض ــ الأم أيضاً، هي التي نجدها في هيرا. Héra، إلهة النبات، قبل أن تصبح زوجة زوس، والحارسة الغيور لقوانين الزواج؛ وفي Déméter، وهي إلهة أخرى للنبات، وأم القمح، والمعبودة، خاصة، في إيلوزيس ELEUSIS'[١٢] ــ وحتى في آثيني Athéné، التي كانت إلهة شجرة الزيتون، قبل أن تصبح حامية أثينا، حيث ما تزال يحتفل بها في أعياد ريفية.

ولم تظهر الآلهة، إلا بعد الإلهات. ويجب أن يكونوا قد أدخلوا على يد المهاجمين الهندو ــ أوربيين، المحاربين البدو، الذين كان عليهم أن يعظموا رئيسهم ككائن إلهي، قبل أن يعتبر كأحد أبناء إله ما. وعلى كل حال، فإنه كان لكل قبيلة إلهها الذي يقودها إلى النصر. وقد سمح لهم ظفرهم كغزاة، بأن يُحلوا محل المجتمع الأموي القائم في الجماعات السابقة للهيلينية، والتي تعبد الأرض ــ الأم، مجتمعاً أبوياً، كان فيه للأب كل الحقوق[١٣].

ولعله يجب أن نضع قبل عهد السيادة المنتصرة في الحرب، عهداً آخر من «السيادة السحرية ــ الدينية»، كان الإله الأكبر خلاله هو أورانوس السماء، «السماء التي لا يخفى عليها شيء» ــ والذي «يصل» بوسائل سحرية، ويجمد خصومه السيكلوب ــ إنه أورانوس، الذي وَحدّوا بينه وبين فارونا الهندوسي[١٤].

---

(١٢) انظر فيما بعد، ص: ١٩٧.

(١٣) انظر Kreglinger (ص: ٦٣، رقم ٣). ويرى هذا المؤلف تعبيراً عن هذا التغيّر في النظام القائم، في مقطع غريب، من الـ Euménides d'Eschyle (٦٥٨ وما بعدها) حيث يناقشون فيما إذا كان من الأخطر أن نقتل الأم أو أن نقتل الأب، وأي الأبوين يجب أن يمجّد أكثر من الآخر. ويؤكد المؤلف أن الأب وحده يخلق؛ أما الأم فإنها تستقبل ما بذره الأب. وأصلاً فإن في وسع الإنسان أن يكون أباً بلا مساعدة من الأم. وهكذا فإن زوس أبو آثيني، التي انبثقت من دماغه.

(١٤) انظر ما سبق، ص: ٦٣. وانظر كتاب «المقارن comparatiste» دوميزيل، أورانوس ــ فارونا (باريس ــ ميزون نوف، ١٩٣٤)، وانظر كذلك في كتاب هذا الأخير: أساطير الجرمن وآلهتهم (باريس ــ لورو ١٩٣٩)، في الصفحات ٢١ ــ ٢٣، و ٣٨ و ٤٦ أما أوكيانوس فربما كان صنواً لأورانوس، ولكنه شُبّه بالأوقيانوس، بدلاً من أن يُمَثل بالسماء (ص: ٣٨).

وكان الإله الأكبر، أيام السيادة العسكرية، هو كرونوس CHRONOS أولاً، أي الزمان، الذي خلع أورانوس، عن عرشه، والذي خلع هو نفسه على يد ابنه زوس، بعد صراع عظيم، انتصر فيه الأولبميون على التيتان Titans. ولم يعد كرونوس يلقى التمجيد إلا في أعياد العبيد، أي في أعياد المغلوبين.

وهكذا فإن زوس، الإله التسالي الأكبر thessalien (من منطقة التسالي) وإله الشعوب الآخية الذين استقروا قريباً من الأولمب، يصبح الإله الأعظم. ونراه يختار كمسكن له، عدا الأولمب، جبالاً أخرى، مثل إيدا Ida كريد وإيدا بيثني BITHYNIE — ومع ذلك فإننا، نجد فوق زوس نفسه، قوة لا يستطيع حيالها شيئاً: هي المصير Moîra.

وتحيط بزوس، ألوهيات كانت في الأصل، آلهة محلية، كل واحد منها يعتبر لدى قبيلته، أو شعبه، كما لو أنه يملك سلطة على السماء، والنجوم، والبحر، والبر، والكائنات الإنسانية. ثم إن هذه الآلهة المحلية، تتجاوز حدود منطقتها الأولى، وفي الوقت نفسه، نراها تتخصّص، وتتقاسم فيما بينها النشاطات الإلهية الأساسية. وهذه هي الآلهة التي يقدمها لنا هومر، بعد أن لبست حُلّة إنسانية، وتزيت بزيها: مثل بوسيدون Poseidon إله البحر؛ وأبولون، إله النور، وديونيزوس إله الخمرة، وهرمس Hermés، إله التجارة والبلاغة أو الفصاحة، الخ.

....

ومنذ أيام هومير، كان هنالك كهنة مرتبطون بالمعابد: إنهم وزراء الإله الذي يخدمونه؛ والذي يحميهم. وهم لا يتلقون تعليماً خاصاً؛ بل يتعلمون الشعائر والطقوس بالممارسة. وهم لا تجمع بينهم رابطة، ولا يؤلفون طبقة كهنوتية على حدة. أما عملهم فإنه ينتقل منهم، تارة بالوراثة (مثال ذلك في إيلوزيس) وأحياناً بالانتخاب، أو حتى بالسحب، على طريقة اليانصيب.

ويشرف الكهنة على القرابين، المعدّة لكسب رضى الآلهة: فيقتلون حيواناً مكرّساً لهذه الغاية، أو يحرقونه تماماً (وهذا ما يسمونه باسم الهولوكوست Holocauste). ويطهرون المؤمنين، أو يرشونهم بالماء المالح، ماء البحر، أو يُغشّونهم بالدخان، وهذا هو الأفضل، على أن تقرع الصنوج، التي تخرج الأرواح الشريرة. ويحدث أحياناً — كما في إيبيدور EPIDAURE' — أن يشفوا المرضى، باستخدام الإيحاء بالدرجة الأولى: وقد علمن هيبوقراط، «هذا الطب الكهنوتي» الذي استمر يخدع الناس حتى آخر العصور القديمة.

ويهتم الكهنة أيضاً بالكهانة (أو العرافة). ويقع أهم مراكزها في دلف Delphes، حيث تتكهن بيتي Pythie. وتمضغ هذه الفتاة المطهّرة بالماء الطهور، أوراق الغار، وتتنفس دخان مثل هذه الأوراق، ثم يصيبها ما يشبه الهذيان، وتتلفظ بكلام يتولى الكهنة بعدها تفسير معانيه.

وتقام على شرف الآلهة احتفالات كبرى، أو محلية، في ما كان يحدث مثلاً في أثينا، على شرف آتيني Athénes، مثل أعياد الباناتينية، أو الباناتا هيللينيك—ومثل الأولمبيك Olympiques. وفي الإطار الرائع المحيط بالأولمبي Olympie، كانوا يمجدون زوس، داخل معبده، أو قريباً منه. وكانوا يقومون بألعاب معدّة لمعرفة الأعظم قوة، أو الأعظم مهارة: كالجري على الأقدام، أو المصارعة، pancrace، أو رمي أقراص الحراب، أو التسابق بالخيل. وفي الوقت نفسه كانوا يقدمون تمثيليات فنية وموسيقية، ومحاضرات فلسفية، أو عروض أعمال فنية. وكان الجمهور يصفق للبطل الرياضي المنتصر ويهتفون له، وللإلهي أفلاطون.

وكان يحضر كل أهل أثينا هذه الاحتفالات بقوة الجسم والعقل، بل كل الأغاريق. وكان يقبل في المسابقات كل أبناء المدن، من غير تفريق. وحباً بضمان الوصول إلى الأولمبي، كانوا يعلنون عن هدنة مقدَّسة لكي تستطيع الوفود الداخلة في المسابقة، أو المتفرجون أن يشاركوا بالاحتفال، بحرية وهدوء... وكان على هذه الهدنة أن تدوم ما دامت الاحتفالات قائمة. وتمنع عندئذ كل الأعمال الحربية. وكانت الروح الرياضية، والمحبة للفكر، والسلام، التي تشيع في الأولمبي مما يمكن أن يشاد به كواحد من أروع منتجات الحضارة الهلينية، وأكثرها انسجاماً.

....

ويمكن القول إن المراكز الكبرى للحياة الدينية، كانت كذلك مراكز للتفكير الأخلاقي. ففي أولمبيا، كان الإله المحتفى به سيد بلاد اليونان كلها. إنه زوس هيلينيوس، وكذلك المسيطر على العالم وعلى باب معبد إبيدور، كتب الكهنة هذه العبارة: «إن كلّ من يريد الدخول إلى هذا المعبد المعطر بالبخور، ينبغي أن يكون نقياً، أي أن تكون أفكاره فاضلة.» وعلى معبد دلف، نقشت هذه الكلمات الحكيمة: «إعرف نفسك بنفسك» و«لا شيء من الإفراط». وكانت الخطيئة العظمى هي الزهو أو الاعتداد بالنفس (Hybris) الذي يثير غيرة القوى السماوية. والفضيلة العظمى، هي الاعتدال.

ومع ذلك، ومن نواح أخرى، كان يبدو أن الدين لا يبالي بأية قيمة أخلاقية. بل إن هذا ما يلاحظه في القرن السادس ق. م، الفيلسوف اكزينوفان Xénophane، بكلمات حادة بشكل خاص: «إن الجرائم كلها عزيت إلى الآلهة من قبل هومير وهزيود. وكل ما هو موضع لوم واستنكار، لدى الناس، وكل الأعمال الشائنة، تملأ أغانيهم: كالسرقة، والزنى، والخداع المتبادل.» وتعليل ذلك، هو أن الناس صنعوا الآلهة على صورتهم. «ولو أنه كان للثيران والأسود أيد تعرف كيف ترسم، كالبشر، إذن لصنعت آلهة تشبهها هي نفسها.» ويؤكد اكزينوفان أنه ليس هنالك إلا إله واحد... لا يشبه البشر لا في الجسم ولا في الفكر(١٥).

ومنذ ذلك الحين، كان أمثال سقراط، أو أفلاطون، أو أرسطو، أو إبيقور، الخ... ينقدون بحرية ما شاؤوا من المعتقدات الدينية، فيقبلون بعضها، ويطرحون البعض الآخر.

وبتأثير هؤلاء، أو بصورة أبسط، بسبب من الاستعدادات الطيبة للفكر الإغريقي — المغرم بالاستقلالية العقلية، والانسجام المعقول، والجمال الرصين — كان الهيلينيون يفكرون بحرية وكما يريدون، في الأمور الدينية. فليس هنالك لا كتب مقدّسة، ولا عقائد مفروضة، ولا سلطة كنسية، ولا اعتماد متعصب على القوة. «ويقول الفكر ما يريده، بكل حرية»(١٦).

بيد أن الديانة التي تفهم بهذه الصورة تبدو شديدة الجفاف، لبعض النفوس. وهذه تتجه عندئذ إلى الصوفية الروحانية.

....

وكان للحياة الدينية الإغريقية القديمة الشديدة العمق شيء أساسي، أو مركزي تدور حوله. وهو الأسرار. والقضية هنا هي أن نقرب الإنسان، بقدر الإمكان، من الكمال الإلهي، لكي يتاح له أخيراً أن يتمثّل في داخله تلك المادة المتعالية على الإنسان التي صُنعت منها الآلهة، أو أن يذوب هو، وينحل، في اللا نهائي الإلهي. وهذا الاتجاه الأخير هو تماماً ما يسمى بالاتجاه الروحاني أو

---

(١٥) نصوص ذكرها كريغ ليبغر، ص: ٧٨.

(١٦) ألفريد كروازيه. الديمقراطيات القديمة (باريس — فلاماريون ١٩٠٩) ص: ١٥٤. ويمكن الاعتراض على قولنا هذا من حيث أن فلاسفة كثيرين عذبوا في آثينا، وأنه حكم على سقراط بالموت. وقد أجيب عن ذلك بأن القضايا التي هي من هذا النوع تتصل بالسياسة لا بالدين، بالمعنى الدقيق.

الصوفي Mysticisme : وهو الجهد الذي تبذله النفس لتجاوز شرطها الإنساني والحياة بأقوى صورة، حياة إلهية[١٧].

وإذا فهمت الروحانية بهذه الصورة فإنها تبعث من الموت، أقدم التصورات الدينية، أي فكرة المانا ــ التي كانت قد لاحظت وجودها في بلاد اليونان[١٨].

وأهم هذه الأسرار، هي تلك التي تعود إلى ديونيزوس وديميتر.

فالإله التراقي (من مقاطعة تراقيا) ديونيزوس، أو باخوس، هو ابن امرأة فانية، هي Sémélé (الأرض) التي تصعَقها هيرا الغيور. فيقوم زوس، بإخفائها موقتاً، طمعاً بإنقاذها، في فخذه[١٩]، ثم يأمر بحملها إلى مغارة حيث يقوم ديونيزوس باختراع الخمرة. ونلاحظ في هذه القصة رمز الأرض، التي متى أصابتها نار الشمس، أنتجت الأعناب؛ فإذا سحقت هذه، عاشت من جديد في صورة الخمر، الذي ينشر الفرح.

ويُوَحَّد عادة بين ديونيزوس، وبين إله من أصل كريدي، هو زاغروس ZAGREUS، يذكرنا مصيره بمصير أوزيريس. ولما كان ابنا لزوس وبيرسيفون Perséphone، فإنه يتحوّل إلى ثور، هرباً من التيتان أو الطيطان، الذين تثيرهم عليه هيرا. لكن الطيطان يقتلونه ويأكلونه؛ غير أن قلبه ينجو منهم، مما يجعل بالإمكان، أن يعود حياً، بعد عذابه. وهكذا فإن الإله الميت ديونيزوس زاغروس، ينبعث حياً على صورة ثور، أو رجل له جمجمة مزينة بقرون.

وكانت العبادة تقوم على تضحية ثور إلهي، كان المؤمنون يستهلكونه، ليمتلئوا بقوته الخيِّرة، بين طقوس مزعجة، تتم في الليل، على ضوء المشاعل. ولقد وصف أوريبيد في درامته الجميلة، كاهنات باخوس Les Bacchantes، هذيانات أولئك النساء المتحللات، والمتوجات باللبلاب، أو بأوراق السنديان، واللابسات جلود الظباء، والماسكات حيات، أو الحاملات جدايا فتية، ترضع من أثدائهن. فهن يرقصن، ويهززن صولجاناتهن ــ وهي سهام مغطاة باللبلاب ــ؛ ويرتمين على حيوانات يمزقنها إرباً إرباً. فلما وقف الملك Penthée ضد هيجاناتهن وصخبهن قتلنه[٢٠]

---

(١٧) كريغ لينغر، كتابه نفسه، ص: ٨١.

(١٨) انظر ما سبق، ص: ١٨٨.

(١٩) وهكذا سمي dithuros، أي الخارج من بابين، ومنها جاءت الكلمة dithyrambe.

(٢٠) أوريبيد، في مسرحيته، كاهنات باخوس، ترجمة ماريومونييه (باريس ــ بايو، ١٩٢٣).

أما في المناطق الأخرى، مثل أثينا، فإن العبادة تتخذ صوراً أقل عنفاً، وأغنى فنياً. فالكورس الباخي (نسبة إلى باخوس) والمدائح، والرقصات تترافق مع الحوارات، والمشاهد المسرحية: وهذا أصل التراجيديا والكوميديا (المأساة والمهزلة). وكانوا في الأيام الديونيزية، يمثّلون مسرحيات، مؤلفوها هم إسخيل، وسوفوكل، وأوريبيد(٢١).

وقد طُهِّرت عبادة ديونيزوس على يد أورفي Orphée، الذي كان الميناد Ménades أو كاهنات باخوس قد مزقنه انتقاماً من كراهيته للعربدات التقليدية، على ما يقال. ويقال كذلك إن أورفي كان شاعراً رقيقاً، يؤمن بإله لا شخصي، شبيه بالحياة الشاملة، ويرمزون له باسم EROS'. وكان يحس من الأعماق، بوحدة العالم، وتضامن الكائنات كلها، ووشائج القربى التي تصلها بالحيوانات، وبالطبيعة كلها. وفي رأيه أن الروح السجينة في الجسد(٢٢)، ينبغي أن تتخلص منه بعد عدد ما من الوجودات. ولكن منذ الآن، يجب أن تتهيأ للحياة السماوية التي ستحياها فيما بعد، باجتناب كل همٍّ لا طائل تحته، وذلك بتشرب الروحانية، عن طريق ممارسة الفن، ولا سيما الموسيقى.

والأسرار أو الخفايا هي التي تهيئ المدرّب، لما سيكون في الحياة المقبلة. وعلى المطلّع على أسرار إيلوزيس MYSTE أن يتجنّب نبع النسيان، ويشرب من نبع الذكرى: وسيجد فيه مجموعة الصيغ السحرية التي اخترعها أورفي(٢٣).

ويبدو أن الأورفية قد أدخلت إلى الفلسفة الإغريقية على يد فيثاغورس. ولقد تأثر بها أفلاطون. وعن طريق أفلاطون ورث الغرب التقوى التي تشتمل عليها الأسرار والنشوة الديونيزية(٢٤).

---

(٢١) عرض الفيلسوف نيتشه في كتابه الأول: أصل التراجيديا، أفكاراً ممتعة بهذه المناسبة. وتبعاً لما يرى فإن الأغارقة حاولوا اجتناب التشاؤم بوهمين اثنين: الوهم الأبوليني الذي يبعث على الحياة في نوع من الحلم التام الانسجام، والوهم الديونيزي الذي يعدم الفردية في «الحال extase». وقد انتج التوحيد بين الروح الأبولينية والروح الديونيزية، جملة الفن الإغريقي والتراجيديا خاصة. انظر فيليسيان شاللي، نيتشه ١٩٣٣. باريس.

(٢٢) ومن ذلك جاءت الصيغة سوما sôma (الجسد) و séma (القبر).

(٢٣) إن الإسكاتولوجيا الأورفية التي كانت تصف بالتفصيل ممالك الأموات، وعذاب الخاطئين، أثرت تأثيراً أساسياً في المعتقدات الإغريقية والرومانية، كما أثرت في الأصول المسيحية وخاصة في الأدب الرؤيوي لعالم الآخرة. ويمكن أن نلاحظ ذلك حتى في وصف دانتي لجهنم، كريغ لينفر كتابه: جهنم دانتي.

(٢٤) سوديربلوم، كتابه، ص: ٤٣٩. وقد تساءل لبعضهم عما إذا كان أورفي وفيثاغورس لم يتأثروا بأفكار الهند.

وهناك أسرار أخرى تتعلق بـ « ديميتير Déméter »[٢٥] إذ أن ابنتها Perséphone خُطفت من قبل الإله الجهنمي هاديس « Hadés » وأخذت الأم المعذّبة تطوف في أرجاء العالم، باكية ألمها. ويبست الأرض، وأصبحت عقيماً. وأخيراً استقبلت الأم المعذبة من قبل الملك Eleusis' فيَحصَل هذا من زوس على وعد برد برسيفون إلى أمها: وعندئذ يبعث النبات حياً. غير أن الإلهة الشابة أكلت في جهنم بعض الرمان: ولم تعد تستطيع أن تنجو من مصيرها المحزن نجاة تامة. وهكذا تقضي نصف وقتها على الأرض، والنصف الثاني في جهنم، وستكون ملكته. وحرصت ديميتير على الاعتراف بجميل الملك، فعلمته زراعة القمح.

وتخلط الأسطورة بين التعليل الخرافي لانتعاش النبات، وذبوله، وبين عبادة ألوهية الأرض، القديمة، ولعل هذا كله ذكرى لطوطم القمح. ثم إن فكرة خلاص النفس الباقية بعد الموت، خلطت أو كان عليها أن تشرك بفكرة النبات الذي تعود حياته إليه.

وهذان الموضوعان هما اللذان تحتفي بهما أسرار إيلوزيس[٢٦].

وكان المنفذ الأول لهذا، كاهنة، ثم كاهناً، أي واحداً من الهيروفانت★. وكانت الشعائر مسموحة للنساء، والحاشية النسائية، والعبيد؛ ولكن لم يكن مسموحاً بها، في العهد الهيلينيستي، للبرابرة. وكانت الهدنة المقدّسة، تتيح لسفراء أثينا أن يدعوا الآخرين للمشاركة في الاحتفال بأسرار الأغارقة الآخرين.

وكانت الاحتفالات تبدأ في أثينا، وتتابع في إيلوزيس. وكانت تمثّل فيها درامات شعائرية، تذكّر بمغامرة ديميتر. وكانت بعض الاختبارات القاسية تهيئ للحياة بعد الموت. وتبعاً لبعض الشراح فإن اللحظة الأعظم روعة هي ذاك العرض الصامت، لسنبلة محصودة، كرمز للموت والانبعاث.

وفي أوليزيس، كانوا يتآخون، بأكلهم حلوى القمح. وربما كان الأورفيون قد جمعوا الأخوة الإيلوزية على الخبز، والأخوة الديونيزية بالخمر، ممهدين بذلك للإخوة Communion المسيحية.

ففي زمن فيثاغورس كان مندوبو المدن الإغريقية في آسيا الصغرى، ومندوبو المقاطعات الغربية للهند، يتقابلون في بلاط سيدهم المشترك، ملك فارس.

(٢٥) انظر فيما سبق، ص: ١٩٠، وص: ١٩١، الهامش رقم ١.

(٢٦) انظر: Les Mystéres d 'Eleusis, Par Maurice Brillant, Paris, Renaissance du Livre, 1920.

(★) الهيروفانت، كبير الكهنة المختص بأسرار إيلوزيس.

ولقد تسرّبت الديانات الشرقية، المتاحة للغرباء، والنساء، كما هي متاحة للعبيد، إلى بلاد اليونان بصورة مبكرة. ونمت فيها، بصورة خاصة بعد غزو آسيا من قبل الاسكندر الكبير. ومع ذلك فإن الديانة اليونانية قاومت هذا الغزو الديني بدرجة أفضل بقليل مما فعلت الديانة الرومانية.

وكانت الكنيسة المسيحية، المتمتعة بالقوة، خصماً أعنف وأقوى. فقد أمرت بهدم المعابد، أو هيأت صورة تحولها إلى كنائس. وفي عام ٥٢٩ أغلقت مدرسة أثينا، آخر ملجأ للفلسفة الإغريقية الحرة.

ولكن الديانة الإغريقية تركت في العالم آثاراً لا تمحى. ذلك أن الجمال الرائع للأعمال الفنية المستوحاة منها، في مجالات العمارة، والنحت، والأدب ــ يقيم علاقة مستمرة للفكر الإنساني بالسحر البدائي السابق للهيلينية، وبالعبادة الطبيعية للأرض ــ الأم، وبالإيحاءات النبيلة للصوفية الأورفية.

ثم إن الجهد الرائع الذي بذله الفلاسفة، في بحثهم الحر عن الحقيقة في المجال الديني، كما في أي مجال آخر، قدّم للإنسانية مثالاً يستحق أن لا ينسى أبداً.

فالجمال، والحقيقة: هما العنصران الأساسيان في ما كان إرنست رينان يسميه، في صلاته فوق الأكروبول، «بالمعجزة الإغريقية»[٢٧].

(٢٧) إرنست رينان: ذكريات من الطفولة والشباب (باريس، كالمان ــ ليفي) ص: ٥٩.

الفصل الثاني عشر

ديانة روما وإيطاليا الرومانية

يبدو أن إيطاليا، في الأزمنة السابقة للتاريخ، كانت محتلة من جماعتين إنسانيتين، من أصول مختلفة : فهنالك متوسطيون أقرب إلى الثبات، ذوو قرابة ما مع الكريديين والبلاسجيين من سكان اليونان؛ وهناك هنود أوروبيون بداة جاءوا من الشمال، كأولئك الذين غزوا الهند، وفارس، واليونان.

ويبدو أن ديانة روما وإيطاليا الرومانية، كانت ديانة محلية، كبرت مع ما قدّمه الهندو ــ أوروبيون؛ ــ أي جماعة الإتروسك Etrusques'، أي الشعب الوحيد الغريب الذي استطاع أن يفرض قانونه على روما، وهو نفسه متأثر بتأثيرات هيلينية؛ ــ بجماعة اليونانيين، خاصة، في العهود المختلفة من تطوّر اليونان؛ ــ وأخيراً لا بد من الإشارة إلى العبادات الشرقية.

....

وليس بين أيدينا كنصوص مقدّسة إلا بقايا قديمة من الأغاني الأرفالية ARVALES، والأغاني السالية Saliens. (والأرفال والساليون هم كهنة ينتظمون في كلياتهم، أو منظماتهم على الأصح). ثم إننا نملك هواتف أو نبوءات سيبيلية، ليس بينها وبين الكتب السيبيلية sibyllins التي يقال إن Targuin الرائع اشتراها من سيبيل كوميه Cumes، أي قاسم مشترك : أما الكتب السيبيلية التي أشرنا إليها فقد ذهبت عندما احترقت روما في عام ٨٢ ق. م؛ وقد عُوِّض عنها بكتب مزيفة،

صنعها يهود داعون إلى الهلينية (يريدون إشاعة الثقافة اليونانية) أما النصوص التي نملكها نحن الآن، فهي «صور يهودية، مسيحية مزيّفة للتزييفات اليهودية».

ونحن نعرف الديانة الرومانية، بشكل خاص عن طريق الأدب اللاتيني، ولا سيما عن طريق العلامة VARRON (١١٦ــ٢٧ ق.م) وهو مؤلف كتاب عنوانه: حول الأشياء الإلهية (De Rebus Divinis)؛ وعن طريق المؤرخ تيت ليف (٥٩ ق.م ــ١٩ ب.م)؛ وعن طريق الشاعر أوفيد Ovide (٤٣ ق.م، ١٦ ب.م) الذي يشرح في كتابه Fastes، مواعيد الأعياد.

ونحن ننصح في دراسة الديانتين الرومانية واليونانية بالرجوع إلى كتاب Kreglinger الذي طالما أشرنا إليه في كتابنا هذا، بعنوانه: الدين لدى الأغارقة والرومان[1]. ونشير كذلك إلى كتاب فوستيل دوكولانج (١٨٣٠ ــ ١٩٨٩) عن المدينة القديمة La Cité. Antique[2] (الطبعة الأولى ١٨٦٤ باريس).

....

أما المخلفات الطوطمية فهي ظاهرة، أولاً، في الاعتقاد بوجود نباتات مقدّسة (كالتين، والفول)، وحيوانات مقدّسة تبرِّر الأساطير اللاحقة أولويتها، ولكن بحجج أخرى، مثل: الذئب الذي يقال إنه قاد السمنيين Samnites في بحثهم عن أرض يقيمون بها؛ والذئبة التي يقال إنها أرضعت رومولوس وريموس؛ والوز، الذي يقال إنه أنقذ الكابيتول؛ والدجاج، التي هي طيور تفيد في معرفة الحظ.

وهنالك أسر تحتفظ بأسماء طوطمية مثل الــ porcii (المشتقة من كلمة porcus، أي

---

(١) انظر سالومون ريناخ، في كتابه أورفوس، ص: ١٥٢. ــ «وفي مدن عديدة، كان هنالك سيبيل Sibylles، عرافات pythonisses، متهيجات في خدمة أبولون، وكن يجبن عن أسئلة الناس المتعلقة بالغيب. وكانت أجوبتهن تستقبل أحسن الاستقبال من الأغارقة والرومان، وكذلك من الشرقيين واليهود (وقد جيء باسمهن من الكلمة العبرانية chebonel، أي سجين الإله ــ وكان أحد أصحاب هذه التزييفات اليهودية يعرف معرفة جيدة جداً، إشعيا الثاني، واستلهم منه. ويذكر فيرجيل أغنية في وصف العصر الذهبي الذي ينشده في أغنيته الريفية الرابعة المسماة عادة: Eglogue.

(٢) باريس، بايو Payot، ١٩٣٢.

الخنزير)؛ والفابيثي Fabii (من الكلمة faba، أي الفول). ونلاحظ أنه كان يوجد صور ذئاب، وخنازير ونسور على رايات الفرق العسكرية.

وتعني الكلمة اللاتينية sacer، في آن واحد، معنى المقدّس، وغير الطاهر، وهذا ما يطابق تماماً كلمة التابو، فهنالك أيام مشؤومة يُنهى فيها عن لفظ كلمة (non fari) أي الكلمات المستخدمة في العبادة؛ وهنالك أيام غير مشؤومة fastes يباح فيها ما لا يباح في تلك. ومن المنهيّ عنه أن نلفظ اسم بعض الآلهة، كما أن من الممنوع أن نمسّ الغنيمة التي كسبناها خلال الحرب.

وتضع الإحيائية الرومانية حول الإنسان عدداً كبيراً من الأرواح. ولكن ضعف الخيال، يحول بينها وبين أن تضيف أية صورة شعرية إلى حياة هذه الأرواح. وهي تحاول أن تستخدمها، عندما تسرّها بإقامة الشعائر الضرورية لها، وترعاها بدقة.

ويشار إلى هذه القوى اللا شخصية بالكلمة التي لا جنس لها، كلمة (numen ـــ وهي جمع كلمة numina). وهي تشبه مظاهر ما كان البدائيون يسمونه بكلمة المانا، ولكنها لا تبدو مرتبطة بنظرة كلية حول وحدة المادة المنتشرة في العالم. وتسكن هذه الأرواح في أشياء مادية، أو أنها تنطبق على أعمال معيّنة. مثال ذلك، أن روحاً ما، تشرف على استصلاح الأرض، وأخرى على تسميد الحقل، وثالثة على الفلاحة الثانية، ورابعة على تمشيط الأرض، وخامسة على العزق، الخ. ويرى فارون Varron أن هذه الأرواح ذات الاختصاص المحدود، آلهة لا يمكن الشك فيها؛ ويسميها باسم الآلهة المؤكدة.

ولكل إنسان شيطانه المألوف (genius)(٣)، ولكل امرأة في داخلها قوة مخصبة (juno).

وهنالك روح تشرف على الحدود الفاصلة بين الملكيات (Terminus) وروح للمنزل (Vesta)، وهنالك أرواح تحمي الأرض والبيت، واللار، وهي أرواح تحرس أرباب المساكن (penus). وعندما نترك المنزل، نتركه لأرواح أخرى هي اللارات، ولكننا ننقل بيناته pénates. والبينات تحمي أفراد الأسرة، ولكنها لا تحمي العبيد؛ لكن (اللارات) الأكثر شعبية تحمي العبيد أيضاً.

---

(٣) الجينيوس، هو الشيطان الذي يلد qui gignit، مثل الـ Ka المصرية، وهو يهب القوة المخصبة، المولّدة، ويسكن في السرير الزوجي... وهو يولد مع الإنسان، ويموت معه، وهو الذي يجعله واعياً، ويكيّف طبعه وشخصيته Kreglinger.

وكان الرومان يؤمنون بخلود الروح. وكان الموتى يدفنون في الأصل، تحت أرض المنزل، الذي يحمونه. وبنوع من التلميح نسمي بالمان Mânes (الطيبين) أرواح الموتى. وكانوا يوجّهون إليهم القرابين؛ ويأخذون معهم طعاماً، في يوم الموتى. وكانوا يجربون تهدئة الموتى المعادين أي الليمور lemures، بفضل الاحتفالات.

والعادة أن الإحيائية يرافقها السحر. فالروماني يفكر أنه بواسطة الصور، والحركات، والكلمات ينتج الحقيقة أو الشيء الذي يرغب في ظهوره. والعادة أن تحاط المدن المبنية حديثاً، بدائرة سحرية، لكي نضمن الدفاع عنها؛ مثال ذلك ما فعله Romulus، لروما المقبلة؛ وقتل روموس الذي لم يخضع لمنع اجتياز حدودها.

ثم إن بعض الأعياد الزراعية، التي يرأس بعضها جماعة الكهنة الأرفال Arvales(٤) تساعد على الإنبات، وتساهم في نجاح الحصاد والقطاف. وبعض الكهنة الآخرين، وهم اللوبيرك Luperques(٥) كان دورهم ينحصر في العدو عراة (حتى لا يعرقل اللباس، مهما يكن، انبساط القوة السحرية) وهم يرسمون دائرة لا تتخطاها الذئاب أبداً. وتلك هي غاية عيد اللوبركال Lupercales. ثم إن اللوبيرك يصبحون، بشكل خاص، أولئك الذين يحفزون الخصوبة النسوية: فيضربون النساء بسيور من جلد لجعلهن صالحات للإنجاب.

أما الساليون الذين يشكلون نقابة أخرى أو منظمة ثانية، فإنهم يقومون، وهم يقفزون ويغنون، برقصات مقدّسة، يصدمون فيها، أسلحتهم، بضجة كبيرة؛ وعندما يقلدون، صخب المعركة، يهيئون لهزيمة الخصم، ويعبئون التروس والرماح بقوة سحرية.

....

وشيئاً بعد شيء، تصبح الأرواح آلهة. ولكن بعض الأرواح تحتفظ بصفتها المحايدة التي كانت لها، عندما كانت أرواحاً. وكان الروماني يتوسل إليها أحياناً، أو يصلي لها، دون أن يعرف ما إذا كانت آلهة أم آلهات. ويقولون في صلاتهم: (Siv Deus, Sive Déa أي سواء أكنت إلهاً أم إلهة).

---

(٤) من الكلمة آرفا، أي الحقول.

(٥) من الكلمات Lupus (الذئب) و Arcere (بمعنى دفع).

وتتجمع كل الأرواح الحامية للنساء في الإلهة جونون junon وربما عاد ذلك إلى أقدم عهد من عهود النظام الأموي، واسم روما هو اسم نسوي. ويجمع الإله Terminus كل أرواح الحدود الفاصلة بين الملكيات، وتصبح الأرواح المتعدِّدة للأبواب إلهاً واحداً وهو جانوس وطني، موضوع في الساحة العامة .... وهو janus bifrons ــ أي جانوس ذو الوجهين، اللذين يسهر أحدهما على المدينة، والآخر على ما هو خارجها، حتى لا يتسرب منها أي دخيل. أما أبواب معبده، المغلقة أيام السلم، فإنها تظل مفتوحة أيام الحرب: إذ يجب أن نسمح للمحاربين بأن يعودوا إلى مدينتهم؛ أما إغلاق الأبواب فإنه سيكون طالع شؤم، بغيض، يدل على أنه ما من محارب يمكن أن ينجو من المذبحة(٦). وكذلك فإن الآلهة الكثيرة، الحارسة للمنازل، تصبح إلّهة واحدة، هي فستا VESTA، التي تمجّد وتعظّم في معبد على صورة دائرية، كالخيمة، وهو أقدم معبد معروف في روما(٧).

وهنالك إلّهة ريفية هي الإلّهة الطيبة (Bona Dea) الإلّهة المكلفة بغابة مقدّسة قريبة من روما؛ وهذه الإلهة هي تقوم بتمجيدها منظمة الأرفال ARVALES ــ ثم إن إلهاً اسمه هركول، لن يُوَحّد مع هيراقليس Héraclés الإغريقي، إلا فيما بعد، هو الذي يتولى حماية آباء الأسر.

وأضيف إلى هذه الألوهيات القديمة، بشكل خاص، ألوهيات أخرى.

ولعل الهندو ــ أوروبيين، الذين قادهم رئيس وحيد إلى النصر، هم الذين ألّهوا هذا الرئيس الساحر، المحارب. وكان من مخلفات أوبواقي هذا التصور، أن جنرالاً مظفراً سيتلقى التشريف الإلهي، يظهر وقد لبس ثياب إله، ويقاد إلى مربع الإله. وبالمقابل فإن القائد الذي ظهر أن قوته السحرية غير كافية، كان يستحق الإعدام(٨).

وعلى كل حال، فإن الهنود ــ الأوروبيين أدخلوا في عداد الآلهة حاميهم العظيم القوي، والمقابل لزوس الأغارقة(٩)، ونعني به جوبيتر، الإله الأعظم للشعب، والإله الأعظم للعالم.

---

(٦) وجانوس، من حيث هو إله الباب، وإذن فهو إله المدخل، هو أيضاً إله البدايات، وهو يهب اسمه للشهر الأول من السنة، إذا اشتق من Januarius Janus.

(٧) وجينيوس، من بين كل الأرواح البدائية، جينيوس، أو روح الرجال، هو وحده الخاص بكل فرد، ولعل مَرّد ذلك إلى أن الرجال ذوو نشاط أكثر تميّزاً من نشاط النساء.

(٨) انظر فرايزر J. G Frazer الذي افترض صفة شعائرية للموت المأساوي، الذي لقيه ملوك روما كلهم تقريباً.

(٩) وكذلك، ومن بعض النواحي، لفارونا، لدى الهندوس، الذي وَحّدوه مع سلف زوس، أورانوس (انظر ما سبق، ص: ٦٣).

ومع جوبيتر ، تتألف ثلاثية إلهية ، فيها مارس ، إله الحرب ، وإله المواطنين ، من حيث أنهم محاربون (milites) وكيرنيوس Quirinus ، إله السلام ، وإله المواطنين المسالمين (Quirites)[١٠] .

يضاف إلى ذلك أن البانتيون الروماني ، كان يستقبل ، منذ وقت مبكر ، آلهة الغرباء ؛ وأولها الآلهة اللاتينية ، مثل مينيرفا القديمة إلهة الفاليري Falèries ، التي تبناها الإتروسكيون الذين فرضوها على روما ؛ وستُوحّد فيما بعد ، مع آثيني Athène ، وستكون حامية العاملين (أو الشغيلة) ، ولكنها لن تكون إلهة سياسية ، ولا حربية . ثم عُوِّضَ عن الثلاثي المؤلف من جوبيتير ــ مارس ــ كويرينوس ، بالثلاثي الآخر : جوبيتير ــ جونون ــ منيرفا ؛ أما ديانا ، التي نجد معبدها قريباً من بحيرة Némi[١١] ؛ فقد أدخلها الإتروسك أيضاً في البانتيون ، ثم وُحِّد بينها وبين ART'EMIS وأصبحت فيما بعد إلهة المصادفة والتنبؤات ؛ ــ وفينوس ، إلهة اردى Ardée ، وتجمع في ذاتها ، مثل جونون في روما ، أرواح الخصوبة ، التي يسكن كل منها في جسد كل امرأة ؛ وستُوَحّد فيما بعد مع أفروديت ؛.

وتأتي إلهة أخرى من اليونان ، مع آثيني ، وأرتميس ، وأفروديت : مثل أبولون ؛ وبوسيدون Poseidon الذي يخلط بنبتون ؛ الذي كان في السابق إله المياه الجارية ، ويصبح عندئذ إله المحيط ؛ وهيراكليس الذي كان يُوَحَّد (أو يُماهى) مع هركول ؛ وديميتير الذي يُوَحّد مع ألوهية محلية قديمة ، هي Cérés ؛ وهرمس الذي يتحول فيصبح ميركور[١٢] .

ولم يكن للرومان ، ذوو الخيال الجاف جداً ، خرافات تتصل بآلهتهم ، قبل تسرّب الأساطير الهيلينية . وعندئذ قبلوا وتبنوا خرافات اليونان .

....

(١٠) ويبدو أن اسم Mars قريب لكلمة Mors (أي الموت) على نحو ما ينبغي لإله للحرب . ومع ذلك فإن مارس كثيراً ما كان يرجى من قبل المزارعين ، الذين يطلبون إليه أن يحارب بقدر ما يستطيع ، ضد الآفات المهددة لحقولهم . وبالعكس ، فإن Quirinus يلعب دوراً عسكرياً ، ما . ذلك أن « نجاح المحارب مشروط بحسن نشاط من هم وراءه ... وكويرينوس يموّن مارس ؛ وبصورة خاصة ، فإنه يعطيه الكويريت Quieites الخاصة به ، ليحولها إلى milites (انظر دوميزيل في كتابه : أساطير الجرمن وآلهتهم ، باريس Leroux ، ١٩٣٩ ، ص : ١٢٧ ــ ١٢٨ .

(١١) وكان كاهن نيمي يصل إلى مركزه بعدأن يقتل سلفه .

(١٢) الكلمة مشتقة من merx ، أي البضاعة ، كما ينبغي لإله التجارة .

والعبادة عائلية ووطنية وكان الروماني التقي ، يجمع في مركز البيت وحول المِحرق ، أسرته ، وحتى عبيده ، لكي يصلي ويقدم بعض طعامه قرباناً للألوهيات المنزلية .

أما العبادة الرسمية ، فإنها طقوس مرتبطة أوثق الارتباط بالحياة السياسية . وكان الكهنة موظفين من قبل الدولة للقيام بعملهم ، والإشراف على أداء طقوس العبادة .

وكان الملك يقوم على رأس الكهنة ، سابقاً ، ثم عُوِّض عنه بمن كانوا يسمونه ، ملك القرابين . وكان تحت الملك ثلاثة flamines ، أي نافخين ، يشعلون النار المقدّسة ، أي فلامين جوبيتير ، وفلامين مارس ، وفلامين كويرينوس[١٣] ويأتي بعدهم الأساقفة أو الأحبار pontifes : المكلفون ، في الأصل ، ببناء الجسور ، كما يدل على ذلك اسمهم ، والذين يرأسون الاحتفالات في العبادة الوطنية ــ أو قل هم هنا الأئمة في العبادة ــ وعندما ألغيت الملكية ، أصبح الحبر الأعظم ، أعظم الكهنة شأناً .

ثم إن الديسيمفير décemvirs (الذين أصبحوا فيما بعد يطلق عليهم اسم Quindécemvirs) المشرفين على القرابين ، فإنهم كانوا يشرفون على الصلوات المقامة للآلهة الأجانب ، أوالآلهة الأغاريق . وكانت النبوءات تعرّف الناس بإرادة الله ، بالاعتماد على اتجاه طيران الطيور .

ولقد رأينا سابقاً ذلك الدور الذي قام به بعض منظمات الكهنة ، كالأرفال ، واللوبيرك ، والساليين[١٤] .

....

ولقد لقيت الديانة الرومانية ، منذ الزمن القديم ، خصوماً عنيفين . وكان أفصحهم هو الشاعر الكبير لوكريس Lucréce (٩٨ ــ ٥٥ ــ ق . م) وهو نصير مستقل للفيلسوف الإغريقي إبيقور . وهو يدين جرائم الدين ، تجاه الإنسانية البائسة ، والدموع التي أسالتها :

---

(١٣) ويقرِّب دوميزيل ، بين الديانة الرومانية ، والديانة الفيدية ، والكلمة الدالة على الملك rex هي نفس الكلمة السنسكريتية (râj) . ثم إن كلمة flamen وbrahman ، تشتقان من الأصل الهندي ــ الأوروبي المتشابه تقريباً . وكان نظام الفلاحين يكشف عن تسلسل اجتماعي شبيه بالطبقات الثلاث في الهند : طبقة الكهنة ــ السحرة ، وطبقة المحاربين ، وطبقة المزارعين (انظر دوميزيل : خرافات الرومان وآلهتهم ، ص : ١٠ ، وص : ١٩ ــ ٢٠) .

(١٤) انظر ما سبق ، ص : ٢٠٢ .

«فالتقوى لا تقوم على الإكثار من الخشوع، والرأس مغطى، أمام تمثال من الحجر... ولا على إغراق الهياكل بالدماء...، بل على تأمل ما يقع من الحوادث، بنفس مطمئنة»[١٥].

ونراه يضع، لا من غير دعابة، قصيدته الإلحادية، تحت رعاية إلهة، هي فينوس، «هناء الرجال وغبطة الآلهة، والملكة الوحيدة للطبيعة...»[١٦].

غير أن نفوساً أخرى لا تقنع بالدين الرسمي، فتهدئ ما فيها من قلق، لا بالاعتماد على التفكير الفلسفي، بل بالاعتماد على العواطف الصوفية. فتتجه إلى العبادات الشرقية التي تسرَّبت إلى روما منذ القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، وأخذت، على الرغم من مقاومة المحافظين، تحدث فيها تأثيراً متنامياً، وخاصة في النساء والعبيد، والغرباء: كعبادة Cybéle وآتيس Attis[١٧]؛ وعبادة أوزيريس وإيزيس، ثم سيرابيس[١٨] والعبادة السورية للشمس[١٩]، وعبادة ميثرا MITHRA[٢٠]. وغالباً ما كانت هذه العبادات يَنحَلُّ بعضها في بعض! إنها صوفية تركيبية.

وتقدّم كل من هذه العبادات، على حدة، وكلّها معاً، إرواءات للنفس، لا تقدمّها مطلقاً، تلك العبادة الرسمية الجافة. فالطواف، والأغاني، والموسيقى تغري الحواس. ذلك أن التصورات الفخمة للعالم، تُحمِّس الروح. ولا ريب أن القلب يخفق اضطراباً للإخاء اللذيذ الذي يجمع المؤمنين، «بالحال» التي تفتح بدءً من هذا العالم، طريق الوصول إلى الله، عن طريق الأمل بحياة أخروية سعيدة.

وهنالك وثائق عديدة، بعضها مادح، وبعضها قادح، تكشف لنا عن قوة تأثير هذه العبادات في النفوس. وبعض هذه الوثائق، والناقدة منها، خاصة، تأتينا من الشعراء اللاتين. فالشاعر Tibulle (٥٤ ـــ ١٩ ق. م) الذي انفصل عن عشيقته Délie، يشكو من أن هذه نذرت

(١٥) لوكريس (طبيعة الأشياء) الفصل الخامس، ص: ١١٩٢ ـــ ١٢٠١.

(١٦) الكتاب نفسه، الفصل ١، ص: ١ وما بعدها.

(١٧) انظر ما سبق، ص: ١٤٠. ولقد أشرنا سابقاً إلى أن الأسبوع المقدّس الذي يقام على ذكرى Attis، كان يحتفل به في المكان الذي نرى فيه اليوم الفاتيكان.

(١٨) انظر ما سبق، ص: ٥٦ ـــ ٥٧.

(١٩) لقد انتشرت عبادة الشمس، السورية عندما تولى الحكم أباطرة من أصل سوري. ولقد أقام أوريليان معبداً للشمس التي لم تغلب (Sol invictus). ويرى جوليان الملقب بالأبوستا Apostat أو المارق، في القرن الرابع، ب. م، أن الشمس المادية هي صورة للشمس الروحية المماثلة للخير المطلق.

(٢٠) انظر ما سبق، ص: ١٢٧.

لايزيس، بلا معنى، في معبده، ليالي من العفة «وهي تلبس الكتان، وشعرها محلول ومهلهل»[٢١]. أما جوفينال juvénal (٤٢ ـــ ١٢٥ ب. م) فإنه يبدو أميل إلى الاستياء، منه إلى السخرية، في هجائه المشهور للنساء. ونراه يدين المواعيد السرية في معبد إيزيس المجاملة، والنفوذ الذي يتمتع به الكهنة المخصيون التابعون للإلّهة سيبيل Cybèle، والأمر الذي يطلبون به من المؤمنات، الحفاظ على العفة، في بعض الأيام المشهودة، وإذا لم تطع المؤمنة الانقياد لهذا الأمر، فإن الوعد الذي قطعته بتهدئة أوزيريس «يسهل التكفير عنه، بتقديم قربان يتألف من إوزة سمينة، وقطعة صغيرة من الحلوى» (جوفينال ـــ الهجاء رقم ٦).

وكان المحافظون من الرومان قلقين من التأثير الذي أحدثته هذه الديانات الغريبة. ورداً على ذلك يرفعون من شأن الديانة الرومانية. وعندما جاءت الأمبراطورية، اتخذت هذه العبادة شكل عبادة الأباطرة. وهكذا، وبلفتة طويلة، يعود الناس إلى العبادة القديمة للملك. فالشاعران هوراس (٦٤ ـــ ٨ ق. م) وفيرجيل (٧٠ ـــ ١٩ ق. م) يمجدان الأمبراطور الذي قدَّم للعالم نعمة السلام التي لا تضاهى. وهناك كتابة مسجلة يمتدح فيها هاليكارناس الأمبراطور أوغوست، من حيث أنه أوقف الحروب، وأحَلَّ النظام في كل مكان؛ وتسميه «مخلِّصنا، أو منقذنا نحن وأولئك الذين سيأتون بعدنا؛ وتضيف هذه الكتابة قولها: «إن يوم ولادة الإله، كانت، بالنسبة إلى العالم، بداية الأخبار الحسنة التي حملها هو إلينا[٢٢].

غير أن هذه الديانة مالبثت، بعد أن جاءت مع غيرها من الديانات الشرقية، أن جابهت ديناً آخر يعارض عبادة الأمبراطور؛ وعندما انتصر الدين الأخير، قضى عليها جميعاً، كما قضى على الخرافات الوثنية الأخرى. وهذه الديانة الأخرى، هي المسيحية.

....

ومن غير أن يجادل سوديربلوم في «فقر» الديانة الرومانية، نراه يمتدحها، «مدرسة لتعليم الطاعة، والقوة الأخلاقية»... ذلك أن التقوى البسيطة، الجذابة، والدء...

---

(٢١) انظر Tibulle في الـ Elégies (L1) رثاء رقم ٣ والإيليجي هي الرثاء.

(٢٢) ذكر ذلك كريغ لينغر، ص: ٢٥٤. أما كلمة الأخبار الحسنة فإنها تترجم كلمة يونانية مُعَدَّة لمستقبل عظيم، هي كلمة الإنجيل.

الرومانيين ، إنما ظهرت ، بصورة خاصة ، في العبادة المنزلية . ومن جهة أخرى ، فإن عبادة جوبيتير ، التي أُشرك معها عبادة نوع من الديانة الشاملة ، داخل الأمبراطورية العالمية الكبرى(٢٣) . وهكذا ، ومن وجهة النظر هذه ، فإن الديانة الرومانية ، هيأت وساعدت على انتشار الديانة الأعظم منها ، أي الديانة المسيحية .

(٢٣) سوديربلوم ، Manuel d 'histoire des religions, P. 475; P. 500 .

الفصل الثالث عشر

المسيحية

وظهرت المسيحية[1] في نقطة التلاقي بين الصوفية الشرقية والميسيانية اليهودية، وبين الفكر الإغريقي، والعالمية الرومانية.

والمسيحية هي الديانة التي يؤمن بها المسيحيون[2]. إنها ديانة من ديانات التوحيد، تضع في المقام الأول تلك المشاركة بنعمة الإله الأب، عن طريق ابنه المسيح، مخلّص الإنسانية.

ولكي نفهم هذه الديانة، الحية بين ظهرانينا، والتي مارست ولا تزال تمارس، تأثيراً عظيماً فينا، فإنه يجب علينا أن ندرس كتابها المقدّس ـــ الإنجيل، وشخصية مؤسسها، والعقيدة المشتركة بين كنائسها، والأخلاق التي تنشأ عنها، والتنظيم الكهنوتي لمختلف صور الطوائف التي تنتسب إليها.

....

(١) قامت الأجيال المسيحية الأولى، بالتأليف المنتظر منذ زمن طويل، بين إله الساميين، ومفهوم الإله تبعاً للإيجيين والأسيانيين، في شخصية المسيح المثالية. وإذا كان يهوى هو التعبير المباشر، القريب، عن الإله ـــ الأب، فإن الآلهة التي تعذبت من أجل إنقاذ الإنسانية سواء أكانت فريجية، أم سورية، أم مصرية، هيأت لإنشاء مفهوم الإله الابن، ماسون ـــ أورسيل، فلسفة الشرق، باريس ـــ ألكان ١٩٣٨، ص: ٢٤.

(٢) المسيحيون هم جماعة المسيح، وكلمة كرستوز هي الترجمة الإغريقية للكلمة العبرية ميسّي أو المسيح، أي المكرّس بمسحه بالماء أو الزيت.

ومن البديهي أن مراجع مثل هذا الموضوع، عظيمة الإتساع، وأن من الصعب، إلى درجة كبيرة، أن نقوم فيها باختيار مناسب. فكتاب ارنست رينان ــ الذي يأتي بعد كتابه عن تاريخ الشعب الإسرائيلي، والمذكور سابقاً ــ أي أصول المسيحية[٣] قد تجاوزه الزمن الآن، في عدد غير قليل من النقاط، ولكنه مع ذلك قادر دوماً على تقديم معلومات قيّمة، وعلى أيقاظ الفكر النقدي، خاصة: ذلك أن كتاب حياة المسيح وهو الجزء الأول من المجموعة، قد فتح للكثير من الناس، آفاقاً جديدة. وبنفس الحرص على حرية البحث، يمكننا أن نوصي بقراءة المجموعة التي عنوانها أو الصادرة تحت عنوان «المسيحية»[٤]، بإشراف الدكتور P.L.Couchoud وكذلك بقراءة أحدث الأعمال الكبرى، الكلية النظرة، أي كتاب تاريخ العقائد، لمؤلفه جوزيف تورميل Joseph Turmel (١٩٠٩ ــ ١٩٤٣)[٥].

ولقد أصدر مؤلّف هذا الكتاب، كتاباً موجزاً، في مجموعة «المسيحية» وجرّب فيه تلخيص ما يمكن لعقل حديث أن يراه من خير أو شر في المسيحية، بعنوان. نحن والمسيحية Le Christianisme et nous[٦].

أما من الوجهة الكاثوليكية. فيمكن الإشارة إلى كتاب R.P.Marie-Joseph-Lagrange بعنوان إنجيل المسيح Evangile De Jèsus-Christ[٧]، وكتاب، مقدمة لدراسة العهد الجديد[٨]. فإذا تحدثنا عن البروتستانتية، كان علينا أن ننظر إلى كتاب موريس غوغيل Goguel، مقدمة للعهد

---

(٣) انظر Paris, Calmann-Lévy, 8 vol. dont un index, 1862-1883.

(٤) كتب إرنست رينان ظهرت في دار Clmann-Lévy، ٦ أجزاء، واحد منها دليل، في عام ١٨٦٢ ــ وحتى عام ١٨٨٣. وأما مجموعة المسيحية، فقد نشرت في دار Rieder.

(٥) نشر ريدر، ٦ أجزاء، ودليل ١٩٣١ ــ ١٩٣٦. وقد نشر جوزيف ترُميل، عدداً كبيراً من الدراسات باسمه وأسماء شكلية أخرى: مثل كولانج، ودولانوس، وهرزوغ، ولاغارد، وبيران Perrin الخ. وخاصة في مجموعة «المسيحية» (انظر جوزيف تورميل، الأسقف، ومؤرخ العقائد، بقلم فيليكس سارتيو (باريس، ريدر ١٩٣١).

(٦) باريس، ريدر ١٩٣٢.

(٧) باريس، كابالدا، ١٩٢٨.

(٨) باريس، كابالدا، ١٩٣٣ ــ ١٩٣٧.

الجديد[9] ، وإلى كتاب يسوع الناصرة، أخرافة هو أم تاريخ[10] وكتاب حياة المسيح[11] .

إن الكتاب المقدّس لدى المسيحيين، هو البيبل (أو التوراة) . ويشتمل مع العهد القديم، الذي درسناه سابقاً[12] ، على العهد الجديد . وكلمة العهد Testament هي ترجمة سيئة لكلمة Alliance (التحالف) : والمسألة هنا هي مسألة التحالف بين الله والإنسانية .

وقد كتب العهد الجديد بالإغريقية العامية، مع بعض الجمل بالآرامية .

ويطلق اسم الكتب الشرعية أو الكنسية أو القانونية (علماً بأن الكلمة الإغريقية Canon تعني القاعدة) على جملة الكتب المعترف بها من قبل الكنيسة، كأسس للعقيدة أو الإيمان المسيحي . وهي، مع العهد القديم، جملة السبعة والعشرين نصاً إغريقياً، التي تؤلف العهد الجديد، أي الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل، ثم الإحدى وعشرين رسالة المعزوة إلى القديس بولس، ورسل آخرين، ورؤيا القديس يوحنا .

وقد تكوَّن هذا القانون، بصورة نهائية، في القرن الرابع . وقد اضطروا لتكوينه، بجمع الكتابات التي تقرأ في أكثر الكنائس الكبرى، والتي اعتبرت متفقة مع الآراء المتوسطة، المقبولة من المسيحية في ذلك العهد .

ولنلاحظ أن النصوص التي اختيرت على هذا الشكل، متشابهة تماماً، مع كتب أدبية صادرة عن المسيحية البدائية، ومع أناجيل أخرى، وأعمال أخرى، ورؤى أخرى . وليست هذه الكتابات الأخيرة بأدنى قيمة من الكتب الشرعية أو القانونية . في دراسة المسيحية . وكثير منها لم تصل منها إلا بعض أجزائها . وتجمع اليوم هذه الأعمال، القانونية أو غير القانونية، تحت عنوان أقرب إلى العلم، هو : من الأدب المسيحي البدائي[13] .

ثم إن المخطوطات التي نملكها عن العهد الجديد، أقدم عهداً من مخطوطات العهد القديم . وأقدمها هو الـ Vaticanus ، المحفوظ في الفاتيكان، وهو يعود إلى القرن الرابع .

---

(9) باريس، لورو، ١٩٢٣ـ ١٩٢٥ .

(10) باريس، بايو، ١٩٢٥ .

(11) باريس، بايو، ١٩٣٢ .

(12) انظر ما سبق، ص: ١٤٤ وما بعدها .

(13) G-A. Van den Bergh Van Eysinga, La Littérature chrétienne primitive (Paris, Rieder, 1926) .

ويمكن أن نذكر من الترجمات ، الترجمة السريانية التي بُدئت في نهاية القرن الثاني والبيسكيتو Peschitto (وهي ترجمة بسيطة) ، وترجمتين قبطيتين من القرن الثالث والرابع ، والترجمة اللاتينية أو الـ vulgate التي انتهت في العام ٤٠٠ .

وفي أوائل القرن الثالث عشر ، أدخل المطران ، أورئيس الأساقفة في كانتربوري ، ستيفن لانغتون Stephen Langton ، في النص اللاتيني للعهد الجديد ، تقسيماً إلى فصول ، احتفظنا بها . وتحتوي طبعة روبير اتيين Robert Estienne ، المنشورة في جنيف عام ١٥٥١ على تقسيم للعهد الجديد ، إلى آيات ، لأول مرة(١٤) .

....

ويرى كثير من الناس ولا يزالون يرون في البيبل ، وبخاصة في العهد الجديد ، كلام الله .

« لكن مجمع Trente ، عام ١٥٤٦ ، نهى عن أن يوضع موضع الشك ما في البيبل من إلهام رباني . وتعتقد الكنائس المسيحية دوماً أن البيبل قد أملي من الله ، أو بإلهام منه » . ومع أن البروتستانت رفضوا سلطة البابا ، فإنهم شدّدوا على الاعتراف بسلطة الكتاب المقدّس . غير أن بعضهم ، قد أشار بقصر الإلهام الرباني ، على ما يتصل بالدين والأخلاق . وقد رفضت الكنيسة الكاثوليكية هذا الاقتراح .

ومع ذلك فإن عدداً متزايداً من العلماء ، يطبقون على العهد الجديد ، ـــ على نحو ما تم في العهد القديم ـــ أساليب النقد التي تعود الباحثون أن يستخدموها في دراسة مختلف النصوص الأدبية أو التاريخية .

وكانت مبادئ هذه الطريقة قد عرضت بقوة ، من قبل إرنست رينان . ويأبى هذا الفيلسوف الاعتراف بفكرة المعجزة ، كما يأبى فكرة الإلهام الرباني في الكتب المقدّسة .

« وفيما يرى الرجل العقلاني ، فإن الأناجيل نصوص يجب أن نطبق عليها قواعد النقد العامة ؛ ونحن تجاهها ، في وضع يشبه وضع المستشرقين ، تجاه القرآن والحديث ، أو وضع المستهندين ، أمام نصوص الفيدا والكتب البوذية .

(١٤) هناك ترجمة جيدة للعهد الجديد ، تمت تحت إشراف H. Monnier و M. Goguel وصدرت عن دار النشر Payot في باريس ١٩٢٩ .

وتقع الأناجيل بين الكتابات المقدّسة في المقام الأول . وكلمة الإنجيل ، ليست كلمة مسيحية بشكل خاص . فهي تدل على «خبر حسن جديد» ومكافأة تعطى لحامل الأخبار الحسنة . فإذا هي طُبِّقت ، مثلاً ، على الأعمال الطيبة التي قام بها الأمبراطور أوغوست ، فإنها تشير إلى الإلهام الرباني ، بإقامة نظام جديد للأشياء(١٥) .

وعلى الرغم من أننا نعرف أسماء ما لا يقل عن ستين إنجيلاً(١٦) فإنه لم يعترف إلا بأربعة منها ، كأناجيل شرعية ، هي ، إنجيل متى MATTHIEU ، ومارك MARC و LUC وجان (حنا) Jean . ولكن لِمَ هذه الأربعة فقط؟ لأن الأربعة عدد ذو معنى صوفي أو روحي! ولأن هناك أربع نقاط أساسية ، على ما يقول القديس ايرنييه IRENEE(١٧) .

وعلى ما تقوله النظرية التقليدية ، فإن (متى) أو ماثيو أو (Levi ليفي) كان بوبليكانيا publicain ، أي رجلاً جمركياً ، اهتدى على يد المسيح ، وأصبح أحد حوارييه(١٨) . أما مارك فيقال إنه ابن مريم ، وهي امرأة من القدس كان المسيحيون الأوائل يجتمعون عندها(١٩) ، وكان مساعداً مع الحواري بولس(٢٠) ، ثم أصبح أمين سر القديس بطرس(٢١) . وكان لوك طبيباً ، ورفيقاً للقديس بولس(٢٢) . أما يوحنا (أو حنا) فكان المريد المفضل لعيسى ، الذي أوصاه وهو على الصليب بأمه(٢٣) ، والذي عاش في أفسوس ، حيث كتب الإنجيل أو إنجيله هو ، قبل أن يكتب رؤياه في Patmos . وهكذا فإن مؤلفي الأناجيل أو كتّابه ، كانوا شاهدين ، أومساعدين وثيقي الصلة بالشهود .

---

(١٥) انظر ما سبق ذكره، ص: ١٤٦ .

(١٦) انظر ما سيلي، ص: ٢١٥ ، الهامش رقم ١ .

(١٧) ذكره سالومون ريناخ، أورفوس، ص: ٣٢٠ .

(١٨) إنجيل متى ٩ ، ٩ .

(١٩) أعمال الرسل ١٢ ، ١٢ . وكان مرقص لقباً لرجل اسمه يوحنا .

(٢٠) أعمال الرسل، ١٣ ، ٥ ـــ ١٥ .

(٢١) شهادة أحد الكتاب من القرن الثاني عشر ، اسمه باپياس ، ذكره Eusébe (القرن الرابع) في كتابه عن التاريخ الكنسي .

(٢٢) إن كاتب الإنجيل ربما كان هو كاتب أعمال الرسل والذي يصف نشاط القديس بولس كشاهد عيان (الأعمال في الفصل ١٦ ، ١٠ وما بعدها) .

(٢٣) يوحنا ، الفصل ١٣ ، ٢٣ . ١٩ ، ٢٧ .

ولكن هذه الأوصاف تثير صعوبات من كل الأنواع[٢٤] أما اليوم فإنه ينظر إلى الأناجيل، جملة، كما لو أنها كتب مجهولة المؤلف[٢٥].

ويجمع عادة تحت اسم الأناجيل المتوافقة، أناجيل متى، ومرقص، ولوقا. والمراد من ذلك هو الإشارة إلى العلاقات الوثيقة القائمة بين هذه الأناجيل الثلاثة؛ وهذا ما يتيح لنا أن نأخذ فكرة عامة عنها[٢٦]. ويعارضونها بإنجيل يوحنا، الذي له صفة أخرى مختلفة تماماً.

ونجد بين الأناجيل المتوافقة، والإنجيل الذي وضعه يوحنا، فرقاً واضحاً في اللهجة، واختلافات عقائدية جدّية. بل إن هناك، فيما يتصل بالوقائع، عدداً من التناقضات. مثال ذلك أنك ترى في الأناجيل المتوافقة، أن رسالة المسيح لم تدم إلا سنة واحدة؛ لكنها تصبح ثلاث سنوات في إنجيل يوحنا. ثم إن نشاط المسيح يبرز في الجليل، بصورة خاصة، أما في إنجيل يوحنا، فكان في منطقة يهوذا.

ثم إن بين الأناجيل الجامعة، عدا الاختلافات العقائدية الهامة، فروقاً غير صغيرة. فولادة المسيح الغريبة لا ينص عليها ولا يرد ذكرها، في إنجيل مرقص (مارك)، ولا في إنجيل يوحنا. والأناجيل التي تصل عيسى بالملك داوود، عن طريق أبيه يوسف، ليست هي هي، في إنجيل متى[٢٧]، وإنجيل لوقا[٢٨] (لوك). وتبعاً لإنجيل متى[٢٩]، ولد عيسى أيام هيرود الذي مات في العام الرابع قبل العهد المسيحي، أما حسب إنجيل لوقا[٣٠]، فقد ولد أيام إحصاء جرى، أي في العام السادس بعد العهد المسيحي.

ومع ذلك، ومن وجهات نظر أخرى، نجد بين الأناجيل المتوافقة، حتى وبين الأناجيل الأربعة، تشابهاً يؤدي إلى الاعتقاد بأنه كان بينها تأثر، أو أنه كانت لها مصادر مشتركة.

---

(٢٤) انظر Montet تاريخ الكتاب المقدّس (باريس، بايو، ١٩٢٤) ص: ١٥٦ وما بعدها.
(٢٥) نفس المؤلف والمؤلّف ص: ١٥٦.
(٢٦) نفس المؤلف والمؤلّف ص: ١٥٢.
(٢٧) متى، ١، ١، ١٦.
(٢٨) لوقا، ٣، ٢٣، ٣٨.
(٢٩) متى، ٢، ١، ١٩.
(٣٠) لوقا، ٢، ١ـــ٢.

ويقبل عادة بسبق إنجيل مرقص على غيره، أو بإنجيل سابق له(٣١) استخدمه ماثيو، كما استخدمه لوقا. فتسعون بالمئة من حديث مرقص (أو مارك) موجودة في إنجيل ماثيو، على صورة موجزة دوماً؛ و ٥٠٪ موجودة في إنجيل لوقا.

ومن جهة أخرى، فإن مقارنة بعض أجزاء إنجيل ماثيو (متى) ولوك (لوقا)، مما لا مثيل له في إنجيل مارك (مرقص)، تؤدي إلى الاعتقاد بوجود أصل مشترك سماه بعض الشراح بالإنجيل السابق للوقا.

إلا أن تأويل هذه المعطيات، قد أثار عدداً كبيراً من الفرضيات منها ما هو مقبول بالإجماع اليوم.

لكن واحداً من هذه التأويلات، هو ذاك الذي عرضه ب. ل. كوشو P.L. Couchoud، تحت عنوان: الأناجيل الخمسة؛ بحث في مشكلة تكونها(٣٢).

ويرى الرجل أن الإنجيل الناقص، المشار إليه باسم «السابق للوقا» قد يكون هو الإنجيل الذي نعرف أنه كتب بيد Marcion.

وكان مارسيون هذا، مسيحياً كبيراً مهرطقاً، في بداية القرن الثاني. وكان قد ربي على الدين المسيحي، وتثقف بالثقافة الفلسفية الإغريقية، وقرأ شيئاً من أعمال أفلاطون، وكان يعرف الرواقيين(٣٣) وتصوّر لاهوتاً عظيم الأصالة، ورائع الجمال.

ويرى مارسيون أنه لا يمكن حل مشكلة الشر إلا إذا فرضنا وجود إلهين، أحدهما شرير، والآخر صالح. أما الإله الشرير فهو إله العهد القديم، الإله الخالق، الذي أنشأ العالم المرئي: وهو المسؤول عن سقوط آدم، وجعل خطيئته تنتقل منه إلى ذريته كلها(٣٤). أما الإله الصالح فإنه لم يقم

---

(٣١) إنه هو النص الذي يسمى بالألمانية Urmarkus.

(٣٢) الدفاتر العقلانية (كانون الثاني ١٩٣٢) انظر للمؤلف نفسه أيضاً كتابه عيسى الله الذي جعل إنساناً.

(٣٣) سمي مارسيون عارفاً gnostique: وتقوم هرطقة العارف على خلط الأفكار المسيحية ببعض العقائد الشرقية، والإدعاء بامتلاك بعض المعارف العليا.

(٣٤) انظر Joseph Turmel، تحت الاسم المستعار Henri Delafosse، وقد عرض هذا المؤلف عقيدة مارسيون في كتابه عن: الإنجيل الرابع (باريس، ريدر، ١٩٢٥، ص: ٣٠ــ٣٦) وراجع كتابه: رسالة إلى الرومانيين (باريس ريدر ١٩٢٦، : ٣٢ــ٢٣)، ويكتب بهذه المناسبة: لو أن الإله الخالق لم يلاحظ الشر في العالم

بأي دور لا في خلق العالم، ولا في خلق الإنسان؛ ولم يخلق أحداً، إلا كائنات غير مرئية. ولقد قرّر، برحمته، أن ينقذ بني الإنسان، المضطهدين من قبل الإله الخبيث. فنزل إلى الأرض، بصورة عيسى، الراشد، ولكن لما كان لايملك إلا مظاهر الجسد الإنساني(٣٥)، فقد ألغى القانون والأنبياء، وخلّص النفوس عندما نصح الناس بالطيب، والشفقة، والعفو، وعدم المقاومة.

ولم يحفظ لنا التاريخ إنجيل مارسيون، كمخطوط؛ ولكنه استعيد على سبيل الاستشهاد به، مرات ومرات، وخاصة من قبل خصمه TERTULLIEN، بحيث يمكن إعادة تأليفه بصورة كاملة. ويقال إن هذا الإنجيل قد ألّف على يد جماعة تابعة للقديس بولس paulinienne، في آسيا الصغرى أو في اليونان، عام ١٣٤.

ويظن أنه هو الذي دعا إلى إنشاء إنجيل مرقص (مارك)، الذي يقال إنه وضع في روما، باللاتينية، حول عام ١٣٦ أو ١٣٧؛ ولكن مؤلفه يختلف عن مارسيون بتوحيده بين إله العهد القديم، وبين أبي عيسى.

ويعتقد أن إنجيل مارسيون، وإنجيل مرقص، هما اللذان أنتجا، إنجيل متى (ماثيو) في الشرق، وفي إنطاكية على الأرجح؛ ولكن مؤلفه الذي يتعارض تصوّره مع تصوّر مارسيون، يتوجه إلى اليهود، لحملهم على الإيمان بالمسيحية، ويحاول أن يبرهن على أن يسوع، هو مسيح إسرائيل الموعود به، من قبل الأنبياء.

ويتعارض مع الإنجيل المعادي لمارسيون (إنجيل متى) ذلك الإنجيل المارسيوني المفرط الانحياز له أي أنجيل يوحنا، الموضوع حوالي العام ١٤٠ في EPHESE. ولكن المؤلف، الذي يكتب لمسيحيين صوفيين وأفلاطونيين يُوَحّد بين إله العهد القديم، وبين **الأب**.

وأخيراً قام سكرتير الكنيسة في روما، حوالي عام ١٥٠، بمحاولة يتجه فيها إلى الرومان خاصة، بالإضافة إلى رغبته في الحصول للمسيحية، على ميزات اليهودية، وكتب مديحاً للمسيحية، على صورة قصة أو حكاية: وهذا ما سمي بإنجيل لوقا، الذي تشكل أعمال الرسل، جزءاً أخيراً منه...

الذي خلقه، سلفاً، فسيعتبر جاهلاً، ولو قلنا إنه لاحظه، ولم يقف دونه، لكان خليقاً بنا القول: إنه شرير: ولو أنه أراد منعه، ولم يستطع، لقلنا إنه عاجز. (انظر الإنجيل الرابع، ص: ٣٢).

(٣٥) وتسمى هذه الهرطقة باسم الدوسيتمية Docétism.

ولم تقنع هذه الفرضية اللامعة، جميع العقول. إذ لا يوجد اليوم أية نظرية حول الأناجيل، مقبولة بالإجماع[٣٦].

....

أما أعمال الحواريين (أو الرسل)، على ما يرى ألفرد لوازي، فإنها على ما يقال، عمل شريف وموجز، بقلم أحد الشهود الذين رأوا بأعينهم ما كان يجري يومئذ للكنيسة. وكان هذا الشاهد يصف الكنيسة البدائية، فيما كتب. غير أن هذا العمل قد ضخم أحياناً، وانتقص أحياناً أخرى، لغايات المديح والثناء.

وكانت رسائل بولس موضع نقاش حاد. ويرى جوزيف ترومل (تحت اسمه المستعار هنري دولانوس) أنها جميعاً تحتوي بعض النصوص الأصلية، ولكنها كلها أيضاً، عُدِّل فيها وغيِّرت نصوصها، على يد مؤلفين آخرين، من اتجاهات مختلفة، بعضها مارسيوني، وبعضها معاد للمارسيونية.

أما الرسائل التي تعزى إلى جاك، وبيير، ودوجود de jude، وجان، فما من صفة لها من الصفات التقليدية مقبولة اليوم لدى الناقدين.

ويرى P.L Couchoud، أن رؤية يوحنا هي فعلاً من تأليف الحواري يوحنا. وربما كانت موجَّهةً ضد الحواري بولس وبعض من مريديه. ولعله كان هناك، لنفس المؤلف، نصّان، تراكبا فيما بعد، بل لعلهم أضافوا إليها كلاماً يتعلق بنيرون[٣٧].

ويدخل في نظريات النقاد الأحرار، حول العهد الجديد، جزء هام، من الافتراضات، والتخمين. وعلى كل حال، فإن هناك نتيجة مُسَلماً بها، وليس فيها أي مجال للمماراة: هي أن

---

(٣٦) هناك مجال لدراسة الأناجيل الباطلة أو الـ apocryphes (وتفيد الكلمة معنى المخبأ، أي النص الذي لم تتقرر صحته). وكثيراً ما كان آباء الكنيسة في القرن الثالث يذكرون بعض هذه الأناجيل. وقد وَجَدوا عام ١٨٨٦. في أحد القبور المصرية، أجزاء من إنجيل بطرس. وكثيرة هي السمات التي أصبحت شعبية في التاريخ الإنجيلي، دون أن تجد ما يضمنها إلا في الأناجيل الخفية، مثل قصة جواشيم وآن، أقرباء مريم، وقصة زواج مريم.

(٣٦) انظر: ألفرد لوازي، أعمال الرسل (باريس، ريدر ١٩٢٥).

(٣٧) انظر P. L. Couchoud في كتابه L 'Apocalypse (Paris, Rieder, 1930) ولقد عرضت النظريات الأكثر حداثة حول مختلف الكتابات التي تؤلف العهد الجديد في الصفحات ٧٤ــ١١٤ من كتابي: نحن والمسيحية.

الكتب العائدة للكنيسة، لا تختلف إطلاقاً عن الأدبيات المسيحية الأخرى. وليس هناك من فاصل مطلق، أو تمييز أساسي بين الأناجيل، والرسائل، والرؤى الكنسية، وبين الأناجيل الأخرى، والرسائل الأخرى، والرؤى الأخرى.

وقلما تكون الكتابات الكنسية صورة أصلية، لما كتبه من تعزى إليه. وهي، أغلب الأحيان، أعمال خليطة، مشوّهة، أو محّرفة، أو مُغيَّرة بتحريفات كثيراً ما تكون متباعدة.

وعلى كل حال، فإنها أعمال إنسانية. ومن المستحيل اعتبارها كلام الله(٣٨).

....

وبطبيعة الحال فإن شخصية يسوع المسيح، تحتل المقام الأول في الديانة المسيحية.

فكيف تصف لنا الأناجيل حياته ونشاطه؟.

إن متى ولوقا يعرضان حادث ولادة المسيح، كعملية عجائبية: فقد ولد من عذراء، حملت به بأمر الله(٣٩). ومع ذلك، فإن المسيح لا يرتبط في نسبه بالملك داوود إلا عن طريق أبيه، تبعاً لشجرة النسب التي يورد ذكرها هذان الإنجيلان(٤٠).

وولد يسوع في بيت لحم وأسرته من الناصرة. وهي أسرة متواضعة (فقيرة). وأبوه نجار(٤١)، وهو نفسه نجار(٤٢).

ويُعَمّد على يد نبي سابق، هو يوحنا المعّمدان، الذي يعلن عن قرب مجيء مملكة الرب(٤٣)

---

(٣٨) لا يزال الكتاب المقدّس من بين الكتب التي تقرأ أكثر من غيرها، بل لعله هو الذي يقرأ أكثر من غيره. فقد بيع منه في جمعية من الجمعيات الكنسية ١١,٠٣٩,٩٤١ نسخة عام ١٩٣٩.

(٣٩) متى، ١، ١٨، لوقا، ١، ٣٥.

(٤٠) متى، ١، ١٦، لوقا، ٣، ٢٣.

(٤١) متى، ١٣، ٥٥.

(٤٢) مرقص، ٦، ٣.

(٤٣) متى، ٣، ٢.

وعلى دهشة من أقاربه، أصبح (رابي Rabbe) أي واعظاً شعبياً. ولديه خبر عظيم، خبر عظيم ينقله إلى الناس. إذ لقد وجد أن هنالك إرادة مُحبّة تحيط بالعالم؛ وهي بالنسبة لجميع الرجال، وجميع الكائنات، كما هو الأب بالنسبة إلى أولاده؛ وأن الله هو أبو جميع البشر، وجميع الكائنات.

وتتحدث الكلمات الأولى التي قالها يسوع بين الناس، عن السعادة؛ وهذه هي «الطوبيات» التي بدئت بها عظة الجبل.

طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السموات
طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض
طوبى للحزّان فإنهم يُعزّون
طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون
طوبى للرحماء فإنهم يُرحمون
طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله
طوبى للمسالمين فإنهم بني الله يُدعون
طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السموات(٤٤)

ويكشف عيسى، للمستمعين إليه، عما هو الله، الأب السماوي، الذي يشيد بطيبه اللامتناهي؛ ويوصي سامعيه بثقة هادئة.

لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون،
أليست النفس أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس.
أنظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء، وأبوكم السماويّ يقوتها.
أفلستم أنتم أفضل منها؟
ومن منكم إذا همَّ، يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟
ولماذا تهتمون باللباس؟ انظروا إلى زنابق الحقل كيف تنمو.
إنها لا تتعب ولا تغزل. وأنا أقول لكم إن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها(٤٥).

---

(٤٤) متى، ٥، ٣ــ١٠.
(٤٥) متى، ٦، ٢٥ــ٢٩.

فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم، وفي غد يطرح في التنور،
يلبسه الله هكذا، أفلا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟
فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل، وماذا نشرب أو ماذا نلبس؟.
لأن هذا كله تطلبه الأمم، وأبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. فاطلبوا أولاً ملكوت الله، وبره. وهذا كله يُزادُ لكم. فلا تهتموا بشأن الغد، فالغد يهتم بشأنه. يكفي كل يوم شرُّه.*

اطلبوا، وستعطون؛ ابحثوا، وستجدون؛ واقرعوا الباب وسيفتحونه لكم. ومن منكم يعطي ابنه حجراً، إذا هو طلب خبزاً؟ وإن طلب هذا سمكة، أفتعطيه حية؟ ولئن كنتم، على ما فيكم من خبث، تعرفون كيف تعطون أبناءكم أشياء طيبة، فكم من الأولى أن يعطي أبوكم السماوي أشياء طيبة لمن يطلبها؟.

لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين[٤٦].

إن الإله السماوي لم يعد إله اليهود وحدهم، ولا إله السامريين وحدهم؛ إنه إله الناس جميعاً. ويمكن أن يُعبد في كل مكان:

صدقيني، أيتها المرأة. فستأتي الساعة التي لن تعبدي الله فيها لا على هذا الجبل، ولا في القدس...

ستأتي الساعة، بل لقد أتت الساعة التي سيعبد فيها العابدون الحقيقيون، الأب، في الروح وفي الحقيقة، لأن هؤلاء العابدين، هم الذين يطلبهم الأب.

إن الله روح، ويجب على الذين يعبدون الله أن يعبدوه بالروح وبالحقيقة[٤٧].

ويعلّمنا المسيح بأي الكلمات يجب أن يُعبد الله:

«أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا اعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن لمن أساء إلينا. ولا

---

* متى، ٧، ٧ — ١١.
(٤٦) متى، ٥ — ٤٥.
(٤٧) يوحنا ٤، ٢١، ٢٣، ٢٤.

تدخلنا في تجربة[٤٨] لكن نجّنا من الشرير[٤٩] لأنك أنت الذي تملك الملك، والقوة، والمجد، إلى الأبد. آمين[٥٠].

ولما كان الأب السماوي يحب أولاده جميعاً، أي الناس كلهم، فإن على هؤلاء أن يحبّوه، بدورهم، وأن يتحابّوا فيما بينهم أخوياً:

«قال له يسوع: أحبب الرب إلهك بكل قلبك، وكل نفسك وكل ذهنك. هذه هي الوصية العظمى والأولى. والثانية التي تشبهها: أحبب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء[٥١] وما من وصية أخرى أكبر من هاتين[٥٢].

ولكن من هو القريب. ويجيب يسوع عن السؤال، بمثل السامري الطيب[٥٣]. فقريب اليهودي الجريح، ليس هو اليهود الأنانيين، بل هو السامري المتعاطف. ولا يقف الحب عند حدود الشعوب ولا الفرق. ذلك أن الحب هو القانون الأكبر.

«يا أولادي... أقول لكم الآن وصية جديدة، فأنا أوصيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي، إن كان لكم حب بعضاً لبعض[٥٤].

ويجب أن نتصالح مع الجميع[٥٥]، والاتفاق مع الخصوم[٥٦] وأن يحب الإنسان أعداءه[٥٧] وأن يعفو عنهم[٥٨]، والامتناع عن مقاومة الشرير[٥٩] بل يجب أن نتجنب إصدار أحكامنا على

---

(٤٨) يعوّض رينان عن هذه الترجمة المألوفة بالجملة: «اعفنا من التجارب» (حياة يسوع، ص: ٩٢).

(٤٩) الشرير أو الخبيث هنا هو الشيطان.

(٥٠) متى، ٦، ٩ ــ ١٣.

(٥١) متى، ٢٢، ٣٧ ــ ٤٠. وهذا نص شبيه بنص مرقص ١٢، ٢٩ ــ ٣١. ولوقا ١٠، ٢٧.

(٥٢) مرقص، ١٢، ٣١.

(٥٣) لوقا، ١٠، ٣٠ ــ ٣٥.

(٥٤) يوحنا ١٣ ــ ٣٣ ــ ٣٥.

(٥٥) متى، ٥، ٢٤.

(٥٦) متى، ٥، ٢٥.

(٥٧) متى، ٥، ٤٤.

(٥٨) متى، ٦، ١٢، ١٤.

(٥٩) متى، ٥، ٣٩، ٤١.

الآخرين[٦٠] وكان العرف يقضي برجم المرأة الزانية ؛ ويقول يسوع لهؤلاء الذين يتهمونها : من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر[٦١] .

ولا يكفي ألا نسيء إلى الآخرين، بل يجب أن نقدِّم لهم الخير. والتخلق بأخلاق الأب السماوي :

فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل[٦٢] .

من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه[٦٣] .

« فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، فافعلوه أنتم بهم[٦٤] » .

وهذه الواجبات الدينية أهم من الممارسات الدينية، على الرغم مما يعلمكم رجال الكنيسة، أي الكتبة والفريسيون الماكرون، الذين يفرضون على الناس أعباءً لا تحتمل[٦٥] .

« ولقد جعل السبت من أجل الإنسان، ولم يجعل الإنسان من أجل السبت[٦٦] » .

ويؤدي مثل هذا المثل الأعلى إلى نوع من البساطة الطفلية، واحتقار الثروات :

« إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السموات[٦٧] » .

« لا يستطيع أحد أن يعبد ربين، ولا تقدرون أن تعبدوا الله والمامون[٦٨] » .

وسيسود في مثل هؤلاء الناس، السلام، والإرادة الطيبة .

---

(٦٠) متى، ٧، ١، ٥ .
(٦١) يوحنا، ٨، ٣، ١١ .
(٦٢) متى، ٥، ٤٨ .
(٦٣) متى، ٥، ٤٢ ..
(٦٤) متى، ٧، ١٢ .
(٦٥) متى، ٢٣ .
(٦٦) مرقص، ٢، ٢٧ .
(٦٧) متى، ١٨، ٣ . وانظر أيضاً متى، الفصل الحادي عشر، ٢٥، ومرقص ١٠، ١٤، ولوقا ١٠، ٢١ .
(٦٨) متى، ٦، ٢٤ . وكان مامون في الميتولوجيا الفينيقية، هو إله الثروات. انظر أيضاً متى ١٩، ١٦ ــ ٢٦ ومرقص، ١٠، ٢٥، ولوقا، ١٨، ٢١ ــ ٢٥ .

«المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة[٦٩]».

ومثل هذا المجتمع من الرجال الأتقياء والمتواضعين؛ المحبين لله، والمتحابين فيما بينهم، هو الذي سيكون ملكوت السموات، ذلك أن ملكوت الله، ها هو بينكم[٧٠]. «ولما سأله الفريسيون، متى يأتي ملكوت الله، أجابهم: إن ملكوت الله يأتي بغير ترقب، ولا يقال: إنه هنا أو هناك، لأن ملكوت الله في داخلكم».

وتبعاً لبعض النصوص، فإن يسوع اعتبر نفسه كالمسيح الذي ينبئ بالتحقق الأرضي لملكوت الله. وتبعاً لنصوص أخرى، أكثر عدداً، فإنه لم يكتف بأن يحقق هذا التحول الأرضي، بل قبل وعرض تصورات الرؤى اليهودية: إنها ثورة عظيمة، وولادة جديدة[٧١]، تسبقها كوارث قائمة؛ وبعث الموتى، ومحاكمتهم من قبل المسيح[٧٢]، وإقامة عالم جديد، بصورة نهائية، يشرف عليه ويرأسه يسوع، ابن الإنسان، الجالس على يمين الله[٧٣].

وتضع بعض النصوص على لسان يسوع قوله: إن الله وحده، يعرف تاريخ هذا التحول العظيم[٧٤]؛ ومنها ما يدّعى أنه أكدّ، أن الجيل الحاضر لن ينتهي قبل أن يتم هذا الحدث العظيم[٧٥].

تلك هي العقيدة التي كان يسوع يُعلّمها للناس، تارة في الهواء الطلق، وأخرى في المعابد وكان أحياناً يبرئ المرضى والعجزة، بمسهم بيده[٧٦] أو بدهنهم باللعاب في مواطن الألم[٧٧] وأحياناً، كان يأمر أولئك الذين استفادوا من هذه المعجزة، ألا يقولوا شيئاً عنها إلى أحد[٧٨]. ..

(٦٩) لوقا، ٢، ١٤. وانظر أيضاً مرقص، ٩، ٥، ويوحنا ١٥ — ٢٧.

(٧٠) لوقا، ١٧، ٢١.

(٧١) هذه الكلمة توجد في إنجيل ماثيو ١٩، ٢٨، ولوقا ١٧، ٢٢ ومابعدها، و ٢١، ٧.

(٧٢) ماثيو، ٢٤، ٢٥. مرقص ١٣.

(٧٣) لوقا، ٢٢، ٦٩.

(٧٤) ماثيو، ٢٤، ٣٦، ومرقص ١٣، ٣٢.

(٧٥) ماثيو أو متى، ١٦، ٢٨؛ ٢٣، ٣٦، ٣٩، ولوقا ٤، ٤٠؛ و٥، ١٣؛ و٧، ١٤؛ و٨، ٤٤؛ و١٣، ١٢.

(٧٦) متى، ٨؛ ١١؛ ٢٠، ٢٩ — ٣٤ ولوقا، ٤، ٤٠؛ و٥، ١٣؛ و٧، ١٤؛ و٨، ٤٤؛ و١٣، ١٢.

(٧٧) يوحنا، ٩، ٦ — ٧. وفي كل المجتمعات، كان مسُّ القديس، المملوء بالمانا، وخاصة باللعاب، يعتبر مبرئاً من المرض، بأعجوبة.

(٧٨) متى، ٨، ٤؛ ٩، ٣٠. لوقا، ٥، ١٤؛ ٨، ٥٦. وقد استنتج بعض اللاهوتيين البروتستانت الأحرار، من هذا ...

وكان قد اختار اثني عشر حوارياً، كان بينهم يوحنا، بن زبيدة Zébédée، وهو مريده المفضل، وسمعان، الذي يسميه باسم كيفا (أي بطرس) والخائن يهوذا الاسخريوطي.

وقرّر يسوع، في آخر حياته القصيرة، أن ينتقل إلى القدس. فركب حماراً، ودخل إليها دخولاً عظيماً. وطرد الباعة من الهيكل، وأقام العشاء المقدّس مع حوارييه الاثنى عشر، وأخبرهم بأن أحدهم سيخونه.

وكان الكهنة يكرهون يسوع، الذي كانت أخلاقه الجديدة، تناقض مستبقاتهم ومصالحهم. وكانوا يخشون أن يسوء الرومانيين ما يحدثه وجوده من بلبلة، وأن يهدموا الهيكل، مصدر ثرواتهم، وأمجادهم. وعندئذ قام المضحي الأعظم قيافا بجمع المضحين والفريسيين، وقال لهم: إن من الأفضل أن يموت إنسان واحد، من أن يقضى على شعب(٧٩) وتقرّر موت يسوع.

فأوقف، ومضوا به لمقابلة Caïphe (قيافا)، وصرَّح أنه يسوع، ابن الإله. وبدا أن هذا «الكفر» يستحق الموت.

فأوثق الكهنة رباطه، وسلّموه إلى الوالي الروماني بونس بلاطس. وعندما سأله هذا الأخير، أعلن أنه ملك اليهود. وبعد أن حاول بيلاطس إنقاذه، انقاد إلى الجماهير التي كانت تطلب أن يُصلَب هذا الثوري الجريء.

وصُلب يسوع في مكان اسمه الجمجمة، وبالعبرانية الجلجلة Golgotha. فصلى من أجل صالبيه قائلاً: أيها الأب، اغفر لهم خطاياهم، فإنهم لا يعرفون ماذا يفعلون(٨٠). وهتف، وهو في أشد لحظات العذاب قائلاً: «إيلي، إيلي، لما شبقتني أي لماذا تركتني(٨١)؟» وأسلم الروح.

وعندما عادت ماريا المجدلية وامرأتان قديستان، إلى القبر الذي وضعوا فيه جسده، قبل ثلاثة أيام، وجدنه فارغاً، وعندئذ ظهر يسوع لماريا المجدلية وكان قد بُعث حياً.

....

الأمر، بعض النتائج الذكية، ومنها أن الاعتقاد بهذه المعجزات، التي عرفت من كلام صدر عمن أمروا بألا يخبروا بأمرها أحداً، ليس بأمر أساسي في العقيدة المسيحية.

(٧٩) يوحنا، الفصل الحادي عشر، ٤٧ ـــ ٥٠.

(٨٠) لوقا، ٢٣، ٣٤.

(٨١) متى، ٢٧، ٤٦ ومرقص، ١٥، ٣٤.

ولكن ما هي الحقيقة التاريخية، بالنسبة لحياة يسوع، على نحو ما تنبئنا بذلك الأناجيل؟ إن النقد قد أبطل تدريجياً هذه المجموعة، من الأخبار المتوارثة تقليدياً.

ويأتي إرنست رينان، فيضع المبدأ القائل بوجوب حذف كل عنصر خارق للعادة، من كل هذه الأخبار.

وطبقاً لما يقول ليتره(٨٢) Littré في كلمته القاسية: فإنه ما من بحث تم، انتهى إلى إثبات حدوث أية معجزة، حيث يمكن أن تلاحظ وتشاهد. وهذه الجملة ككتلة ضخمة لا يسعنا أن نزخرفها(٨٣) فالمعجزات أشياء لا تحدث أبداً.. فنحن لم نعد نؤمن بالمعجزات كما لا نؤمن بالعائدين (من القبور)، أو بالشيطان، أو بالسحر، أو بالتنجيم(٨٤).

وعلى ذلك، فإن رينان يقول:

لو أننا اقتصرنا، في الكتابة عن حياة يسوع، على الأشياء المؤكدة، فعلينا أن نكتفي ببضعة أسطر(٨٥).

وهذه «الأسطر القليلة» جعلها رينان، باستخدام بعض الفرضيات، كتاباً ضخماً له سحر أخاذ.

ولكن النقد بعد رينان تتابع، ولا سيما في ألمانيا. وعندما لخّص ألفريد لوازي هذه المجموعة من الأبحاث، كتب يقول:

«ما من شيء في القصص الإنجيلية، يملك رصانة الواقع، باستثناء صلب المسيح، بالحكم الذي أصدره بونس ــ بيلاطس، بسبب البلبلة التي أحدثها هذا الدعيّ المخلّص(٨٦).

أما مؤرخ العقائد المسيحية، جوزيف ترومل، فيرى أن: يسوع، كان في جوهره، ثورياً، مثيراً للبلبلة المهدوية أو الميسائية: ولقد اعتقد يسوع أنه مدعو من الله لطرد الرومان من فلسطين،

---

(٨٢) ليترة: فيلسوف فرنسي وضعي (١٨٠١ ــ ١٨٨١).

(٨٣) رينان: ذكريات من الطفولة والشباب (باريس ــ كالمان ليفي، ص: ٢٨٢ ــ ٢٨٣).

(٨٤) رينان: حياة يسوع، ص: ٦، وص: ٩.

(٨٥) نفس المصدر، ص: ١٥، ١٦.

(٨٦) . Revue d 'histoire et de littèrature religieuses, 1922, PP. 297-298

وإقامة مملكة فيها، بعون الله، مملكة يعيش فيها، تحت قيادته، جميع الناس في الوفرة والهناء(٨٧). ولهذا السبب السياسي، قرَّر الرومان الحكم عليه بالعذاب الروماني، الذي هو الصلب.

وإلى مثل هذه النظرية ينتهي سالومون ريناخ(٨٨).

ومع ذلك، فإن النقد يصبح، مع بعض المؤرخين الآخرين، أكثر جذرية أيضاً. ذلك أن بعضهم يرفض أن يكون ليسوع أي وجود تاريخي، ويعتبرون أنه كائن روحي تماماً، لم يكن له أي وجود مادي: إنه إله أنَّسته تقوى المؤمنين به، تدريجياً.

وقد عرض هذه النظرية، من بين كثيرين، P.L.Couchoud(٨٩) وهناك حجة هامة، إذ ما من أحد جاء على حديثٍ حول يسوع التاريخي، لا في النصوص اليهودية الأصلية القديمة. ولا في كتابات الرومان. ولا نرى أن اليهودي Flavius Josépḥe تحدث عنه في كتبه، مثل كتابه: حرب اليهود والتاريخ القديم لليهود، الذي يتحدَّث فيه عن وضع مملكة يهوذا من تيبير Tibére إلى نيرون(٩٠). ــ ثم إن جوستوس من طبرية، في كتب تتعلق بنفس الفترة التاريخية، لا يذكر يسوع، هو الآخر، إطلاقاً. ــ وحتى التلمود اليهودي، فإنه لا يتحدَّث عنه، ساخراً منه، إلا بدءً من القرن الثالث.

وفي العام ١١١ أو ١١٢، عيِّن بلاين (أو بلين) الشاب، كموظف كبير، في مقاطعة بيثيني وبون Bithynie et Pont. فكتب تقريراً إلى الأمبراطور تراجان حول نشاط المسيحيين الذين يرتلون تراتيل سحرية، «للمسيح، كما لو أنها تُرتَّل للرب». وهكذا، على ما يقول كوشو، فإن بلاين «هو شاهد على المسيح ــ الإله، ولكن لا على يسوع، كشخصية تاريخية»(٩١). ــ وهناك نصٌّ

---

(٨٧) يجب أن تؤخذ المقاطع التي يقول فيها يسوع، وهو يتحدَّث إلى حوارييه، أنه يتصرف بالمملكة، لمصلحتهم، ويضعهم «على عروش، لكي يحاكموا القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة» بحرفيتها (إنجيل لوقا ٢٢، ٢٩ ــ ٣٠). والنظرية معروضة في: Le Cotéchisme Pour Adultes, Signé Louis Colange (Paris, Rieder, 1929), t. I, PP. 29-33 et 85-93.

(٨٨) أورفوس، ص: ٦١٥ ــ ٦١٦.

(٨٩) انظر P. L. Couchoud، في كتابه Le Mystère de Jèsus (باريس، ريدر ١٩٢٤) وكتابه: Jèsus le Dieu fait homme (نفس الدار ١٩٣٧) وهذا الكتاب الأخير، كتاب رفيع المستوى.

(٩٠) وسدّاً لهذه الثغرة، أدخل أحد المسيحيين جملة من مقطعين يتتابعان عادة وفي هذا الحشو يدعى باسم المسيح مما لايمكن أن يؤمن به اليهودي جوزيف.

(٩١) سر المسيح، ص: ٢٧.

للمؤرخ Tacite ‏(Annales Liv. XV, Chap. XLIV) يتحدّث عن المسيح «الذي حُكم عليه بالصلب، أيام تيبير، من قبل الوالي Pontius Pilatus». وهذا النص العائد لعام ١١٥ـــ١١٧، يبرهن فقط على أن الأسطورة التي تصل بين هذه الأسماء، بدأت بالتركز والتثبت.ـــ ويتحدّث Suétone عن منازعات أثيرت بين اليهود، من قبل رجل اسمه Chreatos: وإذا كان الأمر يتعلق بيسوع، فإن هذا المقطع يقرِّر فقط أنه كان هنالك نقاش حاد بين المؤمنين وغير المؤمنين بسمة يسوع الخلاصية أو الميسيانية؛ ولكن هذا النص لا يتعلق بيسوع التاريخي، ولكن بالتصوُّر القائم عن المسيح في الرؤوس[٩٢].

وإذن، فلا بد، لاكتشاف المسيح التاريخي، من الاتجاه إلى المصادر المسيحية. وأقدم النصوص، والسابقة بزمان غير قليل لتأليف الأناجيل، هي رسائل القديس بولس وأقدم هذه جميعاً رسالته إلى أهل تسالونيك Thessaloniens التي نقرأ فيها اسم المسيح[٩٣]. بيد أن بولس يقيم فيها علاقة وثيقة بين الله وبين يسوع أو المسيح؛ ويضع بصيغة المفرد ذلك الفعل الذي يتبع هذين الاسمين[٩٤] أما في الرسالة إلى أهل فيليبّي، فإنه يصف يسوعَ إلهياً، كشخصية رؤيوّية، دون أي إشارة دقيقة تاريخية أو توبوغرافية[٩٥]. وأما في الرسالة الموجّهة إلى الكورنثيين، فإن بولس يشرح أن يسوع الذي عاد حياً، قد رئي من قبل كيفا، ثم من قبل الأثني عشر حوارياً، ثم من الخمس مئة أخ، ثم من يعقوب، ومن كل الحواريين، وأخيراً منه نفسه (ويذكر نص الرسالة المشار إليها: إن المسيح مات من أجل خطايانا على ما في الكتب، وأنه تراءى لكيفا، ثم للأحد عشر، ثم تراءى لأكثر من خمس مئة أخ معاً، أكثرهم باق إلى الآن وبعضهم قد رقدوا. ثم تراءى ليعقوب، ثم لجميع الرسل، وآخر الكل تراءى لي أنا أيضاً كأنه للسقط، لأني أنا أصغر الرسل)[٩٦]. وعلى ذلك فإن ظهورات يسوع حقيقة لا مراء فيها.

«وأخيراً، ندرك وجود يسوع في مجال الوقائع. إنه كائن روحي ندركه. وهو يسوع المبعوث حياً، وهذا هو يسوع التاريخي. ولا يفرض بولس أبداً أن الرسل الفلسطينيين قد رأوا يسوع،

---

(٩٢) الكتاب المشار إليه؛ ص: ٣١ـــ٣٢.

(٩٣) الكتاب المشار إليه؛ ص: ٧٩.

(٩٤) فليوجّه، إلهنا وأبونا وسيدنا، يسوع، طريقنا إليكم، (رسالة إلى أهل تسالونيك (١) الفصل الثالث، ١١).

(٩٥) رسالة إلى أهل فيليبي ٢، ٥ـــ١١، وهذه القصة العجيبة قصة الهبوط والصعود لكائن إلهي، هي أقدم خلاصة نملكها عن تاريخ يسوع (الكتاب المذكور، ص: ١٢١ـــ١٢٢).

(٩٦) الرسالة الأولى إلى الكورنثيين، ١٥، ٣ـــ٨.

بصورة أخرى غير التي رآه هو فيها. وهو يقارن نفسه بهم. ويصرخ قائلاً: ألست أنا رسولاً؟ أو لم أر يسوع، سيدنا؟ (الرسالة الكورنثية الأولى، ٩، ١)[٩٧].

إنه يسوع روحاني، ذاك الذي نجده في كل الأدب المسيحي البدائي، مثال ذلك، رؤيا يوحنا المنظور إليه كرفيق أو صاحب ليسوع، فهو لا يتحدث عنه كرجل كان قد عاشره، ولكن كما يتحدث عن خروف إلهي، يُتأمل فقط عند الوصول إلى الحال.

ولكن من أين كان يأتي هذا المثل الأعلى؟ من أناشيد الأنبياء، وأعمالهم، ولا سيما من إشعيا الثاني، الذي يصف المسيح؛ وبخاصة، من الرؤيا أو الرؤى الأحدث: ككتابات دانييل، الذي يشيد بابن الإنسان؛ وكتاب حبقوق Hénoch (؟) الذي يشيد بالإنسان السماوي، المتماهي مع خادم يهوى إشعيا؛ وصعود موسى الذي يتحدث عن مرسل من الله.

ويعلن يوحنا المعمدان عن المجيء القريب للرجل السماوي. ويتلقى هذا الرجل الإلهي اسم السيد Seigneur، من كلمة موجودة في النشيد ١١٠، ويسوع، من ترجمة للكلمة العبرية الدالة على المسيح المكرَّز بالمسحة، ويوشع اسم وجد في مقطع من سفر التكوين، ثم أصبح Jésous بالإغريقية، وباللاتينية Jésus[٩٨].

أما ظهورات السيد المسيح، لكيفا أولاً، ثم للرسل الآخرين، فإنها تعود إلى العام ٣٧ أو ٣٨[٩٩].

وعندما يفسِّر القديس بولس، مقطعاً من النشيد الثاني والعشرين («لقد ثقبوا يَديَّ، ورجليّ»)، فإنه يتصوّر الخروف السماوي لا كما لو أنه «مذبوح» من أجل خطيئات الإنسان، فقط، بل «كمصلوب».

ومارسيون، «أحد كبار العبقريات الدينية في الإنسانية»[١٠٠] والنصير المتحمس للقديس

---

(٩٧) المصدر المذكور، ص: ١٣٧ ــ ١٣٨.

(٩٨) سفر التكوين، ٢٣، ٢٠ ــ ٢١. كوشو، عيسى الإله الذي جعل إنساناً، ص: ٤١ ــ ٤٢ ويجب أن نقرأ في كل مقدمة هذا الكتاب، ذلك العرض المفصل للتفسيرات السابقة.

(٩٩) المصدر المذكور، ص: ٥٥.

(١٠٠) سرّ المسيح، ص: ١٤٥.

بولس ، يبدي لنا عيسى روحانياً كله ، نزل راشداً على الأرض ـــ قبل قرن من وجوده هو ـــ ثم مضى في وقت ما ، وبالتالي فإنه قد « صُلب » في عهد بونس ـــ بيلاطوس .

ولطالما بقي عيسى « موضوع تجربة صوفية ... كإله لأحد الأسرار »(١٠١)

بيد أن المؤمنين يتزايدون عدداً . « ويجب أن نسُدَّ حاجات مستمعين بعدد أكثف ، ومن أنواع شتى ... وفي أوائل القرن الثاني ، فكّر الناس بجعل قصة عيسى الغريبة ، قصّة تروى كما لو أنها حدثت فعلاً(١٠٢) . ومن هنا ، جاءت الأناجيل المتأخرة عن مارسيون ، والتي تكوَّنت ، بصورة خاصة ، بترجمة لبعض النصوص البيبلية (كالأناشيد ، وإشعيا ، وزكريا ، الخ)(١٠٣) بالإضافة إلى بعض الذكريات التاريخية العائدة للمسيحيين الأوائل(١٠٤) .

وهكذا « فإن يسوع ليس بالرجل الذي أُلّه بالتدريج ، بل إلـــه أُنسن أو أُنّس بالتدريج »(١٠٥) . « وقصة يسوع ، ما هي إلا تصوُّر جماعي ، من طبيعة مقدَّسة(١٠٦) » .

هذه هي النظرية ، القوية والذكية ، والمعروضة بألمع صورة ، من قبل P.L.Couchoud . ولقد انتقدت بعنف(١٠٧) . وقد لُخِّص الاعتراض الأساسي بهذه الكلمات التي كتبها ألبرت هوتين Albert Houtin :

(١٠١) المصدر المذكور ، ص: ١٤٧ فمارسيون ، مؤلف أول إنجيل (ص: ١٢٤) والناشر الأول للقديس بولس ، هو الأول الذي استخدم كلمة: المسيحية .

(١٠٢) سرّ يسوع ، ص: ٩٧ ـــ ٩٨ ؛ ص: ١٥٨ .

(١٠٣) وتعتبر هذه النصوص كما لو أنها تعرض نبوءات تحققت فيما بعد . أما الولادة العذرية ، فقد جاءت من مقطع أسيء فهمه من (سفر إشعيا ، ٧ ، ١٤) أما الولادة في بيت لحم ، فقد جاءت من نبوءة ميخا ٥ ، ١ وصفة الناصري جاءت من سفر القضاة ، ١٣ ، ٥ ؛ أما الهروب إلى مصر ، فمن إشعيا ١١ ، ١ ؛ وانتصار يسوع ، الذي ركب على حمار ، فمن زكريا ، ٩ ، ٩ ؛ وطرد الباعة من المعبد فمن زكريا ، ١٤ ، ٢١ ؛ والثلاثون فلساً العائدة ليهوذا ، فمن يهوذا ، وزكريا ، ١١ ، ١١ ـــ ١٣ ؛ والعذاب من إشعيا ، ٥٠ و٥٣ والنشيد ٢٢ .

(١٠٤) مثال ذلك ، قضية إيتيين Etienne أمام المحكمة الكنسية أو سانهيدران ، فإنها تبدو كأنها قضية يسوع أمام القضاة أنفسهم .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص: ٩٠ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص: ١٠٨ .

(١٠٧) ويرد منهم اسم موريس غوغيل M. Goguel في كتابه : يسوع الناصري خرافة أم تاريخ؟ (باريس ، بايو ، ١٩٢٥)

« فبدون عيسى، يبدو لي أن تاريخ المسيحية لايمكن فهمه، كما لو حَرَمْتَ الإسلام من النبي محمد (ﷺ)، أو الفيثاغورية من فيثاغورس[١٠٨] ».

وهكذا فإن المشكلة المثارة حول شخصية يسوع، لم تجد حلاً يرضي كل العقول.

....

وتقارب اليهود الذين قبلوا عبادة يسوع التاريخي، أو يسوع المثالي، بعضهم من بعض (مما هو قليل الأهمية)، وأنشؤوا الكنيسة البدائية[١٠٩].

ثم إن الحواري بولس دعا الوثنيين إلى المسيحية، كما دعا الأمم الأخرى. وأصبحت المسيحية بذلك « فرقة أغريقية من اليهودية »[١١٠]. وامتصت كل ما استطاعت من الديانة اليهودية والفلسفة الإغريقية. وتبعاً لأحد آباء الكنيسة من القرن الثالث، وهو القديس كليمانت الإسكندراني، فإنه كما أن القانون هيأ اليهود للمسيح، فإن الفلسفة هيأت الأغارقة له.

وهكذا تشكلت ديانة تطمح إلى أن تصبح الديانة العالمية.

ولكن ما هي المعتقدات المشتركة اليوم بين مختلف الكنائس التي تشكل العالم المسيحي[١١١]؟

« وأول ما نقول هو أن المسيحية تؤكد، أولاً، وجود إله وحيد، هو أب شديد القوة، خالق للسماء والأرض ».

---

(١٠٨) Houtin. تاريخ موجز للمسيحية (باريس، ريدر، ١٩٢٤، ص: ١٣، رقم ٢).

(١٠٩) انظر ما سيلي، ص: ٢٣٧. فتبعاً لأعمال الرسل، ١١، ٢٦ بدأ اسم المسيحي، واتخذه المؤمنون اسماً لهم، في أنطاكية.

(١١٠) سالومون ريناخ، أورفيوس. ص: ٣٨١.

(١١١) إن هذه المعتقدات ملخصة كلّها في وثيقة من وثائق القرن الرابع، تسمى باسم رمز الرسل Symbole des apôtres — ونحن نهمل، في هذا العرض الموجز، عدداً من الفروق بين الكنائس المسيحية. وسنشير في الصفحة ٢٣٨ وما بعدها إلى أهم الفروق بين هذه الكنائس فيما يتعلق بالعقيدة، ولا سيما في شؤون العبادة والتنظيم الكهنوتي.

ويمكن «أن يعرف الله بصورة مؤكدة، بالنور الطبيعي القائم في العقل الإنساني». وقد أعلن مجمع روما أن من يقول العكس، فهو «محروم».

وتعود المسيحية فتأخذ لحسابها كل البراهين الفلسفية المألوفة على وجود الله(١١٢). ولكن الكنيسة تضع إلى جانب الله، ابنه، يسوع. ويُتصوّر عيسى بصورة يجمع فيها عدد من الأفكار ذات الأصول المختلفة. فهو، تبعاً للفكر اليهودي التقليدي، المسيح، ورجل القدر الذي كان عليه أن ينقذ إسرائيل(١١٣). وهو، تبعاً للتصور المارسيوني، الإله الذي هبط من السماء لتخليص العالم وإنقاذه. وهو، تبعاً للوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية، ومعتقداتهم، والمعتادين على فكرة أن الآلهة تتزاوج مع بني البشر لكي تنجب رجالاً عظاماً ــ هو كائن إلهي وُلِد من مريم.

وينضاف إلى هذه المفاهيم الأساسية فكرة «الكلمة verbe»(١١٤) التي جاءت من فلاسفة رواقيين، ومن فيلسوف يهودي «فيلون» ومستعارة من هذه العقائد أو النظريات على يد القديس جوستين justin، ويد مؤلف الأسطر الأولى من الإنجيل الذي يعزى إلى القديس يوحنا. أما الكلمة فقد ولدت من جوهر الأب أو مادته، والمتواجدة معه(١١٥)، وهي خالدة كالأب.

وإلى جانب الأب والابن، نجد الروح القدس. وعند إسرائيل تعني كلمة روح، نفس الإله، الجبار ذي الوجه الإنساني: وهو الذي كان يضطرب ويصخب على وجه المياه، (أو تبعاً لتعبير سفر التكوين: «يرف على وجه المياه»(١١٦) منذ بداية الوجود. وهو الذي جفف الأرض بعد الطوفان(١١٧). وتبعاً لمسيحي الجيل الأول، فإن نَفَس الله هو الذي يوجه بعض الكائنات المتميزة(١١٨) وتدخّل على صورة حمامة، كجوبيتر الذي اقترب من ليدا Léda متنكراً على صورة تم (إوز عراقي)، وجعل مريم تحمل منه(١١٩). أما المسيحيون الذين يملكون شيئاً من الثقافة الفلسفية.

---

(١١٢) إن هذه البراهين معروضة، ومناقشة في مواضع كثيرة، وعلى سبيل المثال، في كتابي: البسيكولوجيا والميتافيزيك (باريس، ناتان، الطبعة (١)، عام ١٩٥٥ ص: ٧٤٨ــ٧٥٩.

(١١٣) مثال ذلك، لوقا، ٢، ٢٥، ٣٨؛ ٢٤، ٢١.

(١١٤) كلمة verbe (من verbum) تعني الكلام.

(١١٥) كلمة Consubstantiel تعني، من الجوهر أو المادة نفسها، وتعني الفلسفة بكلمة جوهر، حقيقة دائمة.

(١١٦) سفر التكوين فصل (١) الآية (٢).

(١١٧) سفر التكوين فصل (٨) الآية (١).

(١١٨) أعمال الرسل ٦، ٥، ٧؛ ٥٥، ١٣، ٤.

(١١٩) متى، ٣، ١٦؛ لوقا، ١، ٣٥.

فإن هذا اسم مضاف (لقب) للكلمة. وفي القرن الرابع فقط، أصبح الروح القدس شخصاً متميّزاً، ومع ذلك فهو متحد في المادة مع الابن.

وليس الأب مخلوقاً ولا مولوداً. وجاء الابن من الله. لكن روح القدس ينشأ عن الآب والابن(١٢٠).

وهكذا فإن الأب، والابن، وروح القدس، ثلاثة في واحد، يتمتعون معاً بصفة الخلود، ومتساوون فيما بينهم. وهذه هي عقيدة التثليث.

....

ويقف الشيطان ضد الله. وهو ينشأ عن الأديان الثنائية وميتافيزيكيتها، التي تضع أمام الله الطيب، إلهاً شريراً. وحباً بملاءمة هذه الفكرة مع عقيدة التوحيد، فقد جعلوا من الشيطان مخلوقاً تمرّد على الخالق.

وكما أن الملائكة تحيط بالله، فإن الشياطين المرافقين لإبليس، هم مخلفات للإحيائية البدائية.

وعلى ما نجد في النص اليهوي للتكوين، فإن إبليس الذي تنكّر على صورة حية، هو الذي هبط بآدم وحواء إلى الأرض(١٢١).

وخطيئة حواء وآدم، هي الخطيئة الأصلية، التي سترهق الإنسانية كلها فيما بعد. ومن الغريب أن هذه الفكرة لا توجد، لا في أعمال الأنبياء، ولا في الأناشيد، ولا في الأناجيل. ولا يشير إليها عيسى بأية إشارة. والقديس بولس هو الذي يؤكد أن الخطيئة قد دخلت إلى العالم، بسبب آدم(١٢٢). ثم إن القديس أوغسطين، هو الذي أعطى هذا التصوُّر أهمية من الطراز الأول(١٢٣).

---

(١٢٠) وحول التعارض الذي يثيره هذا التأكيد (أو القول) الأخير، بين كنائس الغرب والشرق، انظر ما سيلي، ص: ٢٤١.

(١٢١) التكوين، فصل (٣)، ص: ١ ـــ ٢٣. ولا نجد لهذه القصة أثراً في النص الإيلوهي. انظر ما سبق، ص: ١٤٦ ـــ ١٤٧.

(١٢٢) انظر Romains, 5, 12, 18.

(١٢٣) وعندما رأى هنري هين Henri Heine، لدى رحلته إلى الهارز Voyage au Harz، حصاناً مرهقاً بأحماله، قال في نفسه: أيها الحيوان المسكين، لا شك أن أجدادك في الجنة، أكلت من الشوفان الممنوع!.

ولقد تجسّد عيسى في صورة البشر ليكفر عن الإنسانية بتضحيته المتعمدة. وهذه هي مأساة الخلاص الكبيرة.

وكان الخلاص، في رأي اليهود، والنصارى ذوي الأصل اليهودي، يعني سلامة الأمة وخلاصها، وتحرّر إسرائيل من النير الروماني(١٢٤). أما المسيحيون ذوو الأصل الوثني، الذي لا معنى عندهم لهذه الفكرة ـ فقد كانوا يرون أن الخلاص خلاص روحاني (صوفي). مثال ذلك، في رأي مارسيون، أن الإله الطيب، بعد أن ضحّى بنفسه كقربان تكفير، انتزع البشر من نير الإله الشرير.

وقد تعارضت مفاهيم الخلاص، خلال قرون طويلة. ففي القرن الثامن عشر، وفي مجمع ترانت، صاغت الكنيسة عقيدة الخلاص، بشكل نهائي: وعندها أن يسوع المسيح صالحنا مع الله، بدمه الذي سال على الصليب؛ وبهذه التضحية هدّأ من غضب الله على الإنسان الخاطئ.

....

وكان المسيحيون الأوائل مقتنعين أن يسوع سيعود قريباً إلى الأرض. وكان يجب أن تسبق عودته بمجيء الـ Antéchrist (الأنتي كريست، المسيح المضاد) أو عدو المسيح(١٢٥).

وعندما يعود المسيح، سيكون هنالك بعث للأجساد، ومحاكمة أخيرة. وسيحكم عيسى حتى يسحق أعداء الله جميعاً. وآخر عدو يسحق، هو الموت. ويصبح الجسد المعّرض للفناء، كياناً روحانياً. أما الخطايا، فإنها ستمحى. وسيتحرر الخلق كلهم. وعندئذ فإن الابن سيخضع هو نفسه (ليكون الله هو الكل في الكل). وفي النص الموجود في رسالة بولس إلى أهل كورنتس، يصاغ هذا المعنى بالجمل التالية: (فكما في آدم يموت الجميع، كذلك في المسيح سيحيا الجميع. كل واحد في رتبته: المسيحُ على أنه باكورة، ثم الذين للمسيح عند مجيئه. وبعد ذلك المنتهى، متى سَلّم

(١٢٤) إنجيل لوقا، الفصل الثاني، ص: ٢٥، ٣٨؛ والفصل ٢٤: ٢١، والرومان ٤، ١٣.
(١٢٥) رسالة يوحنا، ٤، ٣، ؛ منذ عهد نيرون حتى السيد Combes ما من خصم للكنيسة لم ينظر إليه كعدو لعيسى، ورأى لوثر أن عدو المسيح، هو بابا روما نفسه، وهنالك ملايين من الإنجليز رأوه في نابوليون؛ انظر (سالومون ريناخ، أورفوس، ص: ٣٥٨ ـ ٣٥٩)، وكان هنالك لاهوتي ألماني بروتستانتي كان يرى في هتلر عدواً للكنيسة.

الملك لله الأب، متى أبطل كل رئاسة وكل سلطان وكل قوة، لأنه لا بد أن يملك حتى يضع جميع أعدائه تحت قدميه. وآخر عدو يبطل هو الموت، لأنه أخضع كل شيء تحت قدميه. وفي قوله: إن كل شيء قد أخضع، من الواضح أنه يستثني الذي أخضع له كل شيء. ومتى أخضع له كل شيء فحينئذ يخضع الابن نفسه للذي أخضع له كل شيء ليكون الله كلاً في الكل(١٢٦).

وكان الحساب الأخير، الذي كانت الكنيسة القديمة تعتقد أنه قريب، يتأخر باستمرار، فانتهوا إلى الاعتقاد بوجود حساب موقت للموتى، يلي موتهم مباشرة، ويفترق فيه الذاهبون إلى الجنة، والآخرون الذاهبون إلى النار. وكانت الكنيسة تضع بين الجنة والنار ما يسمى «بالمطهر» حيث يحشر الناس الذين لم يتقرّر بعد مصيرهم بصورة نهائية، وكان على المؤمنين أن يُصَلّوا من أجلهم، طالبين شفاعة القديسين.

أما خلاص الإنسان فقد أثار مشكلة لاهوتية خطيرة: فهل يتم خلاص الإنسان بأعماله، أو بعمل من إرادته الحرة، أو بحكم رحمة الله وحدها، وبالإيمان بهذه الرحمة؟ أما الرسالة المسماة باسم رسالة القديس جاك، فتقول إن إبراهيم أدرك الخلاص بأعماله؛ وأن الإيمان بلا أعمال، هو إيمان ميت(١٢٧). وفي القرن الخامس، جاء راهب من مقاطعة بريتانيا الفرنسية اسمه بيلاج Pèlage، ورفض فكرة الخطيئة الأصلية، ودافع عن نظرية الحرية. فأدينت نظريته. وعلى العكس، فإن القديس بولس(١٢٨) والقديس أوغسطين، والبروتستانت الأوائل، والجانسينيست يقولون بنظرية الرحمة. أما الكنيسة الكاثوليكية فتقبل بضرورة العمل والإيمان، بقوة واحدة.

....

وبذلك تطرح المشكلة الأخلاقية. وهناك بعض العقول، التي ترى أن الميتافيزياء المسيحية تتعرض لجملة من الاعتراضات وتعزو للأخلاق المسيحية، صفة استثنائية، وقيمة وحيدة.

---

(١٢٦) عرضت هذه العقيدة، خاصة، من قبل القديس بولس، في رسالته الأولى إلى الكورنثيين، الفصل الخامس عشر، وقد أشرنا إلى المقطع المتعلق بهذا الموضوع في نص الترجمة، وذكرنا ذلك لمزيد من الوضوح وضبط النصوص كما وردت، وعرضت في الرومان، الفصل الثامن، ١٩ ــ ٢٣، واعتقد فلاسفة آثينا أن القديس بولص كان يبشر بألوهية غريبة. انظر آناستازيس (البعث) (والأعمال، الفصل ١٧، ١٨).

(١٢٧) رسالة القديس جاك ٢، ١٤ ــ ٢٦.

(١٢٨) الرومان، ٣ ــ ٢٦، ٢٧، ٤ ــ ١، ٥، و٥، ١ ــ ١٢ و٩، ٥ ــ ٦. وبعض جمل رسالة القديس جاك إلى الرومان (٢، ٢٤) متعارضة بوضوح مع بعض جمل الرسالة الموجهة إلى الرومان، أهالي روما (٣، ٢٧).

ولكن هنا تظهر صعوبة خطيرة : فهل هنالك أخلاق مسيحية ؟ أو توجد أخلاق مختلفة جداً ، تدعي أنها مسيحية ؟.

ولقد اكتشف في الإنجيل نفسه تصورات متعارضة جداً ، حول مشكلات نظرية . ـــ أفتلغى الشعائر القديمة أم يبقى عليها ؟ وما هي علاقات الأخلاق بالإيمان ؟ وحرية الإنسان ما هو شأنها ؟ وما هي طبيعة الحدود ؟ وهناك مشكلات عملية كثيرة :ـــ مثل العزوبة أو الزواج ، والإبقاء على الحياة العائلية أم إهمالها ، وعلاقات الدولة بالكنيسة ، الخ(١٢٩) .

وقد فسِّرت هذه الاختلافات بالقول : إن الأخلاق من عمل الأوساط الاجتماعية ؛ ولكن كان في الكنيسة ، في الوقت الذي كتبت فيه الأناجيل ، أوساط مختلفة جداً ، اقتصادياً ، ومستوى ثقافياً .

ويقرِّر التاريخ أن الأخلاق المسيحية ليست بمختلفة جوهرياً عن الأخلاق الدينية أو الفلسفية الكبرى المختلفة ، وكهذه الأخلاق ، فإن الأخلاق المسيحية تصدر عن التقاليد الاجتماعية ، والتجارب الفردية ؛ وهي ، ككل أنواع الأخلاق الأخرى ، عمل إنساني .

ولكن الاختلافات والتعارضات ازدادت على مر العصور .

ولعله يمكن أن نرد الاتجاهات المتناقضة ، في الأخلاق المسيحية ، إلى اتجاهين : اتجاه عقلاني ، متقشف ، ومتعصب ؛ واتجاه عاطفي ، متفائل ، ليبرالي . فإذا قلنا هذا قلنا معه بوجود مسيحيتين : مسيحية العقل ، ومسيحية القلب(١٣٠) .

أما مسيحية العقل ، فإنها تأخذ بتصور للعالم ، تسيطر عليه فكرة الخطيئة الأصلية . فهي تحتقر الحياة الحاضرة : ذلك أن هذا العالم هو وادي الدموع حيث علينا أن نتألم بانتظار أفراح الحياة الآخرة . وقد كتب « بوسوويه » يقول : الشقاء لأهل الأرض ، في « مطوّلةُ في الاشتهاء أو الغلمة Concupiscence » .

وتأمر مسيحية العقل بممارسة التقشف . إذ يجب احتقار الجسد والسيطرة عليه ، وإماته

---

(١٢٩) انظر Albert Bayet, Les Morales de l'Evangile (Paris, Rieder, 1927) . ولقد ذكرت أكثر من مرة ضرورة العودة إلى الصفحات ١٧٢ ـــ ١٧٨ من كتابي : نحن والمسيحية .

(١٣٠) وهذه هي النظرية التي دافعت عنها في كتابي المذكور سابقاً : نحن والمسيحية .

الشهوات. وتبعاً لباسكال، في صلاته من أجل حسن استخدام الأمراض، فإن الله يحب «الأجسام التي تتألم». وكثيرون هم القديسون، وبعض الصوفيين الذين يعيشون في القذارة، ويفرضون على أنفسهم شتى أنواع الألم، احتقاراً منهم للجسد. وفي القرن الثامن عشر، كانت مؤسسة مذهب الطمأنينة الصوفي Quiétisme السيدة غويون Guyon، تضع حجارة في حذائها، وتمزق جسدها بالشوك، وترغم نفسها على وضع لسانها (فوق أسوأ بصاقٍ يمكن أن يراه الإنسان).

وترى مسيحية العقل أن الجمال خطير، والعري لا أخلاقي، وتدين بصورة خاصة، ما يسمى بالحب العاطفي والشهواني: فالمتعة الجنسية عكرة، قذرة. والمرأة ترتكب خطيئة إذا هي حملت. فإذا استمتع الإنسان بالحب خارج الزواج، فذلك هو أخطر الخطايا[131].

وكذلك فإن مسيحية العقل تحتقر عقل الإنسان، وتخفض من قيمته، وكأنما هي تقول: «تواضع أيها العقل العاجز؛ واسكتي أيتها الطبيعة الغبية» على ما يقول باسكال في واحدة من أفكاره (جمع فكرة)... فاصغوا إلى الله.

فالإصغاء إلى الله، هو الإصغاء إلى أولئك الذين يعلنون أنهم ممثّلوه.

وتدين الكنيسة، كل نشاط عقلي، يعمل خارج النطاق الذي تعيّنه هي نفسها، كما لو أنه غرور لا يحتمل.

وهنا نقف على «تأكيد أساسي» يُمثّل مسيحية العقل، ويؤلف إحدى خصائصها: وخلاصته أن الديانة المسيحية هي ديانة الحقيقة؛ الديانة التي أوحى بها الله، حول الله، والحياة الآخرة، والطبيعة والإنسان، والمجتمع الإنساني:

«فأنا الطريق، والحقيقة، والحياة؛ ولا شيء يصل إلى الأب، إلا عن طريقي»[132].

وعلى «الحقيقة» المسيحية أن تكون فوق الفكر، وتسيطر عليه، وتوجّه سلوك الإنسان.

ولكن ماذا نفعل، إذن، إذا كان الإنسان لا يخضع لهذه الحقيقة النظرية والعملية؛ أو كان يؤثر عليها الخطأ؟.

---

(١٣١) وحول هذه النقطة، وفي عدد كبير من الأوساط، وعدد كبير من النفوس، فإن التطهيرية البروتستنانتية لا تقل في شيء عن التقشف الكاثوليكي.

(١٣٢) الإنجيل تبعاً للقديس يوحنا، ١٤، ٦.

إنه لا مجال لحرية الخطأ . فـلله كل الحقوق . ولكنيسة الله كل الحقوق . والحقيقة ، الموحى بها من الله ، لها كل الحقوق ، بما في ذلك حق القضاء على الخطأ ، وإزالته بالقوة .

وكل ما يقال مما هو مخالف لعقائد الكنيسة ، إنما هو أكاذيب وجرائم ، وإساءات موجهة إلى الإرادة الإلهية ، لا يمكن احتمالها ؛ ويجب أن تمنع بكل الوسائل . فإذا هي حصلت ، فإنها تستحق أقصى العقاب .

وهكذا فإن مسيحية العقل تنتهي بالضرورة ، وبصورة منطقية ، إلى التعصب .

وقد وجد بعضهم ما يبرّر هذا التعصب ، في بعض النصوص ، المؤوّلة بصورة متحيّزة ، بشكل خاص : كجملةٍ من تشبيهٍ جاء فيها قولها : « أرغم الناس على الدخول »(١٣٣) ؛ أو مقطع من مقاطع الإنجيل (إنجيل يوحنا) يرون أنه واجب التطبيق بصورة حرفية ، عندما يحرقون المتهمين بنقض الإيمان ، أو بالهرطقة :

« إن كان أحد لا يثبت فيَّ ، يطرح خارجاً كالغصن ، فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق »(١٣٤) .

ويكشف التاريخ ، في هذا التعصب المسيحي ، عن جرائم لا حصر لها : كاضطهاد الوثنيين ، واليهود ، والمهرطقين ، والعلماء المستقلين ، والفلاسفة ؛ ومحاكم التفتيش(١٣٥) .

وحتى في القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين ، ما تزال الكنيسة الكاثوليكية تعارض في حق الإنسان في التفكير الحر ، في القضايا الدينية ، مدينة بذلك ، « طاعون العلمانية » .

وهذه الضرورة القاضية بإيجاد قوى تتيح فرض المعتقدات الدينية ، تذكرنا بالمنظمات المسيحية في الدول القومية ، وبالطبقات المتميّزة . وعندما تتحالف الكنائس مع الدول القومية ، نراها تقبل الحرب ، وتبارك الجيوش ، وتفرح بالحملات الاستعمارية . إنها تدافع عن مصالح الأغنياء ، وتدين الاشتراكية والشيوعية . وكما أن الكنائس تؤله الواقع ، وتعتبره عملاً مقصوداً من قبل الخالق ،

---

(١٣٣) وهذه هي التعبير اللاتيني المشهور : compelle intrare . لوقا ، ١٤ ، ٢٣ .

(١٣٤) إنجيل القديس يوحنا ١٥ ، ٦ ، وثنائية الاشتراع ، ١٣ ، ٦ ــ ٩ .

(١٣٥) انظر الوقائع المشار إليها في كتابنا ، نحن والمسيحية ، ص : ٢١٠ ــ ٢٧٢ فقد اقترفت صور بشعة من العنف ، تجاه الألبيجيين ، والفوديين Vaudois في الألب ، وتجاه المهرطقين الإسبانيين ، والهوسيين ، والبوهميين ، والبروتستانت الفرنسيين .

فإنها تبرر مشروعية المجتمعات القائمة، من حيث هي منجـزات لهذه الإرادة الكاملـة (الكتاب نفسه، ص: ٢٧٢ — ٢٩٦ وص: ٣٤٦).

....

والقضية مختلفة جداً، عندما نتحدّث عما يسمى بمسيحية القلب. فهذه ديانة أقرب إلى العاطفة والحياة العملية، منها إلى العقل. وعدا بعض الخطابات (أو الخطب) المذكورة آنفاً، مما قاله يسوع(١٣٦)، فإنها يمكن أن تعتمد على نصوص متأخرة جزئياً، مثال ذلك، هذا المقطع الرائع، للقديس بولس، يتحدَّث فيه عن الحب — الإحسان:

«إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لدي في القلب محبة، فقد صرت نحاساً يطن، أو صنجاً يرن. وإن كانت لي نبوة، وأعلم جميع الأسرار، وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان، حتى أنقل الجبال، من دون هذه المحبّة، فلست شيئاً. وإن أطعمت كل أموالي، وإن سلّمت جسدي حتى أحترق، ولكن ليس لي محبّة، فلا انتفع شيئاً» (الرسالة الأولى إلى الكورنثيين، ١٣، ١ — ٣).

ثم إن القديس بولس يبيِّن لنا كل الفضائل التي يقتضيها الحب الحقيقي؛ ويؤكد أن «المحبة لا تسقط أبداً. وأما النبوءات فستبطل والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل». (الرسالة نفسها؛ ١٣، ٨).

والخلاصة: إن الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة تثبت. ولكن أعظمهن المحبة. (نفس الرسالة: ١٣ — ١٣).

ولما كانت مسيحية القلب تنظر إلى كل معرفة، كشيء ثانوي، فإنها تطلب إلى الإنسان أن يحب فقط، أي أن يحب الله، ويحب القريب(١٣٧).

وقد أنعش بعض المسيحيين هذه المحبة لله، بحبهم كل مخلوقاته وكل مظاهر الحياة الشاملة.

---

(١٣٦) انظر ما سبق، ص: ٢١٩ وما بعدها.

(١٣٧) انظر ما سبق، ص: ٢١٩. ونلاحظ أن ترجمة الأناجيل والعهد القديم، تمت على أيد موثوقة، ولكن الأسلوب كثيراً ما يكون ضعيفاً، حتى ليغرى الإنسان بتصحيحه.

مثال ذلك هذا القديس الطيب فرانسوا داسيز*، الذي استمر طول حياته يجد في هذه المحبة أفراحاً رائعة،ومضى لمواجهة الموت، وهو يغني[١٣٨].

وطبيعي أن ينضاف إلى حب الأب السماوي، ذلك الحب الأخوي، لأولاده، أي لكل الناس.

ولا تستطيع مسيحية القلب، وهي تضع حب القريب (بالدم أو بالمكان) في المقام الأول، أن تمتنع عن إدانة مجتمع يظهر فيه هذا القريب ضحية لكل ما نراه من آلام لا معنى لها، ويمكن أن تنتهي متى قام تنظيم اجتماعي آخر. وهي بالتالي تطمح إلى القضاء جذرياً، على شرور المجتمع الأكثر خطراً، كالتعصب، واللا مساواة الظالمة، والشقاء، والحرب.

وباسم هذا الحب المسيحي نفسه، كان البروتستانتي سيباستيان، كاستيلون Castellion، يعنف في اللوم، منذ القرن السادس عشر، على إعدام ميشيل سيرفيه Michel Servet، الذي أحرق حياً بأمر من كالفن Calvin بسبب رفضه لفكرة الثالوث المقدّس، وقبوله مبدأ التسامح الديني. وفي القرن الثامن عشر، كان الأسقف غريغوار يطالب بحقوق متساوية لليهود، وللسود.

ونلاحظ أن الروح المسيحية تدفع بعدد من المؤمنين إلى المطالبة بمجتمع من العاملين الأحرار والمتساوين، يزول منه الشقاء والبؤس. وهذه هي حال طوباوي اشتراكي مشهور اعتبر قديساً عام ١٩٣٥، وهو توماس مور (أو موروس Morus).

ثم أن هذه الروح نفسها تجعل بعض الضمائر تدين الحرب، والعاطفة الوطنية التي تكره الآخرين، وتؤدي إلى مذابح يذهب ضحاياها أناس كثيرون، كان ينبغي أن نحبهم حباً أخوياً.

وعلى حين أن مسيحية العقل تبدو محافظة، أو رجعية، وقومية متعصبة، ومحبة للحرب، فإن مسيحية القلب تبدو محبة للمساواة، والاشتراكية، والشيوعية، والحياة الدولية الواحدة، والمسالمة، أو الداعية للسلم، والحريصة عليه[١٣٩].

....

* وهذا الرجل هو الذي أسس نظام الفرانسيسكان وكان يعيش أيام الحروب الصليبية (١١٨٢ــ١٢٢٦).

(١٣٨) انظر Sabatier في كتابه: حياة القديس فرانسوا داسيّز (باريس، فيشباشير ١٨٩٤).

(١٣٩) انظر حول النتائج الاجتماعية لمسيحية القلب، كتابنا: المسيحية ونحن، ص: ٣٤٦ــ٣٧٧.

أما العبادة المسيحية فيمكن أن تكون عبادة خاصة، وعبادة جمعية. وهي تشتمل على الصلاة، الخاصة أو العامة، وذكر اسم يسوع، والمناولة.

وتختلف صور العبادة باختلاف الكنائس—وهذا أمر آن الأوان للبحث فيه.

....

ولقد كانت المسيحية —على ما يقول ارنست رينان— «حركة فقراء» في الأصل. وكانت الكنيسة الأولى «تجمع فقراء»... وأسرة من الإخوة البسطاء المتحدين(١٤٠). وفي رأي رينان أن قيام المسيحية أكبر عمل قام به رجال من عامة الشعب، منذ فجر التاريخ حتى الآن(١٤١).

والكلمة التي كانت تطلق على المسيحيين الأوائل، هي كلمة الفقراء (ébionim).

وقد وصفت لنا أعمال الرسل هذه الجماعة:

«كان جميع المؤمنين معاً. وكان كل شيء مشتركاً بينهم. وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم ويوزّعونها على الجميع على حسب حاجة كل واحد. ويلازمون الهيكل كل يوم بنفس واحدة، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب، مسبّحين الله، ونائلين حظوة لدى جميع الشعب.

وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد، ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه، إنه خاص به، بل كان كل شيء لهم مشتركاً.

ولم يكن فيهم محتاج، لأن كل الذين يملكون ضياعاً أو بيوتاً كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات، ويلقونها عند أقدام الرسل فيوزّع لكل واحد حسب احتياجه(١٤٢).

(١٤٠) رينان، الرسل، ص: ١١٥—١١٧.

(١٤١) نفس المصدر، ص: ٣٦٧.

(١٤٢) أعمال الرسل، ٢، ٤٤—٤٦، ٤، ٣٢، ٣٤، ٣٥. أما حول مساهمة المسيحية في تنمية المثل الأعلى الاشتراكي، فانظر في كتابنا: تكون الاشتراكية بدءً من أفلاطون حتى لينين. (باريس، ألكان، ١٩٣٧)، ص: ١٩ وما بعدها.

وكان أوائل المسيحيين يعتمدون على عودة يسوع القريبة. ولما تأخرت هذه، بدأت الكنيسة تنتظم.

أما خلال القرنين الأولين، فقد احتفظت بصفة تجمع علماني: وتدل الكلمة الإغريقية ecclesia التي نسميها نحن بالكنيسة، على مجرد اجتماع، أو تجمع.

وأخذ تسلسل المراتب في الكنيسة المفهومة على هذه الصورة، يظهر بالتدريج. فهنالك قدماء، أو رؤساء بالعمر (Presbyteri)؛ ومراقبون (Episcopi)؛ ورفاق هم رجال أو نساء، يكلفون بمساعدة البائسين، diacres,diaconesses أو أخوات.

ومنذ القرن الثاني، تزايدت أهمية البريسبيتريات والابيسكوبات (رؤساء العمر، والمراقبين). وبدؤوا يعتبرون أنفسهم ممثلين للكنيسة. وأصبح واحد من المديرين رئيساً للكنيسة؛ واعتبر رئيساً لرؤساء العمر أو الرهبان؛ وانفرد وحده، بلقب épiscopus، أو الأسقف (أو المراقب).

ومنذئذ، أصبح الأسقف هو الخلف الوحيد للرسل؛ أما المؤمن فقد اختفى تماماً. وأما السلطة الكنسية apostolique، التي يعتبر أنها تنتقل بوضع اليدين على الرأس، فإنها قضت على سلطة الجماعة. ثم إن أساقفة مختلف الكنائس التي اتصل بعضها ببعض، هم الذين شكلوا أو أنشؤوا الكنيسة العالمية[١٤٣]، على أساس نوع من الأوليغارشية، وهي التي تجمع المجالس العامة، وتراقب أعضاءها، وتقرّر ما تراه في مسائل الإيمان، وكانت هي وحدها تؤلف سلطة حقيقية، ذات سيادة[١٤٤].

....

ثم جاءت الكنيسة الكاثوليكية لتحل محل الكنيسة العالمية، وتعني معناها. وسماها البروتستانتيون، باسم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ومنها انشقت الكنائس الأورثوذكسية، ثم الكنائس البروتستانتية.

والكنيسة الكاثوليكية هي ديانة الشعوب اللاتينية، أو شعوب البحر الأبيض المتوسط

(١٤٣) إن الإيمان بالكنيسة المقدّسة العالمية موجودة بجانب المعتقدات التي درسناها في الصفحات ٢٢٨ ــ ٢٣١ (الأب، والابن، وروح القدس، والعفو عن الخطيئات وبعث الإنسان كجسد من «رمز الرسل» ص: ٢٢٨.

(١٤٤) كتاب رينان عن الكنيسة المسيحية: ٨٩ ــ ٩٠، رقم: ١.

بخاصة، وكذلك إيرلندا وألمانيا الجنوبية. أما الكنيسة الأورثوذكسية فهي ديانة أوروبا الشرقية، والبروتستانتية هي الكنيسة الغالبة على شعوب العرق الجرماني، في أوروبا الشمالية.

....

وتعتبر الكنيسة الكاثوليكية أنها وريثة الدولة الرومانية. وكما يقول فوستيل دوكولانج، فإنها تحمل في ذاتها «صورة لمؤسسات الإمبراطورية، وجزءاً من روحها».

إنها جماعة منظمة ومتسلسلة المراتب بدرجة عظيمة.

ويقوم البابا في قمة هذا التسلسل. وترى الكنيسة الكاثوليكية أن البابوية، من أصل ديني[١٤٥] إلا أن التاريخ يثبت، على العكس، أنها أسّست في النصف الثاني من القرن الرابع، وذلك عندما وضع الأمبراطور القوة العامة في خدمة أسقف روما.

ثم إن البابا يقوم على رأس دولة كنسية. وفي القرون الوسطى، كان يعلن أولوية السلطة الروحية على السلطة الزمنية. وكثيراً ما يمارس عملاً كنسياً، تعجب به حتى العقول النيرة الحرة، مثل أوغوست كونت[١٤٦]. وفي فترات أخرى، ولا سيما في عهود كعهود البورجيا، كانت كل أنواع الجرائم والفضائح تلطّخ شرف البلاط الكنسي.

ولكن هذه الذكريات لا تمنع بعض الكاثوليكيين من المطالبة بصفة «المعصومية للبابا» وعلى الأقل فيما يتعلق بالعقيدة، وفي عام ١٨٧٠، أعلن مجمع الفاتيكان هذه المعصومية[١٤٧].

ويأتي الكاردينالات بعد البابا، ثم البطاركة، ثم المطارنة، ثم الرهبان، ومجموع هؤلاء يؤلف ما

---

(١٤٥) ويستند هذا التأكيد إلى نص دخل في إنجيل متى (١٦، ١٨ — ١٩) يشتمل على كلام للمسيح، أو على تعبير سماوي، جاء فيه قوله: «وأنا أقول لك أنت الصفاة، وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطتهُ على هذه الأرض، يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محللاً في السماوات».

(١٤٦) كتب أوغوست كونت يقول: «ويصبح البابا الرئيس الطبيعي للجمهورية الغربية، التي تقوم رابطتها العامة على الجماعة الحرة الموحّدة في التربية والعبادة، والأعراف، والمنظمة بكهنوتها». منظومة السياسة الوضعية (المكتبة الوضعية، الطبعة الأولى، عام ١٨٥٤) الجزء ٣، ص: ٤٨٤.

(١٤٧) انظر حول هذا التطور في حياة البابوية، كتابنا: نحن والمسيحية، ص: ١٣٢ — ١٣٤.

يسمى «بالهيئة الكهنوتية»، والرهبان ملزمون ببعض الواجبات الخاصة، مثل العزوبة الموصى بها، بدءاً من القرن الرابع، والمفروضة بدءاً من القرن السادس عشر (مجمع ترانت)[١٤٨].

وعلينا أن نضع إلى جانب هذا الكهنوت الدنيوي، ذلك الكهنوت النظامي. فهنالك أناس أحبوا الله، وتركوا هذه الدنيا، هرباً من إغراءاتها، ليعيشوا عيشة تقية، تبعاً لقاعدة حَدَّدها مؤسّس النظام أو المنظمة. وهذه الرهبنة التي جاءت من مصر، بدأت تنتشر في الغرب بدءاً من القرن الرابع.

وعلى المؤمنين، في الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك على العلمانيين، أن يدعوا للكنيسة أمر توجيههم. وبدءاً من القرن الثالث عشر، منع عنهم حق قراءة الكتب المقدّسة، إلا بترخيص من الكنيسة. وعليهم أن يقبلوا، بلا نقاش، عقائد الكنيسة، التي هي تعابير عن الحقائق الموحى بها. فإن لم يفعلوا، فهم هراطقة. وتبعاً لتعبير أخّاذ جاء به بوسوية، نقول: «إن المهرطق هو الشخص الذي له رأي».

وتقيم الكنيسة الكاثوليكية وزناً كبيراً لمريم العذراء، وانتهت في هذا أخيراً إلى قبول فكرة «الحمل من غير دنس»[١٤٩]. أما الثالوث اللاهوتي فقد حلّ محله، في إطار التقوى الشعبية، ما سُمّي بالثالوث الجزويتي. J.M.J، أي يسوع — ماري — يوسف. ولعبادة القديسيين، التي هي استطالة للإحيائية، أهمية كبيرة. والناس يصلون من أجل الموتى الذين يوجدون في المطهر.

أما الأسرار، فهي شعائر أو طقوس مُعَدَّة لإعاشة المؤمنين حياة مسيحية، أولتنمية هذه الحياة بينهم. وهي سبعة أسرار: سر العماد، وسر الميرون (إعادة الفرد تأكيد قبوله للديانة المسيحية)، وسر القربان المقدّس، وسر التوبة (أو الاعتراف)، وسر الزواج، وسر الرسامة، وسر مسحة المرضى (المشرفين على الموت).

وعلى المؤمنين أن يعترفوا للكهنة[١٥٠]، وأن يصوموا يوم الجمعة، وأن يزوروا المعابد.

وتقام الشعائر باللاتينية. لكن العبادة الكاثوليكية الأساسية هي القداس. ويبيّن التاريخ كيف أن المائدة التعاونية، لدى المسيحيين الأوائل، أصبحت هي القداس، وكيف تطورت فكرة

(١٤٨) وكذلك انظر في كتابنا هذا نفسه، حول تطور فكرة العذرية الكنسية.

(١٤٩) انظر حول تطور الأفكار المتصلة بالعذراء مريم، كتابنا نفسه، ص: ١١٨ — ١٢٣.

(١٥٠) انظر حول تطور فكرة الاعتراف، كتابنا نفسه، ص: ١٤٢ — ١٤٤.

تحوّل الجوهر، (أي تحوّل خبز المناولة إلى جزء من جسد المسيح، وخمرها، إلى دمه)[١٥١]. والكهنة وحدهم هم الذين يتآخون (بالصورتين ــ أي بالخبز والخمر)؛ لكن المؤمنين لا يتناولون إلا قطعة الخبز.

وعلى الرغم من إدعاء الكنيسة الكاثوليكية بالبقاء على حال واحدة لا تتغيّر، فإن التاريخ يكشف عن أن المؤسسات، والعقائد، والطقوس الكاثوليكية قد تطوّرت. وكان بوسويه، في تاريخه لتغيرات الكنائس البروتستانتية، يرى أن هذه التغيرات، «علامة على الزيف». ولكن في وسعنا ردّ هذه الحجة على الكاثوليكية نفسها، والتأكيد بأن مؤسساتها، وعقائدها، وطقوسها، لا يمكن أن تصدر عن إله خالد: فهي عمل إنساني، شأنها شأن الهرطقات.

....

أما الكنيسة الشرقية، التي تسمي نفسها أورثوذكسية، فقد انفصلت نهائياً عن الكنيسة الكاثوليكية في منتصف القرن الحادي عشر، وكان هذا الانفصال قد سُبق بانفصالات جزئية، قبل ذلك.

وظهر التناقض بين العاصمتين، روما، والقسطنطينية، في مناسبات شتى. وبلغ ذروته في إحدى المناقشات اللاهوتية: إذ يحسب الشرقيون أن روح القدس يصدر عن الأب وحده، لا عن الابن.

ثم إن الدول الشرقية كلها، منحت نفسها الحق بتأسيس كنائس مستقلة، لكل منها رئيسها، وتراتبها، ونظامها: مثل الكنيسة الروسية، والإغريقية، والصربية، والرومانية، الخ.

أما الكنيسة الروسية، فقد قام بإدارتها، بدءاً من القرن السادس عشر، بطركية موسكو؛ ثم أشرف عليها رئيس المجلس الأعلى للكنيسة الروسية، الذي كان القيصر يسميه، حتى قامت الثورة.

وترفض الكنائس الشرقية جملة الأفكار المتعلقة بالمطهر، وبالحمل بلا دنس، وبعصمة البابا. وفيها يتزوج الكهنة، وتقام الشعائر بلغة البلاد، في صورها القديمة. وتتم المناولة بالنوعين، الخبز والخمر، ولكن الخبز فطير (وليس متخمراً).

---

(١٥١) وكذلك تطور فكرة القداس وتغير الجوهر، في ص: ١٥٣ ــ ١٥٨.

وهناك كنائس شرقية منشقة، تقابل انشقاقات سابقة. فنسطوريو كردستان يرتبطون ببطرك من القرن الخامس، هو نسطوريوس NESTORIUS الذي كان يؤكد أن عيسى لم يكن إلهاً، بمجرّد ولادته من مريم العذراء؛ ذلك أن الكلمة لم تحل فيه إلا فيما بعد (كأنما كان بشراً، ثم ارتقى إلى مرتبة الألوهية).

وهناك منشقون هم من أنصار EUTYCHES، الذي كان يؤكد في القرن الخامس أنه كان لعيسى طبيعة واحدة، هي الطبيعة الإلهية. وهذه هي النظرية التي أخذت بها الكنائس القائلة بوحدة الطبيعة، في مصر، والحبشة، وسورية، وأرمينيا.

....

وفي أيام القرون الوسطى، رُوِّعت بعض النفوس مما رأت من ابتعاد الكنيسة الرومانية أكثر فأكثر عن الكنيسة البدائية. ومن جهة أخرى، فإن بعض الملوك كانوا يضيقون ذرعاً بالسيطرة الروحية التي كانت تمارسها روما عليهم، وأخيراً فإن الأملاك العقارية التي استولت عليها الكنيسة شيئاً فشيئاً، كبرت حتى صارت تثير الغيرة.

وأدّت هذه الأسباب المعنوية، والسياسية، والاقتصادية، إلى قيام الإصلاح الديني في القرن السادس عشر. وكانت المناسبة (أو الحبّة التي قصمت ظهر البعير) هي معارضة لوثر للتجارة بصكوك الغفران.

وتأخذ كل الكنائس التي نسميها «بروتستانتية» بمبادئ هذا الإصلاح.

وعلى الرغم مما بين هذه الكنائس من التنوع والاختلاف، فإن بينها قواسم مشتركة واضحة. ذلك أنها جميعاً ترفض سلطة البابا. وكلها منظمة تنظيماً ديمقراطياً، حتى إن العلمانيين يشتركون في اختيار الكهنة. وليس بالمؤمنين من حاجة إلى وسيط كهنوتي للاتحاد بالله: وهذا هو الكهنوت العالمي. أما رجال الدين، فإنهم يتزوجون. وقد حُذف الاعتراف تقريباً، لأنه ليس إجباري أبداً

أما السلطة العليا، فإنها في الكتاب المقدّس Bible، الذي يستطيع المؤمن أن يبحث فيه بحرية عن عناصر إيمانه أو معتقده. وليس هناك من عقيدة مفروضة. ولا يؤمن أحد بالحمل بلا دنس، ولا بالقديسين، ولا بالمطهر.

وكثيراً ما يتعارض في الكنائس البروتستانتية، يمين أورثوذكس، أميل إلى التقاليد، ويسار ليبرالي، أكثر عقلانية، أو أكثر روحانية[١٥٢].

ويتم القيام بالطقوس بلغة البلاد. ويتآخى المؤمنون بالخبز والخمر معاً.

وكان هنالك اعتبارات وطنية دعت إلى انفصال الكنائس البروتستانتية[١٥٣] ثم إن بعض التصورات اللاهوتية ــ مثال ذلك ما يتعلق بطبيعة الخلاص، ودور النعمة ــ تفرّقها بعضها عن بعض، بالإضافة إلى بعض اللوينات في العبادة، القريبة بدرجة أو بأخرى من العبادة الكاثوليكية، أو المبسّطة أقل أو أكثر.

وهكذا نميِّز الكنائس اللوثرية في ألمانيا، والبلاد السكاندينافية، والكنائس الكالفينية في فرنسا، وسويسرا، وهولندا؛ والكنيسة الانجليكانية في انجلترا؛ والكنائس البريسبيترية في إيقوسيا.

....

ونجد في داخل البروتستانتية، ولا سيما في بريطانيا، والولايات المتحدة، كثرة كبيرة في الفرق، تتمايز ببعض الأفكار، أو بعض الأعراف: فالبابتيست Baptistes يأبون تعميد الأطفال، ويعمدون الراشدين بالتغطيس الكامل؛ ويذكرنا تنظيمهم بتنظيم الكنيسة البدائية؛ وهم يدينون استخدام القسَم والخدمة العسكرية؛ ــ والميثوديست Méthodistes الذين يقترحون طريقة ما للوصول إلى الخلاص، عن طريق قراءة العهد الجديد، والتطهر من الداخل؛ــ ثم المورمون Mormons الذين ألحّوا على الوصية البيبلية القائلة: «أنموا وتكاثروا» واستخلصوا من ذلك تبريراً لتعدد الزوجات (وقد عَدَلوا عن ذلك، عندما منع هذا التعدد قانونياً)، والموحدون Unitaires الذين يطالبون بحرية دينية لا حَدَّ لها، مؤكدين، خاصة، على الجانب الأخلاقي في كنيسة بلا عقائد، متشربة بالروح الحلولية[١٥٤]؛ ــ ثم الخلاصيون الذين يرون أن واجبهم الأول هو رفع مستوى

(١٥٢) إن بعض اللاهوتيين البروتستانت الليبراليين، يؤولون أو يفسرون الأفكار الأساسية للعقيدةالمسيحية بصورة تجعلها أسهل تقبلاً لدى العقول الحديثة. فالخطيئة الأصلية هي الأنانية. والخلاص، هو الدخول في حياة نقية من الأغراض الذاتية، وليس هناك من جهنم. بل هنالك حياة سعيدة لأولئك الذين يستحقونها.

(١٥٣) يلاحظ بعض الكاثوليك ما لكنيستهم العالمية من تفوق على الكنائس الأخرى، المتفوقة في بلادها، وكان الكاردينال Manning يقابل الكنيسة (البروتستانتية) لإنجلترا، بالكنيسة (الكاثوليكية) لإنجلترا.

(١٥٤) ويرى رينان، أن هذه الفرقة هي «أفضل حركة دينية شهدها عصرنا» (انظر كتابه: دراسات في التاريخ الديني.

الطبقات المحرومة، مادياً ومعنوياً؛ — ثم المسيحيون العلميون Les Christian Scientists، أتباع (العلم المسيحي) Christian Science، الذين يعتبرون أن كل مرض هو نتيجة اعتقاد خاطئ، نافين أن تكون المادة، والخطيئة، والشر، بكل صورها، هي حقيقة الكائن.

أما الثيوزوفيون Théosophes فيحاولون أن يُوَحِّدوا العقائد الهندوسية والبوذية مع المسيحية، بإضافة بعض الأفكار المستمدة من القبلانية Cabale اليهودية، ومن أديان أخرى.

وقامت محاولات كثيرة للتوحيد بين الكنائس أو الفرق البروتستانتية، أو بين الكنائس التي تأبى الخضوع للسلطة البابوية (أي الأرثوذكسية والبروتستانتية)؛ أو حتى بين كل الكنائس المسيحية. ولكن هذه المحاولات لم تثمر، على الرغم من أننا نلاحظ بعض صور التقارب.

....

ويثبت التاريخ أن الديانة المسيحية ليست بالدين المختلف جوهرياً عن الأديان الأخرى.

فالعهد الجديد عمل إنساني، تماماً ككل الكتب المقدَّسة الأخرى.

ولما كانت الديانة المسيحية أحدث من أغلب الأديان القائمة، ما عدا الإسلام، فإنها، على ما نرى، تتشابه مع الأديان السابقة تشابهاً غريباً. فإلهها هو يهوى الأنبياء اليهود، بعد أن أصبح الأب السماوي. والسماء التي يعيش فيها أعلى من الأرض، كما أن المقدَّس يعلو على «العادي» في كل العبادات البدائية، كما تعلو الجبال على وهاد الكلدان وسهولهم. وقد ولد المسيح من عذراء، كما ولد بيرسي Persée من Danaé؛ فهو ينجو، بأعجوبة، من أعدائه، مثل ديونيزوس وهوروس؛ ويموت ثم يبعث — مثل أوزيريس، أو آدونيس أو ديونيزوس زاغروس؛ — وفي بداية الربيع مثل آتيس ومثل تموز. وتجد بعض تفاصيل عذابه صورة لها في بلاد بابل. وهو يعبد كمنقذ أو مخلِّص، مثل ميترا Mithra. وفكرة الثالوث مشتركة بين عدة أديان. أما العذراء فإنها تروي الطموح إلى تقوى ملأى بالحب بدرجة أو بأخرى، على نحو ما تفعله إلّهات نسوية أخرى، مثل إيزيس، وعشتار،

باريس، كالمان — ليفي، الطبعة السابعة، عام ١٩٨٥) وكان ممثلها الأول Channint (١٧٨٠ — ١٨٤٢) وقد وسّع فكرة تقول بأنه يمكن للإنسان أن يجد أسباباً جيدة أو سيئة، إما لقبول المسيحية، أو لرفضها. هو يرى أن الكنيسة المستقرة هي قبر للعقل. وفي وعظه حول العدول أو الاستغناء عن الذات يقول شانينغ: إني لواثق بأن طبيعتي العقلية تأتيني من الله، بأكثر مما أنا واثق بأن كتاباً ما، مهما يكن، هو التعبير عن ارادته.

وآستارتيه ، وسيبيل ؛ وهي أم مفعمة بالألم ، مثل ديميتر Déméter ؛ وصورة لمريم (المادون) وهي تحمل يسوع . إنها صورة إيزيس التي تحمل بين ذراعيها الصغير هوروس . أما الشيطان فهو الآنغرا مائينيو الإيراني . أما الملائكة ، والشياطين ، والقديسون ، فهم أرواح الإحيائية . ونحن نعثر على يوم الحساب في المزدكية ، مزدكية زرادشت . وكذلك فإن الوعد المسيحي بالخلود ، يُعثر عليه في الأسرار الأورفية والديونيزية ؛ ثم إن جهنم الأورفية هي كذلك جهنم المسيحيين . وما التآخي ، إلا صورة عن المشاركة ، ذات الأصل الطوطمي ، مشاركة الناس في لحم الكائن المقدّس ودمه . وكانت تتم بالخبز في أيلوزيس ، وبالخمر لدى المؤمنين بديونيزوس ، وبالخبز والخمرة والماء في الميثرائية . وكان للميثرائية أسرارها ، كالعماد مثلاً . ويوم الأحد عند المسيحيين ، هو يوم السبت اليهودي ، مثلاً ، واليوم المحرّم لدى الكلدانيين . أضف إلى ذلك أن الكهنة المسيحيين حليقو الذقون ، والرؤوس من وسطها ، ويلبسون ثوباً على مثال ثوب الكهنة المصريين ؛ ولا يصبحون مقدّسين إلا بوضع الأيدي على الأيدي ، ذلك الوضع الذي يُسَرِّب المانا إليهم ، ويغمرهم بها . أما صوت الأجراس ، فإنه يطهر المؤمنين ويرشهم بالماء ، ويحيطهم بالدخان . وهم في ذلك يطبقون شعائر يونانية .

ويمكن أن تشعر بعض النفوس المسيحية بالحرج ، إذا قرأت هذه المشابه ، وعرفتها ، وكانت ضيقة العقل ، وتمتلئ زهواً وغروراً ، على المستويين الفردي والجمعي ، لأنها كانت تؤمن بأن لديانتها سمة فريدة . وعلى العكس ، فإن النفوس الأوسع قلوباً ، يمكنها أن تسعد بملاحظة أن دينها أو إيمانها هو حصيلة تأليف لمعطيات ماض بعيد جداً ، من غير أن يبعدها ذلك عن التفضيل العاطفي لشخصية يسوع المثالية(١٥٥) .

....

ولكن ما هو الحكم العام الذي يمكن أن يصدره عقل حُرٌّ على المسيحية ؟.

أما من الوجهة العقلية ، فإن الفكرة اليهودية ــ المسيحية ، عن وجود إله واحد ، يسيطر على الطبيعة ، أدّت ، لحسن الحظ ، إلى تصوّر عالم خاضع لقوانين العلم العامة . ولكن عندما تحرّر العلم من المفاهيم الدينية ، قامت الكنيسة بعرقلة انطلاقته ؛ فعارضت استخدام العقل ، والاعتماد

(١٥٥) كان المؤلف الإنجليزي كولريدج (١٩٧٢ ــ ١٩٣٤) يتحدث عن وكلاء يديرون أملاك الكنيسة فخورين بأبرشيتهم ودون أي تأثر بالشعور الديني .

على التجربة ، بسلطة القدماء ، وإمكانية المعجزة ، ودانت غاليلي في القرن السابع عشر ، كما دانت القائلين بتطور الكائنات ، في القرن التاسع عشر .

وأما من الوجهة الأخلاقية ، فإن التقشف المسيحي دهى الناس بعذابات لا معنى لها ، كما جعل النساء المتهمات بعدم القضاء على غرائز مشروعة فيهن ، يشعرن بالإثم . وعلى ذلك فإن التعصب المسيحي جرّ ، خلال قرون وقرون ، جرائم لا تحصى .

ومن جهة أخرى ، فقد كان للمسيحية فضل لم يكن لأية عقيدة أخرى ، أن تدانيه ، من حيث استخلاصها لفكرتين ، لنا ملء الحق في اعتبارهما من أسمى المبادئ في كل حياة أخلاقية ، وهما حب الله ، وحب القريب .

ومن الواضح أن هنالك ضد الإله المسيحي ، اعتراضات قوية منها ما يتعلق بعقيدة التثليث التي يرى أنها معقدة ، وبالخطيئة الأصلية التي يرى أنه ليس من العدل أن يعاقب البشر جميعاً على خطيئة ارتكبها أبو البشر ... الخ .

ومن وجهة أخرى ، فإنه إذا كانت الأنانية ، للوهلة الأولى ، تجد ما يرويها في فكرة الإله الشخصي الذي يأمل الإنسان بإغرائه ، فإن تجربة الحياة تجعل من الصعب استبقاء الإيمان بهذا الأب السماوي ، الذي يريد أو يسمح بكل ما في الدنيا من مصائب ، كموت هذا الطفل ، أو ضخامة هذه الكارثة ، أوانتصار هذا المجرم من قطاع الطرق ، أو إعلان هذه الحرب ... فالإيمان بأب سماوي يرغم على تأليه كل هذا الواقع ، أو ينسبه إليه : لا بد إذن من البحث عن قصد سليم وراء كل هذه الشرور التي تصيب الإنسانية ، ووراء كل المظالم التي تلطخ سمعتها ، وتسيء إلى شرفها ؛ وحقاً فإن هذا المطلب عسير ! لكنه مشترك بين كل الأديان لا خاص بواحد منها .

غير أن من الممكن أن يُحلَّ محل هذا الإله الشخصي ، ذلك الوجود اللامتناهي ، أي الحياة الشاملة أو العالمية . وإنه لحق بعدئذ ، أن جوهر الدين ، كما هي الحال في جوهر كل أخلاق دينية هو أن نعلّق أنانيتنا بحب الكون كله ، وأن نحب كل جوانب الحياة العالمية جملة ، أو نحبّها كلها تقريباً ! .

وبصورة خاصة ، فإن الوجدان لا يسعه إلا أن ينحني أمام الأقوال المسيحية التي ترفع من قيمة حب الإنسان لجاره أو قريبه ، وحبه للناس ، كل الناس ، وللإنسانية كلها . إن أروع ما في هذا الجانب من الأبوة السماوية ، هو نتيجته المنطقية ، أي الإخاء الإنساني .

ومن وجهة النظر هذه، فإن في وسع الروح المسيحية، أن تساعد على هز أركان هذا المجتمع الملوث الشرف، بمظالم غير عادلة، وبالشقاء، وبهيمنة الذهب، وبالكراهية، وبالحرب.

وإنها لتستطيع أن تساهم في قيام «إنسانية» أصلح شأنها، وساد السلام أرجاءها، وأصبح لكل الناس فيها الحق في أن يعملوا كل ما لا يؤذي الآخرين، وأن يعملوا جميعاً لخدمة الجميع، وأن يُوَزِّعوا منتجات عمل الجميع على الجميع، وأن تصبح الشعوب كلها، مهما يكن العرق الذي انحدرت منه، مستقلة، حرة، وعلى قدم المساواة مع الآخرين، ومتآخية معهم جميعاً(١٥٦).

---

(١٥٦) إن هذا الاتجاه المُشار إليه هنا باسم مسيحية القلب، قد حقق خلال السنوات الأخيرة تقدماً ملحوظاً ومفرحاً، في إطار الكنيسة الكاثوليكية. فهذه الكنيسة التي اضطهدت في الماضي أعداءها من الشعوب، أو ذوي الأديان الأخرى، عادت الآن، فاتخذت موقف الدفاع عنهم، بإدانتها للنزعة العرقية. إذ قامت البابوية بتعيين أساقفة كبار من العرق الأصفر، منذ عام ١٩٢٦، وسمت أساقفة من العرق الأسود عام ١٩٣٩. وفي كانون الأول من عام ١٩٣٩، سمحت للكاثوليكيين الصينيين بالمشاركة في الاحتفال بالموتى، فيما يُقام من احتفالات على شرف كونفوشيوس. وفي هذا الشهر نفسه، وفي خطاب بابوي نبيل، تمنت أن يتشرب القادة والشعوب، هذا الحب العالمي الذي يقيم جسراً بينها وبين أولئك الذين لم يُسعدوا بعد بمثل إيمانها. وفي عام ١٩٤٦ عيّن البابا بيوس الثاني عشر اثنين وثلاثين كردينالاً جديداً. وصار يشارك في المجلس المقدّس ممثلو ٢٣ شعباً بدلاً من ١٤، وأصبح هؤلاء الممثلون الجدد، من أبناء القارات الخمس جميعها. ومن أصل سبعين كردينالاً، نجد ٤٢ كردينالاً أجانب. ولا يزال التقدم في هذا المجال يبلغ مستويات أعلى فأعلى.

الفصل الرابع عشر

الإسلام

الإسلام أحدث الأديان الكبرى ومن هنا تنشأ أول طرافة يلخصها إرنست رينان في هذه الكلمات :

« إن هذا الدين ، بدلاً من الغموض الذي يحيط بنشأة كل الأديان الأخرى ، يبدو واضح النشأة تماماً ؛ فجذوره ترى مباشرة . أما حياة مؤسسه فمعروفة كحياة أي زعيم من زعماء الإصلاح في القرن السادس عشر . ثم إن الآبدة الحقيقية للتاريخ القديم ، لهذا الإسلام ، أي القرآن ، تظل خارج كل الشبهات[1] .

وسنلاحظ في هذا الفصل الذي يخصّصه رينان ، في كتابه « دراسات في التاريخ الديني ، لمحمد ولأصول الإسلام » شيء كثير من مرونة الذكاء . ويقوم على وثائق تعود إلى عصره نفسه . أما اليوم ، فإن في وسعنا أن نبدأ دراستنا ، في هذا الموضوع ، من الفصل الذي كتبه ناتان سوديربلوم في كتابه عن تاريخ الأديان[2] .

....

وعلى الرغم من أن الإسلام أحدث الأديان ، فإنه جاء مصدّقاً لما كان بين يديهم ، أي

---

(١) رينان : دراسات في التاريخ الديني (باريس ـ كالمان ـ ليفي ، الطبعة السابعة عام ١٩٨٥) ص : ٢٢٠ و٢٢٧ .

(٢) باريس دار Leroux ، ص : ١٥٢ ـ ٢٠٦ .

لتصورات كانت شائعة في الوسط الذي ولد فيه النبي (ﷺ)، أي في الجزيرة العربية، خلال القرن السابع، من غير أن يعني ذلك أنه نسخة طبق الأصل عنها.

وكان العرب الذين يشكلون أكثرية السكان، ساميي الأصول، بدواً في أغلبيتهم. وكان بينهم يهود ولا سيما في الحجاز (والمدينة خاصة)، وكان بينهم مسيحيون يعتقدون بوحدة طبيعة المسيح، أي نسطوريون، وأحباش بصورة خاصة، ولا سيما في اليمن.

ثم إن معتقدات العرب، وأعرافهم، قبل الإسلام، كانت تشبه عادات اليهود وأعرافهم قبل عهد موسى

وكان العرب السابقون للإسلام ينقسمون إلى قبائل. وكان النسب في أول الأمر، للأم. وكانت الخيمة ملكاً للزوجة. ثم إنه صار للأب. وكان الدخول إلى الحياة الاجتماعية، يتم بالنسبة للفتيان الذكور، ما بين عمر السادسة، والخامسة عشرة، عن طريق الختان.

ويظن بعض الباحثين أنهم يجدون في العهد الجاهلي بقايا من الطوطمية. وكانت بعض القبائل. تحمل أسماء حيوانات، كقبيلة نمر، أو كلب، أو أسد.

ويمكن أن نجد «الإحيائية» في هذا العهد الجاهلي نفسه. فهنالك قوّة فوق الطبيعة، شبيهة «بالمانا» اسمها الله، كانت تغمر بعض الأماكن، بشكل خاص، أو بعض الجبال. وكان الناس يؤمنون بأرواح (يسّمونها الجن) تسكن في الأشجار والحجارة، وفي بعض الكواكب والنجوم. وكانت بعض الحجارة المنصوبة مقدّسة؛ ففي الكعبة، معبد مكة المكعب، كانوا يقدسون قطعة من الحجر الأبيض*، ويخصّون بالتقديس ما يسمى بالحجر الأسود.

والعادة أن «الإحيائية» ترافق السحر. فحيثما وجدت تلك، وُجد هذا. وكانوا يؤمنون بالعين المشؤومة، وبعظيم تأثير بعض الحركات، كالحركة المؤذية، المحّرمة، حركة الإشارة بالإصبع ــ وبقيمة التعزيمات والرقى، وبشراب المحبة، وبفائدة التمائم: وكانت بعض الحلي المصنوعة على صورة الهلال تحمي النساء والأطفال، ضد ضربات القمر، أو ضد بعض المصادفات السيئة. وكانت بعض الأرواح، الأعظم قوة، تعتبر وكأنها آلهة. وكانت هنالك إلهة أنثى، اسمها اللات. وكانوا يعبدون بعض الكواكب، كالزهرة والقمر، التي يتم السفر ليلاً بحمايتها خوفاً من حر النهار.

(*) هذه قصة غير معروفة في الأوساط الإسلامية.

وكان يوجد، قبل ظهور النبي ١٦٠ وثناً تمثل الآلهة.

وكان هنالك كهنة يحمون الأماكن المقدّسة، ويراقبون المعابد، كما كان هناك عرّافون وعرافات، وكهنة وكاهنات.

ثم بدأ بعض الناس، في بعض الأماكن، يستخلصون من هذا كله، فكرة إله أعظم هو «الله». ويغلب على الظن أن هذه الفكرة جاءت من الكتابات المقدّسة، اليهودية، ثم المسيحية، التي كانت تؤكد وجود إله واحد. وفي مكة، ثم في يثرب التي اتخذت فيما بعد، اسم المدينة، كان هنالك بعض الناس من ذوي الفكر الحر، والقلب العامر بالتقوى، يتمنون أن يجدوا ديناً جديداً، لا يعبدون معه إلا إلهاً واحداً، غير إله النصارى واليهود، وهؤلاء هم الحنفاء.

وهذه المطامح هي التي أرسل الله نبيه محمداً (ﷺ) مؤسس الدين الإسلامي، ليستجيب

والكتاب المقدّس لدى المسلمين، هو القرآن.

ويتألف القرآن من ١١٤ سورة، في كل منها مجموعة آيات، قليلة أو كثيرة (وقد رتبت السور، على أساس طولها. فوضع أطولها في البداية، ما عدا سورة الفاتحة. ووضع أقصرها في الأخير، دون أن يعني هذا أن كل سورة متأخرة هي أقصر بالضرورة من التي قبلها.

ويعتقد المسلم أن القرآن كلام الله. وكان هذا الكلام موجوداً منذ الأزل، ثم أوحي به إلى النبي، صلوات الله عليه، عن طريق جبريل.

وكان النبي ـــ الأمي كأكثرية شعبه ـــ يملي آيات القرآن على معاونيه، ومنهم ابن عمه علي، وغيرهم. وكان هؤلاء يسجلون الآيات بمجرّد نزولها، على سعف النخيل، أو على اللخاف (الحجارة الملساء) أو على الجلود، أو على عظام أكتاف الخرفان.

وخلال السنة الثانية من انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، قام الخليفة الأول، أبو بكر (رضي الله عنه)، بجمع هذه الآيات، وكلّف أحد الصحابة بكتابة نسخة منها على جلود جميلة، جيء بها من فارس.

وبعد عشرين سنة تقريبا، وفي العام ٦٥٠، أي في عهد الخليفة عثمان، جُمعَ القرآن في كامل سوره(٣). وشاء عثمان أن يشرِّف نفسه بكتابة نسخة خاصة، على رق جميل، سميت باسم مصحف عثمان، وأرسلت نسخ منها إلى الأقاليم المفتوحة حديثاً.

وعدا آيات القرآن الموحى بها، كان النبي بطبيعة الحال يتحدّث إلى أصحابه، أحاديث مختلفة. وفي القرن التاسع، قامت جماعة من العلماء، بنقد ما تناقله رواة الحديث، وجمّعت أصحّها نقلاً، وأوثقها نصاً، في مجموعة مستقلة، اكتسبت أهمية كبيرة في مجال التشريع.

....

وقد ولد محمد (ﷺ) في مكة، عام ٥٧٠ م تقريباً. وكان خلال شبابه راعياً، وجَمّالاً. ثم حصل على شيء من الثروة، بزواجه من أرملة، كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة، وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدي، أم المؤمنين الأولى.

وبطبيعة الحال فإن النبي كان مطلعاً على الديانتين اليهودية والمسيحية، وكان الشائع من اليهودية يومئذ، ما كان يعرف منها طبقاً لتقاليد أحبار اليهود، كما أن المسيحية كانت تعرف من خلال رواية بعض الأناجيل، ولا سيما إنجيل الطفولة الذي سرعان ما ترجم إلى العربية، ولم يحفظ إلا في هذه اللغة. وكان هذا الإنجيل، على ما يروي إرنست رينان، قد اكتسب أهمية عظيمة بين مسيحيي تلك المناطق العربية البعيدة، ولعله محا الأناجيل المعترف بها، أو غلب عليها. وعلى كل حال فإن نبي الإسلام لم يكن يجهل ما يعرفه الناس من هاتين الديانتين. ولا شك أن رحلاته التجارية زادت من معرفته للمسيحية بشكل خاص، ولو أن اليهودية كانت هي أيضاً معروفة.

وعندما بلغ النبي (ﷺ) الأربعين من عمره، بدأ يتلقى الوحي عن طريق الملاك جبريل، الذي أبلغه أن الله اصطفاه لكي يكون نبياً. والذي يؤمن به المسلمون كافة، هو أن النبي ناقل رسالة، أو مبلغها للناس، فهو رسول فقط، وما من شيء أتى به من عنده. وطبيعي أن تتشابه الأديان السماوية، إذا هي ردّت إلى تعاليمها الأساسية، لأن الله هو الذي أوحى بها إلى أنبيائه، ولا يمكن أن يرد في بعضها ما يخالف ما ورد في الأخرى، إذا لم يكن قد داخلها التحوير أو التطوير.

(٣) جامع القرآن، في ثبت واحد، وبعد التدقيق، هو الخليفة أبو بكر، ثم جمعه عثمان في مصحف واحد، وكتب من هذا المصحف عدة نسخ أرسلت إلى المدن الرئيسية في ذلك الوقت. وخصّ نفسه بواحدة منها.

وعندئذ أخذ أهل مكة، القرشيون، بزعامة أبي سفيان ورهطه، يقاومون دعوته. وكان هؤلاء أسرة من الأسر الرفيعة الشأن، في مكة. وكانوا بطبيعة الحال معادين لدعوة هذا الرجل العادي، ويسخرون من وسواس جهنم. ولما كانوا مهتمين بالإبقاء على شعيرة الحج التقليدية، إلى مدينتهم المقدَّسة. فقد كانوا يخشون أي تعديل يطرأ على الديانة القديمة. ولقي محمد (ﷺ) أكبر صور العنت منهم. لكن زوجته خديجة كانت تقف إلى جانبه، وتشجعه على القيام برسالته. وإذا نحن استثنينا أفراد أسرته الضيقة، قلنا إن أول المؤمنين كان «أبا بكر»، ثم عمر الذي قام بالنسبة إلى الإسلام بمثل الدور الذي قام به القديس بطرس بالنسبة إلى المسيحية، لأنه ساعد على نشر الإسلام مساعدة كبيرة. وبطبيعة الحال فإن محاربة المرتدين على يد أبي بكر، وتحت قيادته، كانت ذات أثر عظيم في التمكين للإسلام في الأرض.

ثم ترك النبي مكة، وهاجر إلى يثرب التي ستأخذ اسمها الجديد منه، أي المدينة، (مدينة النبي). وهذا ما سمي باسم الهجرة. ومن هنا بدأ التاريخ الهجري، أي بدءاً من يوم ١٦/٧/٦٢٢ م. لكن اليهود الذين كانوا يقومون بدور هام في المدينة كانوا يكرهون النبي (ﷺ)، ويعادونه أشد العداء، لأسباب لا تخفى على أحد، منها ولا ريب أنه كان، بحكم أميته، لا يستطيع قراءة كتابهم المقدَّس. إلا أن النبي كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه يستعيد أقدم التقاليد السامية، ويحيي مِلّة إبراهيم.

وفي عام ٦٢٩ استولى النبي على مكة، وقضى فيها على الأوثان الموجودة حول الكعبة. غير أنه استبقى الحجر الأسود، كما استبقى شعيرة الحج.

وعلى الرغم من أن محمداً كان نبياً، فإنه لم يكن صاحب «معجزات» ونراه يكرِّر باستمرار: «قل إنما أنا بشر مثلكم». ويصف نفسه فيقول: حبّب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة. ومع أنه تزوج عدة مرات، فإنه لم يتزوج أيام خديجة أم المؤمنين، بواحدة أخرى. ويغلب على الظن أن العامل الأساسي في زيجاته المختلفة، المتعددة، كان عاملاً سياسياً، خلافاً لما يشيعه بعضهم، عن هذا الموضوع.

ومات النبي بعد مرض قصير، وكانت عائشة بنت أبي بكر هي التي حضرت ساعة الوفاة هذه، عام ٦٣٢، في المدينة. ودفن في الغرفة التي مات فيها. ودفن بعده إلى جانبه صاحباه أبو بكر وعمر(٤).

(٤) يلاحظ إرنست رينان أن الأديان التي يُعرف قبر مؤسسها قليلة جداً. أما قبر النبي فمعروف بالتأكيد.

ويعتبر الدين الإسلامي ديناً وسطاً ، بمعنى خير الأمور الوسط . ولما كان ظهوره حديثاً فإنه جاء بتشريع من عند الله يُصدِّق بما صح مما سبقه ، وينسخ ما لا يصلح للاستمرار ، ويصحّح المحرَّف . وهذا معنى قوله تعالى (مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً) . وفي وسع الباحث أن يجد في هذا الدين عناصر مستمدة من أقدم التقاليد ، وعناصر مستمدة من الديانات السابقة الأكثر تطوراً . أما من العادات القديمة ، فإننا واجدون أشياء مثل الختان ، والإيمان بالجن ، والأرواح ، التي سمّيت فيما بعد باسم الملائكة[٥] أو أرواحاً لبعض القديسيين . أما فكرة الإله الواحد ، فإنها كانت شائعة في الديانتين اليهودية والمسيحية ، غير أنه أضفى أكبر نقاء على هذه الفكرة . وقل مثل ذلك في يوم الحساب ، والجنة والنار ، وكذلك تلك القيمة التي ينبغي أن تمنح للصلاة ، وأعمال الإحسان .

أما الفكرة الأولى في الإسلام ، فإنها فكرة الإله ، الواحد ، الأحد ، الذي هو الله ، الجبار ، الرحمن الرحيم . ويرى بعض الباحثين أن الدين الإسلامي يؤمن « بالجبرية » أي أن كل شيء محدّد المصير منذ الأصل ، وأن قدر كل إنسان مكتوب في اللوح المحفوظ . وهذا ما تعنيه الكلمة الشائعة : « إن هذا مكتوب على الجبين » . أما المسلمون فإنهم بصورة عامة يرون أن مصير الإنسان متوقف على عمله .

والله هو الحاكم الأعظم ، فيرسل الصالحين من عباده إلى الجنة ، ويرسل الضالين إلى النار . وتعارض سورة الواقعة أولئك بهؤلاء .

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ، خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ، إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً ، وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً ، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ، وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ، فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ . » .

أما السابقون من المؤمنين ، فإنهم موعودون بجنات النعيم ، على سُرُر موضونة (منسوجة بقضبان من الذهب والفضة) ، متكئين عليها ، متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلّدون ، بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، لايصدّعون عنها ولاينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . (والكلام هنا مستمد من سورة الواقعة) .

والمؤمنون موعودون بمتع أخرى . هي كل صور النعيم الممكنة ومنها النساء .

(٥) لا أظن أن هنالك مسلماً يعرف أن الملائكة كانت جناً من قبل . ويعتقد المسلمون أن الملائكة موجودون وكذلك الجن .

«إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً، عُرُباً أَتْرَاباً، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ». سورة الواقعة أيضاً ٣٥ ـ ٣٨.

«وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ» ٤١ ـ ٤٦ من نفس السورة.

أما الإسلام (أو التسليم لله) فيجب أن يظهر في القيام بخمسة فروض أساسية، يسمونها أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. وكان على المسلم في البداية ألا يحتفظ إلا بما هو ضروري له (؟) ثم وجب أن يؤدي حق الله في ماله، وهو ضريبة مقرّرة، تنفق على الفقراء والمساكين.

وتبين لنا سورة البقرة، النحو الذي ينبغي أن تؤدّي به هذه الفروض:

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلٰئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» الآية ١٧٦ فما بعدها.

وإلى جانب الأخلاق الإيجابية التي تفرض على المؤمنين، تلك الفروض التي أشرنا إليها، هنالك أخلاق سلبية، تفرض بعض صور التحريم، كتحريم دم الحيوانات، ولحم الخنزير، والخمر، والتماثيل، والأنصاب، والقمار.

واستبقى الإسلام عادة الختان (وهذه تدبير صحي، أكثر مما هي فريضة دينية). وعلى الرغم من الوحدانية الصارمة، فإن الشعب العادي، ظل يؤمن بالأرواح، ويُجلّها، ولا سيما أرواح الصالحين، كما يُجل المسيحيون أرواح القديسين(٦).

(٦) يقول المؤلف: إن الناس في سورية، والعربية السعودية، يعتقدون أن الشجرة المقدّسة هي مسكن لكائن علوي، هو وليٌّ من أولياء الله، مقبور تحت جذورها... ولا يعرف من حولي شيئاً عن هذا الاعتقاد، غير أن بعض ←

وحُدِّد الزواج الحلال بأربع زوجات ، بشرط العدل بينهن . وأوصين بعدم الخروج من البيت ، إن كان ذلك سيؤدي إلى الفتنة . وإذا خرجت الزوجة فعليها أن تكون محجبة ، لا تبدي زينتها إلا لبعلها . بيد أن الإسلام يعظم من شأن الأمومة ، ويقول النبي (ﷺ) : الجنة تحت أقدام الأمهات .

ويمكن أن تعتبر الحرب ضد الكفرة (أي الذين لا يؤمنون بكتاب) حرباً مقدَّسة . وبالتالي فإنها واجبة على الجميع ، يخرج إليها من ينتدب نفسه لها ، أو يفرض عليه ذلك من قبل الدولة .

وليس في الإسلام من كهنوت منظم ، ولا بابا ، ولا مجمع مقدَّس . ولكن الواقع أقام كهنوتاً يتألف من كبار رجال الدين . وكان في السلطنة العثمانية ، منصب كبير لشيخ الإسلام ، كمقابل للبابا . لكن المجامع المقدَّسة قليلة جداً ، لأن رجال الدين السنة ، لا يعترف بهم ككهنوت ، على عكس الشيعة . وبالمقابل هنالك إمام للصلاة ، ومؤذن يعلن بصوته دخول وقتها .

وطبيعي أن تكون السلطة الدينية الأساسية ، هي سلطة علماء الدين ، المتبحرين في العلوم الدينية ، والذين يعرفون القرآن معرفة جيدة ، ويحسنون تفسيره ، وفقهه ، وقواعده ، وأصوله .

....

ولقد انتشر الإسلام بشكل غريب في العالم ، من أقاصي تركستان إلى وسط إفريقية ، ومن المغرب إلى ماليزيا ، وانقسم إلى قسمين : السنة الذين حافظوا على تقاليد الإسلام الأولى ، والشيعة الذين أضافوا للدين تشيعاً خاصاً ، للإمام علي ، وأبنائه ، وأحفاده .

وتعتقد الشيعة التي يقوم مركزها الأساسي في بلاد فارس ، أن محمداً ليس آخر الأنبياء ، بل إنه كان هنالك آخرون غيره ، ولا سيما ابن عمه علي ، الذي هو صهره ، ثم إننا نراهم يجلّون الحسن والحسين ، اللذينْ عذبا ، في رأي الشيعة ، من أجل إيمانهم . وربما كان هذا صحيحاً لدى بعض فرقهم . أما الحقيقة ، فهي أن الشيعة ، مسلمون يأخذون بالمذهب الجعفري ، أي مذهب جعفر الصادق ، وهو أحد الأئمة من نسل علي . وكثيراً ما تحوِّر العامة معتقداتها ، وتبالغ في التطرف ، وتزيد التعصب ، ولا يمكن أن يعتبر ذلك صورة لما ينبغي أن تكون عليه معتقداتها .

القرويين يعتقدون بوجود أشجار مقدّسة ، تقوم تحتها بعض قبور الأولياء ، وذلك تجنباً لقطعها على يد السفهاء . وعلى كل حال ، فإننا نفضل قطع الأشجار على غرسها . وهذا مشهور في السلوك اليومي .

إن موت علي المأساوي، وكذلك موت ولديه بعده، يعادل بالنسبة للشيعة عذاب المسيح بالنسبة للمسيحيين. وشهر محرَّم المخصص لهذه الذكريات الدامية، يكاد أن يكون كالأسبوع المقدَّس، مفعماً بمناظر الأسى، وذكريات الحزن، وهمر الدموع. وقد أُلّفت قصة طويلة حول هذا الموضوع، لتتلى في هذه المناسبات، على صورة التخاطب الشبيهة بما يجري في الكنائس يوم أحد الشعانين. وما من شيء أجمل من هذا، ولا أعظم تأثيراً. وكذلك لا شيء أشد إثارة للعداء بين السنة والشيعة من أمثال هذه الذكريات.

ويبدو أن المؤلفين الغربيين يعتقدون أن للفرس عبقرية، كان لا بد وأن تظهر آثارها في الإسلام. من ذلك مثلاً أنها أغنت أو نمت أو وسّعت شيئاً لم يكن في الإسلام ما يدعو إليه، أي المثل الأعلى الرقيق، الحزين، ومعه كل ما ينبغي من أسباب البكاء، والحزن الدامع. وهذا أمر يحتاج إليه كل دين(٧). ومنذ الأدونيات(٨) حتى الأسبوع المقدَّس، لم يعرف دين نقصته القصص والمناظر التي تسيل أنهار الدموع. وإنه لشيء جميل أن نبكي على إله مخلِّص. وكانت هذه العاطفة غريبة عن الإسلام العربي، الذي هو دين الرجولة، والموجّه خاصة إلى الرجال. لكن الشيعة عرفوا كيف يجدون الفضيلة المعذبة في شخصي علي وابنه، من غير تقليد للعذاب المسيحي، ولكن بالاستناد إلى العواطف نفسها.

---

(٧) هذا الكلام تأكيد مجاني، إذ أن مسلمي السنة يعيشون في هذه الأرض، من غير هذه الحاجة. ولا نظن أنهم اخترعوا شيئاً لإزالتها حتى الآن. ومع ذلك فما زالوا يعيشون.
من الواضح أن المؤلف غير مطلع كما ينبغي على تاريخ الإسلام. فعلي وابنه الحسين خاصة، لم يقتلا من أجل عقيدتهما، بل من أجل مسألة دنيوية بحتة هي السلطة والخلافة. والناس منذ زمن طويل، مجمعون الآن سواء أكانوا سنة أم شيعة على الحزن لقتل علي، وابنه الحسين. بل إن أكثر الناس يكرهون الخليفة يزيد بن معاوية، لأن مقتل الحسين تم في أيامه. وما من إنسان يقرأ هذه الحادثة إلا ويبكي رغماً عنه. غير أن ذلك لا يعني أن الدين بحاجة إلى هذه العاطفة بالذات، ذلك أن الدنيا أروت هذه الحاجة ـ إن كان ثمة حاجة ـ أكثر مما أروت أية حاجة أخرى. وكم يموت ويُقتل لنا أحبة، وأعزاء، وأقرباء. فهل نحن بحاجة إلى المزيد؟.

(٨) الأدونيات، ومفردها الآدوني، عيد الموتى. وكان الفينيقيون يصنعون لإلههم آدونيس ما يمثله ميتاً مسجّى على نعش من الفضة، تحيط به الزهور في أصص فضية، ويملؤون الساحات العامة توجعاً عليه، وألماً لموته، ويكثرون من الرقص الحزين والدموع، ويبقون كذلك ثلاثة أيام، آخرها موعد الفرح مع بعث الإله الذي مات. وليس علينا إلا أن نغيّر الموضوع الذي كان يتوجع له الفينيقيون، ونضع الحسين مكان آدونيس، حتى نكون في حفلات الألم عند الشيعة الفارسيين، مع فارق وحيد هو أن آدونيس يعود فيُبعث حياً، لكن الأمر ليس كذلك مع الحسين. فهناك ألم بعده أمل. وهنا ألم بلا أمل.

ويظن بعض الناس أن المذهب الشيعي زاد الدين الإسلامي إنسانية، وعاونته على ذلك بعض الفرق الصوفية.

أما الصوفية فهي حركة روحية بدأت منذ القرن الثامن، وشهدت أكبر نمو لها في بلاد الفرس. أما كلمة صوفي، فمشتقة من اللباس الصوفي الخشن الذي كان يرتديه المساكين والمتقشفون، ثم أخذه الصوفيون الأوائل عنهم، وتسرّبت إلى الصوفية جملة من العناصر الهندية والبوذية والإغريقية والأفلاطونية الجديدة. ومن الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام اغتنى أو ارتقى بهذه الصوفية، التي أبعدت الناس عن البرهان، بالاستناد إلى العرفان، أي أضعفت العنصر العقلاني، بالاستناد إلى العنصر اللا عقلاني.

ولا تغيّر الصوفية شيئاً من الفكرة الإسلامية عن الوحدة الإلهية، ولكنها تلاحظ أن الله يحيط بكل شيء، ويدخل في كل شيء، وهي تكتشفه في أعماق النفس الإنسانية. ومن الصوفيين المسلمين من مضى إلى حد القول: «إنني أنا الله»، دلالة على... سلامة العقل.

ومنذئذ لا تكون التقوى في قبول العقائد، أو في القيام بالواجبات الدينية، بل ستتجلى في الحب الذي يشعرنا بالله. والنفس المتعطشة إلى الله هي الجمل الذي يتعجّل الوصول إلى مكة، والعندليب الذي يعشق الوردة، والقداسة هي الاتحاد بالله. فإذا اتحد المؤمن مع الله، فإنه يشعر بنشوة لذيذة، ويتمتع بخيرات هذا العالم، كلها، مع الاعتراف لله بالفضل. هذا وإن الشعراء الفرس المشبعين بالحس الصوفي، يتغنون بحب الحياة الشاملة، بكلمات رمزية، تذكرنا بالحب المتبادل بين الرجل والمرأة.

ومتى وقف الإنسان في أعلى هذه القمم، فإنه لا يستطيع أن يتأثر بتفاهات الحوادث اليومية. وفي القرن الثالث عشر، كان الصوفي الفارسي، جلال الدين الرومي، يرى هجوم المغول، وتهديم بغداد، كما لو أنه لا يرى شيئاً [٩] وكذلك فعل الغزالي ــ قدّس الله سرّه ــ عندما بدأ هجوم الصليبيين، واحتلوا القدس.

(٩) انتشرت الصوفية في المغرب، في عهد المرابطين (القرن الحادي عشر والثاني عشر). وفي عهد الموحدين (الثاني عشر والثالث عشر). ومنذئذ كثر الأولياء المحليون الذين يحملون البركة في داخلهم، أي المرابطون، وكان هؤلاء يبقون منعزلين أحياناً، فرادى، وأحياناً أخرى، كانوا ينتظمون في الزوايا التي كان يتعلمون فيها العقيدة الصوفية. ولدينا في سورين SURESNE (على السين) مركز للصوفية.

أما في الهند، فقد تأسست منذ القرن الخامس عشر، فرقة السيخ التي قربت الإسلام من بعض الصيغ الهندية. وفي القرن السادس عشر، قام أحد نبلاء الهند، السلطان المغولي أكبر بمحاولة لمصالحة الإسلام، مع الديانات الهندية واليهودية والمسيحية.

وفي القرن الثامن عشر، قام الوهابيون من أتباع النجدي محمد بن عبد الوهاب، بمحاولة لإعادة الإسلام إلى صفائه الأول، واستبعدوا بشدّة ما يوليه المسلمون عادة، من احترام لرفات الصالحين، واستنكروا الأهمية التي تحاط بها قبور الأولياء، كما وقفوا بشدة ضد الأشياء الكمالية، وتفسخ الأخلاق، وشرب الدخان.

وفي القرن التاسع عشر بدأت تتسرب من إيران بعض الهرطقات البارزة، بغض النظر عن حسن نية رجالها، إن صحّ ذلك. فقام البابيون ضد تفسخ رجال الدين، وضد مظالم النظام الاجتماعي. وكان رئيسهم «البابا» الذي أثار اهتمام الكثيرين، قد أعدم رمياً بالرصاص، عام ١٨٥٠.

غير أن واحداً من مريديه، هو بهاء الله، قام بمحاولة جديدة، وأسّس فرقة البهائية (والمستشرقون ينظرون باحترام إلى هاتين المحاولتين)، داعياً إلى المساواة والإخاء الإنساني: «فكل الناس هم قطرات ماء من البحر نفسه، وأوراق للشجرة نفسها». وللبهائية أنصار متحمسون حتى داخل أمريكا. وتريد جمعية التاريخ الجديد، التي تستوحي أفكارها من الروح البهائية (والتي يقوم مقرّها الرئيسي في نيويورك)، أن تحقق هدفين معاً: هما الولايات المتحدة العالمية، والديانة العالمية.

وقد جمع الممثل الأول لهذه المجموعة، ميرزا أحمد سوهراب **SOHRAB** أجمل ما وجده من نصوص في مختلف الديانات، وسمى ذلك باسم الكتاب المقدّس للإنسانية **The Bible Of Mankind**. ثم إنه أنشأ موردة فارسية، تتألف من تسع عشرة لؤلؤة. وهاك بعضها على سبيل المثال:

ــ أحب الإنسانية وأحترمها.
ــ أحط بالتقدير كل كائن. فإذا لم تستطع تقدير كائن ما، فاتركه خارج حياتك.
ــ كن محبّباً، ولطيفاً، وينبوعاً من الفرح، لا ينضب. وساعد كل إنسان. واجعل حياتك شبيهة بالوردة. فإذا فقدت هذه لغة الكلام، فإن كلامها أريجها.
ــ الدين حب وإخاء. وليس إيماناً وعقائد لاهوتية. وعندما تنشأ في قلبك عواطف المودة والحب، نحو إخوانك، فقد سموت بالدين إلى أعلى ذراه..

ـــ ومهما يكن الاسم الذي تسمي به نفسك، فكن واثقاً أن تحرير العالم يتم عن طريق إله الحب الذي لا اسم له، وفي إطار دين الحب، من غير اسم لهذا الدين...

والآن هل يمكن اعتبار هذه الفرق الإسلامية، ذات الروح المتنامية إنسانياً أكثر فأكثر، نوعاً من التطوير للدين الإسلامي نفسه؟ ربما وجد بين رجال الاستشراق المسيحيين من يظن ذلك، وربما كانوا في الأصل يعيبون على الدين الإسلامي أنه لا يتطوّر. لكن الحقيقة أن هذه الفرق التي كان رجالها مسلمين، لا يطوّرون الإسلام، ولا الأديان الأخرى، بل ينشئون عقيدة أخلاقية، ربما كان فيها من السمو، ما تريد، ولكن الإسلام والمسيحية معاً ليسا بحاجة إلى أي سمو يستعيرانه من أية عقيدة جديدة. وفي وسعك أن تعيب مسلماً ما بأي شيء، ولكن المسلم ليس الإسلام. وفي الإسلام من السمو، ما ليس فوقه زيادة لمستزيد[10].

....

ويبقى صحيحاً، أن الإسلام، خلال أزمنة طويلة، كان في عيون أصحابه، هو الحق ـــ والحق وحده ـــ. وربما أدّت هذه القناعة إلى شيء قليل أو كثير من التعصب، قديماً وحديثاً. ولكن هل يصح ذلك على معتنقي الإسلام وحدهم؟.

....

ويرى بعض الباحثين أن هذا الدين العقلاني، الحريص على عقيدته ينظر باستمرار إلى الأديان الأخرى، وكأن أصحابها زيّفوها بصورة أو بأخرى، وليس من دين سليم، نقي، غيره، لكن التطور الإنساني المتزايد يحمل أصحابه، كغيرهم من المؤمنين بالأديان الأخرى، على فهم أكبر فأكبر لروحه، وتسام بالذات إلى مستوى هذه الروح، وعندما يبلغ المسلم، هذا المستوى من فهم الروح، فإن الدين الذي يؤمن به لا تتغيَّر حقيقته مطلقاً، ولكن تتغير نفسية المؤمن به، ويصبح

---

(١٠) وينبغي أن نُشير إلى أن من بين الفضائل التي يمارسها أكثر المسلمين، القناعة والامتناع عن شرب الخمر، ويروي أحد السياح الذين عاشروا المسلمين عن قرب، مشاهداته، فيقول: «إن الإسلام نجح فيما لم تستطعه المسيحية قط. وهناك مجتمع يتألف من ٢٣٤ مليوناً وأربعة عشر ألف ومئة وتسعة وتسعين عضواً، لا يشربون الخمر مطلقاً (تيودور مونو ـــ بهاري. بحث في الصحراء الحقيقية. باريس Je Sers ١٩٣٧، ص: ٦٦).

الإسلام ديناً عاطفياً وعملياً (كما كان أمره دائماً) يطالب بأنبل الفضائل في إطار روح إنسانية شبيهة بالروح التي يمكن أن تشيع في أي دين آخر، يتطور المؤمنون به تطوراً نفسياً متزايداً.

ويجب ألا ننسى أن البهائية التي نشأت عن الإسلام الشيعي، تعرض نفسها على أنها دين عالمي.

الفصل الخامس عشر

طبيعة العاطفة الدينية، وأصلها وقيمتها

إن تاريخ الأديان ذو فائدة كبيرة بالنسبة لمن تروقه استعادة الماضي. ذلك أننا هنا، لسنا تجاه أحداث، تافهة أغلب الأحيان، نعيد إليها الحياة، بل أمام أعظم ما تصوره الناس من الأفكار النبيلة، وأعقد ما شعروا به من العواطف السامية، تجاه الحياة الإنسانية، والعالم، وما وراء الطبيعة.

ومن جهة أخرى، فإن دراسة الأديان يمكن أن تساعد على حل مشكلات فلسفية مثيرة: فما هي الطبيعة الحقيقية للعاطفة الدينية، وما هو جوهر هذه العاطفة؟ وما هو أصلها؟ وأية قيمة يستطيع الفكر الحر أن يهبها اليوم للدين؟.

....

والفكرة التقليدية السائدة اليوم حول الدين، وعلى الأقل في أوروبا التي تخصّنا، هي أنه «العبادة التي نتوجه بها إلى مقام الألوهية»[1].

ولكن إذا كنا نفهم من كلمة الألوهية، إلهاً وحيداً، شخصياً، خلق السماء والأرض، فإننا نلاحظ أن هذا التعريف لا ينطبق إلا على عدد محدود من الأديان: كديانة أمنحوتب الرابع في

(١) تعريف قاموس لاروس.

مصر ، ومزدكية زرادشت في فارس — على أن هذه الأخيرة تقبل بوجود إله آخر ، هو أصل الشر — وكالديانة اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

ولا ينطبق هذا التعريف على الأديان العديدة المتعددة الآلهة ، كديانة المصريين ، والهندوس ، واليابانيين ، والجرمن ، والسلت ، والأغارقة ، والرومان .

« وعلى ذلك فإنه يمكن توسيع نطاق التعريف السابق ، وإضافة الآلهة المتعددة إلى الإله الواحد . فنقول مثلاً ، مع المؤرخ الكاثوليكي للأديان ، الأب المحترم لاغرانج Lagrange : « إن الدين ، فيما اتفقت عليه الإنسانية جمعاء ، يبدأ بعبادة الإله الواحد ، أو الآلهة المتعددة »(٢) .

ويُناسب هذا التعريف جملة الأديان الوحيدة الإله ، أو المتعددة الآلهة ، المذكورة سابقاً . ولكنه لا ينطبق على الأديان البدائية ، كالطوطمية أو الإحيائية ، ولا على الديانات الصينية ، والسينية ، والكونفوشية ، والطاؤوية Taoïsme ، ولا على البوذية الأصلية ، التي هي ديانة ملحدة .

....

. وبدلاً من البدء بأكثر الديانات تعقيداً ، يحسن بنا من الوجهة المنطقية ، أن نفكر بما هي عليه الديانات الأكثر بساطة .

وهذا ما حاول القيام به كل من سالومون ريناخ وإيميل دركهايم .

ويرى سالومون ريناخ ، في الدين « مجموعة من صور الحذر التي تقف عائقاً أمام النشاط الحر لملكاتنا »(٣) .

وينبهنا هذا التعريف ، بحق ، إلى المحرمات (التابو) الموجودة في الطوطمية وفي الأديان الأخرى ، حتى الأعظم شأناً ، وعلى الغالب بتأثير الديانة البدائية .

غير أن هذا التعريف المقترح يتفق كذلك مع تعريف الأخلاق — أو على أكثرية الأنظمة الأخلاقية ، على الأقل — بمقدار ما يتفق مع تعريف الدين . فالأخلاق أيضاً تنهى عن بعض الأعمال

---

(٢) Etudes sur les religions sémitiques (Paris, Gabalda, 1903). 2èd; p. 15 .

(٣) Orpheus, p.4 .

التي قد تدخل في إطار «الممارسة الحرة لنشاط ملكاتنا» بسبب من العوائق الوجدانية التي تقيمها في طريقنا.

ثم إن هذا التعريف يهمل، أكثر مما ينبغي، ذلك الجانب الفرح الذي تتخذه الديانة في بعض المجتمعات، حتى البدائية منها، وفي بعض النفوس المؤمنة. ولقد عرف دركهايم كيف يكتشف في الطوطمية «بعض العواطف الطيبة، الناشئة عن نوع من الثقة المفرحة»[٤]. ففي الصين، واليابان، لا نرى أن الدين يتعارض مع الطبيعة. وحيثما كنا، ومع أية ديانة، كالهندية L'INDOUISME، أو البوذية وفي بلاد فارس، وفي يهوذا، واليونان، والمسيحية، والإسلام، نجد أن الصوفيين يشعرون بأكبر غبطة عندما يتحدون مع الكائن المقدَّس، أو مع إلههم. فمع أمثال فرانسوا داسيز مثلاً، لا تكون الديانة «جملة من العوائق الوجدانية، أو صور الحذر» التي أشار إليها سالومون ريناخ.

ولئن كان مفهوم «التابو» هو السمة المميِّزة التي يُعَرَّف بها الدين، فإن هذه السمة تنتقل إلى مفهوم «الطوطم»، بالدرجة الأولى، علماً بأن هذه الكلمة تشير أو تدل على مجموعة من الكائنات المقدَّسة، أو الأشياء المقدَّسة.

ويعرِّف دركهايم في كتابه: الصور البدائية للحياة الدينية، بقوله: «إنها منظومة متآزرة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدَّسة، أي «المنفصلة، والممنوعة» أو قل معتقدات وممارسات، توحّد الأفراد الذين يؤمنون بها في مجموعة معنوية، تسمى «الكنيسة»[٥].

لكن أحد أنصار دركهايم، هو السيد هنري هوبير Henri Hubert يقول: إن الدين هو «إدارة الأشياء المقدَّسة» أو القيام بأمر الشيء المقدَّس[٦].

ويرى دركهايم إن المقدَّس له أصل اجتماعي: فالمجتمع (الجماعة) الذي، عندما يرفع الفرد إلى ما هو أعلى من نفسه، ينشئ عاطفة القداسة.

ويشير دركهايم إلى حالة البدائيين أو وصفهم ــ ولا سيما وضع الأستراليين، عندما تثيرهم القبيلة، وتحمّسهم، وتنقل حماستهم هذه إلى الرمز الذي يدل على القبيلة، أي الطوطم. ومن الطوطم تمتد العاطفة إلى المبدأ الطوطمي، بصورة عامة، أي إلى المانا[٧].

(٤) انظر ما سبق، ص: ٢٣ ــ ٢٤.

(٥) الصور البدائية للحياة الدينية، ص: ٦٥، باللغة الفرنسية.

(٦) مقدمة لموجز تاريخ الأديان لمؤلفه Chantepie de La Saussaue، في الترجمة الفرنسية.

(٧) انظر ما تقدم، في بحث الإحيائية.

وكان دركهايم على حق في الظن أن التمييز بين المقدَّس، والعادي، أو الدنيوي، أمر على جانب كبير من الأهمية. أما من النواحي الأخرى، فإن نظريته تصطدم باعتراضات حاسمة.

وحتى إذا تعلق الأمر بالبدائيين وحدهم، فإن هذه النظرية، تثير صعوبات كبرى، على ما رأينا سابقاً[٨].

وبصورة أعم، فقد وجد من يتساءل عما إذا كان تعريف دركهايم، لا يبالغ في الرفع من شأن الصفة الكنسية، أو الكهنوتية، أي الصفة الاجتماعية للدين. وصحيح جداً أن الدين في أغلب الأحيان، حادث اجتماعي، وأنّ تنظيم المعابد قد قام بدور تاريخي وعظيم. ولكن دركهايم يسرف في إهمال الجانب الفردي من العاطفة الدينية. فبوذا الذي استخلص من تأملاته المنعزلة، تصوراً للعالم، ولحياة الإنسان، مخالفة للتقاليد الشائعة في محيطه، إنما يقف على قمة الفكر الديني. وفي كثير من الأديان، يتحد الصوفي شخصياً، مع إلهه، دون أن يبالي بالطقوس الجمعية.

وأخيراً، وبصورة خاصة، نلاحظ أن التوحيد بين المقدَّس والاجتماعي، فرضية غير مبرّرة، أو يسيء دركهايم تبريرها، وهي تؤدي إلى نتيجة خطيرة، هي تأليه المجتمعات الموجودة. وصحيح أن المجتمع يحمي الفرد، وأنه، بصورة عامة، يساعده. ولكن من الصحيح أيضاً أنه كثيراً ما يستثمره، ويرهقه، ويظلمه، ويقرِّر إعدامه. فبأية ضرورة إذن يستطيع الإنسان أن يؤلِّه هذه الدول الملأى بالنقائص، والمؤلفة من أناس في مثل التفاهة التي هو فيها؟ مع العلم بأن أثبت هذه الدول، مُعَدَّة للهلاك؟ لا ريب أنها ستكون آلهة تعيسة حقاً.

....

وكما فعل كل من سالومون ريناخ، ودركهايم، فإننا سنتخذ نقطة البدء، هنا، في دراسة الأديان البدائية. ولكن بدلاً من أن نركّز الانتباه، على فكرة التابو، أو فكرة الطوطم، نريد أن نركّز الاهتمام على فكرة المانا التي هي قوة مغفلة، مادية وروحية معاً، منتشرة في كل مكان؛ أو قل هي «إله لا شخصي» على نحو ما يقول دركهايم.

ولئن كانت هذه نتيجة تفرضها الدراسة التي قدمناها هنا، عن الأديان، فذلك لأننا نجد

---

(٨) انظر ما سبق، حول الإحيائية.

فيها جميعاً هذه الفكرة، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، أو على صورة مخلفات، أو رموز، أو صور تجسِّدها.

أما الاعتراض الذي يقول: إن الإنسانية لا يمكنها أن تكون قد تصوَّرت، منذ الأصل، مفهوماً في مثل هذا التجريد، فإنه لا يمكن أن يقف ضد الوقائع: وعدا ذلك فإن الأمر لا يتصل بفكرة واضحة من هذا النوع، ولكن بعاطفة عميقة، هي الشعور بأن الوجود الضيق، المحدود الذي يعيشه الإنسان، إنما يتعلق بحقيقة لا متناهية.

وعلى ما يبدو، فإن الإيمان بالطوطم، إنما نشأ عن المانا. والطوطم، صورة تجسّد لعلها بدائية جداً، لهذه القوة السحرية ـــ الدينية، التي لا يملك الإنسان نفيها[٩]. فأعضاء القبيلة، ـــ لأسباب نعترف بأنها ليست دوماً واضحة لنا ـــ ينظرون إلى جنس حيواني أو نباتي ما، كما لو أنه يكثِّف أكبر قدر من المانا: إما لأن الإنسان يدين بقوته إلى استهلاكه لهذا الجنس الحيواني أو النباتي[١٠]، وإما لأن الحيوان يبدو «مزوداً بوسائل عضوية، لا يستطيع الإنسان امتلاك ما يماثلها» كأن يكون أعظم مهارة، أو أكبر قوة[١١]؛ وإما لأنه يبدو وكأنه يملك في ذاته قوى خفية[١٢].

والمانا المتفردة أو المفردة، هي الروح (أو النفس)، تبعاً لرأي دركهايم[١٣] إنها الـ Ka المصرية، تبعاً للمختص بالشؤون المصرية Moret[١٤]. ومع فكرة النفس، تتسرب فكرة الروح التي تبقى بعد الموت، وهذه فكرة تؤدي، في أغلب المجتمعات، ولا سيما في الصين[١٥]، واليابان[١٦] إلى عبادة الموتى. وإنه لطبيعي أيضاً، في مثل هذه اللحظة من التطور، أن يضع البدائي في العالم

---

(٩) Van Gennep, L'Etat actuel du probléme totémique (Paris, Leroux, 1920), p.48.

(١٠) Dussaud, Introduction à L'histoire des religions (Paris, Leroux, 1914), p 22.

(١١) داسو نفسه، ص: ٢٣.

(١٢) سوديربلوم، موجز تاريخ الأديان (الناشر نفسه، ١٩٢٥، ص: ٤٢. ويشير المؤلف إلى حالة الحية التي شغلت في كل الأزمنة، مكاناً خاصاً، بحكم طبيعتها، وهيئتها المقلقة.

(١٣) انظر ما سبق، ص: ٢٧.

(١٤) انظر ما سبق، ص: ٤٨.

(١٥) انظر ما سبق، ص: ٩٧.

(١٦) انظر ما سبق، ص: ١٠٩.

الخارجي، عدداً كبيراً من الأرواح الشبيهة بروحه، وأن يأمل بأن يؤثّر فيها، كما يؤثر في النفوس البشرية: ومن هنا جاءت الإحيائية، ومعها نتيجتها العملية، السحر[١٧].

وعندما يكتشف الإنسان في المانا، مبدأ نظام، فسنكون أمام الطاو Tao لدى الصينيين[١٨]. أما الفوضى التي تلاحظ في العالم، فترد إلى سوء سلوك الناس، أو رؤسائهم: ومن الواضح أن الاهتمامات الأخلاقية تدخل في إطار الدين.

وعندما تبدو المانا للإنسان وكأنها مؤلفة من صور محسوسة (أو حسية) فتلك هي الآتمان ــ براهمان لدى الهندوس[١٩]. وعندئذ فإن مجموعة الموجودات تفسّر بالأعمال التي قمنا بها سابقاً: وهذا هو الكارمان الفيدي Karman. وهكذا فإن الأخلاق تدخل إلى صميم الميتافيزياء الدينية[٢٠]. وفي رأي البوذي، الكارمان، أو جملة الكارمانات، أنها هي النسيج الذي يتألف منه هذا العالم اللا مادي insubstantiel[٢١].

أما المانا المنتظِمة، والمشخّصة، فهي مجموعة الألوهيات المتعددة، وهي أرواح أقل عدداً من التي تؤمن بها الإحيائية، ولكنها أشد بأساً. وأول ما نلقاه منها هو الإلٓهات، أو على الأصح، الإلهة، القريبة جداً من المانا اللا شخصية، أي الأرض ــ الأم، أو الأم الشاملة، أو العالمية، المعظّمة في الصين[٢٢] والمعبودة بدءاً من خليج البنغال إلى الشواطئ المتوسطية. وهي تلك التي نكتشفها في تقمصات شتى: فهي آديتي Aditi الهند[٢٣] وآناهيتا إيران[٢٤]، وعشتار بابل[٢٥] وسيبيل منطقة فريجيا[٢٦] وأستارتيات وبعلات فينيقيا[٢٧] وفلسطين[٢٨] ونرسوس NERTHUS الجرمن[٢٩]

---

(١٧) انظر ما سبق، ص: ٣٥ــ٣٦.
(١٨) انظر ما سبق، ص: ٩٨.
(١٩) انظر ما سبق، ص: ٦٧ــ٦٨.
(٢٠) انظر ما سبق، ص: ٦٩.
(٢١) انظر ما سبق، ص: ٨٦.
(٢٢) انظر ما سبق، ص: ٩٧.
(٢٣) انظر ما سبق، ص: ٦٣.
(٢٤) انظر ما سبق، ص: ١١٩.
(٢٥) انظر ما سبق، ص: ١٣٢ــ١٣٥.
(٢٦) انظر ما سبق، ص: ١٤٠.
(٢٧) انظر ما سبق، ص: ١٤١.
(٢٨) انظر ما سبق، ص: ١٥٠.
(٢٩) انظر ما سبق، ص: ١٧٨.

وماتـرات MATRES السلت[٣٠] والـ Gê وكل الإلهات الهيلينيـة[٣١] والبونادیـــا BONADEA اللاتينية[٣٢].

وغير بعيد عن هذه الإلّهات القريبات جداً من الأرض ـــ الأم، نجد آلهة الانبات، المشتركة بين بعضها، مثل تموز[٣٣]، وآتيس ATTIS[٣٤] وآدونيس[٣٥]، والبعول[٣٦].

ويمكن أن نقرب منهم أوزيريس المصري[٣٧].

وكلما غلب الرجل، في المجتمعات الإنسانية، على المرأة، كانت الآلهة المذكّرة تزداد أهمية: مثل آلهة الطبيعة، على مثال سيفا وفيشنو الهندوسيين[٣٨] ومردوك البابلي[٣٩]، ثم آلهة السماء خاصة، والشمس، والكواكب، في مصر[٤٠] وفي الهند[٤١]، وفي اليابان[٤٢]، وفي إيران[٤٣]، وبابل[٤٤] والسلت[٤٥] واليونان[٤٦].

وسيؤدي تقدم التجريد في شرح وتفسير هذا العالم الذي هو عالم واحد، إلى جمع الآلهة في إله واحد. فأحياناً يكون الانتقال من تعددية الآلهة، إلى فكرة التوحيد، أمراً مفاجئاً، كما حدث في مصر في عهد منحوتب الرابع[٤٧]. وفي الغالب، يكون ذلك على مراحل انتقالية: «وما يسمى

(٣٠) انظر ما سبق، ص: ١٨٣.
(٣١) انظر ما سبق، ص: ١٩٠ ـــ ١٩١.
(٣٢) انظر ما سبق، ص: ٢٠٣.
(٣٣) انظر ما سبق، ص: ١٣٥ ـــ ١٣٦.
(٣٤) انظر ما سبق، ص: ١٤٠.
(٣٥) انظر ما سبق، ص: ١٤١.
(٣٦) انظر ما سبق، ص: ١٤١ ـــ ١٥١.
(٣٧) انظر ما سبق، ص: ٥١ ـــ ٥٢.
(٣٨) انظر ما سبق، ص: ٧٤ ـــ ٧٥.
(٣٩) انظر ما سبق، ص: ٥٢.
(٤٠) انظر ما سبق، ص: ٦٣.
(٤١) انظر ما سبق، ص: ١١٠ ـــ ١١١.
(٤٢) انظر ما سبق، ص: ١١٨.
(٤٣) انظر ما سبق، ص: ١٣٣.
(٤٤) انظر ما سبق، ص: ١٨٩.
(٤٥) انظر ما سبق، ص: ١٩١ ـــ ١٩٢.
(٤٦) انظر ما سبق، ص: ٥٣ ـــ ٥٦.
(٤٧) انظر ماسبق، في الصفحات نفسها.

عادة بالتوحيد، ليس إلا تعددية آلهة متراتبة، تبدل فيها موقع الأرواح التابعة، لتكسب صفة خادم العظيم ـــ القوي، العنيد[٤٨]. وهذا ما حدث في فارس، عندما عَلّق زرادشت مجموعة الآلهة السابقة، بالإله الأعلى آهورا مازدا[٤٩]. وبهذا نقترب من الحل الذي وجد في بابل مع مردوك بختنصّر[٥٠] ـــ أو أن الشعب يمارس ديناً توحيدياً، هو صورة للدين الكثير الآلهة؛ فيعبد إلهاً واحداً، وهو يقبل أن يكون لكل شعب من الشعوب الأخرى إلهها. ولكنه قليلاً فقليلاً، يصل إلى الاعتقاد بأن إلهه هو إله العالم والإنسانية جمعاء؛ فينتقل من وحدة الأوثان monolâtrie إلى وحدة الآلهة: وهكذا كان أصل فكرة التوحيد اليهودية[٥١]، التي كانت رائدة التوحيد المسيحي والإسلامي.

ويمكن أن يتم تقدم آخر في مجال الروحَنة spiritualité. فليس بضروري لبعض النفوس المتدينة أن يتدخل إله شخصي ما، لشرح أو تفسير وجود العالم الكبير؛ بل يكفي في ذلك بعض الحقائق المقدَّسة. وهذه هي حالة البوذية[٥٢].

وتتيح لنا هذه النظرية أن نفهم الصلة التي تُوَحِّد بين العبادات الأكثر بدائية، والأديان العالية المستوى: وهي توضِّح التطور الذي سمح للبشر بالانتقال من شكل ديني إلى شكل آخر، ومن الأفكار الأكثر سذاجة إلى التصورات الراقية فلسفياً.

وفي وسع هذه النظرية أن تفسِّر أهم مظاهر الحياة الدينية. فقربان ـــ المؤاخـاة sacrifice-communion، الذي يظهر منذ عهد الطوطمية البدائية[٥٣]، يمكّن الإنسان بأن يشحن نفسه بالمانا. والتضحية ـــ الهدية، أنما تقدَّم للآلهة التي يحتاج إليها الإنسان، أو يجعلها أكثر عطفاً عليه. والقضية دوماً، على ما يقوله تعبير أخاذ في الطقوس البابلية، هي «أن نضيف حياة إلى الحياة»[٥٤]. وتنضاف إلى «الطقوس اليدوية ـــ طقوس شفهية»، هي الصلوات التي يمكن تفسيرها، في الأصل بفكرة أن «الكلمات تشارك في جوهر الأشياء؛ فهي هذه الأشياء نفسها، أو

(٤٨) Bouchéé-Leclercq, Leçons d 'histoire grecque (Paris, achette, 1900), p.11.

(٤٩) انظر ما سبق، ص: ١٢١.

(٥٠) انظر ما سبق، ص: ١٣٤ ـــ ١٣٥.

(٥١) انظر ما سبق، ص: ١٦٢ وما بعدها.

(٥٢) انظر ما سبق، ص: ٨٥ وما بعدها.

(٥٣) انظر ما سبق، ص: ٢٠ ـــ ٢٢.

(٥٤) ذكر ذلك دوسو Dussaud، في كتابه المذكور سابقاً ص: ١٨٢.

على الأقل، هي أسس حياتها»(٥٥). أما التقيد بالمحرّمات، فإنه يحول دون أن تغضب الأرواح أو الآلهة؛ والأمر كذلك في الانقياد لقوانين الأخلاق، وقوانين المجتمع، التي تحميها الآلهة ــ ثم إن الأساطير والعقائد تفسر لنا الطقوس، وتبررّها. فالأساطير والطقوس، تصبح مادة الأعياد والاحتفالات الدينية، التي تجمع المؤمنين في معابد خصصَّت للآلهة.

أما في القلوب، فإن العاطفة الغالبة أو المهيمنة، هي تلك التي تشعر الإنسان بتعلق الإنسان وتبعيته لحقيقة تتجاوزه إلى ما لا نهاية له. وتترافق هذه العاطفة تارة بالخوف، وأخرى، بالاعتراف بالجميل، والحب.

وهكذا فإن الحياة المحدودة والعادية تضطرم وتغنى خلال هذا التماس مع المقدَّس اللا نهائي. والدين إنما يستند إلى هذا المعطى الأساسي.

وسيهون علينا تفسير كل شيء في الحياة الدينية. متى رأينا في العاطفة الدينية، ذلك الشعور باللا متناهي، وفي الدين، تلك الصلة التي تقوم بين المتناهي واللا متناهي.

....

وحتى فلسفات المفكرين الذين يحرصون على البقاء مستقلين عن كل كنيسة، فإنها تتخذ طابعاً دينياً، عندما تدخل علاقة ما بين المتناهي واللا متناهي. مثال ذلك فلسفة سبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) حيث يحتوي الإله اللا شخصي في ذاته، كل ما هو موجود: كعالم المكان اللا متناهي، وعالم الفكر اللا متناهي، وكل العوالم إلى اللا نهاية، كما يحتوينا نحن أيضاً، ككائنات محدودة، مصنوعة من جسم وروح، ولكنها تشارك، بصورة ما، في الألوهية.

ويبدو أن هذه الميتافيزياء السامية، تقدم لنا بصورة مضخمة جداً، وواضحة إلى أبعد حدود الوضوح، تلك الفكرة المركزية الشائعة عن الطوطمية والإحيائية؛ كما أنها تمكننا، بدءاً من أعمق الفلسفات الأوروبية وأكرمها نبلاً، من الإشادة بهذه النتيجة المحيّرة، أعني العودة إلى المانا.

وعلى كل حال، فإننا نجد لدى بعض المفكرين، وخاصة، لدى الكثيرين من الفلاسفة

---

(٥٥) دوسو أيضاً، ص: ١٨٤.

الألمان، في القرن التاسع عشر، المتأثرين بفكر سبينوزا، تصوراً للدين شبيهاً بدرجة كافية، من هذا الذي استخلصناه من المعطيات التاريخية.

فشيلنغ schelling مثلاً (١٧٧٥ ـــ ١٨٥٤) واحد من هؤلاء، وهو يرى «أن الدين هو التوحيد المطلق بين كياننا وبين الوجود كله» ومن هنا تنشأ هذه النتيجة الجميلة التي تقول: «إن الدين هو الشيء الذي ينهي كل تعارض في وجودنا، وكل تناقض في الكائنات أو الموجودات»(٥٦).

ويرى شلير ماخر SCHLEIER MACHER (١٧٦٨ ـــ ١٨٣٤) أن الدين يقوم على نوع من الشعور المطلق بتبعيتنا.

ويرى ماكس موللر (١٨٢٣ ـــ ١٩٠٠) أن الدين «جهد لإدراك مالا يدرك، والتعبير عما لا يُعبَّر عنه، وطموح إلى اللا متناهي». إنه «ملكة من ملكات الروح التي تجعلنا قادرين على فهم اللا متناهي، بصورة مستقلة عن الحواس والعقل». ذلك أن من وراء المتناهي، وبعد المتناهي، وداخل المتناهي نفسه، يجد اللا متناهي حاضراً دوماً.

ويمكننا أن نتساءل عما إذا كان الدين الذي فهمناه بهذه الصورة، لا يستند إلى وهم من الأوهام؟ أفلا تضعنا التجربة، التي هي القاعدة الوحيدة الصلبة لكل علم، تجاه معطيات محدودة، دوماً؟.

ـــ ويجيب عن هذا الاعتراض ـــ مفكر فرنسي تتميّز فلسفته بنفس الصفة الدينية التي تتميز بها فلسفة ملهمه العظيم سبينوزا ـــ أي جان جوريس (١٨٥٩ ـــ ١٩١٤)، قائلاً إن العلم لا يستطيع أن يدرك الوجود اللا متناهي، لأنه بالضبط موجود في كل مكان. وهو لا يفهم ما يحدّده، ولا يحدّد ما يعزله، ولا يملك أن يعزل الله عن العالم، لأنه حقيقته الصحيحة التي لا تنفصل عنه(٥٧).

ولعل تجربة من نوع خاص مختلفة عن التجربة الحسية، أو قل تجربة في العمق، كتلك التي عاناها الفلاسفة، من ديكارت (١٥٩٦ ـــ ١٦٥٠) حتى برغسون (١٨٥٩ ـــ ١٩٤١)(٥٨)

---

(٥٦) فكتور ديلبوس: المشكلة الأخلاقية في فلسفة سبينوزا (بالفرنسية) (باريس ـــ ألكان، ١٨٩٣)، ص: ٤١٣.

(٥٧) ذُكر هذا في كتاب Jaurès، من قبل مؤلف هذا الكتاب (باريس Mellottée، ١٩٣٦)، ص: ١٠٦.

(٥٨) انظر حول هذه النقطة «برغسون» من تأليف فيليسيان شالي نفسه (وفي دار النشر نفسها، عام ١٩٢٩)، ص: ٤٧ ـــ ٥٠.

والتي نسميها باسم الحدس، هي التي ستتيح لكل منا بأن يدرك في داخل نفسه، هذا اللا متناهي الذي شعر به البدائيون، عندما تصوَّروا المانا، والذي تؤكد أعظم الفلسفات، أو تُقِرّ بوجوده.

إني موجود، فأنا إذن أشارك في الوجود. غير أني لا أوجد أبداً بحكم نفسي، أو بأمر منها. وكذلك فأنا لا أوجد بحكم رغبة من أبويَّ فقط، ولا من أجدادي، ولا من الإنسانية كلها. ثم إن كل قوى الحياة، وكل ما في المادة من قدرات، تأتلف وتتجمع فيَّ. ولن أوجد أبداً إن لم يكن هنالك شمس، ومجرّة، وعالم. بل إنني أحد منتجات الحياة العالمية. وأنا أكتشف الوجود داخل نفسي؛ أي ذلك الوجود الذي يَلُفّ من كل الجوانب شخصيتي الضيقة، ويتجاوزها بشكل مدهش وعجيب؛ إنه الوجود الذي سبقني، منذ الأزل، والذي سيتبعني خلال القرون اللا متناهية العدد؛ ذلك هو الوجود اللا متناهي.

وإنه لمن الطبيعي، والمعقول، بأعمق ما في هذه الكلمات من معنى أن يتعلق الكائن المحدود، بالوجود اللا متناهي الذي ينشأ عنه؛ وأن ينحني له، وأن يعبده؛ وأن يحبه حب الابن للأب، وأن يحب فيه كل جوانب الحياة العالمية[٥٩].

وهذه التبعية، وهذا الحب هما الشيء الأساسي في الدين، على كون التبعية هي التي تميّز الأديان البدائية، والحب هو الذي يُميّز الأديان العليا.

....

ولكن كيف تأتّى للناس، وهم كائنات محدودة، أن يرقوا إلى هذا الشعور باللا متناهي؟ وما هو أصل العاطفة الدينية؟.

إن السيكولوجيا المعاصرة ترى بأن الميول المعقدة تنشأ عن ميول بدائية، متشرّبة بالروحانية، ومكتسبة بالصفة الاجتماعية.

والميل البدائي، قوة عمياء، توجه الفعالية البيولوجية والسيكولوجية للحيوان والطفل، وتنتج اللذة إذا هي ارتوت، والألم إذا هي لم ترتو، أو إذا اصطدمت بعائق.

أما عند الإنسان، فإن الميل يغتني بكل التجربة المكتسبة: فاللذات التي تذوقناها، والآلام

(٥٩) وعلى الأقل في الجوانب التي تشتمل على التهديم، كتلك التي تجر مثلاً إلى القتل، أو إلى الحرب.

التي عانيناها، والأفكار التي أثارتها هذه اللذات وهذه الآلام، هي التي تؤلف الشيء الأساسي في هذه التجربة. ولقد كان الميل، أول الأمر، استعداداً طبيعياً؛ ولكنه يصبح شيئاً فشيئاً مكتسباً.

وعندما يتحوّل الميل، بتدخل العقل، فإنه يكتسي صورة عقلية وسمة روحانية. وعندما يتحوّل بتأثير وتحت تأثير المجتمع، فإنه يكتسي بصفة جمعية(٦٠).

ولكن من أي الميول البدائية، المشرّبة بالروحانية، والمكتسية بالسمة الاجتماعية، تنشأ العاطفة الدينية؟ وهل في وسعنا أن نجد في نفس واحد مثل غوتاما Gôtama، أو فرانسوا داسيز، في تلك النفس «المروحنة spiritualiseè» أو في نفس كنفس كونفوشيوس أو بوسويه، تلك النفس المغتنية اجتماعياً، هاتيك الميول الطبيعية المتواضعة التي تُوجه الحيوان، أو الطفل الصغير؟.

أن من المناسب أن نُحلِّل العاطفة الدينية لكي نجرب أن نكتشف أصلها، أو أصولها. فلقد جَرّب الإنسان دوماً أن يعرف الحقيقية الهائلة الاتسّاع التي يرتبط بها وجوده. ذلك أنه شعر دائماً أمامها بهيجانات مصحوبة بحركات بعضها شخصي، وبعضها الآخر جمعي، أي أنها طقوس. فلقد كان الدين يتجه باستمرار إلى العقل والعاطفة، ذلك أن هنالك ديناً عقلياً، وديناً آخر هو دين القلب.

فدين العقل يحمل للإنسان معرفة، صحيحة أو خاطئة — وهذا هنا غير مهم — عن العالم الذي يعيش فيه. وهذه المعرفة شيء لابدّ منه بالنسبة إلى الكائن الذي يجب أن يدرك العالم لكي يستطيع التأثير فيه، سعياً وراء حاجاته الأساسية، وإنقاذاً لوجوده. ونحن واجدون في العلم، كما في الدين، ذلك الميل الأساسي الذي يوجّه كل الناس، وكل الحيوانات وحتى النباتات، والذي هو الميل إلى صيانة الوجود، أي غريزة حفظ البقاء.

ولا يكفي غريزة البقاء أن تدفع الكائن إلى الابقاء على الوجود، ما دام حياً، فقط؛ بل إنها تجعل الإنسان يتألم ويثور عندما يعرف أن وجوده مقضي عليه بالموت. ونراه يدفع عن نفسه فكرة هذا الموت، من حيث أنها جارحة، داعية إلى الأسى. وهكذا فإن أغلب الأديان تهدئ هذا القلق، وتؤكد خلود شيء ما من هذا الكائن.

(٦٠) انظر حول هذه النقطة: المطوّل الجديد في علم النفس لدوما (باريس — ألكان، ١٩٣٨. المجلد ٤، ص: ٥٥ وما بعدها). بحث لميول (تطورها، وروحنتها، وجمعنتها) من كتابة شالي نفسه.

ولكن الإنسان لا يحاول معرفة العالم ، حباً بالتأثير فيه فقط ، بل إن هذه المعرفة تشغل عقله أيضاً ، تشغيلاً ساراً ، ولدى الإنسان ، كما هي الحال ، لدى الحيوانات العليا ، والأطفال ، رغبة جامحة في المعرفة من أجل المعرفة (ولنفكر قليلاً بالحزيرات التي يُشغل الأطفال أنفسهم بها ، خلال مرحلة الطفولة كلها) . وهذه الرغبة هي ما نسمية بالفضول . أما دين العقل فإنه يروي هذا الميل البدائي ، من حيث أنه يهب المؤمن الشعور بأنه يعرف العالم ، ويفهمه في أصوله ، وفي حقيقته العميقة .

وأما دين القلب ، فإن ظاهرته الرئيسة هي الحب : حب الكائنات المقدّسة ، والكائنات الطوطمية ، المنظور إليها كأرواح تحيي الطبيعة أو كآلهة حامية ، أو كإله ، أو حياة شاملة . وهنا يتفتح ميل أبى بعضهم الاعتراف به وبصفته البدائية ، وهم على خطأ . وهذا الميل هو العطف أو التعاطف . وعلى حين أن الأنانية تحفظ الوجود ، فإن العطف يدفع الكائن إلى الخروج من ذاته ، ومدّ حياته النفسية ، إلى ما هو أبعد من كيانه الشخصي . وفي وسعه أن يتجه ، من وراء الكائنات المحدودة إلى الكائن اللا متناهي .

يمكن لأي إنسان أن يتحقق ، فيما بعد ، من صحة هذا التأكيد الثلاثي ، من وجهة النظر هذه ، بتحليل كلٍ من الأديان التي درسناها سابقاً ، بدءً من الطوطمية ، حتى النصرانية والإسلام .

وعلى حين أن الأنانية تضمن الإبقاء على الوجود ، فإن التعاطف يدفع بالكائن ، إلى الخروج من ذاته ، ومدّ حياته النفسية إلى ما هو أبعد من شخصه . وهذا يعني أن التعاطف يستطيع ، من وراء الكائنات المحدودة ، أن يتجه إلى الكائن اللا متناهي . وهذا هو الشيء الجوهري في التجربة الصوفية(٦١) .

وهكذا فإن الدين يفسّر باكتساء هذه الميول الأولية الثلاثة ، أي غريزة البقاء ، والفضول ، والتعاطف ، سمة روحانية (أو عقلية) وسمة اجتماعية .

ونريد الآن أن نتحقق من صحة هذا التأكيد الثلاثي ، من وجهة النظر هذه ، بتحليل كلٍ من الأديان التي درسناها سابقاً ، بدءً من الطوطمية ، حتى النصرانية والإسلام .

---

(٦١) يجمع كل من ريبو ، في كتابه سيكولوجية العواطف ، وجورج دوماس في مطوّله في علم النفس ، وفيليسيان شالي ، في كتابه علم النفس وما وراء الطبيعة على أن العطف أو التعاطف ذو صفة غريزية .

ولكن أية قيمة يستطيع الفكر الحر أن يهبها للدين؟.

إننا لن ننظر إلى الدين هنا، لا من حيث أنه جاء عن طريق الوحي، الإلهي، ولا من حيث أنه جملة من الخرافات والأكاذيب، هدفها الوحيد، استعباد الجماهير، استعباداً عقلياً واجتماعياً.

فالدين حادث إنساني، كان له ويمكن أن يكون له دوماً، تأثير مُسعِد تارةً، وأخرى، تأثير مبئس.

ولما كان الدين يهدف إلى معرفة الكون، بصورة ما، فإنه قد ساعد، منذ الماضي البعيد على تقدم العقل الإنساني.

ويبدو أن الطوطمية قد قدّمت لتفكيرنا أطره الأولى، وقوانينه الأولى[٦٢]؛ وأن الطوطمية والإحيائية كانا هما الأصل في نمو الحياة الفنية[٦٣].

ولقد ساعد الدين، مرات كثيرة، وفي مجتمعات مختلفة، على القيام بأبحاث علمية، ومثال ذلك في مصر[٦٤] وبابل[٦٥].

ثم إن الفكرة اليهودية ــ المسيحية التي تؤكد وجود إله واحد، يسيطر على الطبيعة، قد أدّت إلى تصور عالم خاضع لقوانين العلم[٦٦].

ولكن العلم الوضعي تحرّر، أكثر فأكثر، من أغلال الدين. وعندئذ وقف الدين ضد تقدّم العلم.

وعندما اتجه الدين إلى العقل، في الدين المسيحي، على سبيل المثال فإنه عرض نفسه كحقيقة أو «كالحقيقة كلها»: الحقيقة حول الله، والحقيقة حول العالم، والحقيقة حول الإنسانية. وتدعي هذه الحقيقة أن عليها أن تسود الحياة الفكرية والحياة الأخلاقية، وأن الإنسان يعتبر ملزماً

---

(٦٢) وإلى جانب الدين الساكن (ص: ٢٧٠ الهامش رقم ١) يضع هنري برغسون ذلك الدين الذي يسميه «الدين الدينامي» أي دين الصوفيين الذين يكتشفون أن الله «هو حب» وأنه هو نفسه موضوع حب. وكل ما قدّمه الصوفيون لنا هو في هذا. (ص: ٢٧٠).

(٦٣) انظر ما سبق، ص: ٢٢، وص: ٢٦، وص: ٣٩ــ٤٠.

(٦٤) انظر ما سبق، ص: ٥٧.

(٦٥) انظر ما سبق، ص: ١٣٩.

(٦٦) انظر ما سبق، ص: ١٧٤ــ١٧٥؛ ثم ص: ٢٤٦.

بقبولها . ويؤمل أن يقتنع الإنسان بهذا . فإذا بدا أن الإقناع غير مجد ، فإن الكنيسة ترى أن تستخدم القوة ، وإكراه العقل على ما تراه هي الحق . ذلك أنه لا ينبغي أن تكون للخطأ حرية . أما الحقيقة ، فلها كل الحقوق ، بما في ذلك حق حذف الخطأ بالقوة .

وهكذا فإن دين العقل يفضي منطقياً إلى التعصب ؛ ذلك التعصب الذي يكشف لنا التاريخ عن جرائمه : كجرائم البراهمانيين عندما يسحقون البوذية[٦٧] وجرائم الكهنوت الزرادشتي الذي كان يلاحق المانوية[٦٨] ، وجرائم الكنيسة المسيحية التي كانت تلاحق خصومها جميعاً[٦٩] ، وجرائم كل المتعصبين في الأديان الأخرى ، وحتى بين المسلمين[٧٠] .

وحباً باستخدام القوة المادية للسيطرة على الأفكار والعقول ، ترى الكنيسة أن تتحالف مع الأقوياء ، الذين تخدم مصالحهم ، على حساب الضعفاء : ومن هذه الناحية أطلق على الدين اسم « أفيون الشعوب »[٧١] .

وبين الأقوياء ، لا بد من الإشارة إلى الدول المنظمة والمسلحة ؛ وقد يحدث أن تتحالف الكنائس معها ، للقيام بأعمال القهر ، والاستغلال ، والتهديم عن طريق الحرب .

وترتبط بعض الأديان بمنطقة معيّنة أو مجتمع معيّن بحكم جوهرها : وهي الأديان الوطنية أو القومية . ويُعرِّفنا التاريخ بالتجاوزات والجرائم ، التي دعت إليها أو مجّدتها : فيهوى يغري الإسرائيليين بغش المصريين وسرقتهم[٧٢] . والآشوريون يمجّدون آلهتهم ، بمذابح شنيعة[٧٣] ، والشنتوية اليابانية تساعد على قيام أمبريالية تضطهد الشعوب المجاورة[٧٤] ؛ وكان التفضيل الذي يمنحه بعض القادة الألمان لآلهتهم القديمة ، على حساب المسيحية العالمية ، مصحوباً بغرور جمعي ، لا يساعد على إحلال السلم بين الشعوب[٧٥] .

---

(٦٧) أنظر ما سبق ، ص : ٩٢ .
(٦٨) انظر ما سبق ، ص : ١٢٨ .
(٦٩) انظر ما سبق ، ص : ٢٣٤ وما بعدها .
(٧٠) انظر ما سبق ، ص : ٢٥٩ .
(٧١) تعبير معروف لكارل ماركس .
(٧٢) انظر ما سبق ، ص : ١٦٠ .
(٧٣) انظر ما سبق ، ص : ١٣٧ .
(٧٤) انظر ما سبق ، ص : ١١٦ .
(٧٥) انظر ما سبق ، ص : ١٨١ .

وقد يحدث أن تستخدم الأديان العالمية نفسها لغايات وطنية، وأن يحاول بعض الكهنة تبرير قتل الآخرين، بدعوى أن ذلك إرادة الله. ويكتب هنري برغسون في هذا الموضوع:

«فالشعوب المتحاربة تؤكد أن لها إلهاً يقف بجانبها، ويكتشف بعد ذلك أن هذا الإله الوطني هو إله الوثنيين، على حين أن الإله الذي يتخيلون أنهم يتحدثون عنه، هو إله مشترك بين جميع البشر، وأن مجرد تأمله من قبل الجميع سيؤدي إلى إلغاء مباشر للحرب[٧٦]».

ومن المستحيل، بل يجب أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقل عصري، أن يقبل التعصب الديني، كشيء ينشأ عن الاعتقاد (بحقيقة) مزعومة، ليس إلى البرهان على صحتها من سبيل؛ ومستحيل كذلك أن نقبل ما تقتضيه أية ديانة قومية من غرور جمعي، أو «نرجسية جماعية»، وظلم إجرامي، مما يؤدي إلى الحرب لا محالة، وإلى القضاء المجرم على الوجود.

وعلى الدين أن يدع للعلم والعلوم جملة، مجال المعرفة كلها. فالحقيقة هي من إنتاج العلم، والعلوم، وإنتاج فكر يعمل بصورة علمية. والعلم وحده هو الذي يروي العقل، وكل العقول. وهو وحده الذي يحقق الاتفاق بين العقول، ذلك الاتفاق الذي تظهر الحقيقة به. ولا تقتصر هذه الحقيقة على الوقوف عند حدود أي شعب من الشعوب: ذلك أن الحقيقة عالمية، وإنسانية.

إن ديانة العقل، قد أفلست بصورة نهائية.

....

غير أن إدانة دين العقل لا يعني بالضرورة أن نعدِل عن دين القلب.

فلم يعد الدين يشبه المعرفة في شيء. بل هو أقرب إلى أن يكون شبيهاً بصداقة. ويمكن أن يكون تلك الصداقة التي يشعر بها عدد من الناس لرجل مشهور بالحكمة، أو لقديس كبير.

فالحياة تنشأ عن الحياة. والحياة الأخلاقية، في كل منا، تنشأ عن الحياة الأخلاقية لأولئك الذين عاشوا قبلنا. وهكذا ينشأ تراث من «الموضوعات الأخلاقية»، وينتقل من ضمير إلى آخر، خلال العصور؛ وهو متشابه في مختلف المجتمعات، من غير أن يكون واحداً تماماً.

وفي وسع الإنسان أن يجد «نماذج حية» في تقاليد وسطه، أو «مؤسّسين لأديان، أو

(٧٦) هنري برغسون: منبعا الأخلاق والدين. ص: ٢٢٩.

أبطالاً، أو مشرِّعين، يرفع جيل ما (أو عدة أجيال) أبصاره إليهم، وينظر إليهم وكأنهم التعبير الأعلى عن الإنسانية الحقيقية»(٧٧).

وللإنسان الحق، من دون أن يفرض تفضيله هو على أي إنسان، في أن يكون صديق أخناتون، أو زرادشت ،أ و بوذا، أو كونفوشيوس، أو إشعيا، أو المسيح، أو محمد.

أما أن هؤلاء الناس قد عاشوا فعلاً، أو كانوا فقط مجرَّد وجود مثالي، فهذا لا يهم. وأية عامية سنكون فيها — وأي انعدام للياقة — إن نحن طلبنا قبل أن نحب شخصاً رائعاً ما، برهاناً على أنه تنفس، وعرق، وأكل، وشرب، وأخرج فضلات طعامه، وشرابه؟.

ولبعض النفوس الحق في ربط حياتهما الأخلاقية بمثل هذ الصداقة، كما أن لها الحق في الإيمان بها، والاعتقاد بأنها كانت تستوحي مُثُلَها من النموذج الإلهي. ولها الحق في الشعور بأن هذا المثل الرائع يساعدها، ويشجعها على حب الناس الآخرين، والإنسانية كلها، والعالم، والحقيقة الكلية.

وعلى هذه القمم التي وجدت في الحياة الإنسانية، يلتقي الدين والأخلاق، ويتداخلان. وعندئذ يكون الخير في الارتقاء بالحب إلى ما فوق الأنانية، ويكون علينا أن نعلق وجودنا بالوجود الكلي. والأخلاق، إنما هي مقياسنا الذي جعلناه ينسجم مع الطبيعة الكلية. إنها العلاقة الطبيعية بين الفرد المحدود، والطبيعة اللا متناهية. ولئن صح أن الدين كان دوماً علاقة تقوم بين المتناهي واللا متناهي، فإن الأخلاق عندئذ تختلط به.

....

ولئن لم يعد الدين شبيهاً بالمعرفة، فإنه يمكن أن يشبه الصداقة. ولكن لماذا تقصر هذه الصداقة على واحد من «النماذج الحيّة»؟ ولماذا لا نهبها لكل من يمثّل الأخلاق الإنسانية، تمثيلاً عالياً؟ ولقد كانت الديانات تتعارض، وتتنافى، عندما كانت الواحدة منها تدعي أنها الوحي الوحيد المنزل من (الحقيقة الكلية)؛ فإذا جعلناها صداقة جمعية، وتراثاً عاطفياً، فإنه يمكنها أن تختلط في الوجدان الإنساني، كما تتداخل جملة صداقات في قلب واسع.

ولم يعد من شأننا أن نوصي بتركيبة غامضة، تخلط بين صيغ عقلية أسيء فهمها، واستعيرت

(٧٧) انظر هوفدينغ Höffding في كتابه (الأخلاق) المترجم عن الدانيماركية، ونشر دار Scheicher، ١٩٠٣) في باريس، ص: ٤. ويمكن أن نضيف إلى النماذج الإنسانية التي أتى على ذكرها المؤلف الدانيماركي، أسماء كبار المفكرين، أو كبار الفنانين، مثل ابن خلدون، أو ديكارت، أو بتهوفن.

من مختلف العقائد؛ بل إن علينا أن نعيد وضع قلوبنا في النقطة التي يتصل فيها الكائن الفردي، بالكائن العالمي الشامل. عندئذ نكتشف أن كبرى الأديان التاريخية، وكذلك بعض كبريات النظم الفلسفية، عبّرت، في الغالب، أو رمزت، بصيغ وتشبيهات مختلفة، إلى طموح واحد إلى اللا متناهي.

وعلى ذلك، فإن الدين الوحيد الذي يمكن أن يرضي الضمير اليوم إرضاءً كاملاً، هو دين عالمي، تساهم في إنشائه كل الديانات الخاصة(٧٨).

ولا يمكن أن يقابل هذا الدين العالمي إلا أخلاق واحدة، على مستوى الكوكب الأرضي كله، بجمع أفضل ما لدى الشعوب كلها من التراث الأخلاقي، في قواعد مقبولة ترضي الضمائر الإنسانية جميعها.

أولا يمكننا اعتبار الإنسان، كما لو أنه الرجل المثالي، إذا هو حقق في حياته أكبر وأسمى مطامح الديانات المدروسة سابقاً؛ أي أن يكون نظيفاً تبعاً لأوامر الديانة الشينتوية SHINTO(٧٩) وقليل المطالب، على ما يريده الإسلام(٨٠) ومهذباً على ما تقضي به الطقوس الكونفوشية(٨١) ونزيهاً مخلصاً، على ما ينبغي في المزدكية(٨٢) وطيّب القلب طبقاً لمقتضيات الدرويدية(٨٣)؟ وإذا هو اعترف بفضل الأجداد، وقام بواجبه تجاه أبويه وأسرته، على ما ينسجم مع الأخلاق الصينية(٨٤) واليابانية(٨٥)، والرومانية(٨٦)، وإذا حاول ألا يتعس أي إنسان يقترب منه، مثل المؤمن

---

(٧٨) وهذا ما كان طموح ماني (انظر ما سبق، ص: ١٢٨) وأكبر (ص: ٢٥٧) وهذا هو الطموح الذي تريد البهائية تحقيقه (انظر ص: ٢٥٧—٢٥٨). وهنالك بعض الهندوسيين مثل راما كريشنا (ص: ٧٧)، يمجدون في آن واحد، كريشنا، وبوذا والمسيح، أما الكاؤدائيون في آنام (ص: ٩٤) فإنهم يجمعون فوق صورهم المقدّسة، أعظم الكائنات المقدّسة للإنسانية مثل بوذا، وكونفوشيوس، وغيرهما ممن هم من نوعهما.

(٧٩) انظر ما سبق، ص: ١١٣.

(٨٠) انظر ما سبق، ص: ١٥٨.

(٨١) انظر ما سبق، ص: ١٠٢.

(٨٢) انظر ما سبق، ص: ١٢٣.

(٨٣) انظر ما سبق، ص: ١٨٤.

(٨٤) انظر ما سبق، ص: ١٠١.

(٨٥) انظر ما سبق، ص: ١١٢.

(٨٦) انظر ما سبق، ص: ١٠١.

بأوزيريس[٨٧]، وأحب جاره كنفسه، طبقاً لكلام السيد المسيح[٨٨]، وملك من الحب للسلام بين الناس، وبين الشعوب، ما كان يملكه حكماء الصين[٨٩]، وكان يهوى إقامة العدالة في الأرض، طبقاً لما قال به أنبياء اليهود[٩٠]، ولا يؤذي أي كائن، على الأرض تبعاً للمثل الأعلى البوذي[٩١]، وإذا أحب جمال الكون، على طريقة الهيلينيين[٩٢] وشعر بالإخاء العميق، والتماثل في الجوهر بين كل الكائنات الحية، وكل الأشياء، وكل الحقائق، حسب الفكر البراهماني[٩٣]؟.

وفي وسع الإنسانية، على مثل هذا التقريب بين أسمى المطامح الإنسانية، أن تنجز تقدماً رائعاً. وربما كان هذا مستقبلاً فيه من السمو بالمقدار الذي كان يرق إليه الهندي العظيم رابندرانات طاغور (١٨٦١ ــ ١٩٤١) عندما استعار من الأوبانيشاد، صيغة خفية، وكتب يقول: «إن شخصية الإنسان اللا متناهية لا يمكن أن تتحقق إلا في الانسجام الرائع السمو، بين كل العروق الإنسانية ...».

---

(٨٧) انظر ما سبق، ص: ٤٧.

(٨٨) انظر، ص: ٢١٩.

(٨٩) انظر، ص: ١٠٣ ــ ١٠٥.

(٩٠) انظر، ص: ١٦٤ وما بعدها.

(٩١) انظر، ص: ٨١ وص: ٨٩ وما بعدها.

(٩٢) انظر، ص: ١٩٨.

(٩٣) انظر، ص: ٦٨.

الخلاصة

إن الديانة العالمية التي يبدو أن دراستنا التاريخية للديانات الخاصة انتهت إليها، أصبحت قائمة الآن، في بعض الضمائر التي تشعر بها بغموض، أكثر مما تصوغها صياغة واضحة.

ولعلها ستجد ذات يوم ذلك التعبير الذي يجعلها أيسر على الانتقال من ضمير إلى ضمير، ومن قلب إلى قلب.

وستلاحظ اتساع الكون؛ وتكتشف في الإنسان حاجته إلى مد شخصيته المحدودة إلى ما لا نهاية، عن طريق المعرفة الخالية من الأغراض الذاتية، وطريق العمل النبيل، وبالاعتماد على الحب.

وستصل الإنسان بالعالم، عن طريق العلم، الذي هو فهم للواقع كله؛ وطريق الفن، ذلك الفرح المحرِّر الذي نجده عندما نتصل بكل صور الجمال؛ وطريق الحب خاصة؛ حب كل الناس، وكل الكائنات، وكل الأشياء. وستوحِّد بين الناس جميعاً عن طريق العدالة المحسنة، والتوافق السلمي بين الحريات. وستضع في قمة الحياة الإنسانية، وقمة الحياة الكونية، ذلك العمل الكريم والمفرح الذي يعبّر به الفرد عن حبّه، وفهمه للعالم، عندما يعمل من أجل تحقيق العدالة والسلام بين الناس.

ولعل هذه الديانة العالمية، تنتظم ذات يوم في مؤسسة مُعَدَّة لإرواء حاجة القلوب الخالدة، إلى الدين. وهؤلاء الذين أحبوا في الماضي معبدهم، واستمدوا منه قوة متنامية لحياتهم الأخلاقية، يشعرون أحياناً ببعض الشوق، عندما لا يستطيعون أن يؤمنوا بشيء، أو أن يشاركوا في أية عبادة. هؤلاء سيكونون سعداء إن استقبلوا في معبد جديد، يجمع كل المؤمنين بالديانة العالمية.

وسيجتمع الناس في معابد الماضي الجميلة؛ إذا أصبحت هذه حرة، بحكم عزوف المؤمنين عنها، أو في أبنية جديدة ينشئها الفنانون الحديثون، لتكون معابد الإنسانية. أما العبادة فيمكن أن

تتخذ صورة شبيهة بتلك التي نراها في بعض الكنائس البروتستانتية الحرة ـــ ولكن مع أعمال فنية أكثر عدداً ـــ أو في معابد وضعية. وسيغني الناس أغاني قريبة من الأناشيد المسيحية، ولكن مع حذف التفاهات التي قد تكون فيها، أو أغاني اشتراكية، خالية من البغضاء. أما الأغنية العظمى، فستكون أجمل الأعمال الموسيقية التي انبثقت عن نفس إنسانية: أي خاتمة السمفونية التاسعة لبيتهوفن.

أما الواعظ فسيتخذ موضوعاً له شيئاً من كلام بوذا، أو كونفوشيوس، أو زرادشت، أو المسيح، أو فكرة من أفكار رجل أخلاق، ياباني، أو نبي من أنبياء إسرائيل، أو فيلسوف إغريقي، أو قديس مسلم.

وما أجملها تلك المواعظ التي يمكن أن ننشئها بالاعتماد على مقطع من مقاطع كتاب الموتى، المصري: «إني لم أجعل أحداً يبكي»؛ ـــ أو على جملة البراهمانيين التي تقول: «أنت ذاك»؛ ـــ أو على عبارة بوذا: «لئن كانت البغضاء رداً على البغضاء، كيف إذن ستنتهي البغضاء وإلى أين ستؤدي؟»؛ ـــ أو على نص إشعيا الأول: «لن تتعلم الشعوب الحرب» أو نص إشعيا الثاني الذي يبشر «بسماء جديدة، وأرض جديدة»؛ ـــ أو على العفو الذي منحه المسيح للمرأة الزانية؛ ـــ أو على التعبير البهائي: «كل الناس قطرات من بحر واحد»؛ ـــ أو بصورة أبسط، على هذه النصيحة بالاستسلام والرضى، وهذه الدعوة الحزينة إلى الفرح بدرامة غنائية يابانية، جاء فيها هذا القول: «وحتى بالنسبة إلى المتسول الأعمى، يبقى أريج الأزهار...».

ولا ينبغي أن ندع ديناً لحساب دين آخر، إلا إذا كان أسمى منه وأرقى. ولا يجوز أن نعدل عما تحمله إلينا عقيدة ما، من عزاء، أو تشجيع، إلا لاعتناق عقيدة أكثر تشجيعاً، وأدعى إلى النبل.

وفي وسع الديانة العالمية، التي تستعير عناصرها، من كل الأديان الخاصة الكبرى، أن تكون أسمى من كل منها؛ وأعلى مستوى، في احترام الحقيقة، واتساع العقل، وروح العدالة والسلام، وأغنى بالحب الذي يتسّع لكل الكائنات وكل الأشياء[1].

---

(١) أما كيف تلتقي الديانة التي نفهمها بهذه الصورة، مع النتائج المستخلصة من فلسفة حرة، فذلك ما حاولت تقريره، في الصفحات ٢٨٢، ٢٨٥ من كتابي الصغير: موجز تاريخ الفلسفات الكبرى (باريس، البريس أونيفر سيتير، ١٩٤٢).

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٨	التحويـــــر	التعديل	١٢٤	١٥	المليـــك	اللاكـه
١٨	١ حاشية	إناءً أو كاسا	إناءٌ او كاسٌ	١٢٧	١	الحقيقين	الحقيقيين
٢١	١٠	بدايئيي	بدائيي	١٣٠	١	زاردشت	زرادشت
٢٤	١١	بل هي	بل هو	١٣٩	١٣	ووز	والتميـــز
٢٥	٢	المادة	المانا	١٤٩	٣	بـا	بانـه
٢٥	١٤	باي منهما	باي منها	١٥٢	١٥	Punigue	Punique
٢٨	٦	التضحيرية	التضحوية	١٥٦	١	نتصحفـه	نتصفحه
٢٨	١٠	التشبيه	الشبيه	١٥٨	٩	١٦٦٧	١٦٧٦
٢٩	١٩	أوليسرا هم	أوليست هي	١٦٦	١	أحد مـن	أحـد
٣٠	٩	تلك هي	هو	١٧٦	٣ حاشية	سفـر	نبـــوءة
٣٣	٥	مجزء	مجزءاً	١٧٦	٣ حاشية	إرميـا	إرميا ٢٢،٥
٣٣	١٥	وبقاؤها	ولكن بقاءها	١٧٦	١٥	يهذيـان	بهذيـان
٣٣	٢١	ذمي	يدعى	١٩١	٦	دينية	دينية من أصل
٣٤	١٧	كتابة	كتابه				طوطمي
٤٩	٩	بدءً *	بدءاً	١٩٢	١	hell	hell أي جهنم
٥٦	٥	الأصل	التميز	١٩٣	٩	walkyries	انظر***
٦٠	٦	(Ra أو Ra)	(Re أو Ra)	٢٠١	الأخير	١٨٥٠	١٥٨٠
٦٣	٤	الدى	الذي		حاشية		
٦٣	١٦	الفداء	الغذاء	٢٠٨	١٢	الأولبـي	الأولـب
٧٠	١٤	١،٠٢٨	١٠٢٨	٢١١	الأخير	لبعضهم	بعضهم
٧٦	١٦	يُلقي	يُلفى		حاشية		
٧٧	١٠	لمستوحاة	المستوحاة	٢١٦	الأخير	Porcii	Porci
٧٨	٩	أولدنبرغ	أولدنبرغ	٢٢٣	٥	تطع	تستطيـع
٧٩	١٣	ففيه	فهذه	٢٤١	الأخير	الميسائيـة	الميسيانيـة
٧٩	١٣	كان	كانت	٢٤٣	٦	ولكن بالتصور	بل بالتصـور
٧٩	١٧	وأحوالم	وأحوالها	٢٤٧	١٦	لمسيحي	لمسيحيي
٨٣	١٢	تقييم	تقيم	٢٥٣	٨	مقطع	كمقطع
٨٦	٥	يجهود	بجهود	٢٥٩	١٣	القديسيين	القديسين
٨٨	١٩	السلاسل	السلال	٢٦٤	١٤	زهـورا	زهـوا
٩٤	١	وأعترفتم	واعترفتم	٢٧٣	١٦	الآية ١٧٦	الآيـة ١٧٧
٩٥	٦	أن	إن	٢٧٥	الأخير	فثيمـت	ثيمـث
٩٥	١٢	نقص انظر**	——		حاشيـة		
١٠٦	١٣	بإنجـا	بإنجـاز	٢٧٦	الأخير	الصليبين	الصليبيين
١١٢	١٣	الأوبا ناشيدا	الأوبا نيشاد				
١١٤	٦	تغيير في اللون	من غير أن يتغير لون الإنسان				

* وكذلك في الصفحات (١٥٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦)

** ففي كل صيرورة يكشف تأمل البراهمان عن الوجود ، وفي كل وجود ظاهر يكشف تأمل البوذيين عن الصيرورة.

*** آلهة ترعى المحاربين أثناء القتال .

المحتوى

موجز تاريخ الأديان = Petite histoire des grandes religions / فيلسيان شالي؛ ترجمه عن الفرنسية حافظ الجمالي. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩١. ــ ٣٠٤ ص؛ ٢٥ سم.

١ ــ ٩ر٢٠٠ ش ا ل م ٢ ــ العنوان ٣ ــ العنوان الموازي
٤ ــ شالي ٥ ــ الجمالي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٢٤/١/١٩٩٠ رقم الإصدار ٥١٦

موافقة وزارة الإعلام
رقم : ١٤٥٤٧
بتاريخ : ٢٧/٣/١٩٩١

هــذا الكتـــاب

قلما يكتب الباحثون في بلادنا العربية شيئاً عن تاريخ الأديان، على الرغم من أن هذا الموضوع هام جداً بالنسبة للثقافة العامة، وكذلك بالنسبة للثقافة الشخصية. ولا يعرف الإنسان لماذا يوجد دوماً باحثون غربيون يرحلون ألف رحلة، وينفقون ما شاء الله أن ينفقوا للتعرف إلى كل شيء، بأوثق صورة، وحتى إلى الأديان، على ما في هذا الموضوع، بالنسبة لجميع الناس من حساسية عصبية.

ولقد أردت بهذا الكتاب أن أعرّف القارئ العربي، تعريفاً موجزاً، بما اعتنقه الناس في مختلف العصور من عقائد، وآمنوا به من أديان، وكذلك لأوضح أنه ما من دين إلا وهو قانون للحياة، ناظم للوجود الإنساني، واصلٌ بينه وبين (الألوهية) وما لها من قداسة وسمو ونبل وعظمة، وبالتالي فإن الأديان جملة تتشابه تشابهاً كبيراً جداً، لأنها في الأصل نواظم للحياة الإجتماعية، أو لحياة الناس فيما بينهم. ومتى عرف الإنسان هذا انقطع التعصب وفاض التسامح، وانزاحت المشاعر الطائفية، وحَلَّ محلها شعور متسام دوماً بنزاهة (المقدس) وعليائه، والصلة الحميمة التي تصل الإنسان به من الداخل، وتجعله جزءاً منه.

وأظن أننا في شرقنا العربي، بحاجة دائمة إلى العودة إلى مثل هذه المشاعر الأصيلة والنبيلة، المتجلية في الأديان التي لو لم توجد، لما استطاع الإنسان نفسه أن يوجد أيضاً.